
بول مِركلي
الصهيونية المسيحية
(1891 - 1948 م)
ترجمة: فاضل جتكر
مكتبة المهتدين الإسلامية



الصهيونيّة المسيحيّة
(1891 ـ 1948 م)

الصهيونية المسيحية (1891 – 1948 م)
تأليف: بول مركلي
ترجمة: فاضل جتكر
التدقيق اللغوي: عماد بيازيد
تصميم الغلاف: نبيل المالح
إخراج: محمد غيث الحاج حسين
الطَّبعة الرابعة: (2004)

التوزيع في سوريَة : قَدْمُس للنشر والتوزيع
شارع ميسلون، دار المهندسين (0905)، الفردوس
ص ب (6177)
دمشق، سوريَة
هاتف: (+11 963) 9836 222 برّاق: 7226 224
جوّال: (+94 0 963) 167 517
بريد إلكتروني (cadmus@net.sy)؛ (books@cadmusbooks.net)
التوزيع في محافظة اللاذقية: مكتبة بالميرا
هاتف: (+41 963) 468975

التوزيع في العالم: شركةُ قَدْمُس للنشر والتوزيع (ش م م)
ص ب (6435 / 113)؛ شارع الحمرا ، بناء رسامني
بيروت، لبنان
هاتف : (+1 961) 054 750، برّاق: 053 750
جوّال : (+3 0 961) 512 620؛ 411 722
بريد إلكتروني: (daramwaj@inco.com.lb)

التوزيع في الأردن: الأهلية للنشر والتوزيع
وسط البلد، خلف مطعم القدس؛ ص ب (7772) عمّان 11118، الأردن
هاتف: (+6 962) 8688 463؛ برّاق: 7445 465
بريد إلكتروني: (alahlia@nets.jo)

لقراءة إصدارات الدار على (الإنترنت) انظر: (http://thaqafa.sakhr.com/cadmus/)
انظر أيضًا: (www.nesasy.com /cadmus.html)
لابتياع نسخ إلكترونية من هذا الكتاب، انظر (http: / /www.arabicebook.com)

بول مِركلي

الصِهْيَوْنيَّة المسيحيَّة
(1891 - 1948 م)

ترجمة : فاضل جتكر



المحتـــــوى

ملاحظات عن النص والمراجع

* المادة اللغوية بين قوسين ‹› تشير إلى أنها كتبت كما وردت بلغتها الأصلية.
* المادة اللغوية بين الفواصل المقلوبة " " تعني أنها اعتراض على المحتوي، من الكاتب الأصلي إذا كان النص مقتبسًا، أو من مؤلف الكتاب.
* المادة اللغوية بين الأقواس المزدوجة «» تشير إلى أن النص مقتبس.
* المادة اللغوية بين قوسين منفردين () تشير إلى المصدر الذي اقتبست منه النصوص المقتبسة.
* المادة اللغوية بين قوسين كبيرين [] تشير إلى أنها ليست موجودة في النص الأصلي أو مؤلف الكتاب.
* المادة اللغوية المكتوبة بين '' تشير إلى أنها اقتباس ضمن اقتباس آخر.
* لقد حوى الكتاب الأصلي الكثير من الهوامش، التي تحيل القارئ إلى مراجع أجنبية غير مترجمة إلى اللغة العربية، وهو ما دفعنا إلى عدم تضمينها في نسختنا هذه. ويمكن للقارئ الراغب في الاطلاع عليها ومتابعة البحث استرجاع الملف الخاص بها من موقع الدار على الإنترنت المذكور في الصفحة (2) من هذا الكتاب، أي:

(http / /: www.cadmus-books.com)

وقد تركنا أرقام الهوامش في هذه النسخة كما هي حتى يتمكن القارئ المهتم من متابعتها.

قَدْمُس للنشر والتوزيع

كلمة الناشر

إن قرارَ (قَدْمُس للنشر والتوزيع) نشرَ هذا الكتاب نابع من القناعة بضرورة اطلاع القارئ العربي على جانب مُهِمّ جدًّا من الخلفية التاريخية التي قادت إلى تبني الغرب "البروتستانتي" مشروعَ اغتصاب فِلَسْطِيْن وتحويلها إلى مستعمرة "يهودية"، طالما أهمله البحَّاثَة العرب. ونعني بذلك الجانب العَقَديّ الذي شكل المحرك والمسوغ لذلك المشروع الاستعماري الإمبريالي. فقضية فِلَسْطِيْن، وعلى العكس من غيرها من قضايا التحرر الوطني، تختلف على نحوٍ جوهري عن مثيلاتها التي كانت قائمة في مختلف أرجاء "العالم الثالث".

مكمن ذلك الاختلاف طبيعة فِلَسْطِيْن الإقليم، ونعني بذلك أنها، بنظر الغرب المتعصب، "أرض التوراة" و"أرض الميعاد" وما إلى ذلك من الأسماء والمصطلحات اللاهوتية التوراتية التي عفا عليها الزمن. الغرب الاستعماري نظر، وما يزال، إلى الوجود العربي ليس في فِلَسْطِيْن فحسبُ، وإنما في مختلف أنحاء المشرق العربي (من العراق شرقًا حتى الساحل الشامي غربًا) على أنه حدث طارئ، ويعد العرب غزاة فيه ووجب من ثَمَّ "تصحيح خطأ تاريخي"

عبر طردهم، ونظرة واحدة إلى الكتب المدرسية "الأورُبّية" التي تتعامل مع تاريخ المشرق العربي تؤكد ذلك.

ومع أن الغرب الاستعماريّ ركز عداءه على العربِ المسلمينَ، فإنَّ تقويمه العرب النصارى على نحو عام يرتكز على نظرة عنصرية استعلائية وليس أقل من ذلك، والهمجية الصِهْيَوْنيَّة التي اندلعت مجددًا في الأسابيع القليلة القادمة، وحصار كنيسة المهد في بيت لحم وإطلاق النار عليها ومحاصرة المحتمين بداخلها، وأولاً وقبل كل شيء سكوت الغرب "المسيحي" عن ذلك التصرف ما هو إلا حَلْقَة من سلسلة من الأدلة التي تمتد من حملات الفرنجة إلى يومنا هذا. ألم ينظر فوكوياما صاحب نظرية: نهاية التاريخ، أي: انتصار المُثُل "الغربية" على غيرها من الأخلاق، إلى التحول الجاري في أمريكا اللاتينية من الكاثوليكية إلى المذهب البروتستانتي على أنه «ذو تأثير حميد في قضايا التنمية الاقتصادية وغيرها..» (وجهات نظر 4/ 36: 12).

انطلاقًا مما سبق فإن هذا الكتاب، وعلى العكس من الانطباع الذي قد يتولد عند بعض بسبب انتماء المؤلف العَقَدِي، ليس تأريخًا لنمو الصِهْيَوْنيَّة في بريطانيا والولايات المتحدة، وإنما أرضية لإدراك الجانب العَقَديّ من المعركة التي يخوضها، ليس العرب، مسلمين ومسيحيين، فحسبُ، وإنما كل شعوب "العالم الثالث" إزاءَ: نهاية التاريخ. ولنتذكر كلمات جورج بوش الصغير: إنها حرب صليبية. ونحن على قناعة بأنه لم يعنِ ذلك تحديدًا وإنما أبعد من ذلك بكثير. برأينا أنه قصد القول: حربًا مقدسةَ، بالطبع على كل صاحب معتقد مخالف له.

إن إهمال المفكرين العرب ذلك الجانب العَقَدِي من الصراع الذي أجبرت أمتهم على خوضه، كان، برأينا، أحد الأسباب الرئيسة التي أوصلتنا جميعًا إلى وضعنا الحالي الذي: «لا يسُر صديقًا ولا يغيظ عِدًى». مع ذلك، نود التشديد

على ضرورة عدِّ هذا المؤلَّف دليلاً تاريخيًا في المقام الأول، ونبذ أيِّ فكرة (رد فِعل) قد تدور في أذهان بعضٍ.

سيكون بإمكان العرب الخروج من دائرة المهانة والإذلال التي يلابسُونها الآن، فقط عندما يفهمون أنفسهم ومكانهم في هذا العالم، ويستوعبونَ طبيعة عدوهم وجوهره على نحو علمي عميق، ويتعاملونَ مع الأشياء من منطلق الفِعل وليس ردة الفعل. والدار تعدُّ هذا الكتاب إسهامًا منها في استكشاف ذلك الطريق الطويل الملآنِ بالأخطار العِظَام.

قَدْمُس للنشر والتوزيع

مقدمة الطبعة الثالثة

هذا الكتاب يفتح نافذة صغيرة في آفاق القارئ العربي ليشرح لنا كيفية نشوء الصهيونية اليهودية كحركة سياسية، ويصحب هذا القارئ إلى الكشف عن الكثير من أسرار هذه الحركة وعملها المتداخل والدؤوب مع الملوك والأباطرة والوزراء والحكام والمتنفذين ورجال الدين في الغرب مستغلة كل الظروف المتاحة والضاغطة لإيهام هذا الغرب وإقناعه بأن عودة اليهود إلى فلسطين وتأسيس دولة لهم هناك على حساب الشعب الفلسطيني وشعوب المنطقة العربية هو حق طبيعي لليهود، غير آبهة بالتاريخ والواقع والمنطق، متجاهلة القيم الإنسانية والأخلاقية، ساعية إلى تحقيق حلمها في خلق دولة إسرائيل ولو على أشلاء الأطفال والنساء والشيوخ، وتهديم الحجر على رؤوس البشر، متخطية الشرعية الدولية وحقوق الإنسان ومبادئ الأمم الحرة والقيم الديمقراطية والدينية والإنسانية، متغاضية عن مبادئ الشمولية الإنسانية بأكملها، مستغلة عطف ومساندة بعض أفراد الطوائف البروتستانتية ولاسيما الأميركيين منهم، مستفيدة من الحرية الكاملة المتاحة لها في العالم

الغربي عامة والولايات المتحدة الأميريكية خاصة، لتتمرد على كل الأحكام الدولية وقوانين الأمم الحرة، ولتفرض القيود على حرية وتفكير الآخرين بسبب السيطرة الواسعة التي تمارسها على وسائل الإعلام التي تمتلك القسم الأكبر منها. وهذا يذكرنا بقول بول هوفمان "إن القيود على الحرية والتفكير وكثير من المشاكل الاعتراضية، يمكن أن يتم التأثير عليها على أكمل صورة على يدي منظمة تملك الحرية التامة".

لكن الملفت للانتباه هو عنوانه "الصهيونية المسيحية" مما يجعل البعض يتساءل وأنا منهم أين هذه الصهيونية المسيحية ؟ فهنا يقتضي منا أن نوضح بعض الأمور حتى لا نقع في المحظور، ويؤخذ المظلوم بجريرة الظالم. أو كما قال الإمام الأوزاعي في رسالته إلى الخليفة العباسي بعد ثورة المنيطرة في لبنان "لاتؤخذ عامة بذنوب خاصة".

فهذا الكتاب ليس موجهًا ضد المسيحية ولا يضعها في قفص الاتهام. فهذا بعيد كل البعد عن الغاية التي تسعى إليها دار قَدْمُس من ترجمة هذا الكتاب ونشره. وقد تم شرح ذلك وإيضاحه في بداية المقدمة، إنما من الواجب أن نوضح للقارئ في هذه المقدمة ما هي المسيحية ؟ وما هي نظرتها إلى الإنسان ؟ وما هو موقفها من اليهودية التلمودية الصهيونية، وموقف هذه اليهودية والصهيونية منها.

لقد حاولت اليهودية التلمودية ولا تزال تحاول طمس المسيحية والقضاء عليها وخنقها منذ نشأتها وحتى يومنا هذا. فقد اضطهدت المسيح وحكمت عليه بالصلب والموت، ثم طاردت الرسل والمبشرين المسيحيين إضافة إلى الراهبات والرهبان وأقربها إلى الذاكرة طرد راهبات أقرت وكفر برعم من فلسطين في سبعينيات القرن العشرين ومصادرة ممتلكاتهم وأديارهم، ثم محاصرة كنيسة القيامة في مطلع هذا القرن.

فهذا الكتاب الذي يُبرز دعم بعض أفراد الطوائف المسيحية البروتستانتية للصهيونية وللكيان الاسرائيلي، بنظرنا تجاهل دور المسيحية والمسيحيين بجميع طوائفهم الكاثوليكية والأرثوذكسية والأغلبية البروتستانتية في دعم القضية الفلسطينية، فهؤلاء الأفراد ليسوا المسيحية بأكملها. فهم كما قلنا من أتباع بعض الطوائف والشيع البروتستانتية والتي يزيد عددها على الألف طائفة في الولايات المتحدة الأميريكية وحدها. وقد يكون هذا الدعم إما بدافع مادي استهلاكي، أو اقتصادي، أو سياسي، وأحيانًا كتابي.

فالعنوان يجعل القارئ يظن للوهلة الأولى أن جميع المسيحيين صهيونيون. في حين أن المسيحية ليست هذا أبدًا، وهي بعيدة كل البعد عن الصهيونية كما أنها تتنافى قطعًا مع اليهودية. فالمسيحية هي إنجيل المسيح وأعمال الرسل كما هو الإسلام القرآن الكريم والسنة يضاف إلى ذلك أن دار قَدْمُس لا تقصد هذا أبدًا من نشرها هذا الكتاب.

فالمسيحية بمفهومها ومبادئها هي شمولية وإلى جميع البشر، وليست إلى شعب معين أو عرق معين، فهي محبة وتضحية ورجاء ودعوة إلى السلام والمساواة. فالعدائية غير موجودة في المسيحية، فهي دعوة إلى الحرية والديمقراطية الداخلية في ذات الإنسان والخير المطلق لكل شعوب الأرض، تنفي الخوف، وتصر على العطاء، إعطاء الإنسان الأمل والرجاء والفرح. في حين اليهودية الصهيونية هي مجموعة مصالح لشعب معين اختار نفسه ليكون شعب الله المختار، كما أنها حركة عنصرية تسعى إلى هدم المسيحية، وتعتبر الله خادم الشعب اليهودي، في حين ترى المسيحية أن الله من الأزل وإلى الأزل، والإنسان ولد في مرحلة معينة ويستمر في الروح مع الله إلى الأزل.

ومن ناحية ثانية ترى أن الكنيسة الكاثوليكية والأرثوذكسية إضافة إلى كل الكنائس الشرقية لم تعترف بإسرائيل كدولة عنصرية قائمة بذاتها ولا بالقدس

عاصمة لإسرائيل رغم كل الضغوطات التي مُورست عليها، وكل الإغراءات التي قُدمت لها. ولو عدنا إلى المسيحيين ودفاعهم عن القضية الفلسطينية لوجدناهم رأس الحربة في هذا المضمار. وحتى لا نبتعد في الجغرافيا والذاكرة، وعلى سبيل المثال لا الحصر.

نرى رئيس الجمهورية اللبنانية سليمان فرنجية الماروني يترأس وفدًا من جميع الطوائف المسيحية والإسلامية ويذهب في أوائل السبيعينيات ليدافع عن الحق المشروع لشعب فلسطين في أرضه ضد الهجمة والاستيطان الصهيوني، متحديًا كل الضغوطات من الصهيونية والأميريكية ومحاولة الإذلال التي تعرض لها أثناء تفتيش حقائبه في نيويورك. إضافة إلى شارل مالك الأرثوذكسي ودفاعه المستميت عن القضية الفلسطينية أثناء ولادة الدولة اليهودية وبعدها، إلى شارل حلو الماروني وميشال شيحا الكاثوليكي في كتابه باللغة الفرنسية "Palestine فلسطين" وأنطون سعادة الأرثوذكسي في مبادئه وكتبه، فارس الخوري البروتستانتي ومواقفه في الأمم المتحدة وخارجها، وقبلهم خليل سعادة وقبل أن تولد إسرائيل وغيرهم من المفكرين والباحثين والمسؤولين المسيحيين على جميع الأصعدة ومن جميع الطوائف.

والمجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني يؤكد أن المسيحية تخاطب كل البشر وهي في خدمة الإنسان، إذ تعتبر العائلة البشرية جميعها هي شعب الله، وتدعو إلى كرامة الإنسان الشخصية وتحكيم الضمير، وعلى المسيحيين أمانة لضميرهم أن يبحثوا باتحاد مع سائر الناس عن الحقيقة والحل العادل لكل المشاكل البشرية، وعلى الإنسان أن يتجه نحو الخير بملء حريته، لأن هذه الحرية الحقيقية في الإنسان علامة مميزة عن صورة الله فيه، وأن الحوار الأخوي بين البشر لا يكتمل إلا بالاحترام المتبادل، كما أن الكنيسة تحترم وتحب كل الذين يفكرون ويعملون بطريقة مغايرة للمسيحية شرط أن لا يقودنا هذا الحب إلى اللامبالاة في ما يتعلق بالحق والخير، ولذا تنادي بحقوق البشر.

وبالنسبة للكنيسة ودائماً حسب المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، إن مهمة الكنيسة وصلاحياتها لا تختلط بحال من الأحوال بالجماعة السياسية ولا ترتبط بأي نظام سياسي. فالسلام ليس مجرد انعدام الحرب، كما أنه لا يقتصر فقط على تأمين التوازن بين القوى المتخاصمة و لايأتي أيضًا عن سيطرة استبدادية إنما هو ثمرة نظام رسمه الله في المجتمع الإنساني، لا يتحقق إلا بعمل العدل و لا يستتب دون الحفاظ على خير الأشخاص. وإن كل عمل حربي يهدف دونما تمييز إلى هدم مدن بكاملها أو بيوت أو مناطق واسعة بما فيها من سكان هو عمل إجرامي، وهو ضد الله وضد الإنسان.

أما بالنسبة إلى الإسلام فتنظر الكنيسة إلى المسلمين بعين الاعتبار والاحترام لأنهم يعبدون الإله الواحد الحي القيوم الرحيم خالق السماء والأرض المكلم البشر. فالإسلام يُجل المسيح كنبي وأن لم يعترف به كإله، ويُكرم أمه العذراء. وإذا كانت قد نشأت على مر القرون منازعات وعداوات كثيرة بين المسيحيين والمسلمين. فالمجمع المقدس يحض الجميع على أن يتناسوا الماضي وينصرفوا إلى التفاهم المتبادل، ويصونوا ويعززوا معًا العدالة الاجتماعية والخيارات الأخلاقية والسلام والحرية لفائدة جميع الناس.

وهذا الكتاب الذي نقدم له رغم كل الملاحظات الواردة في المقدمة أعلاه نعتبر أنه أسدى خدمة كبيرة إلى المكتبة العالمية عامة. في حين أن دار قَدْمُس بنشرها هذا الكتاب مترجمًا إلى اللغة العربية تكون قد فتحت مجالاً للقارئ العربي لمزيد من الإطلاع على غاية اليهود والصهيونيين وأنصارهم في دعم إسرائيل والحفاظ عليها وتأييدها في حربها على العرب الفلسطينيين وإبداتهم دون تفرقة لا في الدين ولا في الجنس، فهي لا نوفر المسيحيين والمسلمين على السواء.

هذا الكتاب "الصهيونية المسيحية" جدير بالقراء وجدير بالحفظ في كل مكتبة لأنه ضرورة حيوية للقارئ والمثقف العربي. مع العلم أننا كنا نتمنى

أن يكون العنوان "البروتستانتية الأميركية والصهيونية". أما الآن فقد اقتضى التوضيح. فشكرًا لدار قَدْمُس على هذا العمل.

موسى مخول
أستاذ سابق في كلية اللاهوت
في الجامعة الأنطونية / بعبدا - لبنان/
بيروت 5 شباط / فبراير 2003 م /

كلمة شكر

يعود اهتمامي بهذه الأطروحة إلى تجربة إقامتي مع زوجي وأولادي الأربعة في القدس خلال الأشهر الأربعة الأولى من عام (1981 م) حين كنت أستاذًا زائرًا في قسمي الدراسات الدينية والدراسات الأمريكية في الجامعة العبرية. أمَّا الدعمُ الماليُّ اللازمُ لتلك المرحلة فوفَّرَتْهُ (المؤسسة الكندية الإسرائيلية / Canada–Israel Foundation Studies) وجامِعَتِي جامعة كارلتون، أُتُوُا (Carleton University Ottawa). لقد عدت عددًا من المرات منذ ذلك الوقت. ففي عام (1992 م) قام (صندوق كندا – إسرائيل/ Canada–Israel Foundation) وقسم الدراسات العليا والبحوث بدعمي مرة أخرى حيث سلخت مدة شهرين عاكفًا على العمل في (المحفوظات الصهْيَوْنيَّة المركزية / Archives Zionist Central) في القدس، وأنا شديد الشُّكر لذلك. أما زياراتي البحثية لـ(الجمعية التاريخية اليهودية / Jewish Historical Society) في والتهام بولاية مستشوستس، و(المحفوظات والمكتبة الصِهْيَوْنيّتين / Zionist Archives and Library) في نيويورك، مكتبة فْرَنكلِن دِلانو روزفلت (Franklin

Delano Roosevelt Library) في هايدبارك، ومكتبة هَرِي ترومان (Harry S. Truman Library) في إنديبندنس، ميسوري. فقد دعمتها جامعتي مرة أخرى، كما دعمتها منحة حكومية أمريكية للبحوث تحت إشراف سفارة الولايات المتحدة هنا في أتُوا. لقد حصلت على مساعدات سخية عبر الهاتف من (مكتبة هارفارد للقانون/ Harvard Law Library) التي لم أزرها. أصبحت مقتنعًا بوجود مستوى رفيع جدًا من الكفاءة، واللباقة، والإرادة الطيبة لدى العاملين في المكتبة والمحفوظات، وأنا مدين بتقديم الشكر لجميع الذين ساعدوني غير أنني أعتقد، مع ذلك، أن من واجبي أن أضيف صوتي إلى أصوات جوقة ([دارسي ترومان] Truman Scholar) ممن سيقولون: إن فضل الكفاءة الشاملة والمودة المشهودة للغرب الأوسط يعود كله إلى مكتبة هَرِي ترومان.

أريد أيضًا أن أوجه الشكر إلى (المعهد الكندي للفكر الصهْيَوْني / The Canadian Seminar on Zionist Thought) وخصوصًا إلى الأستاذ مايكل براون (Professor Michael Brown) من جامعة يورك، على دعوته لي لتقديم عملي في مونتريال وتورنتو، في تِشْرِين الثاني/ نوفمبر (1992 م).

وأنا شاكرٌ سواءٌ على المناقشة القيمة أم على المساعدة في قراءة أجزاء من مادتي المبكرة لكل من الدكتور: كارل هيرمن فوس (Dr. Carl Herman Voss) والأستاذ: ياكوف آرييل (Professor Yaakov Ariel) من الجامعة العبرية سابقًا، جامعة كارولينا الشمالية [تشبل هيل/ Chapel Hill] حاليًا) ديفِد بيلغّي (David Pileggi) وكفن كرمبي (Kevin Crombie) (كلاهما مرتبط بالكنيسة [الأنغليكانية] Anglican Church للمسيح في القدس) زميلي الأستاذ: راي جونز (Professor Ray Jones) وتشارلز براون (Charles Brown) في ([راينهولد نيبور] Reinhold Niebuhr). يان فلم فان در هوفن (Jan Willem van der Hoeven) وستان غود إنف (Stan Goodenough) من السفارة المسيحيَّة الدولية في القدس، وميريام وهالفور رونينغ (Miriam and Halvor Rornning)

من المعهد الأمريكي لدراسات الأرض المقدسة، القدس.

خلال زيارتي الأخيرةِ القدسَ أقمت في نزل (بيت ضيافة) القديس أندروز (Andrews. St) (كنيسة اسكتلندة) حيث استمتع على الدوام بصحبة القس كولن مورتون (Colin Morton) وكارول مورتون (Carol Morton) وألكسيس دراغ (Alexis Drag) وجهاز العاملين الكريم. وعلى المرافقة خلال زيارتي في عام (1992 م) أشكر جون زمبا (John Zemba) ورِتشارد ماترزدورف (Richard Mattersdroff) على نحوٍ خاص جدًا.

ثمة آيات خاصة من الشكر هي من حق هلغا وماتي جاكيمانن (Helga and Matti Jaakkimainen) وأولاً وأخيرًا، وقبل كل شيء وفوقه أشكر زوجي غوين (Gwen). ففي بداية زواجنا شاطرتني حياة الشُّح خلال سني دراستي العليا، وفي السنوات الأخيرة قدمت الكثير من التضحيات ذات النوعية المختلفة لتمكنني من القيام برحلاتي البحثية الميدانية الكثيرة. ما كنت لأستطيع تجاوز هذا كله لولا إخلاصُهَا. يمكن العثور على المزيد من التفاصيل في سفر الأمثال (31: 10-31).



1) «ها أَنَذَا»:
نموذج ثنائي هِرتْسِل/ هِتشلر

1 . 1) تيودور هِرتْسِل ووليم هِتشلر

1 . 1 . 1) وليم هِتشلر يزور تيودور هِرتْسِل في العاشر من آذار/ مارس عام (1896 م)

بعد بضعة أيام من ظهور النسخ الأولى من كتاب تيودور هِرتْسِل (Theodor Herzl) «دولة اليهود / Der Judenstaat» في واجهات مكتبة ([برايتنشتاين] Breitenstein) الفيّنيّة، مر بالمكان قسيس بريطاني يدعى وليم هنري هِتشلر (William Henry Hechler). وبعيد ذلك، في العاشر من آذار/ مارس (1896 م) قدم نفسه في مكتب هِرتْسِل.

وبعد سنوات كانت مذكرات هِتشلر الخاصة تقول: إنه بدأ الحوار معلنًا: «ها أَنَذَا!» فرد عليه هِرتْسِل قائلاً: «يمكنني أن أرى ذلك. ولكن من أنت؟» وجاء رد هِتشلر على النحو التالي: «ستصاب بالحَيرَة إذا علمت أنني تنبأت منذ زمن طويل يعود إلى عام (1882 م) بمجيئك إلى أمير بادن. وها أَنَذَا الآن مقبل على مساعدتك».

ذلك هو اللقاء الأول بين الصِهْيَوْنيَّة (الهِرتْسِليَّة) الرسمية من جهة والصِهْيَوْنيَّة المسيحيَّة (Christian Zionism) من الجهة المقابلة. والعاشر من آذار/ مارس (1896 م) هو الزمان، والموقع (مكتب تيودور هِرتْسِل) هو المكان، وهذان الشخصان هما بطلا ذلك اللقاء الأول. وقام كل منهما أخيرًا بتأليف كُرَّاس إذ صدر لتيودور هِرتْسِل كتيب ‹دولة اليهود› عام (1896 م) وصدر لوليم هِتشلر كتيب ‹[إعادة اليهود إلى فِلَسْطِيْن طبقًا للنبوءة] / Die Bevorstehende Rueckkehr der Juden nach Palaestina› عام (1882 م)[1].

2.1.1) تيودور هِرتْسِل في عام (1896 م)

لو أن ذلك المشهد حصل في حقيقة الأمر قبل بضعة أشهر لربما أرعب تيودور هِرتْسِل رعبًا شديدًا يكاد أن يوصله إلى الموت. أما في ذلك اليوم فقد أحسّ هِرتْسِل أولاً بفورة من النشوة بدأ بعدها مباشَرة يفكر بالأسلوب الذي يمكن اعتماده للإفادة من هذا الرجل الغريب لمصلحة عمله.

دأب هِرتْسِل على الدوام في الإيمان بأنه رجل حديث من قمة الرأس إلى أخمص القدمين، مفعمٌ بالاحترامِ لسلطة العلوم النهائية. كان يعلم أن ما اقترحه في ‹دولة اليهود› كان حلاً معقولاً تمامًا، لا بل حلاً علميًا للمسألة اليهودية. صحيح أن الأمر تطلب جهدًا فكريًا بطوليًا، لكن ذلك جعله [المشروع] أكثر علمية، وليس أقل منها. ففي أثناء التخطيط للمشروع وأدائِهِ لابَسَ نشوةً من نوعية مختلفة كليًا عن تلك التي عرفها لدى التفكير بأعمالَه الأدبية، ومقالاته ومسرحياته، وإنجازها. كانت حالتا النشوة والفزع تتناوبان عليه جراء ما كان يحدث له. وفي إحدى لحظات البهجة المفرطة قال لنفسه: «أعتقد أن الحياة قد انتهت بالنسبة إليّ وأن تاريخ العالم قد بدأ».

ونحن نعرف تفاصيل هذا كله لأن هِرتْسِل بدأ كتابة مذكرات وقفت حصرًا

لتسجيل أفكاره وأفعاله وهو يسعى إلى الهدف المتمثل بالدولة الصِهْيَوْنية. كان العنوان الذي ثبته على الصفحة الأولى هو: ‹[الكتاب الأول عن القضية اليهودية، بدأته في باريس زُهَاء عيد الحصاد عام (1895 م)] / Book One of the Jewish Cause began in Paris around the Pentacost 1895›. وقد افتتح هِرتْسِل هذه المذكرات بالجملة التالية: «لقد كنتُ مشغولاً منذ بعض الوقت بمهمة ذات شأن غير محدود».

كان متأكدًا من أن المسألة لم تكن تجربة باطنية قَطُّ. فقد آمن بأنه فاق الجميع في التفكير الصارم بالقوى السياسية والأخلاقية الفاعلة في العالم، ليصل بعد ذلك إلى اتّباع هذه الرؤى ولا سيَّما في وضع اليهود الذي هو مشكلة العصر الأصعب على الصعيدين الأخلاقي والسياسي. كان ذلك ما شجعه على لقاء رجال مثل المحسن اليهودي البارون موريس دو هيرش (Baron Maurice de Hirsch) رئيس (رابطة الاستيطان اليهودية/ Jewish Colonization Association) الذي أبلغه صراحة وجهًا لوجه قبل بضعة أشهر من إنجاز كُرَّاسه أنَّ عليه أن يصرف النظر عن خططه الرامية إلى توطين يهود أورُبَّة في أماكن مثل الأرجنتين ويوجه جميع موارده نحوِ دعم بَرْنَامَج هِرتْسِل. وإلى شخصية أخرى كتب هِرتْسِل بعد بضعة أيام قائلاً: «إنه كان مؤخرًا يفكر كثيرًا بسافونارولا (Savonarola)». نعم كان هو نفسه شديد الشبه بسافونارولا كما وصفه الشاعر ليناو (Lenau) حين قال: «يتألق البرق وأنا فارس الرب. سيبقى الرابط المقدس صامدًا إلى الأبد».

إذا قدرنا أن هذه اللهجة زرعت الرعب في قلوب محاوريه، فإننا نعلم أنها أخافت تيودور هِرتْسِل نفسه أكثر. فقد اعترف في مذكراته قائلاً: «كثيرًا ما خشيت أن أصاب بالجنون في تلك الأيام القليلة الماضية». وفي حَزيْرَان/ يونيو عام (1895 م) جلس صحفي مثله، ولكنه طبيب أيضًا، يدعى فريدريش شِف (Friedrich Schiff) مدهوشًا في حين كان هِرتْسِل يقرأ له مُسَوَّدَة

«[رسالة موجهة إلى آل روتشيلد] / Address to the Rothschilds» فبادر الصحفي الطبيب، وهو يبكي، إلى حثه على إحراق الرسالة والتماس المساعدة الطبية فورًا.

وكذلك فإن قُرَّاء كُرَّاس ‹دولة اليهود› المنجزة لم يعرفوا شيئًا عن الأوهام التي كانت تشغل هِرتْسِل خلال الأسابيع التي سَلَخَهَا وهو يكتب مُسَوَّدَة النص:

> **أولاً سأتفاوض مع القيصر 'الذي سيعرِّفني إليه سيدنا أمير ويلز' حول السماح لليهود الروس بمغادرة البلاد. سيعطيني وعده الملكي الذي سيتم نشره في الجريدة الرسمية.. وبعد ذلك سأتفاوض مع قيصر ألمانيا. وبعد ذلك مع النمسا. ومن ثم مع فرنسا، فيما يخص يهود الجزائر. وبعد ذلك حسب الحاجة.**

وفي هذه الأثناء يَتَحَتَّم عليه أن يعد الشعب اليهودي للخروج تبعًا لتوجيهاته الخاصة:

> **يَتَحَتَّم عليَّ خلال السنوات العشرين، 'قبل أن يصبح الأمر معروفًا' أن أدرب الفتية على أن يكونوا جنودًا.. ولعلَّ العلاقةَ بين ‹[مسرحية آلام المسيح]/ Shrovetide› لهنز زكس (Hans Sachs) وإحدى مقطوعات الأوبرا لفاغنر (Wagner) هي العلاقة نفسهابين الخروج تحت قيادة موسى وبين هذا المشروع».**

ولا بدَّ من وجود هيكل:

> **سيَتَحَتَّم على كبار الأساقفة أن يرتدوا أثوابًا لافتة للنظر، وعلى فرساننا أن يرتدوا سَرَاوِيْلات صفراءَ وستراتٍ بيضاءَ، وعلى ضباطنا أن يزينوا صدورهم بلوحاتٍ فضية.**

سنكون بحاجة إلى دستور:

قد نجعل الدستور شبيهًا بدستور البندقية فنستفيد من تجاربها السلبية عن طريق تفاديها.. سيكون الشيخ الأول أبي.. وحين فكرت بأن من الممكن أن أقوم ذاتَ يومٍ بتتويج هَنْز [ابنه] أميرًا وبمخاطبته في الهيكل أمام عظماء البلاد قائلا: 'صاحب السمو ولدي المحبوب !' اغرورقت عيناي بالدموع.

هل تكون الإجابة عن الأسئلة الدائرة حول معقولية المشروع وصحة صاحبه العقلية أسهل علينا نحن حقًّا مما كانت على معاصري هِرتْسِل؟ ومن المعلوم بالنسبة إلينا، وإن لم يكن بالنسبة إليهم، أن دولة يهودية قد أصبحت موجودة، فهل يمكنُ شيئًا أن يصبح موجودًا وقد كان غير قابل للتصور؟ وما دامَ قابلاً للتصور أفَلَمْ يكنْ معقولاً بالتحديد ؟

1 . 1 . 3) تيودور هِرتْسِل قبل عام (1896 م)

هل انطوى هذا كله على معنى ديني؟ لم يَرَ الأمر كذلك. لم يكن 'متدينًا' قَطُّ بمعاييره نفسِه أو بمعايير الآخرين. فبعد أن ولد في بودابست في الثاني من أيار/ مايو عام (1860 م) تم ختانه في يومه الثامن وحصل على الاسم اليهودي زئيف (Zeev) والاسم الهنغاري تيفادور (Tivadar) والاسم الألماني فولف تيودور (Wolf Theodor). أما والد تيودور جاكوب (Jakob) فكان سليلاً مباشَرًا لأسرة أرثوذكسية [أي: متدينة] أسرة باعة جَوَّالِين. وأصبح، وهو الذي بدأ حياته دون أيّ امتيازات، تاجرًا ثريًا ورئيس أحد البنوك. كانت أسرة ذائبة تمامًا في البوتقة وفخورة بطلاقتها في اللغة الألمانية، باطِّلاعها الأدبي وبرعايتها الفنون. كان كنيس شارع دوهاني (Dohany Street) المشاد حديثًا، وهو مؤسسة إصلاحية، معبدَ أفراد عائلة هِرتْسِل (في الحقيقة كانت تعيش في منزل مجاور للكنيس). وهنا احتفلت الأسرة في الثالث من أيار/ مايو عام (1873 م) بيوم بلوغ الصبي الثالثة عشرة من العمر. وفيما عدا تلك المناسبة

كانت عائلة تيودور اللامبالية دينيًا اصطحبته إلى الكنيس أيام السبت بين الحين والآخر. ولكنه لدى قيامه بكتابة (دولة اليهود) لم يكن حضر الصلاة منذ سنوات. أما المرحلة الأبكر من تعليمه، إلى أن بلغ العاشرة من عمره، فقد تمت في مدرسة للأطفال اليهود كانت تقدم قدرًا متواضعًا من التعليم الديني. وفي مذكراته أَصَرَّ دومًا أنه كان يكره مثل هذا التعليم. وفيما بعدُ لم يذهب إلا إلى مدارس علمانية.

قبيل موته قام هِرتْسِل بإبلاغ روبن بْرَاينِن (Reuben Brainin) عن حلم رآه وهو فتى في الثانيةَ عشرةَ، ظهر فيه المسيح له:

> **أخذني بين ذراعيه وحلق بي على أجنحة السماء. وفوق إحدى السحب ذات الألوان القزحية التقينا.. موسى. 'كانت تقاطيعه شبيهة بتقاطيع تمثال مايكل آنجلو'.. ثم نادى المسيح موسى قائلاً: 'لقد صليتُ من أجل هذا الفتى !.. هيا أعلن لليهود أنني قادم قريبًا وعازم على إنجاز أعمال عظيمة ومدهشة لمصلحة شعبي ولمصلحة الجنس البشري !' احتفظت بهذا الحلم لنفسي ولم أجرؤ على البوح به لأحد.**

هل بات، إذن، يؤمن بالمسيح المخلص ؟ وإذا فعل فإنه لم يعترف بذلك صراحة. لقد افترض (كما قال لبْرَاينِن) أنَّ مسيح حلمه كان يمثل شيئًا آخرَ، ربما كان يمثل العلوم والتقنية الحديثة التي كانت تقوم حقًّا بإنقاذ الجنس البشري! «وعندئذ وهناك بالذات قررت أن أصير مهندسًا عظيماً»[2].

في عام (1878 م) انتقلت العائلة إلى فيينا حيث واظب تيودور على دراسته في مدرسة القانون بجامعة المدينة. وهناك ما لبث أن اهتدى إلى كتلة طالبية مُهَوَّسة بروح القومية الألمانية المتطرفة الجديدة. وقد تزامن مع هذه الروح تيارٌ شعبي معادٍ للسامية أفضى، فيما أفضى إليه، إلى تشكيل حزب سياسي معاد للسامية هو (الحزب الاجتماعي المسيحي/ Chrisitan Social Party) الذي صار زعيمه، كارل لويغر (Karl Lueger) رئيس بلدية المدينة في مرحلة لاحقة.

ومن الأمور المثيرة، في ضوء كل ما كان سيتبع، كيف بقي هِرتْسِل خلال سنوات الدراسة تلك غافلاً عن نزعة (معاداة السامية) الجديدة. فقد بذل جهدًا بطوليًا في سبيل الحصول على الاعتراف بأنه ألماني، إلى درجة الانتساب إلى (أخوية مبارزة / duelling fraternity) منقلبًا إلى ما يشبه الصورة الكاريكاتيريَّة لنمط الشاب الألماني المتميز، ولكنه ما لبث، مع كل تلك الجهود، أن اضطُرَّ إلى أن يتخذ موقفًا. فحين بادرت أخويته إلى الارتباط بجمعية معادية للسامية جرى تنظيمها حديثًا اضطُرَّ إلى الاستقالة. وفي كتاب الاستقالة ذلك تحدث بأسى عن معاداة السامية بصفتها «موجةَ العصر الرجعية» ويبين أنه يبقى مصممًا على عدم إحراق جسر التضامن الذي يربطه بالشبيه الألمانية: «لأن سجلي، في حدود ما أعلم، لا يتضمن أي شيء شائن، أبقى معولاً على طرد مشرف»[3].

وفيما بعد طُلب منه عام (1893 م) أن يدعم ([جمعية محاربة معاداة السامية في فيينا] Society to Combat Anti-Semitism in Vienna) أُسِّسَت حديثًا (ضمت في عضويتها بالمناسبة شخصيات مسيحية ويهودية أيضًا). لكنه رفض قائلاً في رسالته الجوابية: إنَّ من شأن «بضع مبارزات» أن تسارع إلى إخماد جلبة القلة من المشاغبين المعادين للسامية، «بما سيؤدي إلى رفع مكانة اليهود الاجتماعية على نحو كبير». وفي الوقت نفسه «سيَتَحَتَّم على اليهود أن يتحرروا من تلك السمات الَّتي تجعلهم جديرين بالانتقاد». ويتابع كلامه ليقول: إنَّ من شأن انتحال المسيحية أن يشكل الحل الأمثل الشامل. لم تكن هذه فكرة طائشة. لقد بقي، بالفعل، حتى عشية تحوله إلى انتحال الصِهْيَوْنيَّة، داعيةً متحمسًا للاندماج والذوبان. فقد كتب عام (1882 م): «إن تزاوج الأعراق الغربية مع نظيرتها المعروفة باسم الشرقية على أساس دين مشترك للدولة هو المطلوب، إنه الحل العظيم»[4].

وبعد تخرجه في مدرسة القانون بوقت غير طويل، أوضح هِرتْسِل أن

طموحاته لم تكن ذات علاقة بممارسة القانون، الذي بات حاصلاً على شهادة الدكتوراة فيه. لقد كان عازمًا على أن يصبح وبأسرع وقت ممكن كاتب مقالات وكاتب مسرحيات شهيرًا وبالغ الغنى والثراء في الوقت نفسه. وللتدرب على كتابة المقالات أصبح صحفيًا في برلين أولاً وفي فيينا فيما بعد. ومع حلول عام (1889 م) أصبح الناقد (الدرامي) لصحيفة ‹[فينر ألغماينة تسايتونغ] Wiener Allgemeine Zeitung› ومؤلف مجموعتي مقالات وثلاث مسرحيات جرى تمثيلها في كل من برلين وفيّينا وبراغ، بل حتى في نيويورك. أما فيما يخص طموحه الثاني المتمثل بأن يصبح ثريًا فقد تزوَّج بوارثة وبات مسؤولاً عن كل تركتها التي وظفها لدعم عمله الأدبي وسدِّ نفقات أسفاره. (وفيما بعد أنفق الباقي على نشاطه الصِهْيَوْني الذي كانت [زوجه] تحتقره).

وبعد سنوات كثيرة علَّق الحاخام الأمريكي أبا هِلل سلفر (Abba Hillel Silver) بحكمة قائلاً: «جاء هِرتْسِل إلى اليهودية عن طريق معاداة السامية لا من خلال الديانة اليهودية»[5]. لقد تفجرت قضية درايفوس (Dreyfus) في حينَ كان هِرتْسِل مراسل صحيفة ‹[نويه فرايه برسه] Neue Freie Presse› الفييّنيّة في باريس. كان في المحكمة حين تمت إدانة درايفوس في الخامس من كانون الثاني/ يناير عام (1895 م) وفي باحة ([المدرسة العسكرية] Ecole Militaire) ليكون شاهدًا على احتفال الإذلال الشعبي للنقيب درايفوس اليهودي الوحيد في هيئة الأركان العامة للجيش الفرنسي.

ظهر لتيودور هِرتْسِل أنَّ نجاح الاندماج اليهودي بالذات كان الدافع وراء نزعة معاداة السامية الجديدة. فتلبية دعوة نابليون وورثته الروحيين المتمثلة بترك (الغيتو) والانخراط في التيار الرئيس للحياة، وبالسعي إلى التحول إلى مواطنين والاختفاء عرقًا مختلفًا، قطع اليهود، انطلاقًا من أفضل أشكال حسن النية، أشواطًا عملاقة على تلك الطريق. ومع ذلك ما إن يحدث خلل ما في الأمور، وما إن تخفق البنوك أو تكسد التجارة أو تبالغ أسعار المنتجات

الزراعية في الارتفاع أو الهبوط، حتى تظهر أفكار مزعجة في الأدب، أو في الميدان السياسي، أو ما إن تظهر مشاهد مزعجة على خشبات المسارح، حتى يسارع الناس إلى الاستنتاج القائل: إنَّ هناك أيديًا خفيّة وراء ذلك كله. كان الاندماج والذوبان يعنيان السماح لليهود بأن يصبحوا مخفيين تقريبًا. وقد كان تحولهم إلى أشباه مخفيين، جعلهم مشبوهين. لقد بات المواطنون مضطرين إلى أن يمسكوا باليهود من أُرَبِهِم قبل أن يتلاشَوا كليًا.

4.1.1) هِرتْسِل وهِتشلر: شراكتهما تبدأ

لم يكن تيودور هِرتْسِل إنسانًا متدينًا:

> **أعدُّ الدين أمرًا لا غنى عنه بالنسبة إلى الضعفاء. فأولئك الذين يكونون ضعاف الإرادة، والعقل أو العواطف يجب أن يكونوا قادرين دومًا على التعويل على الدين. أما الآخرون، أي البشر العاديون، فليسوا ضعافًا إلا في أثناء الطفولة والشيخوخة، ويشكل الدين بالنسبة إليهم أداة تعليمية أو مصدرًا للراحة.. إن الرب رمز رائع يجسد مجمعًا هائلاً من الضرورات الأخلاقية والقانونية والحل الظاهري لجملة من الألغاز والإجابة عن جميع الأسئلة الطفولية.**

مع ذلك، فقد كان شخصًا موهومًا.

في الأيام الأخيرة، قبل ظهور هِتشلر في مكتبه، أصيب بالدهشة مرات كثيرةً من كيفية انفتاح أبواب فرص مفاجئة أمامه جراء مصادفات غير عادية أو من كيفية حدوث مصادفة مدهشة، بالمقابل، بالإعلان عن أنه قد فوّت إحدى الفرص. ومن الأمثلة التي حصلت، بعد أيام قليلة من زيارة هِتشلر، أن هِرتْسِل الذي ظل أيامًا يقاوم حافز إرسال نسخة من كتابه إلى البارون دو هيرش يصاب بالإحساس بالذنب جراء هذا الإهمال لأقوى الداعمين المحتملين لمشروعه. ونتيجة حدس معين يبعث برسالة مرفقة بنسخة من

الكتاب، ولكنه يكتشف أنه لم يتصرف إلا بعد فوات الأوان. ففي مذكراته وتحت عنوان ([بعد ظهر الحادي والعشرين من نَيْسَان/ أبريل]) كتب ما يلي:

> **مات البارون هيرش بين الأمس واليوم في إحدى المزارع بالمجر.. يا لها من مصادفة غريبة! لقد انتهى هذا الكرَّاس قبل أشهر. أعطيته للجميع عدا هيرش. وفي اللحظة التي أقرر فيها أن أفعل، يموت هيرش. كان من شأن مشاركته أن تساعد قضيتنا على النجاح بسرعة كبيرة.**

ومن ثم، بعد وصول نبأ موت هيرش ببضع ساعات، يصل خبر يقول: إن وليم هِتشلر قد رتب له موعدًا مع أمير بادن. وبطريقة ما، فإن هِرتْسِل يعلم بأن هذه ستكون الخطوة الأولى على طريق النجاح الدبلوماسي. فتحت عنوان ([مساء الحادي والعشرين من نَيْسَان/ أبريل]) يسجل ما يلي:

> **كنت عزمت على السفر إلى [مدينة] بست صباح الغد. وفي ساعة متأخرة من صباح اليوم تلقيت دعوة هِتشلرَ إلى كارلزروه (Karlsruhe). يوم غريب. يموت هيرش وأقيم صلة مع أمراء. يبدأ الآن سِفْرٌ جديدٌ عن القضية اليهودية.**

إذن، ثمة ما يدعونا إلى الاعتقاد أن تيودور هِرتْسِل، قبل تعرضه لنشوة التفكير بحله المسألة اليهودية والكتابة عنها، وقبل أن يشرع في رؤية الأشياء كلها كما لو كانت تتضافر تضافرًا عجيبًا خدمة لمصلحة القضية اليهودية، ما كان ليتردَّدَ في إرشاد رجل مثل وليم هِتشلر إلى الباب [أي: الاعتذار من استقبال رجل مثل وليم هِتشلر. (ف. ج)]. ذلك بالتأكيد ما كان سيفعله أيّ عاقل من طينة هِرتْسِل، ولكنْ من الممكن القولُ: إنَّ من شأن مثل ذلك التصرف أن يلغيَ كليًا احتمال وجود أيّ منظمة صِهْيَوْنية عالمية، ومِنْ ثَمَّ أي وعد بلفور وأي انتداب، وأيّ دولة يهودية. فالحقيقة تقول: إنَّ الثمرة السياسية الأولى لدبلوماسية هِرتْسِل باتت ممكنة بفضل هذا الرجل، ومن دون هذه الثمرة الأولى كان بَرْنَامَج هِرتْسِل سيبوء بالفشل.

وعن هذا اللقاء الأولي بين تيودور هِرتْسِل ووليم هِتشلر قيل:

ما لبث هِرتْسِل الحالم، الذي لم تكن أحلامه وجدت فيما مضى أي صدًى ذي شأنٍ في أوساط الجمعيات الخيرية ومنظمات الإحسان اليهودية الموجودة، أن اكتشف فجأة إمكانية التحول إلى سياسي واقعي، كانت هذه اللحظة الحبلى حيث ظهرت الصِهْيَوْنية على مسرح السياسة العالمية وبدأت تمارس تأثيرًا في تاريخ العالم(6).

كتب هِرتْسِل عن الحدث في مذكراته ما يلي:

العاشر من آذار/ مارس (1896 م)

زارني الأب وليم هِتشلر، قسيس السفارة البريطانية في فيينا.

[إنه] رجل محبب حساس ذو لحية رمادية طويلة كما لو كان أحد الأنبياء ذاب حماسة حول حَلِّي. هو أيضًا يعد حركتي 'أزمة نبوءة'،تكهن بها قبل عامين. لقد كان وفقًا لنبوءة تؤرخ من عهد حكم عمر (637-638 م) 'أن فلسطين بعد اثنين وأربعين شهرًا نبويًا، أي بعد ألف ومئتين وستين سنة ستكون أعيدت لليهود'. وهذا يعني أن الموعد سيكون في عام (1897/ 1898 م).

حين قرأ كتابي هرع مِنْ فَوْره إلى السفير منسن (Monson) وقال له: ' لقد باتت الحركة الموعودة في متناول اليد '!

يعلن هِتشلر أن حركتي' كتابية (biblical)' وإن كنت أخطو عقلانيًا في كل النقاط.

يريد أن يضع كتيّبي بأيدي بعض الأمراء الألمان. سبق له أن كان معلمًا في بيت أمير بادن ويعرف قيصر ألمانيا ويعتقد أنه يستطيع أن يقدمني إليه.

تبقى رواية هِتشلر قصة اللقاء أزهى ألوانًا بكثير كما سبق لنا أن رأينا. وفي رواياته اللاحقة قصص تعامله مع هِتشلر يتجنب هِرتْسِل لهجته العلمية المحايدة. وفي حينَ كان هِتشلر يجتاز سلسلة اختبارات، واحدًا بعد الآخر، بمدى قدرته الفعلية على الوفاء بما وعد به، سمح هِرتْسِل لنفسه أن يسجل

المزيد والمزيد عن مدى غرابة الأمر كله.

استجاب الجانب الوهمي من هِرتْسِل للسحر في المشهد. كان هذا الرجل (أي: هِتشلر) يعرف حقيقة هِرتْسِل! أما البارون هيرش، مع كل أوجه الشبه في تنشئتهما، إضافةً إلى حقيقة كون كليهما يهوديين، ومع كل الرسائل التي أمطرها هِرتْسِل عليه، فإنه لم يعرف حقيقة الأخير حقًّا. لقد كان هِرتْسِل الرجل الوحيد في العالم كله الذي كان سيجد معنى في قيام بروتستانتي إنجليزي هو قسيس السفارة البريطانية في فيينا «بتمهيد الطريق» أمامه. نستطيع أن نقدر أنه لم يخطر ببال هِرتْسِل قط أن يتساءل عمّا إذا قدم هِتشلر نفسه لأي شخص آخر بالقول: «ها أَنَذَا!».

لقد كان القس وليم هِتشلر فردًا مثقفًا، شخصًا كثير المواهب وواسع الاطلاع، رجلاً سبق له أن شغل مناصب مسؤولة فتراتٍ طويلةً. وما كان يدفعه باتجاه خدمة صِهْيَوْن لم يكن في الحقيقة إلا تاريخ وظيفته.

لقد كان معلمًا في بَلاط أمير بادن وخلف وراءه قدرًا كبيرًا من الذكريات الطيبة لدى العائلة وفي البَلاط (كان هذا هو الأمير نفسه الذي قد كان أدَّى دورًا محوريًا في لمّ شمل الأمراء الألمان حتى بات قادرًا على أن يدعو ملك بروسيا إلى أن يصبح قيصرهم عام 1871 م).كان الأمير متزوجًا بابنة القيصر الراحل غليوم الأول (Wilhelm I) الوحيدة ومِنْ ثَمَّ كان عم القيصر الحالي غليوم الثاني (Wilhelm II). إن صلة هِتشلر بالأمير، مضافة إلى دوره في السفارة البريطانية بفيينا، فتحت له أبوابًا غير عادية مكّنته من دخول أعلى الأوساط، بما فيها البَلاط الملكي الألماني.

غير أن هِرتْسِل لم يكن يملك حتى ذلك الحين، مع هذا كله، سوى كلمة هذا الغريب الذي كان يقترح توظيف كل شيء في خدمة هِرتْسِل ولمصلحة إعادة اليهود إلى صِهْيَوْن، غير أنه كان، كما قال، بحاجة إلى المال أولاً.

هل كان هِرتْسِل على صواب حين مكن مثل هذا الغريب من الإفادة من عنصر الشك؟ فالمسألة أنه حين فعل ذلك فقد تجاوز حدود الثقة التي يمكن أيَّ عاقل أن يقبلَ بها، لكن هِرتْسِل كان متحليًا بذلك النوع النادر من العبقرية التي تتعرَّف ما ليست بحاجة لأن تعرفه.

2 . 1) رؤيا وليم هِتشلر

1.2.1) وليم هنري هِتشلر (1845-1931 م)

ولد وليم هنري هِتشلر في الأول من تِشْرين الأول/ أكتوبر عام (1845 م) في مدينة بنَارس (Benares) بالهند. أما والده المبشر ديتريتش (Dietrich)[1] فكان من مواليد عام (1812 م) في إحدى القرى القريبة من مولهايم (Mullheim) في مقاطعة بادن (Baden). وقد حصل على تعليمه، وهو الذي ترعرع في ظل (الكنيسة الأنغليكانية المتحدة / United Evangelical Church) في مدرسة القرية. ولتأثره الشديد بقصة قرأها في مجلة عن مؤسس البعثات البروتستانتية الأمريكية التبشيرية المرسلة إلى بورما والهند أدُنيرَم جدسن (1788–1850 Adonirom Judson) ما لبث أن التحق ب([الكلية التبشيرية] Missionary College) في بازل السويسرية حيث درس على يد القسيس المعلم الشهير يوهنس كرستُف بلومهاردت (Johannes Christoph Blumhardt). وفيما بعد قامت (الكلية التبشيرية) بإرساله إلى كلية أنغليكانية في أيلينغتون

(Islington) بإنغلترا حيث تابع الدراسة وتم وقفه في ([كنيسة إنغلترا] Church of England) عام (1844 م). وبعيد الوَقْف تزوج كاثرين بالمر (Catherine Palmer) فأصبح مستعدًا لتحقيق حلم شبابه عن طريق الإبحار إلى الهند مبشرًا.

غير أن زوج ديتريتش هِتشلر الفتية ماتت وتدهورت صحته ولما يمض إلا وقت قصير على وصوله إلى الهند. ولدى عودته إلى إنغلترا استجابةً لنصيحة الأطباء التحق بـ(جمعية لندن لنشر المسيحية بين اليهود / London Society for the Promotion of Christianity Amongst the Jews) في عام (1854 م). وفي طلبه للحصول على تلك الوظيفة كتب ديتريتش هِتشلر: «إن أحد الآمال التي راودتني» وأنا فتى «هو احتمال أن أكون خلفًا حقيقيًا لإبراهيم. كنت أكنّ احترامًا شبه أسطوري لليهود وهذا ما جعلني أعارض الهزء بهم أو معاملتهم معاملة سيئة من جانب زملائي في المدرسة». والآن في (1852 م) تذكر قناعة سابقة بأنه كان سيصبح مبشرًا بين اليهود، ولكنه لم يفعل لضعفه وقد بدا له أن «العناية الإلهية أصبحت تدلني بوضوح شديد وتوجه خطاي نحوكم (جمعية يهود لندن / The London Jews Society)».

خلال فترات غياب أبيه ترعرع وليم هِتشلر، وهو المتقن للغتين الإنجليزية والألمانية منذ الطفولة، في المياتم الإنغليزية كما كان، مثل أبيه، عضوًا في (كنيسة إنغلترا). وقد طور، كفتى، ولعًا بالتاريخ الكتابي (Biblical History) إضافةً إلى الآثار والخرائط ذات العلاقة بـ(الكتاب / The Bible). درس اللاهوت في لندن، أولاً وفي توبنغن مركز الدراسة الليبرالية العقلانية للكتاب المقدس فيما بعد. ومع أنه لم يكن أقل اطّلاعًا وتعليمًا من زملائه القساوسة فإنه لم يقتنع بالحجج الأساسية لدى الليبراليين بل احتفظ بلاهوت مذهبي عقائدي متميز، بل وحتى حرفي. عمل قسيسًا على الجانب الألماني من الحرب الفرنسية البروسية عام (1870-1871 م). وبعد ذلك رحل إلى لاغوس الواقعة في

المستعمرة البريطانية المعروفة باسم نيجيريا ليعمل معلمًا في الفترة الممتدة بين عامي (1871-1874 م) ولكن البُرَدَاء ما لبثت أن أعطبت صحته ومنعته من متابعة رسالته، كما سبق أن حصل لوالده قبله.

وبعد أن عاد إلى مسقط رأس أبيه، بادن، أصبح معلمًا للأمير الفتى لودفيغ وارث أمير بادن الأمير فريدريك. وقد اتضح أن وليم هِتشلر والأمير كانا متقاربين فلسفيًا ، والأهم من ذلك، لاهوتيًا. وسرعانَ ما بات الأمير مهتمًا بكتلة الوثائق المؤلفة من النصوص الكتابية والتعليقات والخرائط والمخططات والنماذج التفصيلية لهيكل [هيكل مدينة القدس] الماضي وهيكل المستقبل التي كان هِتشلر يجمعها إعدادًا للكُرَّاس الذي ما لبث أن صدر عام (1893 م) تحت عنوان ([إعادة اليهود إلى فلسطين طبقًا لنبوءة] The Restoration of the Jews to Palestine according to Prophecy). وبتوجيه من هِتشلر قام الأمير ببناء مكتبة كبرى لعلم الكتاب الأُخْرَوِيّ (biblical eschatology) والتاريخ الكتابي (biblical history) وعلم الآثار. وَبطلب من الأمير كان هِتشلر يقدم مواعظ ومحاضرات بحثية حول هذه الموضوعات أمام أعضاء البَلاط وزواره.

1 . 2 . 2) أبرشية القدس البروتستانتية

خلال سني فتوة وليم هِتشلر وشبابه، أي أثناء الجيل الذي سبق تأسيس الإمبراطورية الألمانية عام (1871 م) كانت مملكة بروسيا والمملكة المتحدة شريكتين على علاقات دافئة في الأرض المقدسة. فخلال الفترة الممتدة من (1841 م) إلى (1883 م) كانت كنيستاهما، (كنيسة إنغلترا) و(كنيسة بروسيا الأنغليكانية المتحدة / United Evangelical Church of Prussia) تتقاسمان أبرشية واحدة في القدس هي الفعالية البروتستانتية الوحيدة التي تعترف بها الإمبراطورية العثمانية. ويبدو أن هذا المشروع غير العادي يعود إلى دبلوماسي ورجل كنيسة بروسي يدعى كريسْتين كارل يوسياز بنزن (Christian Carl

Josias Bunsen) كان فيما مضى رئيسًا للبعثة البروسية لدى الكرسي الرسولي وقد تزوج منذ عام (1817 م) امرأة إنغليزية اسمها فرنسِس وِدنغتن (Frances Weddington). وحين علم أن حكومة صاحبة الجلالة حصلت على امتياز غير مسبوق لبناء كنيسة بروتستانتية وافتتاح المدارس ومجمل الأجهزة التبشيرية في القدس، اقتنع على الفور أن الرب حمّل بريطانيا مسؤولية إعادة اليهود، والاضطلاع بدور قورش الجديد. ففي رسالة وجهها إلى وليم غلادستون (Gladstone Willliam) في الثالث من آب/ أغسطس (1840 م) كتب كريسْتْيَن بنزن يقول:«من المستحيل، بالتأكيد، عدم رؤية إصبع الرب في عملية تأسيس كنيسة إنغليزيَّة وتشكيل أبرشية مهتدين مسيحيين فوق تلة القدس المقدسة».

قام بنزن بنقل هذه القناعات إلى ملكه فريدريك وليم البروسي (Frederick William) الذي دام حكمه بين عامي (1840 و 1861 م) وقد كان مسيحيًا أنغليكانيًا ورعًا آخر، وشاطر الأول حلمه في أن تصبح الكنيسة البروسية (الكنيسة الأنغليكانية المتحدة / 'United Evangelical Church' التي كان ديترتيش هِتشلر ترعرع فيها) «منطلق وحدة عالمية شاملة يكون فيها المسيحيون الأنغليكان على الأقل موحَّدين دون أي انحياز لضوابطهم وطقوسهم الخاصة»[2]. كان كلا الرجلين يسعيان إلى هداية اليهود وإعادتهم إلى إسرائيل. وكانا، كلاهما، يَرَيَان كنيستهما الرسمية البروسية (وهي الجامعة بين التقاليد الكالفينية ونظيرتها اللوثرية) رائدة نوع جديد من (المسيحية البروتستانتية المسكونية / Ecumenical Protestant Christianity).

أرسل العاهل البروسي عام (1841 م) البارون بنزن إلى إنغلترا ليقترح على الحكومة البريطانية تأسيس أبرشية أنغليكانية للقدس تتقاسم بريطانيا وبروسيا تمويلها كما يتناوب معيَّنُونَ بريطانيون وبروسيون على منصب الأسقف، مع دخول رجال الدين البريطانيين والبروسيين، بمن فيهم

الأسقف، في الأخويات الأنغليكانية لهذا الغرض وليصبحوا خاضعين لسلطة (كنيسة إنغلترا). وكان من شأن ذلك أن يتمخَّض عن ظهور كنيسة وطنية (national chruch) في فلسطين، عبرية على نحو مميز على صعيدي اللغة والطقوس، ولكنها حاذية، فيما عدا ذلك، حذو الأنغليكانية الإنجيلية (evangelical Anglicanism) متمتعة بالدعم السياسي الكامل من جانب كل من بروسيا وإنغلترا.

تبين أن بنزن كان وثيق الصلة بشاغل أفضل المواقع من أجل دفع المشروع إلى الأمام. وكان ذلك الشخص هو أنطوني آشلي كوبر (Anthony Ashley Cooper) إرل شافتسبري السابع (1801-1885 م) (Earl of Shaftsbury) الذي كان أحد أفراد إحدى أكثر العائلات البريطانية الممتازة تمتعًا بالامتيازات وعضوًا عن حزب المحافظين في مجلس العموم اكتسبه على نحو وراثي، وأصبح من بعد، لدى حصوله على اللقب، عضوًا في مجلس اللوردات. وكان وليم لامب (William Lamb) نسيب لورد ملبورن (Lord Melbourne) رئيس الوزراء خلال الجزء الأكبر من الفترة الممتدة بين عامي (1834 و1841 م) وهنري تمبل (Henry Temple) صهر لورد بالمرستون (Lord Palmerston) وزير خارجية خلال الجزء الأكبر من عقدي أربعينيات وخمسينيات القرنِ التاسعَ عشرَ، ورئيس وزراء خلال الجزء الأكبر من الفترة الممتدة بين عامي (1855-1865 م).

يحق للناس أن يتذكروا اليوم أن إرل شافتسبري كان في مركز الإمبراطورية الأنغليكانية (أو 'الخيرية') خلال السنوات الفكتورية الأولى، وهو أبو القوانين الرامية إلى التخفيف عن الكادحين والمستضعفين والمحرومين. أما ما لا يتذكره الناس كما يتذكرون الفلسفة الاجتماعية لهذه الدائرة فهي فلسفتها في التاريخ والمبادئ التي اعتمدتها في الدبلوماسية. فلدى مناقشتها شافتسبري في كتابها ([الكتاب والسيف] The Bible and the Sowrd) تقدم باربرة تتشمن (Barbara

Tuchman) قائمةً بإنجازات شافتسبري لمصلحة الضعفاء مثل إصلاح السجون والقانون الجنائي، وتشريعات حماية الأطفال والمرضى المعاقين نفسيًا والعمال وتوسيع دوائر الحرية الدينية. وبعد ذلك تبادر الكاتبة، كما لو كانت تريد الإجابة عن سؤال القارئ: «وما علاقة هذا كله بفلسطين ؟» إلى الرد قائلة: «تكمن المسألة في أن حماسة لورد شافتسبري 'لشعب الله العتيق' كما كان يسمى اليهود دائمًا، كان نتاج هذا القَبُول الكامل الكتابَ الذي حوّله إلى محسن يحب الأعمال الخيرية»[3]. لقد عاش شافتسبري مع الدائرة الخاضعة لسيطرته في انتظار يوم القيامة (End of Times) الذي كان حسب اعتقاده مقدّرًا له أن يكون مسبوقًا بالعودة الحرفية لليهود إلى وطنهم. أما الحرفية الكتابية والجدية الأخلاقية ومحبة عمل الخير المسيحية والتعاطف مع السامية، فقد شكلت جميعًا أجزاءً من هذه العقيدة المُحكمة:

ذلك لأن البندول قد عاد ثانية إلى سابق وضعه، بعد فترة القرنِ الثامنَ عشرَ الهلنستية الانتقالية، إلى الجدية الأخلاقية لفترة عبرانية أخرى. لقد أخلت نزعة الشك العائدة للقرن الثامن عشر مكانها للورع الفكتوري، وراحت عقلانية القرن الثامن عشر تتجه ثانية نحو الاستسلام للرؤيا.. وكلما عاد المسيحيون إلى مرجعية العهد القديم وسلطانه وجدوه متنبئًا بعودة شعبه إلى القدس وأحسّوا بأنهم ملزمون بأن يسهموا في عملية تحقق النبوءة[4].

اعترف لورد بالمرستون، وإن لم يُظْهِر، بالتأكيد أي دلائل تشير إلى تبنيه الروح الدينية الجديدة، بأنه كان معجبًا بشخصية صهره. أضف إلى ذلك أنه اعترف بأن قِطَاعًا واسعًا من الجمهور كان مفتونًا بآرائه. ومن ثَمّ فقد كان راغبًا على نحوٍ متكرر في تبني وجهات نظر شافتسبري عن قضايا عامة كبرى.

أرسى شافتسبري وبنزن معًا أساس الاتفاق بين الحكومتين، إذ قام الأول بدور الوسيط لمصلحة الثاني لدى كل من رئيس أساقفة كنتربري (Archbishop

of Canterbury) ورئيس الوزراء بالمرستون ومن بعده رئيس الوزراء بيل (Peel) الذي جاءت حكومته في الفترة الممتدة بين العامين (1841–1846 م) إلى السلطة في ذلك العام. وقد كتب شافتسبري يقول: إن أهداف الأبرشية ستكون «سياسية ودينية.. اجتماعًا لعرشين بروتستانتيين ألزمتهما جملة من المصالح الزمنية والمبادئ الأبدية بالعمل تحت راية الصليب على زرع شعب الرب على جبال القدس».

وبعد إصدار القانون الضروري عن طريق البرلمان في تِشْرين الأول/ أكتوبر من عام (1841 م) مُنح شافتسبري شرف اختيار الأسقفَ الأول ووقع اختياره على مهاجر من بولندا الروسية، هو حاخام سابق انتحَلَ المسيحية عام (1825 م) وهو الآن أحد مبشري (جمعية اليهود/ Jews Society) وأستاذ اللغة العبرية في (كنغز كُلدج/ King's College) بلندن، يدعى مايكل سُلُمُن ألكسندر (Michael Solomon Alexander). وبعد وقف الأخير في المنصب، في احتفال جرى بقصر لامبث (Lambeth Palace) الذي هو مقر إقامة رئيس أساقفة كنتربري، كتب شافتسبري في مذكراته ما يلي:

> **كان الأمر كله مدهشًا، وبالنسبة إلى أولئك الذين طالما عملوا وصلوا من أجل القضية اليهودية فإن رؤية تعيين يهودي أصلي بمشيئة الرب للاضطلاع بمهمة إحياء أبرشية القديس يعقوب (**Episcopate of St. James**) واستعادة المدينة المقدسة وسائر الحقائق والبركات التي حصلنا عليها منها نحن الأميين بدت طاغية وآسرة تقريبًا»**[5].

وكتب في الخامس والعشرين من تِشْرين الأول/ أكتوبر ثانية ما يلي:

> **لو لم أكن شبه مدمنٍ نعمَ الربّ لتحتّمَ عليَّ ألا أصدق الأمر. 'إن الجزائر تنتظرني وسفن ترشّيش مستعدة منذ الأزل أن تأتي ببنيك من بعيد ومعهم فضتهم وذهبم لاسم يهوه إلهك ولقدوس إسرائيل لأنه قد مجدك' (إشعيا 60: 9)**[6].

غير أن مهمة القس ألكسندر لم تتكلّل بالنجاح. فبموجب التفاهم مع السلطان مُنع من التبشير والهداية بين صفوف السكان المحليين باستثناء اليهود الذين لم يكونوا سريعي الاستجابة. وحين سمع شافتسبري بنبأ موت القسيس المفاجئ عام (1845 م) كتب يقول: «يؤدي الأمر دفعة واحدة إلى دفن نصف آمالي المعلقة على الرخاء السريع لكنيستنا، ولأمتنا ولأبناء إسرائيل!» وقد تساءل لحظةً في الحقيقة عمّا إذا كانت الخطة كلها «خائبة ومخالفة لحكمة الرب ورضاه» وعمّا إذا كان تحديد «الأزمان والفصول التي حصرها الأب بيده هو تصرفًا بعيدًا عن التقوى». وطرح سؤال: «هل اقتصر إدراكنا على مشروع بشري فقط ولكننا تصورناه مرسومًا صادرًا عن كلي القدرة ؟[7]».

غير أنه ما لبث، على أيّ حال، أن ارتفع إلى ما فوقَ هذه الشكوك.

وهكذا فإن الوضع كله كان مناسبًا لأن يرد اسم وليم هِتشلر بين أسماء المقترحين لشغلِ منصب الأسقف في الأبرشية المشتركة الذي شغر عام (1883 م). فَقَبْلَ ما لا يزيد على بضعة أشهر أصدر هِتشلر كتابًا عن أبرشية القدس بتكليف من (جمعية لندن لنشر المسيحية بين اليهود) غير أن ألمانيا الإمبراطورية كانت في الوقت نفسه اقتنعت بأنها قد تجاوزت الأبرشية البروسية الأنغليكانية المشتركة، بين جملة من الإبداعات الأخرى لهذه الفترة السعيدة من النيَّات الحسنة البريطانية والبروسية. فبعد مرور زُهَاء أربعين سنة لم يكن تمّ إلا كسبُ القليل من اليهود المهتدين. ومن جهة أخرى كانت ثمة جالية ألمانية ذات شأن داخل المدينة وحولها فراحت حكومة القيصر تخطط لبناء كنيسة لوثرية جديدة في قلب المدينة، في مكان قريب من كنيسة القيامة لتوفير الخدمة لهذه الجالية.

أصيب هِتشلر بخيبة أمل شديدة جراء إخفاق الأبرشية المشتركة التي شكلت برأيه برهانًا ثمينًا على قابلية الألمان والإنجليز لأن يتعاونوا في أكبر المشروعات. كان هذا هو جوهرَ رؤيته مستقبل اليهود، كان مؤمنًا بأن من شأن

الالتزام بوعود الربّ أن يتغلب على الخلافات القبلية بين البروس والإنغليز، وبين اللوثريين والأنغليكان. فلو أصبح أسقفًا للقدس لعمل على التخفيف من حدة السياسة القائمة على التبشير والهداية بين صفوف اليهود. وبصفته شديدَ الولاء للسامية مثل أبيه، فقد تركز عمله على تحقيق الهدف المزدوج المتمثل بإفهام المسيحيين حقيقة أن عقيدتهم تدعوهم إلى إعادة اليهود إلى أرض إسرائيل من جهة، وبإرجاع اليهود إلى عقيدتهم الخاصة من جهة ثانية. ففي رسالة موجهة إلى أحد قساوسة القدس المبشرين كتب هِتشلر عام (1898 م) يقول:

من الطبيعي، أيها الزميل العزيز، أنكم تهتمون بهداية اليهود، ولكن الأزمان تتغير بسرعة، وبات مهمًّا أن ننظر إلى ما هو أبعد وأسمى. فنحن الآن موشكون، بفضل الحركة الصهْيَوْنية، على الولوج في عصر إسرائيل المسيحيّ. ومن ثَمَّ فإن المسألة في هذه الأيام ليست مسألة فتح جميع أبواب كنائسكم أمام اليهود بل بالأحرى فتح بوابات وطنهم، ومسألة دعمهم في سعيهم الدؤوب لاستصلاح الأرض وريها وإيصال الماء إليها. وهذا كله عمل مسيحيّ، يعلن عن نَفَس روح القدس أيها الزميل العزيز، غير أن على العظام الجافة، أن تعود إلى الحياة وتتآلف أولاً[8].

مع بقائه متمتعًا بقدر كبير من محبة جميع العائلة الأميرية فإن هِتشلر غادر بَلاط إمارة بادن بعد موت ولي العهد الأمير لودفيغ (Crown Prince Ludwig) المفاجئ عام (1876 م). وقد تولى لبضع سنوات خدمة إحدى الأبرشيات في إيرلندة ولكنه ما لبث أن عاد إلى إنغلترا حين وصلت أنباء عن اغتيال قيصر روسيا ألكسندر الثاني (Alexander II) وعن المذابح الرهيبة التي أعقبت عملية الاغتيال. وقام وقتها، بالتعاون مع لورد شافتسبري وآخرين، بتشكيل لجنة لجمع التبرعات من أجل إعادة توطين اللاجئين اليهود في فلسطين. بادرت اللجنة إلى إيفاد هِتشلر إلى روسيا لدراسة الوضع. وهناك كان شديد التأثر

بالحماسة لصِهْيَوْن بين صفوف اليهود الروس. وفي أورُبَّة التقى هِتشلر بليون بنسكر (Leon Pinsker) وقرأ كتابه المنشور توًّا بعنوان «[التحرر الذاتي] / Autoemancipation». أما النقطة الحاسمة التي تصارع بشأنها مع بنسكر فقد تمثلت برغبة الثاني في عد مكانٍ آخرَ غيرِ أرض إسرائيل وطنًا لليهود. غير أن هِتشلر ما لبث، حسب كلامه، أن أخرَج كتَابه وأبرز جملة المقاطع الواردة في نبوءات عاموس وإرميا وإشعيا وغيرها التي سلطت الضوء على خطة الرب المتمثلة بإعادة المشردين في الشتات إلى القدس. اعتقد هِتشلر أنه لم يترك بنسكر إلا بعد إقناعه. ومهما يكن من أمر فإننا نعلم بأن بنسكر ما لبث، بعد زُهَاء ثلاث سنوات، أن أصبح رئيس مؤسسة (أحباء صِهْيَوْن/ Hobevei Zion) المكلفة بالعمل لتوطين يهود روسيا في فلسطين.

وبعد زيارته روسيا في عام (1882 م) واصل هِتشلر حواره الودي مع الحاخامات داعيًا إياهم إلى دعم الصِهْيَوْنية لكون مثل هذا الدعم من متطلبات إيمانهم الخاص. ويعود إليه فضل كسب الكثير من اليهود المتدينين للصِهْيَوْنية وبإعادة أعداد من الصهاينة العلمانيين إلى اليهودية.

3.2.1) هِرتْسِل يزور هِتشلر

في أثناء ذلك اللقاء الأول في مكتب هِرتْسِل، بادر هِتشلر إلى دعوته إلى منزله الخاص حيث كان بإمكانه أن يطلعه على الأبحاث التي أوصلته إلى باب هِرتْسِل الذي أطنب في الحديث عن تفاصيل ذلك اللقاء الثاني قائلاً:

16/ 3

أمس الأحدَ بعدَ الظهر زرت القس هِتشلر.. يسكن في الطَّبقةِ الرَّابعة، وتطَل نوافذه على شِلر بلاتِس (Schillerplatz). حتى في حين كنت أتسلق السلم سمعت صوت الأرْغُن. أما الغرفة التي دخلتها فكانت جدرانها مغطاة بالكتب من الأرض إلى السقف. لا شيء إلا «كتب/ Bibles».

كانت إحدى نوافذ الغرفة المضيئة جدًا مفتوحة تسمح لهواء الربيع الندي بالدخول، وقد أطلعني السيد هِتشلر على كنوزه الكتابية. ونشر بعد ذلك أمامي صورته التخطيطية للتاريخ المقارن، وخريطة فلسطين آخر الأمر. إنها خريطة أركان عسكرية كبيرة مؤلفة من أربع قطع غطت أرضية الغرفة كلها عندما نُشرت.. دلّني على المكان الذي يجب أن يقع فيه هيكلنا الجديد وفقًا لحساباته: 'إنه موقع بيت إيل! لأنه مركز البلاد'. أطلعني أيضًا على نماذج الهيكل القديم قائلاً: 'لقد أعددنا الأرض لكم'.

علينا أن نتوقف قليلاً عند هذا المشهد. هنا ثمة الكثير مما سيبرهن على أنه نموذجي فيما يخص الترابط بين الصهاينة السياسيين والصهاينة المسيحيين. نحن أمام مؤسس الصهْيَوْنية الحديثة، أمام النبي العلماني المبشر بدولة إسرائيل. ما إن خرج بيانه إلى العَالم حتى تدفقتِ الردود بغزارة شديدة حتى بات عاجزًا عن مواكبتها. كيف كان يستطيع أنَ يسوّغ الوقت الذي يمضيه جاثيًا على ركبتيه في شِقَّة هذا الواعظ البروتستانتي ممعنًا النظر في خرائط عسكرية بحثًا عن المكان الصحيح لبناء الهيكل، مصغيًا بأُدبٍ إلى تراتيل صيغت حديثًا إطراء لصِهْيَوْن يشدو بها مؤلفها نفسُه على أنغام أرْغُنه الخاص؟

أما إحساس هِرتْسِل الذي يثبت، على النقيض من العقل كله أنه صحيح، فهو أن لدى هذا المسيحي ذي الأطوار الغريبة ما سوف يوصله إلى الأمراء:

وبعد ذلك وصلنا إلى لبّ الموضوع، أبلغته أنَّ عليَّ أن أقيم صلة مباشَرة، قابلة لأن تكون مرئية من الخارِج، مع رجل دولة مسؤول أو غير مسؤول، مع أحد وزراء الدولة أو مع أحد الأمراء. عندئذ سيؤمن اليهود بي، عندئذ سيتبعونني. سيكون قيصر ألمانيا أنسب الرجال.. وعلى الفور أعلن هِتشلر أنه كان مستعدًا للذهاب إلى برلين والتحدث إلى أسقف البَلاطَ كما إلى الأميرين غنتر (Günter) وهاينريش (Heinrich). فهل أنا مستعد لأعطيه نفقات الرحلة ؟

بالطبع وعدته بسدّ النفقات فورًا.. وفي الوقت نفسه أنا مدرك تمامًا أن

هِتشلر، الذي لا أعرفه بعدُ، قد لا يكون أكثر من رجل دِين مُفْلسٍ يحب السفر، وقد يعود زاعمًا أن الوصول إلى القيصر كان مستحيلاً.. إنه شخص غير محتمل لدى النظر إليه عبر العينين الفضوليتين لصحفي يهودي من فيينا، غير أن عليَّ أن أتصور أن أولئك الذين يعارضوننا في كل شيء يرونه على نحو مختلف تمامًا. ومن ثَمَّ فها أَنَذَا أرسله إلى برلين مع التحفظ الذهني بأنني لستُ أحمق إذا لم يكن يريد سوى القيام برحلة على حسابي.. يرى انطلاقنا باتجاه القدس وشيك الحدوث، وقد أطلعني على جيب السترة الذي سيحمل فيه خريطة فلسطين الكبيرة لدى قيامنا معًا، وعلى ظهور الجياد، بالجَوَلان في أرجاء الأرض المقدسة. تلك كانت لَمْسَتَه الأصدقَ والأكثر إقناعًا أمسِ.

بعد بضعة أيام، جاء هِتشلر إلى مكتب هِرتْسِل ليقدم تقريرًا يقول فيه: إنه تحدث إلى معارفه في حاشية القيصر. وقد أبلغهم عن جميع الأمور المتعلقة بكُرَّاس هِرتْسِل، وعن اقتناعه نفسه بأن هذا دليل على «أن ساعة 'تحقيق النبوءة' قد دقت». أمَّا بعدُ فقد كان عازمًا على العودة إلى الأمير للشروع بإنجاز تفاصيل مقابلة هِرتْسِل لكل من الأمير والقيصر! وبعد ذلك «طلب هِتشلر إليَّ صورتي الضوئية ليعرضها على الرجلين، من الواضح أنه يعتقد أنهما سيتصورانني 'يهوديًا رث الثياب'. وقد وعدته أنني سأعطيه صورة غَد».

وحدث في اليوم نفسه، ويا لها من مصادفة أكثر غرابة!، أن القيصر كان حقًّا في زيارة إلى فيينا. إنها فرصة لهِرتْسِل كي يوظف مهاراته بصفته ناقدًا مسرحيًا لدراسة القيصر عن بعد وللتدرب ذهنيًا على الأسلوب الذي سيعتمده في تحقيق الفائدة القصوى من تلك المقابلة التي وعد هِتشلر بترتيبها «بتلك الصورة غير المعقولة». يقول هِرتْسِل في المذكرات:

ذهبت إلى الأوبرا، وجلست في المقصورة المقابلة للمقصورة الملكية وسلخت المساء كله وأنا أدرس حركات قيصر ألمانيا. كان يجلس كالصنم ويميل أحيانًا متلطفًا على إمبراطورنا فرنتس يوزف (Franz

(Joseph) الثاني إمبراطور النمسا وقد ضحك من أعماق قلبه مرَّاتٍ، وعلى العموم لم يكن عديم الاهتمام بالانطباع الذي كان يتركه في الجمهور.. عدت إلى البيت في الساعة الحادية عشرة. أما هِتشلر فقد جلس في الصالة ساعة كاملة ينتظرني. إنه يريد أن يغادر إلى كارلزروه (Karlsruhe) في السابعة صباحًا.

جالسني حتى الساعة الثانية عشرة والنصف غارقًا في حديث لطيف. أما اللازمة التي ظلت تتكرر على الدوام فهي مسألة: تحقيق النبوءة!

إنه راسخ الإيمان بها.

4.2.1) القيصر فلهلم الثاني

يتحدث القيصر السابق فلهلم في مذكراته عن طفولته، وعن تعلقه الخاص بخاله وعمته أمير وأميرة بادن قائلاً: «من دائرة الإمبراطور فلهلم الأول كانت المتوفّاة الأميرة لويز البادنية (Louise of Baden) ابنة الإمبراطور الوحيدة أقرب الناس إليَّ.. كانت امرأة غير عادية، عميقة التدين، شديدة التمسك بالعقيدة البروتستانتية، ولكنها متسامحة إلى أبعد الحدود.. كما أن زوجها الأمير فريدريك (Grand Duke Fredrick) كان هو أيضًا قريبًا مني. فبمشورته الحكيمة وتشجيعه المتواصل كان على الدوام صديقًا أبويًا»[9].

يبدو أن إيمان فلهلم الديني الخاص كان أصيلاً من جهة وتقليديًا من جهة أخرى[10]. «وليس هذا تناقضًا دائمًا». ثمة كثرة من الملاحظات التي لا تعد ولا تحصى بين ثنايا نص المذكرات حول ثقته بالعناية الإلهية. فهو يتحدث عن يوم وَقْفِهِ أنه «تجربة روحية عظيمة» إذْ يقول:

كان الاعتراف بالإيمان الذي أعلنته قسماً مقدسًا بنظري.. لقد جرى الاحتفال في أول أيلول/ سبتمبر بكنيسة ([فريدنزكيرشه] Friedenskirche) وكان استثنائي الإثارة.. فجدتي، ملكة إنغلترا،

أوفدت أمير ويلز الذي قام بعد الاحتفال بتناول القربان المقدس معنا أنفسِنا وأبوي. ويشكل الاحتفال الذي أثارني كثيرًا ذكرى دائمة[11].

بعد سنوات، كان ثمة مشهد آخر أكثر اتصافًا بالصفة الاستثنائية يجمع بين جملة هذه العناصر الدرامية المثيرة نفسها. ففي الأيام الأولى من شهر كانون الثاني (1901 م) علم القيصر أن الملكة كانت تحتضر. ومن المفارقات الساخرة أن القيصر كان لدى وصول الخبر غارقًا في زحمة مناسبة عامة اختيرت لإعلان تصميمه الملكي على السير قدمًا في طريق السعي الجاد لتوسيع البحرية الألمانية، تلك المسألة التي كان لا بدّ لها من أن تُنْزل ضربة قاضية بالعلاقات البريطانية الألمانية. نصحه الوزراء بعدم الذهاب نظَرًا لأن الرأي العام الألماني كان آنذاك شديد العداء لبريطانيا بسبب حرب البوير والصدام الدبلوماسي حول دائرتي نفوذ الدولتين في الصين، ولكن فلهلم كان مصممًا على القيام بواجبه حفيدًا: «أبلغت أمير ويلز أصولاً راجيًا إياه في الوقت نفسه ألا تتم معاملتي أبدًا بصفتي إمبراطورًا ومؤكدًا أنني قادم بوصفي أحد الأحفاد»[12].

وحين وصل، وكانت في ساعاتها الأخيرة، ترك انطباعًا قويًا في جميع مَن في البَلاط البريطاني بسلوكه الجاد والرزين. ركع بجانب أمه أمام فراش موت جدته. لقد كان هو الذي ساعد خاله بيرتي (Bertie) الملك الجديد، في رفع الجثة ووضعها في التابوت. وحين غادر الملك بعد ذلك إلى لندن لحضور مجلس التنصيب طلب إلى ابن أخته أن يضطلع بالمهام في أوزبورن. يا لها من لحظة مثيرة للدهشة: «إن قيصر ألمانيا سيد مؤقت لعائلة ملك، إمبراطور بريطانيا!».

حين زادت حدة المجابهة بين بريطانيا وألمانيا في (مؤتمر الجزيرة / Algeciras Conference) في شُبَاط/ فبراير عام (1906 م) كتب فلهلم إلى خاله يقول: «دعنا نتذكر ساعة الصمت حين راقبنا وصلينا بجانب سريرها، حين رحلت روح تلك السيدة الملكية العظيمة وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة بين ذراعي»[13].

كانت هذه المشاهد التي أظهرت شخصيات رئيسة في العائلتين الملكيتين

البريطانية والألمانية المترابطتين، موحدة بروابط أسرية تتقاسم المناسبات الدينية السارة منها والحزينة، تتحدث بلغة قوية إلى وليم هِتشلر الذي كان صاحب تقوى بسيطة وإن لم يكن ساذجًا. كان يعلم، على نحوٍ أفضل بكثير من تيودور هِرتْسِل (الذي رأيناه قبل قليل وهو يحاول أن يغوصَ من خارج الجمهور في جوهر الحقيقة الإنسانية الكامنة وراء القناع الخارجي لمظهر الإمبراطور العا م) أن أمراء العالم، كما سبق أن قال في مذكراته، لم يكونوا حقًّا سوى «كائنات بشرية لا حول لها ولا قوة». أما عقيدتهم وممارستهم المسيحيتان فلم تكونا، كما عرفهما هِتشلر معرفة وثيقة، أفضل من عادية، ولكنهم، إذا ما تم أخذهم بمجملهم، حسب اعتقاد هِتشلر، كانوا جيدي الاستعداد لالتقاط إمكانيات وضع خدمة مملكة الرب فوقَ الممالك الدنيويّة الأقصر مدى وقبلها التي منحها الربّ لهم.

صحيح أن وليم هِتشلر كان منتميًا إلى كل من ألمانيا وبريطانيا، غير أنه كان قبل كل شيء منتميًا إلى كنيسة يسوع المسيح. فلو تمكن من توفير التعاون بين البريطانيين والألمان في مشروع هِرتْسِل هذا لاستطاع أن يسوّغ كل ما كان فريدًا وجديرًا بالملاحظة في تاريخه الشخصي. من غير الممكن أن يكون سعي أبيه الألماني إلى أمه الإنجليزية وفوزه بها، وولادته من هذين الزوجين المجسدين للبروتستانتية المسكونية في ميادين تبشيرية نائية، وقيام الرب على امتداد طريقه بتوفير هذا العدد الكبير من الفرص الاستثنائية التي مكنته من خدمة المسيحين الإنجليز والألمان على حد سواء في ثلاث قارات، وتمكنه من دخول دائرة عائلة أمير ألماني كان استثنائي التعاطف مع لاهوته النبوئي يحتل موقعًا يمكنه من التأثير، باسم هذا اللاهوت النبوئي نفسه، في قيصر ألمانيا، وهو نفسه نتاج الخلفية التي أفرزت هِتشلر نفسها، الذي تجري في عروقه الدماء المختلطة نفسها، وتقوم شخصيته على الارتباطات العاطفية نفسها والعناصر الفكرية نفسها! بلا أسباب وجيهة.

5.2.1) وليم هِتشلر وأمير بادن

سطر هِتشلر، الملتزم بوعده لهِرتْسِل في لقائهما الأول، رسالة طويلة باللغة الإنجليزية لأمير بادن في السادس والعشرين من آذار/ مارس عام (1896 م) هَاكُم نصَّهَا:

ليتها كانت مصدر سعادة لسموك الملكي !

أرجو أن تسمح لي بلفت نظر سموكم الملكي إلى كتاب جديد بالاهتمام صدر مؤخرًا في فيينا وهو يعالج موضوعًا سبق لي مرات متكررة أن تشرفت بأن أحدثكم عنه. أعني موضوع عودة اليهود إلى فلسطين التي تنبأ بها الأنبياء العبرانيون.. بعد قراءة هذا الكتاب زرت الدكتور هِرتْسِل الذي لم أكن أعرفه البتَّةَ، لأنني تساءلت عمَّا إذا كان يحاول تحقيق النبوءة. كان من شأن هذا أن يكون خطأ لأن الرب سيبادر في زمانه المناسب الخاص وبطريقته الخاصة إلى تحقيق أغراضه الرائعة. لم تكن تلك، على أيّ حال، هي أمنيّة هِرتْسِل، لأنه لم يكن يعرف شيئًا عن النبوءات الخاصة الدائرة حول هذا الموضوع.. منذ سنوات، أنا ومعي الكثير من دارسي النبوءات الذين لا يمكنهم أبدًا أن يكونوا معادين السامية، مؤمن بأن الحركة المعروفة باسم: الحركة المعادية للسامية، هي: 'محنة يهوذا' وقد سبق لأنبياء الأزمان الغابرة أن تكهنوا بها أيضًا، التي تجعل اليهود يرون أنفسهم يهودًا كما هم أولاً، وألمانًا وإنجليزًا.. إلخ، ثانيًا. وقد بات هذا يولد تطلعًا في قلوبهم نحو العودة أمةً إلى أرض الميعاد التي منحها الرب لإبراهيم ونسله.. بالغ الإثارة أيضًا أن يكون اليهود، مع أن عددهم في فلسطين لم يكن منذ زمن طويل يتجاوز (15000-20000) يهوديًا، قد أصبح، حسب ما تقوله التقارير، مئة ألف يهودي في أرض أجدادهم! إن فلسطين تعود إليهم بالحق، لأنها البلد الوحيد في العالم الذي حدد الرب نفسه أصحابه. يا لها من حقائق مدهشة! من الواضح، إذن، أن عودة اليهود الأخيرة إلى فلسطين قد بدأت.. أليس من الواضح أن هذه النبوءة المثيرة جدًا التي أوحى بها

الملاك للقديس يوحنا حين قال في (سفر الرؤيا 11: 2): إن.. "الأمم ستدوس المدينة المقدسة اثنين وأربعين شهرًا" سوف تتحقق، وأن أرض الميعاد سوف تعود عندئذ مرة أخرى إلى الشعب الذي أعطاه إياه الرب قبل المسيح بخمس وتسعين وثمانيمئة ألف عام، لأن هذا هو التاريخ الكتابي لميلاد إسحق الذي هو اليهودي الأول المولود في هذا العالم، وقد كان ابنًا للوعد ؟

ولأنكم تعرفون الحقائق المذكورةَ آنفًا فإن سموكم الملكي سَيَفْهَم بسهولة مدى دهشتي لدى قراءة هذا الكتاب الذي كتبه يهودي واسع التعليم وغني، لأن هذه هي المحاولة الجدية، الهادئة والعملية الأولى، لتمكين اليهود من رؤية مدى قدرتهم على التوحد من جديد وعلى تشكيل أمة تخصّهم في أرض الميعاد التي منحها الربّ لهم.

لا أستطيع إلا أن أجزم بأن من شأن قيام ألمانيا وإنغلترا بمثل هذا التحرك ووضع مثل هذه الدولة الجديدة تحت حمايتهما، ومن شأن إعلان فلسطين بلدًا محايدًا، شيئًا شبيهًا ببلجيكا، أن يجعل عودة اليهود نعمة كبيرة لأورُبَّة وأن يضع حدًا لروح الكراهية المعادية للسامية الضارة جدًا برخاء كل أممنا.. أرسل لسموكم الملكي ثلاث نسخ من هذا الكتاب(14).

وبعد بضعة أيام عاد هِتشلر إلى هِرتْسِل ومعه تقرير عن سير العمل. ومن ثم انطلق ثانية، مصحوبًا بصورة هِرتْسِل وبالمزيد من ماله لسَدِّ نفقاته، إلى عاصمة ولاية بادن كارلزروه حيث كان سيلتقي كلاً من الأمير والقيصر، كما قال لهِرتْسِل.

1 . 2 . 6) تيودور هِرتْسِل وأمير بادن

حول هذه المناسبة كتب هِرتْسِل يقول:

قام هِتشلر بإطلاع الأمير على " الألواح النبوئية " التي بدت مؤثرة.

حين وصل القيصر بادر الأمير من فوره إلى إبلاغه الأمرَ، تمت دعوة هِتشلر إلى الاستقبال، ومما فاجأ حاشية البَلاط أن القيصر خاطبه بالعبارات المازحة التالية: 'علمت يا هِتشلر أنك تريد أن تصبح وزيرًا للدولة اليهودية.. أليس روتشيلد هو الذي يقف وراء هذا ؟'.

انزعج هِتشلر مما حصل، من رد القيصر الأول على الاقتراح الذي كان يعرضه على المسامع الجدية لجلالته الإمبراطورية. إما أن القيصر لم يكن يأخذ المسألة مأخذ الجد، وإما أنه كان يتلقى معلومات خاطئة كليًا عن هِتشلر، وعن خلفيته، وعن دوافعه المحتملة. وفي رسالة إلى الأمير مؤرخة في الثامن عشر من نَيْسَان/ أبريل اعترف هِتشلر بانزعاجه إذ قال:

نتيجة لألطف العبارات التي وجهها سمو جلالة الإمبراطور إليّ مساء البارحة أصابني ارتباك ذهني شديد لأنني لست على أيّ علاقة مع دولة اليهود الجديدة، كما لا تجري في عروقي أيّ دماء يهودية لأنني من أصول شفارتسفلدية (Schwartzwald/ منطقة الغابة السوداء في جنوبي ألمانيا ، ز م) وبريطانية خالصة، إضافةً إلى أنني لم أتكلم قط مع البارون روتشيلد (Rothschild) عن كتاب الدكتور هِرتْسِل، لا لشيء إلا لأنني رأيت سنواتٍ أننا، وفقًا لكلام الرب المقدس، قريبون من أزمنة نبوئية كبيرة، غامرتً بالكتابة إلى سموكم الملكي وإلى لورد سالزبوري (Lord Salisbury) رئيس وزراء بريطانيا العظمى، إضافةً إلى التحدث إلى سفيري سير إدمند منسن (Sir Edmund J. Monson) لتحرير عقلي من عبئه ولإظهار الضوء المدهش الذي يجود به الربّ علينا كما سبق له أن جَادَ على دانيال الأيام الغابرة في بابل عبر الأنبياء.. إن دولة اليهود مسألة بالغة الجدية نظرًا لاحتمال تحققها في عام (1897 م) أو (1898 م) لأنها آتية لا محالة حسب كلام الأنبياء، وسوف تشكل بكل تأكيد نعمة عظيمة على العالم كله. أمَا كان خطأً أن أبقى صامتًا وأنا أعرف كل هذا ؟[15].

بناءً على ذلك، يستخلص هِرتْسِل «إن النتائج كانت حتى الآن ضئيلة» فيما

يخص الأمل المعقود على دفع القيصر نحو الاضطلاع بدور حامي صِهْيَوْن.

وبعد ذلك جاء النبأ المدهش المتمثل بأن كل من هِرتْسِل وهِتشلر كانا مطلوبين للقاء الأمير.

وفي حين كانا يعبران باحة قصر الأمير بانتظار المقابلة:

قلت لهِتشلر: 'تذكر هذا اليوم الرائع، هذه السماء الربيعية اللطيفة فوق كارلزروه! قد نكون بعد عام من الآن في القدس'. فرد هِتشلر قائلاً: إنه كان يخطط لدعوة الأمير إلى مرافقة القيصر حين يذهب الأخير إلى القدس في السنة التالية لافتتاح الكنيسة، وأنا أيضًا يجب أن أكون موجودًا آنذاك، كما أنه، أي هِتشلر، كان يرغب في أن يرافق البعثة بصفته مستشارًا فنيًا للأمير. فقلت: 'حين أذهب إلى القدس، سآخذك معي'.

سارت الأمور كلها على نحو ممتاز. كان هِرتْسل شديد التأثر بالأمير وقدّر (وكان مصيبًا) أن الأمير كان هوَ أيضًا شديد التأثر به. «عرضت الخطة كلها، التي لم يعرفها إلا بطبعتها الهِتشلرية، أي بـ(جوانبها النبوئية) التي لستُ على علاقة قوية بها بطبيعة الحال». وإضافةً إلى تكراره التزامه بإبقاء القيصر مهتماً، فإن الأمير خول هِرتْسِل «أبلغ بضعة رجال جديرين بالثقة في إنغلترا أن أمير بادن مهتم بالمسألة». وما لبث هذا أن أفضى إلى معاينة مستقبل الإمبراطورية العثمانية. وقد ألمح هِرتْسِل إلى إمكانية القيام بالأمر حتى دون موافقة الإمبراطورية العثمانية إذا كانت إنغلترا وألمانيا ستعملان معًا قائلاً: «إذا جرى تقسيم تركيا في المستقبل المنظور فإن دولة عازلة يمكن خلقها في فلسطين. غير أن من الأفضل التفكير بالأمر من منطلق جعل السلطان يرى الفوائد المتمثلة بتمكين نظامه من الاستمرار». وقد أدى هذا إلى التخمين في الأطماع الروسية في المنطقة. تعهد الأمير بالسعي إلى وضع كتاب هِرتْسِل بين يدي القيصر (قيصر روسيا). لقد كان اللقاء ناجحًا تمامًا.

يا للتواضع والبساطة في التعامل على العموم!.. إنه [الأمير] تجسيد

الطبيعة العظيمة النبيلة.. حين تولى هتشلر الكلام.. وناقش موضوع التحقق الوشيك للنبوءة، أصغى الأَمير بصمت ووقار ممتلئًا إيمانًا، بنظرة مسالمة مدهشة في عينيه الرائعتين الثابتتين.. شعرت بشيء من النشوة جراء نجاح مؤتمرنا. لم أقل لهِتشلر سوى عبارة:' إنه شخص مدهش !'.

في مُتْحَف هِرتْسِل، على جبل هِرتْسِل في القدس، يشكل مكتب هِرتْسِل في فيينا المعاد بناؤه المعروض المهيمن، واليوم تتدلى هناك فوق كرسي هِرتْسِل مباشَرة صورة أمير بادن، كما كانت حالتها في المكتب الأصلي على الدوام بعد اليوم الذي وصفناه توًّا.

7.2.1) هِرتْسِل وهِتشلر: صداقتهما تتطور

في القطار، على طريق العودة إلى فيينا:

قام [هِتشلر] بنشر خرائط فلسطين وأطنب في تلقيني الدروس. يَتَحَتَّم على الحدود الشمالية أن تكون متمثلة بالجبال المواجهة لقبدوقيا، والحدود الجنوبية بقناة السويس. أما الشعار الذي سيجري تداوله فهو: فلسطين داود وسليمان!

ظل هِتشلر يتحدث عن اليهود وتجاربه معهم وبدا على الدوام شديد الحرص على استعراض ولائه للسامية. غير أنه أطلق العِنَان لنفسه بين الحين والآخر وأطلق تعميمات معينة عن الشخصية اليهودية بما قد يشي، حسب رأي هِرتْسِل، عن وجود قدر معين من اللاسامية لديه.

إن هذا الرجل، هِتشلر، هو، في المناسبات كلها، شخص غريب ومعقد. ثمة قدر كبير من الأستذة، وقدر مبالغ به من التواضع، عينان تقيَّتان تغزلان، غير أنه يقدم لي أيضًا نصائح ممتازة ملأى بنيَّات طيبة صادقة يتعذر الوقوع في الخطأ بشأنها. إنه ذكي وغامض، خبيث وساذج

في الوقت نفسه. لقد دعمني على نحوٍ شبه إعجازي في تعاملاته معي إلى الآن.

ظلت مشورته ومنطلقاته ممتازة إلى اليوم، وما لم يتبين لاحقًا، بطريقة أو أخرى، أنه عميل مزدوج، أريد من اليهود أن يعبروا له عن أسمى آيات العرفان بالجميل.

كان تأثر هِرتْسِل بكل ما له علاقة بهِتشلر قويًا. ففي الطريق إلى فيينا يطنب هِتشلر في الكلام عن كل ما يجب أن يتبع مع تحقق النبوءة. أما هِرتْسِل فيصغي هذه المرة بقدر أكبر من الصبر الذي أبداه في المناسبة السابقة، في شِقَّة هِتشلر. هل من الممكن أن يغدوَ أسير أحلام هِتشلر، رغمًا عنه؟ وماذا عن احتمال أن يكون قد أسكت جانبه من الحديث خلال تلك الرحلة القطارية الطويلة العائدة إلى فيينا بالانغماس في شكل من أشكال نسج الأحلام الخاصة به؟ لقد كان آخر المطاف مسجونًا برفقة الرجل الوحيد الذي ربما كان مؤهلاً من بين معارفه لأن يصغي بتعاطف فيما لو أفشى، بصوت مرتفع، جملة الأوهام التي وجدناها في مذكراته حول الهيكل، الكهنة، والطقوس التي كانت ستحيط «بالدوتشي (Doge)» اليهودي.

زادت ثقته بهِتشلر. فقد عمد، على نحو متكرر، فترات قصيرةً ولكنها حاسمة، إلى وضع المشروع الصِهْيَوْني كله بينَ يدي وليم هِتشلر الذي لم يخيِّب ظنه قط، مع إزعاجاته ومضايقاته الكثيرة. فكتاب سيرة حياة هِرتْسِل ومؤرخو الحركة الصِهْيَوْنية يُجمِعون على أنه [هِتشلر] كان «حليفًا منذورًا لهرتسل منذ بداية سيرته»[16]، وهو «تابعُه الأول والأكثر إخلاصًا»[17]، إنه «إيليا هِرتْسِل» ماكس بودنهايمر (Max Bodenheimer)[18].

لقد كان القس وليم هِتشلر التجسيد الحي للطريق الذي لم يقطعه هِرتْسِل، طريق الإيمان الورع:

بين جميع الناس الذين انجذبوا إلي بسبب "الحركة" كان القس هِتشلر هو الأروع والأخصب خيالاً.. كان كثيرًا ما يرسل لي بطاقات بريدية، دون وجود أيّ مناسبات خاصة، ليبلغني أنه لم يستطع أن ينام في الليلة السابقة لأن القدس خطرت بباله.

من اللحظة الأولى للقائهما عامله وليم هِتشلر بصفته أكثر الرجال استثنائية على الأرض. وقد كان هِتشلر الرجل الوحيد الذي تعامل معه هِرتْسِل في تلك الأيام والذي صارحه وهو يحدق فيه قائلاً: إنه ربما كان يقلل من شأن نفسه!

إذا أقدم هِرتْسِل على إبلاغ هِتشلر ما رواه لبْرَاينِن قصة رؤيته المسيح، (وربما فعل) فإن من المؤكد أن الأخير قد ألح عليه طالبًا منه التسليم بالمعنى الحقيقي للحلم، بدلاً من الاختفاء وراء «تفسيرات» سخيفة !

يعبر هِرتْسِل في إحدى فِقْرَات مذكراته عن ارتيابه في تطلع هِتشلر إلى هدايته، والسعي بعد ذلك إلى استخدامه أداة هداية (الشعب اليهودي) ولكن هِرتْسِل كان مخطئًا في هذا. فبالنسبة إلى المؤمنين الأخرويين الحرفيين من مدرسة هِتشلر، كانت عودة بني إسرائيل «دون إيمان» شرطًا من شروط بداية الأزمان الأخيرة. إن هداية الشعب اليهودي كانت ستتم بعد العودة لا قبلها. ومن ثَمَّ فإن هِتشلر لم يكن مطالبًا بهداية هِرتْسِل إلى المسيحية.

كَان نقاد هِرتْسِل (مثلهم مثل نقاد حاييم وايزمن / Chaim Weizmann) ولويس بْرَنْدَيْس (Louis D. Brandeis) وستيفن وايز (Stephen Wise) من بعده) سيحاولون خلال السنوات اللاحقة، مرة تلو الأخرى، تحجيمه بالمقتبس الكتابي نفسه: «لا تثق بالأمراء ! ›لو تبطحو بندبيم‹». فقبل كل شيء يَتَحَتَّم على أي قائد يهودي ألا يقف أفضل طاقاته لرعاية المتعصبين المسيحيين، الذين يجَدِبُهُم إخوتهم في الدين حصرًا على أنهم «أصوليون» وحملة ألوية «الأزمنة الأخيرة» ممن يشكلون عبئًا ثقيلاً على كاهل شعبهم!

في السنوات التي أعقبت قيام هِرتْسِل بتأسيس الصِهْيَوْنية العالمية، ظل الصهاينة (السياسيون) الحديثون شديدي الإحساس المشوب بالحرج بحقيقة أن من شأن ما كانوا يطرحونه، على أنه حل عملي أو «علمي» للمسألة اليهودية، أن يفهمه أشقاؤهم اليهودُ المتدينونَ حصرًا على أنه المخطط نفسه الذي اقترحه الرب في كتب الأنبياء، والذي سوف يقوم بوضعه موضع الاتباع في آخر الأيام، لا عن طريق أيّ أداة بشرية بل من خلال المسيح المخلص. فهل من سبب، بعدُ، يدعو المثقفين اليهود إلى أخذ النظراء المسيحيين للألفيين اليهود الذين لا يتركون لهم الزمن الحاضر مأخذ الجد وتشجيعهم؟ هل كانوا شديدي الحرص على الاهتداء إلى مسيحيين ودودين يتملقونهم حتى اضطُرّوا للانحناء إلى ما تحتَ مرابض المسيحيين من أجل أن يجدوهم.

صحيح أن هِرتْسِل كان يشاطر المثقفين الليبراليين على نحو كامل عداءهم للحماسة الدينية، غير أنه بات يرى نفسه مخلوقًا بشريًا فانيًا لا حَدَّ لمدى إلهامه. وقد أدى هذا الاكتشاف الذاتي إلى تعريضه لتحدي الرد على آخرين يتحركون بوضوح من منطلقات إلهامية استثنائية مماثلة، وخصوصًا حين تكون إحدى العواقب المباشَرة لإلهامهم متمثلة بدفعهم إليه!

مع قيام مساعيه لمصلحة صِهْيَوْن بدفعه إلى الساحة وإبعاده أكثر فأكثر عن العالم الذي تمت تنشئته فيه، كان تيودور هِرتْسِل سيفاجأ بتأكيدات غير اعتيادية لمواهبه الخاصة الخارقة للعادة. كان حاخامات يصنعون العجائب في بولندا سينادون باسمه. كان سيعيش ليسمع بأذنيه وقد رحّبت به ملكًا لليهود الجماهيرُ المبتهجة ليهود أورُبَّة الشرقية! لقد قام وليم هِتشلر بتزويد تيودور هِرتْسِل بأولى فرصه لمواجهة الحقيقة المتمثلة بأنه كان مسكونًا برؤيا عودة اليهود، وللبحث عن معنى القوى الخارقة التي بدت هذه الحقيقة جالبة له، وهذا كله تحت غطاء نشاطه العملي لمصلحة القضية، وبرفقة ناطق باسم العقيدة المسيحية التي لا تستطيع أن تضاهي اليهودية في رفع مطالبها إليه.

أما بالنسبة إلى هِتشلر فقد بدأ الوَقْف الموعود لطاقاته وموارده على خدمة قضية هِرتْسِل في اليوم الأول من تعارفهما، ولم يتضاءل قط طوال سني حياة الأخير. فلدى حلول موعد إحياء الذكرى السنوية الخامسة والعشرين لوفاة تيودور هِرتْسِل، لاحظ محررو المجلد التأبيني الصادر باللغة الإنجليزية أن وليم هِتشلر كان سيبرهن على أنه «ليس أول أتباع هِرتْسِل فحسبُ، بل وأكثرهم ثباتًا واستعصاءً على التعب».

3 . 1) هِتشلر وهِرتْسِل والقيصر

1 . 3 . 1) إسطنبول ولندن وباريس

في ذلك اليوم من نَيْسَان/ أبريل (1896 م) حين قام هِرتْسِل وهِتشلر معًا بمناقشة مشروعهما وجهًا لوجه مع الأمير، تطرَّق الأول إلى مسألة الدور الذي سيؤدِّيه السلطان. رأى هِرتْسِل، وهو يحدق في عيني الأمير، في حين هِتشلر بجانبه يصغي باهتمام شديد، أن إسطنبول ستكون مضطرة للموافقة على الخطة.

وهكذا، انطلق هِرتْسِل للتعامل مباشَرة مع السلطان فور الانتهاء من المقابلة مع الأمير، وكان ذلك في حَزِيْرَان/ يونيو (1896 م).

ولإيجاز قصة طويلة ملأى بالآلام يمكن القول: كانت ثمة خمس رحلات إلى إسطنبول: حَزِيْرَان/ يونيو (1896 م) وتِشْرين الأول/ أكتوبر (1898 م) وأيار/ مايو (1901 م) وشُبَاط/ فبراير (1902 م) وحَزِيْرَان/ يونيو (1902 م). كان اهتمام السلطان الرئيس منصبًا على استخدام صِلات هِرتْسِل

بالمصرفيين اليهود للحصول على قروض، وتعين على هِرتْسِل أن يتظاهر بأن له علاقات مع مصرفيين يهود. وقام كل من الطرفين بتدويخ الآخر وإسكاره زُهاء ست سنوات، في حين كان هِرتْسِل يتظاهر بأنه موشك على ربط الخيوط السائبة لقرض كبير، ولكنه بحاجة إلى تصريح علني من السلطان يتضمن ترحيبًا بيهود روسيا، ويطوي سائر القوانين المقيدة حقوق اليهود في حيازة الأرض وإدارة الأعمال، ويوفر الحماية من المسلمين المعادين، في حين كان السلطان يتظاهر بأنه مستعد لأن يفعل تلك الأشياء كلها، ولكن ليس في ذلك الأسبوع حصرًا.

كانت الأشهر المتبقية من عام (1896 م) شديدة الإحباط بالنسبة إلى هِرتْسِل. ولم ترد تقارير عن أيّ حركة في بَلاط السلطان. لم يأت أي رد من بَلاط القيصر (الروسي) الإمبراطوري على جملة من الرسائل التي أخلص السفير الروسي في إسطنبول بالتعهد بإيصالها إلى هناك. كما لم تؤد رسالة، التزم هِتشلر بإيصالها إلى رئيس الوزراء البريطاني لورد سالزبوري، إلى أيّ نتيجة. والمصرفيون لم يكونوا مستعدين للتحدث إليه، ولم يصل أي شيء جديد من كارلزروه.

غير أن هِتشلر لم يكن في الوقت نفسه تباطأ أو تهامل فيما يخص دوره في المشروع. ففي الثالث من أيلول (1896 م) كتب إلى أمير بادن راجيًا له عيدًا سعيدًا في ميلاده السبعين، مغتنماً الفرصة «للحديث عمّا جرى منذ أن كنتُ في كارلزروه» ولتزويد الأمير بالمزيد من كُرَّاساته عن «إعادة اليهود». فمنذ نَيْسَان/ أبريل تمكن مرات كثيرة من إلقاء المحاضرات عن موضوعات الكُرَّاس أمام أعداد من الأمراء الألمان والبروسيين، حيث لمس «اهتمامًا كبيرًا بمسألة: ما الذي سنفعله باليهود ؟».

كل ما تتطلبه هذه الحركة المثيرة هو الاعتراف الشعبي العام وحماية حكام أورُبَّة. أليس هذا ممكنًا الآن، بعد أن بات اليهود أنفسهم ممسكين

بزمام الأمر بهذا القدر من الجدية؟ إن التاريخ يعيد نفسه، فالآن، تمامًا كما كانت الحال أيضًا في أثناء عودة اليهود الأولى من بابل، يتوق الملايين من اليهود الأرثوذكس المؤمنين، للعودة، والأموال موشكة على التدفق، غير أن بعضًا من اليهود الأغنياء غير المؤمنين ما يزالون يضعون العراقيل. غير أنني موقن، مع ذلك، بأنهم سوف يلتحقون أيضًا بالركب فور نجاح دولة اليهود، وهذا ما يجب أن يتحقق، حسب ما يقول ‹الكتاب› لأن اليهود سيكونون عندئذ نعمة وبركة للأمم.. ليتني أستطيع فقط أن أقنع الجميع بقراءة كتاب ‹دولة اليهود› للدكتور هِرتْسِل فيروا مدى روعة تطابقه مع نبوءات ‹الكتاب› مع أن الرجل كتبه دون أن يعلم هو نفسه ما هو موجود في هذه النبوءات[1].

مع حلول أعياد رأس السنة عام (1897 م) كان كل من هِرتْسِل وهِتشلر قد أفرغا جَعْبَتيهما. لم يبق عند هِتشلر شيء يعرضه على الأمراء المسيحيين في لقاءاته معهم. ولم يبق لدى هِرتْسِل أي شيء يعرضه على السلطان في لقائه معه، أو أي شيء يعرضه على المصرفيين في لقائه معهم. وفي ظل هذا الوضع بادر هِرتْسِل، في توافق كلي مع هِتشلر، إلى توجيه طاقاته نحو مشروع جديد ألا وهو مشروع الدعوة إلى مؤتمر عالمي للصهاينة.

لن نكرر هنا رواية المؤتمر الأول، لكننا لن نستطيع إلا أن نسجل حقيقة أن حضور هِتشلر كان صارخًا بصفته أحد المسيحيين الثلاثة المدعوّين بصفة مراقبين، والذين جلسوا بين المندوبين المؤسسين المئتين والأربعة. وفيما بعد قام هِرتْسِل بإيجاز مغزى ذلك الحضور بدقة خارقة للعادة قائلاً: «أسست دولة اليهود في بازل. لو قلت هذا الكلام اليوم بصوت مرتفع لضحك الجميع مني. فربما بعد خمس سنوات، وبعد خمسين سنةً، بالتأكيد، فإن الجميع سيوافقون» (وقد أُسِّسَت دولة اليهود، كما نذكر، بعد خمسين سنة وبضعة أشهر).

كان هِتشلر يشاطر هِرتْسِل حماسته للمشروع ويقف في الأغلب إلى جانبه.

ففي طريقه إلى المؤتمر كتب إلى الأمير قائلاً: «بكل بساطة، مدهش حقًا كيف أن الحركة الصِهْيَوْنية [كذا] انتشرت خلال عام واحد في سائر أرجاء العالم كله، مع معارضة بعض اليهود الأغنياء الذين لا يكادون يبالون البتَّةَ بالتاريخ المجيد لأجدادهم، إضافةً إلى أن اهتمام معظمهم على الأقل، بيهوه إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، يبقى دون ذلك، ومن ثمَّ فهم لا يعرفون شيئًا عن وعود الرب السخية، عبر أنبيائه، ليهود تلك الأيام». وقد وعد بتقديم تقرير إلى الأمير عمَّا يجري[2].

بعد العودة إلى فيينا، علم هِرتْسِل أن أمير بادن كان يتوقع زيارة من ابن أخيه القيصر، وهذا ما حفز الأول إلى تسطير رسالة ضمنها رسالة أخرى التمس إيصالها إلى القيصر قائلاً: «ليكن إلهي، الذي رفع الأمراء فوق الناس الآخرين وأضاء عقولهم، مع طلبي الجدي حقًا»[3]. أما الرسالة المتضمنة والموجهة إلى القيصر فتوجز بوقار نتائج (مؤتمر اليهود) الأخير الذي كان مطالبًا بالرد على التحدي الذي طرحه كتاب هرتسل (دولة اليهود). كان ثمَّةَ أربعةٌ ومئتا ممثّل «من جميع البلدان»، انتخبوا هِرتْسِل رئيسًا وأقروا بَرْنَامَجًا يتمثل موضوعه الرئيس «بخلق وطن متمتع بالحماية العامة والحقوقية لأولئك اليهود الذين لا يستطيعون، أو لا يريدون الاندماج بمجتمعات أماكن إقامتهم الحالية». ونحن نعلم، من مصادر أخرى، أن القيصر تسلم تقريرًا عن أعمال المؤتمر من عملائه هناك وكتب على هامشه العبارة التالية: «فليذهبوا إلى فلسطين ! وكلما فعلوا ذلك على نحو أسرع كان أفضل. لست ميالاً لأن أضع العقبات في طريقهم»[4]. وقد كان هِرتّسِل أيضًا أبلغ القيصر عن وجود تجاوب إيجابي مع المؤتمر بدأ يظهر في مجالات متنفذة في العالم الناطق باللغة الإنجليزية مختتماً كلامه بعبارة: «سأمثل بين يديكم دونما أي تأخير في أي مكان أو زمان يحدده جلالتكم !».

وبعد بضعة أسابيع أبلغ الأمير هِرتْسِل أن القيصر طلب وصفًا أوفى لمؤتمر

بازل، الذي ما لبث هِرتْسِل أن سارع إلى توفيره. وأخيرًا كانت ثمة دلائل تشير إلى أن مساعي الأمير اللطيفة على صعيد الإقناع بدأت تحقق نجاحًا.

انعقد المؤتمر الصِهْيَوْني العالمي الثاني في كازينو بلدية بازل. وتمكن المراقبون أن يروا بأم أعينهم النتائج الباهرة لعام واحد فقط من الدعاية والتنظيم. فقد تمت إضافة زُهَاء (800) فرع جديد إلى الفروع السبعةَ عشرَ والمئة التي كانت قائمة في آب العام السابق. وضمت هذه الفروع الجديدة (373) فرعًا في روسيا، و(50) فرعًا في الولايات المتحدة. وبعد المؤتمر مباشَرة توجه كل من هِرتْسِل وهِتشلر معًا في الثاني من أيلول/ سبتمبر عام (1898 م) إلى الأمير الذي كان في قصره الصيفي على شواطئ بحيرة كونستانس ليقدما له تقريرًا عمّا جرى.

فاجأهما الأمير بأخبار مثيرة جدًا إذ أبلغهما أن القيصر كلف الكونت فيليب أويلنبورغ (Philipp Eulenburg) سفيره في النمسة (الذي جعلته صداقته الحميمية مع القيصر، حسب زعم بعض، أكثر مستشاريه نفوذًا) بسماع مقترحات هِرتْسِل، وإبلاغه ذلك على نحو مُباشَر. وكان الأمير يعلم أن تحريات كانت تجري في إسطنبول لمعرفة موقف السلطان من فكرة التوصل إلى نوع من التوافق مع بَرْنَامَج الصهاينة. أما العلاقات بين القيصر والسلطان فقد كانت جيدة جدًا، وكان ثمة أشياء كثيرة متوقعة من الزيارة التي كان القيصر يخطط للقيام بها إلى الإمبراطورية العثمانية في المستقبل القريب جدًا.

> **تحدث الأمير إليَّ بأقصى درجات الصراحة عن جوانب السياسة العالمية كلها.. وقد تدخل هِتشلر بين الحين والآخر مطلقًا بعض التعليقات النبوئية حول عودة اليهود (بالإنجليزية في الأصل الألماني). أصغى الأمير إليه مبتسمًا بلطف، ولكنه أومأ مؤيدًا حين قلت: إن مثل هذه الأمور يبقى بعيدًا عن متناول مداركي. فأنا لا أستطيع أن أتكلم إلا عمّا أراه.**
>
> **وردًا على ذلك قال الأمير: لننظر إلى الموضوع على أنه مسألة تاريخية مادية فحسبُ وليس على أنه قضية لاهوتية.**

أما اللقاء مع أويلنبورغ فقد تم في السادسَ عشرَ من أيلول/ سبتمبر عام (1898 م). وتمهيدًا للنقاش أقام هِتشلر في صالة صغيرة من صالات السفارة الألمانية بفيّينا ما يصفه هِرتْسِل «بمُتْحَف فلسطين» عارضًا خرائطه ومخططاته التي باتت مألوفة، ونماذج الهيكل، وقوالب جصِّية لآثار قديمة. وقد شعر هِرتْسِل أنه «ترك الانطباع الأقوى عنده حين أثار إمكانية تبني إنغلترا المشروع إذا أخفقت ألمانية في فعل ذلك». وقد قدر هِرتْسِل أن ذكر إنغلترا هو الذي فعل فعله إذ قام أويلنبورغ من فوره بالترتيب للقاء يجمع هِرتْسِل مع وزير الخارجية فون بولو (Von Bulow) الذي ما لبث أن أصبح مستشارًا في عام (1900 م). كانت الحصيلة متمثلة بانضمام بولو إلى أويلنبورغ في إقناع القيصر بعقد نوع من اللقاء مع هِرتْسِل، زعيم (المؤتمر اليهودي العالمي) خلال زيارته فلسطين، وبالسعي مع السلطان إلى استكشاف مدى قابلية البَرْنَامَج الصِهْيَوْني للاتباع. كان هِرتْسِل في هولندا، متوجهًا إلى لندن، حين تلقى في الثاني من تِشْرين الأول/ أكتوبر (1898 م) رسالة من الأمير تتضمن نبأ تعبير القيصر عن رغبته في الاجتماع بهِرتْسِل في القدس.

لقد حانت اللحظة التي تذكر فيها هِرتْسِل الوعد الذي قطعه أمام هِتشلر في الأيام الأولى من صداقتهما، حيث عرض الأخير على الأول السترة نفسها التي كان عازمًا على ارتدائها، ونفس الجيب الذي كان يريد أن يحمل فيه خريطة فلسطين الكبيرة «لدى جَوَلاننا معًا على ظهور الجياد في أرجاء الأرض المقدسة».

1 . 3 . 2) هِرتْسِل وهِتشلر والقيصر فلهلم في الأرض المقدسة

كما قلنا من قبلُ، كانت زيارة القيصر الشهيرة للقدس، اسميًا، بهدف وقف (كنيسة المخلص اللوثرية الجديدة / The Lutheran Church of the Redeemer) التي كانت المنشأة الكبرى الأولى التي شادها الأورُبّيون في مدينة القدس القديمة منذ أن أكمل الإنغليز بناء (كاتدرائية كنيسة المسيح/ Christ

Church Cathedral) في عام (1849 م). وكما سبق أن رأينا، فإن قرار بناء هذه الكنيسة جاء نتيجة القرار الذي قضى بالتخلي عن الأبرشية الأنغلوبروسية المشتركة، وهو ما أحدث استياءً شديدًا لدى وليم هِتشلر، ولدى الكثير من المسيحيين الإنجليز والألمان الآخرين الذين عقدوا آمالاً على إمكانية تمخض تلك التجربة عن علاقات بريطانية ألمانية مستقبلية مزدهرة. ومن ثَمَّ فإن هذه اللحظة كانت منطوية، بالنسبة إلى هِتشلر، على ما هو مؤلم. أما بالنسبة إلى القيصر فلهلم فقد كانت لحظة مجد خالص. كان القيصر فلهلم يريد أن يرى العالم هذا المشروع بداية حِقْبَة جديدة من الوجود الألماني، ليس في القدس فحسبُ، بل وفي الشرق الأدنى عمومًا. وللحيلولة دون غياب هذا البعد عن تصور العالم، أصرّ القيصر، في المفاوضات السرية مع السلطات العثمانية التي سبقت الزيارة، ضرورةَ فتح ثغرة واسعة في السور عند بوابة يافا حتى يتمكن القيصر من دخول المدينة ممتطيًا جواده، وهذا ما وافق عليه الأتراك مرغمين.

انتشرت شائعات تحدثت عن أن فلهلم المتقلب المزاجِ كان حقًّا يخطط لأن يعلن نفسه حاميًا لليهود في القدس وبجانبه هِرتْسِل ممثلاً لهؤلاء اليهود. قيل: إن مسرح هذا المشهد كان سيتم إعداده في اللقاء الدبلوماسي السابق للقيصر مع السلطان في إسطنبول الذي خُطط له أن يبدأ في السادس عشر من تِشْرِين الأول/ أكتوبر من عام (1898 م).

كان هذا كله منطويًا على معانٍ عظيمة بنظر هِرتْسِل. فقد أودع مذكراته عبارة تقول:

> **لا يمكن العيشَ تحت حماية هذه الدولة الألمانية القوية، العظيمة، الخلوقة، المدارة على نحو رائع والمنظمة على نحو محكم إلا أن ينطوي على أكثر النتائج جدارة بالترحيب بالنسبة إلى الطّابع القومي اليهودي. كما أننا سنحصل، بضربة واحدة، على وضعية حقوقية مضبوطة تمامًا على الصعيدين الداخلي والخارجي. من المؤكد أن ولاية الباب (العالي)**

وحماية ألمانيا ستشكلان ركيزتين قانونيتين كافيتين.. يا لغرابة الأقدار! من خلال الصِهْيَوْنية ستتوافر لليهود مرة أخرى إمكانية حب هذه الدولة الألمانية التي طالما تعلقت بها قلوبنا مع كل شيء !.

في السادس عشر من تِشْرين الأول (1898 م) وصل هِرتْسِل ومعه الأعضاء الأربعة الآخرون في وفده الصِهْيَوْني إلى إسطنبول حيث أجرى لقاءه الأول مع القيصر. وهو يعترف في مذكراته أنه كان شديد العصبية، فلم يستطع أن يسجل كل ما تم قوله وفعله، غير أنه يقول:

من المؤكد أن القيصر ولد لدي انطباعًا عميقًا وقويًا. وفي ما بعد حاولت تقديم صورة هذا الانطباع على شكل صورة مجازية ولم أستطع إلا أن أذكر ما يلي: شعرت وكأنني دخلت الغابة المسحورة التي يقال: إنها تؤوي أحادي القرن (Woodland) الخرافي. وفجأة وجدتني أمام مخلوق غابات بديع، بقرن وحيد في جبهته، غير أن شكله كان أقل تأثيرًا فيَّ من حقيقة أنه كان موجودًا.

ولدى تحول القيصر نحو مناقشة مضمون الصِهْيَوْنية، تبين بوضوح أنه كان يفكر وفق نمط تفكير أويلنبورغ نفسه حيث قال: «ثمة عناصر بين صفوف شعبكم ممن يَحْسُنُ أن يتوطنوا في فلسطين». كان القيصر مقتنعًا بأن من شأن ألمانيا أن تكسب كثيرًا، جراء خروج (الاشتراكيين) و(المرابين) خصوصًا. أصيب هِرتْسِل بشيء من الخيبة حين لاحظ أن الوزير فون بولو كان بين الحين والآخر يختلف مع جلالته حول الكثير من القضايا الحاسمة ولا سيَّما قضيَّة قابلية العثمانيين للتطويع ومسألة حسن النيَّات البريطانية وإمكانية التعويل على حسن نية المصرفيين اليهود. ومع ذلك خرج هِرتْسِل من اللقاء مطمئنًا: «لقد بدا القيصر ممسكًا، بوضوح، بزمام سياسات حكومته في هذه الأمور، ومتمتعًا بالإرادة والموارد اللازمة لفرض الحماية».

بعد ذلك توجه هِرتْسِل بحرًا إلى القاهرة لينتقل منها إلى فلسطين في

الوقت المناسب لتحقيق الاجتماع العلني المتفق عليه بين الصهاينة والقيصر في القدس.

في تلك الأثناء سبق هِتشلر هِرتْسِل والفريق الصِهْيَوْني الرسمي، وأصبح في فلسطين للترحيب بهم.

خلافًا لحال هِرتْسِل، لم تكن لدى هِتشلر أيّ خطط عما كان يَتَحَتَّم عليه أن يفعله بعد العودة من فلسطين. لم يكن يسلم بأن أيًا منهما سيعود نظرًا لأن العمل الذي كانا سيقومان به في الأراضي المقدسة بدا متمثلاً بتوفير الشروط المسبقة لعودة المسيح.

قبل مغادرته إلى الأرض المقدسة ببضعة أيام كتب هِتشلر: «نحن ننتظر زيارة الإمبراطور الألماني الأراضي المقدسة.. ولكن ما قد نحصل عليه هو امتياز الترحيب بيسوع الذي وعد بأنه عائد ثانية.. ثمة دلائل كثيرة تتزاحم من حولنا معلنة المجيء في وقت قريب جدًا»[5]. لم يكن هِرتْسل غافلاً عن حقيقة أن عقل هِتشلر كان يعمل في هذا الاتجاه، بل شجَّعَهُ حقًّا على كتابة هذا كله لقراء العدد الأول من المجلة الصِهْيَوْنية ‹[دي فلت] Die Welt› حصرًا:

يا أبناء إبراهيم ! استيقظوا..

إنه الرب نفسه، الأب الذي في السماء، يدعوكم للعودة إلى وطنكم القديم ويريد أن يكون إلهكم كما وعد قديماً عبر أنبيائه.. وأنا بصفتي مسيحيًا أؤمن مثلكم بما يُعرَف باسم الحركة الصِهْيَوْنية، ذلك أن ‹الكتاب› وأنبياءه القدامى يقولون بوجوب قيام دولة يهودية في فلسطين. لقد أقنعتني مشيرات زماننا بأن اليهود سيستعيدون وطنهم الحبيب قريبًا.. إنني متأكد من أن تأسيس دولة اليهود، بدعم أمراء أورُبَّة، سيؤدي إلى الخلاص الذي تنبّأ به كل من إشعيا وميخا وزكريا[6].

كان هِتشلر وراء سلسلة المقالات التي ظهرت في ‹دي فلت› خلال عام (1898 م) عن تابوت العهد، إذ استخدمها لإقناع الأمير، الذي قام بدوره،

على ما يبدو، بإقناع القيصر مع بعض أفراد حاشيته، بأن موعد اكتشاف تابوت العهد الحقيقي كان وشيكًا. وفي أثناء اللقاء مع أويلنبورغ في أيلول الماضي أبلغ الكونت هِرتْسِل وهِتشلر أن القيصر كان يعتزم التماس إذْن السلطان للبحث عن تابوت العهد. وكتب هِتشلر: «إن اكتشاف (الحجر المؤابي) في ميشع [كذا] كان دليلاً على قرب احتمال ظهور وثائق أخرى منحوتة في هذه المنطقة نفسها. مما لا شك فيه أن 'عالم الآثار' سوف يجد أيضًا 'على جبل نبو، في منطقة البحر الميت' أسفار موسى الخمسة التي كتبها بيده نفسِه والمخبأة داخل تابوت العهد، وسوف يؤدي هذا كله إلى البرهنة على مدى ضياع لاهوتيي عصرنا وتشوّشهم حين يؤكدون لنا أن موسى لم يكتب شيئًا !»[7].

وهكذا اجتمع حدثانِ استثنائيّانِ غيرُ متوقّعين كليًا، لخلق الشروط المسبقة لعودة المسيح المفاجئة. فمن جهة عادت مشيرات دالة على جدارة ‹الكتاب› التاريخية، إضافة إلى جدارة نبوءاته بالثقة نفسها بالمدلولين الأخلاقي والمنطقي، إلى الظهور ثانية من قلب تربة الأرض المقدسة التي طال إهمالها. ومن جهة أخرى كانت ثمة ظاهرة تجمع الشعب اليهودي المبعثر والمشتت في حركة ألزمته باستعادة أرضه المقدسة وصولاً إلى خلق دولة يهودية.

مرة أخرى يبين المؤتمر الصِهْيَوْني الثاني في بازل كيف يقوم اليهود بتحقيق نبوءات الرب، حتى دون أن يعلموا ما يفعلونه.. 'فالصهاينة يسعون إلى هدفهم' غافلين كليًا مُثُل آبائهم عن كل ما يفعلونه حين جاء المخلص المرَّةَ الأولى إلى القدس.. ونحن اللاهوتيين نجد كلاً من هذه التفاصيل ملزمًا على نحو شامل، إذ نرى أنفسنا حراس الأسوار الروحية لصِهْيَوْن.. ونحن نراقب ذلك النهوض الذي تقوم به العظام الميتة في الوادي كما جاء في نبوءة حزقيال[8].

تم اللقاء المتفق عليه مسبقًا بين هِرتْسِل وهِتشلر بيافا في السابع والعشرين من تِشْرين الأول/ أكتوبر. وكما في المرات كلها، ما لبث هِرتْسِل أن وجد نفسه

مبتهجًا وحانقًا في الوقت نفسه جراء سلوك هِتشلر. فقد كانت ثمة تقارير عن أن هتشلر كان يطوف معلنًا المجيء الوشيك للرب، وأن بعضًا يرى في ذلك أن هِرتْسِل كان هو المسيح، في حين كان آخرون ينظرون إلى الأمر على أنه يعني أن هِرتْسِل اضطلع بمهمة هداية يهود فلسطين إلى البروتستانتية.

دخل القيصر مدينة القدس على ظهر جواده في التاسع عشر من تِشْرين الأول/ أكتوبر (1898 م) (أحد أحداث العصر الأكثر تعرضًا للتصوير الضوئي) مرتديًا إحدى بزّاته الشهيرة ببهائها، حُلَّة احتفالية بيضاء مع خوذة يعلوها نسر ذهبي، عبر السور المفتوح ليتقدم بعد ذلك مارًا تحت قوسين شيدا خصّيصًا أحدهما هدية من الأتراك والثاني هدية من اليهود المحليين. ومن ثم انطلق لزيارة كل الأماكن المقدسة على رأس مواكب طويلة. وفيما بعد وصف ردود أفعاله في رسالة شخصية لقيصر روسيا نقولا قائلاً: «التفكير بأن قدميه 'المسيح' داستا الأرض نفسها شديد الإثارة لقلب المرء، وهذا ما يجعله ينبض على نحو أسرع وبقدر أكبر من الحيوية والنشاط». ولكن أم القيصر نظرت شَزْرًا إلى المشهد إذ قالت: «مقزز للنفس! جرى فعل كل شيء انطلاقًا من الغرور الفارغ ورغبة في جعل الناس يتحدثون عن الحدث!.. شديد الإثارة للسخرية!.. ليس ثمة أي أثر للمشاعر الدينية!»[9].

خلال الفترة الممتدة من السابعَ عشرَ من تِشْرين الأول / أكتوبر، تاريخ اجتماع هِرتْسِل بالقيصر في إسطنبول، حتى الثاني من تِشْرين الثاني/ نوفمبر، تاريخ لقائهما المرتب مسبقًا في القدس، حصل خطأ ما. يحدثنا الباحثون عن عدم وجود أي توثيق جدير بالثقة للاجتماع المعقود بين القيصر والسلطان في تِشْرين الأول، ولكنهم متفقون على أن الأول أخفق في إقناع الثاني بقيمة نظام الوصاية. وسواء أكان ذلك لاعتقاده أن تلك لم تكن إلا نكسة عابرة، أم كان لافتقاره، ببساطة، إلى الجرأة المطلوبة لقول الحقيقة، فإنه لم يتعامل بصراحة مع هِرتْسِل لدى لقائهما في فلسطين.

وجد هِرتْسِل عند وصوله القدس في التاسع والعشرين من تِشْرين الأول/ أكتوبر أن عقبات كثيرة برزت لتعرقل اللقاء الرسمي المتفق عليه مع القيصر. من الواضح أن الحاخامات المحليين تلقوا نوعًا من التحذير الصادر عن بعض المراجع العليا في إسطنبول من مغبة الظهور بمظهر التحالف مع هِرتْسِل والصهاينة. وخوفًا من تحول غضب السلطات العثمانية من الصهاينة نحوهم فور رحيل القيصر، قام هؤلاء الحاخامات عمليًا بفرض الاعتقال المنزلي على هِرتْسِل.

حانت لحظة قيام هِتشلر بتعويض هِرتْسِل عن كل الإزعاجات التي سببها له خلال الأيام السابقة، حين طلب الأخير إلى الأول أن يثبت مرة أخرى قدرته على الوصول إلى حاشية القيصر. وذلك بالتحديد ما فعله، فحين اكتشف أن بعضًا كانوا، حقًّا، يعملون لتعطيل الاجتماع، ذهب إلى القيصر مباشَرة. وثمة أسباب كثيرة تدعو إلى الاعتقاد أن هذا التدخل هو الذي أنقذ الموقف.

تم الاجتماع حقًّا في خيمة القيصر البديعة في مضرب خيامه الرائع البهي خارج الأسوار. قام هِرتْسِل بتلاوة خطابه المعبر عن الوفد الصِهْيَوْني، وكانت أجواء اللقاء حميميَّة. تحدث القيصر عن تأثره الإيجابي بمستوطنات اليهود الزراعية. كما تحدَّث عن الري والشروط الصحية وأمراض العيون.. إلخ «ثم أكد لنا اهتمامه المطرد». ولكن هِرتْسِل أحس أن موقف القيصر تغير، «كان أقل لطفًا منه في إسطنبول، وهذا ما جعلني أستنتج أن أسهمنا هبطت.. من الواضح أن أشياءَ كثيرةً كانت تحدث وراء الكواليس». ربما كان من الأمور ذات المغزى أن فون بولو كان المتحدث الرئيس في ذلك الاجتماع وبدا متحليًا بقدر أكبر من الجرأة. كان هِرتْسِل متأكدًا من أن خطأ ما قد حصل في إسطنبول.

أنكر فون بولو في مذكراته بوقاحة حدوثَ اللقاء مع هِرتْسِل. ولكن تقريرًا صادرًا عن مصلحة البرق الألمانية بتاريخ الثاني من تِشْرين الثاني/ نوفمبر (1898 م) يقدم دليلاً كافيًا على أن الاجتماع لم يكن من ابتداع خيال رجال

الوفد الصِهْيَوْني الخمسة. فهنا يُروى عن القيصر إبلاغه (الوفد اليهودي) أن: «أيّ محاولات من هذا النوع تستطيع أن تعوّل على اهتمامه الكريم ما دامت مستهدفةً تحسين الزراعة في فلسطين وتعزيز رفاهية الإمبراطورية التركية، مع التحلي بالحرص الشديد على احترام سيادة السلطان» بلغة تبدو كما لو كانت تشي بأن القيصر كان ينوي التراجع عن التعهد الأكبر أمام القادة الصهاينة[10].

3 . 3 . 1) العاقبة

لم يضطلع وليم هِتشلر بأي دور قيادي في تاريخ الصِهْيَوْنية بعد مغامرة عام (1899 م) الكبرى. صحيح أن هِرتْسِل واصل الاعتماد على مشورة هِتشلر حول الأساليب الصحيحة لمقاربة رجال الدولة المسيحيين، غير أنه لم يتم تحقيق أي تقدم إضافي على طريق النفوذ في ألمانيا في غضون السنوات القليلة المتبقية من حياة هِرتْسِل. من المؤكد أن هِتشلر يبدو صاحب فضل في إقامة الصلات مع القيادات الكنسية والسياسية البريطانية التي ما لبثت أن مكنت تيودور هِرتْسِل من اختراق الدوائر الحكومية البريطانية، ولكن آخرين أدَّوْا أدوارًا أَهمَّ على هذا الصعيد.

لعل أفضل برهان مؤكد صداقتهما المتواصلة هو أن هِتشلر كان الزائر الأخير، من خارج أسرة هِرتْسِل المباشرة، الذي سمح له بالاقتراب من سريره خلال مرضه الأخير. ففي الثاني من تموز/ يوليو (1904 م) (اليوم السابق ليوم موت هِرتْسِل) سَلَخَ هِتشلر وقتًا غير قصير وهو يستعيد مع صديقه ذكريات زيارتهما فلسطين. وأخذا تشخيص طبيب هِرتْسِل المشجع مأخذ الجد، حاول هِتشلر زرع البهجة في قلب هِرتْسِل عن طريق الوعد بأنهما سيعودان معًا إلى الأرض المقدسة، ولكن هِتشلر تذكر أنه: «كان يعلم على ما يبدو أنْ ليس هناك أيّ أمل بالنسبة إليه. فقد وضع يده اليمنى على قلبه وقال،

وهو يمسك بيدي اليمنى في يده اليسرى: بلّغهم جميعًا تحياتي، وليعلموا أنني وهبت حياتي كلها لشعبي !»[11].

تقاعد هِتشلر من عمله الأسقفي في فيينا عام (1910 م) وعاد إلى إنغلترا المرَّةَ الأخيرة. باتت دراساته الكتابية تشغله على نحو شبه كامل، إلا أنه حافظ على صداقته مع الرفاق الصهاينة، وعلى نحو أكثر مباشَرة وحميميّة مع أولئك العاملين في ([مكتب المنظمة الصهْيَوْنية] Zionist Organization Office) بلندن الذي أدَّى طلبًا لهِرتْسِل في أيامه الأخيرة بمنحه [هِتشلر] معاشًا تقاعديًا صغيرًا.

قام هِتشلر، الذي كان مقتنعًا بأن حربًا كبرى كانت وشيكة، ببذل محاولة أخيرة في آذار/ مارس من عام (1914 م) لعقد لقاء مع القيصر بخصوص قضية اليهود وفلسطين،

ولكنه قوبل بالصد. وفي شهر آذار/ مارس نفسه من عام (1914 م) قال لمارتن بوبر (Martin Buber): «أيها الدكتور بوبر إن وطنكم سيعاد إليكم، لأن أزمة تنذِرُ بالخطر موشكة على الاندلاع، أزمة يكون هدفها الأعمق متمثلاً بخلع نير الكفار عن القدس المسيحيّة. إننا مقبلون على حرب عالمية»[12].

وبعد اندلاع الحرب بات هِتشلر مقتنعًا بأنه أخطأ في مغازلة ألمانيا نيابة عن "إسرائيل" [الأقواس الاعتراضية مضافة، زم]. لقد أعاد قراءة نبوءة حزقيال، فرأى بوضوح أن «سفن ترشيش» التي ستجلب اليهود إلى فلسطين كانت بواخر إنغلترا.

نعلم أن هِتشلر كان، في الثاني والعشرين من تموز/ يوليو عام (1922 م) حاضرًا جلسة البرلمان حين قبلت الحكومة البريطانية انتداب فلسطين. أما في السنوات الباقية فقد كان مكتئبًا في الأغلب لأن يهود العالم لم يهبّوا هبة رجل واحد لمواجهة تحدي الهجرة إلى فلسطين. وبطبيعة الحال، فقد كان ذلك

الإخفاق السبب الرئيس الكامن وراء فقدان بريطانيا الثقة، خلال السنوات التالية، بقابلية مقترح بلفور للأداء. يحدثنا ديفِد بيلغي عن مدى كآبة سنواته [سنوات هِتشلر] الأخيرة، قائلاً:

> **مرارًا وتكرارًا حذر أصدقاءه اليهود من احتمال حدوث مذبحة كبرى لليهود في أورُبَّة. وتنبأ أنَّ الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش الإسبانية ستبدو بالمقابلة كأنها 'مسرحية للأطفال'. وما لبثت تنبيهاته المسبقة أن تحولت إلى كوابيس وهواجس فراح يطلقها ويعلن عنها بتواتر متزايد إلى أن مات في (1931 م). وما هو مأساوي في الأمر هو أن تكهنات هِتشلر قابلها الجميع بنوع من الإهمال المؤدب[13].**

2) عصبة قورش

1 . 2) تراث الإعادة في بريطانيا

نادرًا ما ألقى حدث مقبل بمثل هذا الظل الكثيف قبل وقوعه، في الحقيقة، مثلما فعل تدخل بريطانيا لمصلحة فلسطين يهودية (إسرائيل زانغفيل / Israel Zangwill)[1].

1 . 1 . 2) جذور النزعة الإعادية البريطانية

قليل من اليهود الإنغليز الذين قابلهم هِرتْسِل في زياراته لإنغلترا كانوا يستطيعون أن يعيدوا جذورهم في هذا البلد إلى ما قبل عهد كرُمويل (Cromwell). فقد كان كرُمويل من رحب بعودة اليهود إلى إنغلترا، إذ وضع حدًا للحظر الرسمي المفروض عليهم والذي كان يمكن أن يقتفى أثره إلى أيام إدوَرد الأول (Edward I) عام (1290 م). لقد أدى الكلام عن إعادة اليهود إلى فلسطين إلى إثارة اهتمام كرُمويل. ففي افتتاح برلمان (بيربونز Barebones) قال للأعضاء: «أعتقد حقًا أنَّ ثمة شيئًا على وشك الحدوث. إننا في العتبة، إنكم عند حافة وعود النبوءات.. و(ملمحًا إلى سفر إشعيا 60) ربما كان

الرب، كما يظن بعضٌ، عازمًا على إعادة اليهود إلى محطتهم من جزر البحر، وعلى تلبية تطلعاتهم وتوقعاتهم من أعماق البحر»[2].

يتعرَّف المؤرخ سسِل روث (Cecil Roth) ثلاثَ قوًى أساسيّةٍ مضطلعة بأدوار محددة في قصة عملية الإدماج الناجح لليهود بالحياة الإنغليزية التي تحققت بعد ذلك. وهذه القوى الثلاث ليست إلا: «نوعًا من التعاطف مع النزعة المثالية العبرانية كما تجلت في ‹الكتاب› الذي هو الوثيقة الدينية الأساس لكل من المسيحيين واليهود، وقدرًا من التعاطف الشديد، حتى الإحساس بالخجل إزاء ما تعرض له اليهود من معاناة ماضيًا وحاضرًا على حد سواء، وأملاً متّقدًا في تحقق النبوءة المتمثلة بإعادة اليهود إلى فلسطين، وفلسطين إلى اليهود»[3].

ومع ذلك فإن الحماسة للإعادة اليهودية لم يكن بأي من الأحوال محصورًا بـ(البيوريتانيين) من أمثال كرمويل. فالأنغليكان، من كل الانتماءات، حتى الكثير من مشاهير العقلانيين، تشاركوا في عناصر الإيمان. ففي كتابه ‹[تعليقات على رسائل القديس بولس] Commentries on St. Paul's Epistles› كتب جون لوك: «يستطيع الرب أن يجمعهم في كيان واحد.. وأن يوفر لهم ظرفًا مزدهرًا في وطنهم الخاص بهم»[4]. أما إسحاق نيوتن (Isaac Newton) فلم يقف أفضل طاقاته في السنوات المتأخرة من حياته لعمله المنصب على دراسة حركة الأجرام السماوية فحسبُ، بل لإعداد مؤلف تأملي هائل حول آخر الأزمان أيضًا، استعد له بتعلم لغتي أنبياء العهد القديم (العبرانية والآرامية). ومن خلال العكوف على النصوص نفسها التي ألهمت وليم هِتشلر، بعد قرن ونصف، بتكهناته الموقنة، وقادته إلى باب هِرتْسِل، توصل نيوتن، في كتابه ‹[ملاحظات حول نبوءات دانيال ورؤيا القديس يوحنا] Observations upon the Prophecies of Daniel and the Apocalypse of St. John› إلى استنتاج يقول: «إن 'أمر العودة (دانيال 9: 25)' قد لا يأتي من اليهود



أنفسهم بل من مملكة أخرى صديقة لهم»[5].

وبنظر الألفين البريطانيين جميعًا، كان سفر إشعيا (60: 9–12) الفقرة الأساس:

جزر البحر تنتظر الرب،
وسفن ترشيش في الطليعة،
لتحمل بنيك من بعيد،
ومعهم الفضة والذهب،
لاسم يهوه إلهك،
لقدوس إسرائيل الذي مجدّك.
وقال يهوه:
الغرباء يبنون أسوارك.
وملوكهم يكونون في خدمتك،
كنتُ في غضبي عاقبتكِ،
وفي رضاي الآن رحمتك.
أبوابك تنفتح دائمًا،
لا تنغلق نهارًا وليلاً،
ليجيء إليك الأميون بكنوزهم،
وتنقاد إليك ملوكهم.
فالأمة التي لا تخدمك تبيد
ومملكتها تخرب خرابًا.

إذا كانت (ترشيش) تعني، كما درج الباحثون الكتابيون على الزعم، جزر البحر الأبيض المتوسط وشواطئها، فإن هذه الفقرات تتحدث عن فرار اليهود من إسبانيا وممتلكاتها، و(الجزر) التي «تنتظرني» والناس الذين «يأتون ببنيك

من بعيد» كانوا متمثلين على نحو واضح ببريطانيي عهد أوليفر كرمويل. إن البريطانيين هم «الذين سيبنونَ أسوارك» في «أزمان قادمة» و«ملوكهم يخدمونك».

2 . 1 . 2) النزعة الإعادية في القرنِ التاسعَ عشرَ

تكشفت أعمق مضامين الحروب الثورية الفرنسية أمام أعين الألفيين البريطانيين بوضوح كامل خلال أشهر عام (1799 م) التي كان فيها نابليون في الشرق. لقد كان هدفه تركيع البريطانيين من خلال قطعهم عن إمبراطوريتهم، وليفعل هذا كان عليه أن يُخضِع مصر، ثم ينتزع فلسطين وسورية من أيدي العثمانيين، فيقيم لفرنسا إمبراطورية تتحكم بالمعابر المفضية إلى إمبراطورية بريطانيا في الهند وما بعدها. وبعد معركة الأهرامات الناجحة على نحوٍ (دراماتيكي) مثير، بدأ نابليون زحفه للتوغل في فلسطين كانون الثاني/ يناير من عام (1799 م) متعقبًا حلم إعادة خلق إمبراطورية الإسكندر المقدوني الممتدة من مصر إلى الهند ويكون هو الإسكندر الجديد. وما لبث هذا أن أدى إلى حفز رئيس الوزراء وليم بِتْ (William Pitt) إلى عقد معاهدة مع الأتراك تنص على ضمان وحدة أراضِي الإمبراطورية العثمانية. وبعد سلسلة من الانتصارات في الكثير من الأماكن الواردة في التاريخ الكتابي، وخصوصًا على جبل طابور حيث هُزم الجيش التركي في السادس عشر من نَيْسَان / أبريل عام (1799 م) بادر نابليون إلى إصدار بيانات موجهة إلى أبناء جميع القوميات الخاضعة للإمبراطورية، يدعوهم فيها إلى الالتحاق بركبه في سبيل خلع النير العثماني. وكان أحد هذه البيانات موجهًا إلى جميع اليهود في آسيا وإفريقيّة:

> **هبوا أيها الإسرءيليون ! انهضوا أيها المنفيون ! هيا أسرعوا ! اللحظة هذه قد لا تعود لآلاف السنين، اللحظة المناسبة للمطالبة باستعادة الحقوق المدنية بين سكان الكون، تلك الحقوق التي حُرمتم منها على نحوٍ شائن**

لآلاف السنين، للمطالبة بوجودكم السياسي أمةً بين الأمم، وبالحق الطبيعي غير المحدود في عبادة يهوه وفقًا لعقيدتكم، علنًا، وحسب أقوى الاحتمالات إلى الأبد[6].

كثيرًا ما تمت إعادة صهاينة القرنين التاسعَ عشرَ والعشرين إلى تلك اللحظة خلال استغراقهم في تأمل ماضي قضيتهم وحاضره ومستقبله. يا لها من مفارقة أن يكون نابليون هو الذي فتح باب فلسطين أمام البريطانيين! كان، في الحقيقة، فعل شيئًا أكثر (درامية) حتى اقترح إعادة اليهود إلى أرضهم المقدسة، وأخبرهم بأنها كانت حقهم، وأبلغ العالم المسيحي أن تحقيق ذلك كان من واجبه، وأن تركيا لم تكن تملك أي حق مقابل في هذا السياق. ذلك بالتحديد الدقيق ما كان دعاة الإعادة البريطانيون يؤمنون به! لم يكن للاهوت أي دور في حسابات نابليون، بطبيعة الحال، لم تكن له أيّ علاقة بالإيمان. ومع ذلك فإن الألفيين التقطوا المغزى الأعمق لحظةً. لقد كان مما ينطوي على مغزى أن يقوم المسيح الدجال في الساعات الأخيرة من تاريخ البشر بتقليد الحقيقة، أي الحقيقة الأبدية عن اليهود وأرضهم ومسؤوليات الأمم تجاه الطرفين. وسرعان ما بادر دعاة الإعادة البريطانيون إلى الإصرار أنَّ تلك اللحظة كانت ببساطة وقت أخذ فلسطين من الأتراك وإعطائها اليهود أصحابها.

3 . 1 . 2) شافتسبري وبالمرستون :

نزعة الإعادة المسيحية واستراتيجية بريطانيا الإمبريالية

ومع ذلك فإن لفَّ الإمبراطورية العثمانية وتقليص حجمها لم يكن من سياسات القادة السياسيين البريطانيين في القرن التاسع عشر. ففي الكثير من المرات خلال العقود المتوسطة والأخيرة من القرن التاسع عشر حلت ظروف أغرت ساسة أورُبَّة بتمزيق الإمبراطورية العثمانية مرة وإلى الأبد. وما من أحد

ساوره الشك بأن مثل هذا العمل كان في متناول القوى الأورُبّية مجتمعة، وكان من شأنه أن يحظى بشعبية مفرطة في جميع أرجاء أورُبَّة، لأن الرأي العام كان على الدوام شديد الازدراء للأتراك ولإمبراطوريتهم، ولكن رجال الدولة الموقنين، دائماً وفي كل مكان، بأن من المتعذر أن تكون المسائل بالبساطة التي يعتقدها الجمهور، كانوا يأنفون من رؤية الإمبراطورية العثمانية مطاحًا بها، قبل أن يمتلكوا فكرة واضحة عن البديل.

ما لبثت الأزمة الناجمة عن تمرد محمد علي في ثلاثينيّات القرن التاسع عشر أن شدّت أنظار الجميع إلى (المسألة الشرقية). فاللورد شافتسبري المتيقظ باستمرار لاقتناص «علامات الأزمان» كان، كما سبق لنا أن رأينا، أمسك بلحظة الاهتمام الشعبي هذه لتدعيم فكرة فرض حماية بريطانيا على (سورية). وتمثلت أولى الثمار بالأبرشية البروتستانتية، ولكن تلك لم تكن سوى البداية. لقد ظهرت مقالة شافتسبري التي كانت بعنوان ‹[حال اليهود وآفاقهم] The State and the Prospects of the Jews › في عدد كانون الثاني / يناير – آذار / مارس (1839 م) من ‹كوارترلي ريفيو/ Quarterly Review› مشكِّلة، كما يقول كوبلر (Kobler) «المرة الأولى التي كانت فيها إحدى المجلات المتميزة عالجت مسألة الإعادة بجميع جوانبها الدينية والسياسية والتاريخية والفلسفية»[7]. وعلى نحو مفاجئ، باتت المقالات والكراريس والكتب حول هذه الأطروحة متوافرة في كل مكان. ففي آب/ أغسطس (1840 م) قامت ‹[جريدة التايمز] The Times› بإبلاغ قرائها بوجود خطة يدعمها أنطوني، لورد آشلي (Anothony Lord Ashley) «لزرع الشعب اليهودي في أرض آبائه تحت حماية بريطانيا العظمى»[8].

صحيح أن بالمرستون (Palmerston) «لم يكن يميز موسى من سير سيدني سْمِث (Sir Sydney Smith)» كما قال سافتسبري نفسه، ولكن ذلك لم يؤثر، فالرب كان ينقلب إلى حميه دون غيره ليصبح قورُش الجديد (الذي بعث حيًا

/ Cyrus redivivus). وما حقق الفوز هو قدرة شافتسبري على وضع مسألة الوجود البريطاني في المنطقة في سياق متناغم مع عقيدة بالمرستون الحقيقية الخاصة المتمثلة بالإمبراطورية البريطانية.

خلال المفاوضات المفضية إلى معاهدة لندن، تموز/ يوليو (1841 م) كتب اللورد بالمرستون توجيهات إلى اللورد جون بونسونبي (Lord John Ponsonby) السفير البريطاني في القسطنطينية تردد أصداء أطروحات الرسائل التي كان يتلقاها من شافتسبري:

> **ثمة في الوقت الحاضر بين اليهود المبعثرين في أرجاء أورُبَّة، فكرة قوية تقول: إنَّ موعد عودة شعبهم إلى فلسطين بات قريبًا.. وسيكون من المهم على نحوٍ واضح بالنسبة إلى السلطان أن يشجع اليهود على العودة إلى فلسطين واستيطانها لأن من شأن الثروة التي سيجلبونها معهم أن تزيد موارد ممتلكاته، ومن شأن الشعب اليهودي، إذا ما عاد بمباركة السلطان وحمايته وتلبية لدعوته، أن يشكل عقبة أمام أيّ مؤامرات شريرة مستقبلية من تدبير محمد علي أو خَلفه.. لا بدّ لي من توجيه سعادتك بقوة نحو تقديم التوصية [إلى الحكومة التركية] بتقديم الأشكال العادلة من التشجيع إلى يهود أورُبّة على صعيد تمكينهم من العودة إلى فلسطين[9].**

4.1.2) بعثات إلى اليهود

كان شافتسبري، مثله مثل وليم هِتشلر إذن، صِهْيَوْنيًا مسيحيًا. فمثل هِتشلر جاء في الطليعة على صعيد استخدام حكومة دولته المسيحية في سبيل العمل على إيجاد دولة يهودية في فلسطين. وكان، مثل هِتشلر، مقتنعًا على نحو مطلق بالنتائج الخيرة التي ستترتب على هذا لمصلحة جميع رعايا الإمبراطوريةً العثمانية، وبأن من الواجب عدم إبقاء المشروع منتظرًا إلى أن يتوصل السلطان

إلى ذلك الاستنتاج دون مساعدة، لا بدّ للأمر من أن يشكل جوهر السياسة المعلنة على الملأ لحكومة جلالة الملكة. غير أن اللورد شافتسبري كان، خلافًا لحال وليم هِتشلر، ينظر إلى هداية اليهود جزءًا من العملية المفضية لاحقًا إلى عملية الإعادة.

كان شافتسبري إحدى القوى القياديّة الكامنة وراء جمعية نشر المسيحية بين صفوف اليهود (جمعية يهود لندن/ LJS) التي أُسِّسَت عام (1808 م). ومع أنها كانت الأكثر تمتعًا بالدعم الواسع بين الجمعيات الأنغليكانية في تلك الأيام، فقد بقيت، دون شك، الأقل قدرة على الاستعراض على صعيد هدفها المعلن المتمثل بهداية اليهود إلى الدين المسيحي. فعلى المستوى الداخلي في إنغلترا، ربما أمكن كسب ستّة مهتدين أو سبعة في السنة، وكانت النجاحات على الصعيد الخارجي على المستوى نفسه. أدت الأحداث في الإمبراطورية العثمانية عام (1838 م) كما سبق لنا أن رأينا، إلى توفير الفرصة التي مكنت بريطانيا العظمى من تعيين الدبلوماسي الأورُبّي الأول الموفد إلى الجزء الكتابي من الإمبراطورية العثمانية، ولم يلبث هذا بدوره أن تمخض عن خلق الظروف المواتية لتوسيع دائرة بَرْنَامَج المبشرين [الدعاة] البريطانيين ومدها إلى الأرض المقدسة. وقع اختيار بالمرستون على مؤيد متعصب للجمعية اليهودية يدعى وليم يَنغ (William Young) زكّاه شافتسبري لشغل منصب نائب القنصل في القدس المرَّةَ الأولى. وفي مذكراته يتحدث شافتسبري عن مغادرة يَنغ إلى الأرض المقدسة قائلاً: «هذا الصباح ودعت يَنغ الذي تم توًّا تعيينه نائبًا لقنصل صاحبة الجلالة في القدس! يا له من حدث رائع! لقد باتت مدينة شعب الرب القديمة موشكة على استئناف مكانتها بين الأمم، وإنغلترا هي الأولى بين الممالك الأمية في عملية التوقف عن ' دوسها بالأقدام '»[10].

حرص يَنغ على اتباع التوجيه القاضي بتوفير الحماية البريطانية لليهود، وكثيرًا ما قام بإنقاذ أفراد بل حتى الجالية اليهودية برمتها من الإجراءات

التعسفية الصادرة عن السلطات العثمانية حتى بات قادتهم مقتنعين قناعة راسخة بأن سلامتهم المستقبلية كانت معتمدة على استمرار العلاقات الودية مع الممثل البريطاني. وقد أسهمت تلك القناعة في زيادة حدة معاداتهم البعثات التبشيرية الإنغليزية. غير أن النتائج التبشيرية كانت شديدة الضآلة على نحو محرج نظرًا لأن معظم مؤيدي الجمعية، بمن فيهم شافتسبري، كانوا مقتنعين بأن الظروف السائدة جعلت اليهود حساسين أخيرًا إزاء القصة التي تقول: إنَّ يسوع الناصري هو المسيح.

5 . 1 . 2) انهيار حلم الدور الألماني / البريطاني المشترك في عملية إعادة اليهود

قمنا في فصل سابق بسرد قصة الأبرشية البروتستانتية الأنغلوبروسية المشتركة في القدس. وبعد ابتعاد ألمانيا عن هذا المشروع سارت الجاليتان البريطانية والألمانية البروتستانتيتان في طريقيهما المتباينين، فبات الوضع في المدينة المقدسة عاكسًا الوقائع الجديدة في الشؤون العالمية. فالأبرشية الألمانية التي باتت منفصلة (أبرشية كنيسة المخلص/ The Church of Redeemer) عادت غيرَ مهتمّة بالعمل في صفوف يهود فلسطين، ومن ثمَّ بين صفوف عرب فلسطين. أما الأنغليكان في كنيسة المسيح فواصلوا السعي إلى هداية اليهود وإعادتهم. غير أن كنيسة أنغليكانية أخرى هي (كنيسة كاتدرائية القديس جورج/ George's Cathedral Church) شيدت خارج أسوار المدنية، بادرت إلى تشكيل أبرشية مختلطة تضم المغتربين الإنجليز والعرب، كانت وما زالت بؤرة عداء للصِهْيَوْنية.

ماذا لو شاءت الأقدار أن تكون بريطانيا وألمانيا الإمبريالية راعيتين مشتركتين لعملية إعادة اليهود، وأن تتقاسما دور قورش الجديد ومجده فيما بينهما؟

من المؤكد أنها كانت فكرة ممتازة. فضغوط الطرفين المتضافرة على الحاكم العثماني كان من شأنها أن تكون غير قابلة للمقاومة. كما أن ضغوطهما المتضافرة على القيصر [الروسي] لدفعه إلى تشجيع هجرة اليهود إلى فلسطين، كان من شأنها أن تكون، هي أيضًا، غير قابلة للمقاومة.

بدا مشروع هِتشلر الأصلي «المتمثل بتصور إسرائيل بلجيكا شرق أوسطية، تعيش في ظل ضمانات بريطانيا وألمانية مشتركة» معقولاً جدًا (مثله بالمناسبة، مثل ضمانات بلجيكا نفسها التي كانت مصدر إلهام اقتراح هِتشلر). ولا يجوز الاستخفاف بالإسهام الذي يمكن مثلَ هذا الترتيب أن يقدمه للاستقرار الأورُبّي والشرق أوسطي، غير أن هذا كله تحطم على صخرة الإمبريالية العسكرية الألمانية، القوة نفسها التي قادت إلى تمزيق قطعة الورق التي كانت تحمل التعهدات المقدمة لبلجيكا. لقد كان العاهل الوحيد المتمتع بما يكفي من السلطة الذي كان قادرًا على لجم هذه المطامع العسكرية هو العاهل الألماني.

قام القيصر فلهلم بتبديد تركة فريدريك وليم. فَمَع وراثته للتركة الدينية التي شكلت الدبلوماسية المتبصرة الرُّؤيَويّة لفريدريك وليم نفسه، كان الرجل [القيصر فلهلم] على النقيض من فريدريك وليم، شخصًا ضعيفًا، عاش في خوف مطرد من إمكانية قيام الفلاسفة وعلماء اللاهوت المتبحرين بالحكم على إيمانه المسيحي على أنه تبسيطي، ولم يجرؤ من ثمّ على المخاطرة باقتحام فرص تعظيم القوة الألمانية عبر اعتماد مشروعات رؤيوية مثل مشروع أبرشية القدس أو مشروع هِرتْسِل المتمثل بإيجاد وطن لليهود. ومع حلول نهاية عقد تسعينيات القرن التاسع عشر كانت الغَيرة من الإمبراطورية البريطانية دفعت به إلى المنافسة البحرية، إلى استفزازات طائشة لبريطانيا في قضايا مثل تشجيع البوير (The Boers) والسعي إلى إقامة إمبراطورية إفريقيّة وجنوب شرق آسيوية إضافةً إلى سلسلة من الحركات الانتهازية في الشرق الأقصى.

كان القيصر فلهلم، قبل زيارته الممتلكات العثمانية في (1898 م) بزمن

طويل، تخلى عن فكرة التعاون مع بريطانيا. وعام (1898 م) تحديدًا، هو اللحظة التي قرر فيها أن ينسى إلى الأبد حلم هِتشلر المتمثل بإسرائيل مستعادة في ظل وصاية أورُبّية، أي بلجيكا الشرق الأوسط. ومن ثم بدأ القيصر يتحرك باتجاه فرض السيطرة الإمبريالية الألمانية على الإمبراطورية العثمانية على الصعيدين الدبلوماسي والاقتصادي. عشيّةَ الحرب العالمية الأولى أدى تحالف ألمانية مع النمسة المجر إلى منع القيصر من المبالغة في التملق على صعيد معانقته للإمبراطورية العثمانية، غير أنه كان، قبل انتهاء عقد تسعينيات القرن التاسع عشر، اقتنع بعدم وجود أي مستقبل للتعاون مع بريطانيا في هذه المنطقة، أو في أي مكان آخر.

2 . 2) ألمانيا ترفض عباءة قورش فتلتقطها بريطانيا!

2 . 2 . 1) أسلحة ألمانيا في الصراع لكسب مودة الصهاينة

في المحصلة كانت الأمور كلها تنطوي على معنى، كان لا بد لبريطانيا المرتبطة بفكرة إعادة اليهود، صاحبة سجل التسامح مع مواطنيها اليهود، وصاحبة الريادة على صعيد المؤسسات الديمقراطية والليبرالية، من أن تحمل راية الدفاع عن صِهْيَوْن إزاءَ الأتراك الطاعنين في السن والمعادين للحرية وإزاءَ قوى المحور الاستبدادية. لقد شكل الوجود التبشيري والدبلوماسي البريطاني في القدس أكبر العوامل المساعدة على خلق الظروف التي وفرت إمكانية نمو الكتلة السكانية اليهودية هناك.

ومع ذلك فإن الكثير من الصهاينة في أرجاء العالم ظلوا، حتى عشية صدور وعد بلفور عمليًا، يعتقدون أن ألمانيا كانت، على ما يبدو، أكثر تعرضًا للإعداد من التاريخ (أو العناية الإلهية، أو الرب، وفقًا للمزاج الفلسفي) لتصبح أهلاً

لحمل راية (صِهْيَوْن). وعلى الصعيدين الخاص والعام، بذل الصهاينة في ألمانية جهودًا مكثفةً لإقناع حكومتهم بأخذ المبادرة في إعلان التأييد والدعم لقيام وطن يهودي (Jewish Commonwealth) في فلسطين، وهذا ما كان من شأنه، كما قالوا بإصرار، أن يمكن ألمانيا من امتلاك نفوذ قيادي في شرق أدنى جرى تنظيمه حديثًا. ولكن حقيقة أن النخبة الناطقة باللغة الألمانية من المنظمة الصِهْيَوْنية العالمية كانت، لدى اندلاع الحرب العظمى في آب / أغسطس عامَ (1914 م) قد فقدت ثقة جماهير اليهود في أورُبَّة الوسطى والشرقية التي كان (صِهْيَوْن) يمثل لها أملاً حقيقيًا للخلاص من الطغاة، لا حلاً نظريًا لمسألة فلسفية. لقد ثارت حفيظة هؤلاء الناس في عام (1903 م) حين علموا أن حلفاءَهم الناطقين بالألمانية قد يخلطون بين الأرض المقدسة وأوغندة! وعلى نحو متزايد بادر يهود أورُبّيون شرقيون شباب مثل حاييم وايزمن إلى التعبير عن آرائهم.

لقد كان حاييم وايزمن، الذي أصبح الزعيم المؤكد لصهاينة إنغلترا مع أن هجرته إلى هذه البلاد لم يمض عليها وقت طويل، هو الذي قام، على نحو شبه منفرد، خلال السنوات الثلاث الأولى للحرب، (إذا استخدمنا صورة هِرْتْسِل المجازية) «بنقل مرتكز الصِهْيَوْنية إلى نقطة أرخميدسية جديدة» تمثلت بحكومة بريطانيا العظمى.

2 . 2 . 2) حاييم وايزمن (1874-1952 م)

ولد حاييم وايزمن في السابع والعشرين من تِشْرين الثاني/ نوفمبر عام (1874 م) في " الشتات " المسمى موتل (Motel) قريبًا من بنسك (Pinsk) في روسيا البيضاء، في أعماق (منطقة الاستيطان).كان حاييم واحدًا من الأولاد الخمسة عشر لتاجر أخشاب ميسور بمعايير تلك المنطقة الغارقة في الفقر، لكنه لم يكن تاجرًا فحسبُ، بل مثقفًا أيضًا لقد كان رجلاً متنورًا، مطلعًا على

المعارف العلمانية بما فيها الآداب المعاصرة، إضافةً إلى كونه ملتزمًا دينيًا أيضًا وورعًا، ورجل صلاة متمتعًا بالاحترام بصفته قائد صلاة. كانت اللغتان العبرية واليديشية متداولتين في البيت، أما الروسية فكانت اللغة المستعملة في العالم خارج "الشتات".

من نواح معينة ليس حاييم وايزمن إلا الطفل المعجزة بالنسبة إلى الحركة الصِهْيَوْنية. فإخلاصه الشديد المبكر لحلم الإعادة مبين في رسالة، كتبت عام (1885 م) وهو في الحادية عشرة من العمر، لدى مغادرته مسقط الرأس للإقامة مع بعض الأقارب لمتابعة تعليمه الثانوي في بنسك. تشكل هذه الرسالة الموجهة إلى أحد معلميه نوعًا من خطاب الوداع لحياة الطفولة:

> **لا تتصور أنني سأخلع ثوب اليهودية حين ألتحق بالمدرسة الثانوية. لا! لن يحصل ذلك لأي سبب. لقد صممت بصدق على الالتزام باليهودية وسوف أعارض رأي أولئك الذين يزعمون أن المرء لا يصبح طبيبًا إلا إذا تخلى عن إيمانه.**
>
> **أرسل إليك واحدة من أفكاري.. وهي متعلقة بجمعية (أحباء صِهْيَوْن) والقدس الموجودة في أرضنا.. فلنحمل رايتنا إلى صِهْيَوْن ولنعد إلى أمنا الأولى التي وُلدنا على ركبتيها. لماذا يَتَحَتَّم علينا أن نلتمس العطف من ملوك أورُبَّة ونرجوهم أن يشفقوا علينا ويوافروا لنا مكانًا للراحة؟ إنه عبث في عبث! لقد قرر الجميع أن على اليهود أن يموتوا، غير أن إنغلترا ستبادر، مع ذلك، إلى الرأفة بحالنا. ختامًا: إلى صِهْيَوْن! هيا نذهب إلى صِهْيَوْن أيها اليهود[1].**

تلك هي أولى رسائل وايزمن الباقية المجموعة في ثلاثة وعشرين مجلدًا. إنها رسالة فتى في الحادية عشرة من العمر. وثمة في الرسالة معنى حياته كما أعلنه العالم لدى موته بعد زُهَاء ستين عامًا ونيف. إنه الإعلان عن عزمه على أن يكون قائد عملية إعادة اليهود إلى فلسطين، يا لها من خلاصة مركّزة

للرؤية التاريخية التي جعلت كل شيء ضروريًا وممكنا، إضافةً إلى كونه مفتاح إسهاماته الفريدة كليًا في تحققها التاريخي.

لقد قرر الجميع أن على اليهود أن يموتوا، غير أن إنغلترا ستبادر، مع ذلك، إلى الرأفة بحالنا !.

في تناقض صارخ مع قصة هِرتْسِل ليس ثمة أيّ لحظة هداية إلى الصِهْيَوْنية بالنسبة إلى حاييم وايزمن. فقد نشأ الأخير في أجزاء مفعمة بالإيمان الشعبي بالعودة إلى فلسطين، تحدد حديثًا واكتسب قدرًا إضافيًا من الحيوية جراء المذابح التي تمت خلال سني طفولته. وفي سنوات الدراسة تم جره إلى منظمة ([بيلو] Bilu) التي كانت الجناح الشبابي لجمعية (أحباء صِهْيَوْن).

في عام (1893 م) ذهب وايزمن إلى ألمانية لدراسة الكيمياء على المستوى الجامعي، وهذا فرع تعليمي كان عمليًا مقفلاً في وجهه لأنه يهودي في روسيا القيصرية. وفي مدرسة بفونغشتدت (Pfungstadt) القريبة من دارمشتدت (Darmstadt) أولاً وبجامعة برلين بعد ذلك، رأى وايزمن «يهود ألمانيا المندمجين غارقين في نعيم أمنهم الموهوم، شديدي الاعتزاز بمثل هذا النعيم»[2]. ومع أنه كان يعترف بضيق حياة الجاليات [الناطقة] باليديشة إضافةً إلى أنه كان تخلّى عن التزامه الأرثوذكسي، فإنه لم يكن يحتقر هذه الأشياء، كما كان المثقفون الألمان يفعلون. ففي برلين كان وايزمن عضوًا في إحدى حلقات المهاجرين من اليهود الروس كانت تعرف باسم (رابطة العلماء الروسية اليهودية / Juedischer–Russisch Wissenschaftlicher Verein) وكان يحلو له أن يعدها «مهد الحركة الصِهْيَوْنية الحديثة»[3].

كان وايزمن طالبًا في برلين حين صدر كتاب هِرتْسِل: ‹دولة اليهود›. أزعجه ألا يكون هِرتْسِل مطلعًا على أعمال مبشري الحركة الصِهْيَوْنية الأوائل الذين طالما ألهبت كتبُهم وأفكارُهم النقاش في أورُبَّة الشرقية. «لم يكن هِرتْسِل

عالمًا بوجود (أحباء صِهْيَون) ولم يأت على ذكر فلسطين، وتجاهل اللغة العبرية.. لم يتضمن كتاب ‹دولة اليهود› في الأساس، أيّ فكرة جديدة بالنسبة إلينا»[4] ولكن وايزمن، مثله مثل جميع معاصريه في الحركة، رأى في هِرتْسِل الرجل العملي، المتمتع بالصلات مع أشخاص المراكز العليا، والقادر على التعبير العملي عن أحلامهم، وهذا ما جعله يسعى بقوة، ويحصل على امتياز حضور المؤتمر الثاني بجنيف عام (1898 م) مندوبًا من بِنسك.

3 . 2 . 2) تحقيق ' انطلاقة جديدة في إنغلترا '

حتى قبل تعرضه للإحباط الذي ترتب على لقائه القيصر في القدس عام (1898 م) أكثر تيودور هِرتْسِل من الحديث عن إنغلترا بصفتها مفتاح البَرْنَامَج الصِهْيَوْني. ففي رسالة وجهها في الثامن والعشرين من شُبَاط/ فبراير عام (1898 م) إلى رئيس المؤتمر اليهودي بلندن أوّرد التأكيد التالي: «منذ اللحظة الأولى لانتسابي للحركة كانت عيناي متجهتين نحو إنغلترا، لأنني كنت أرى أن النقطة الأرخميدسية المناسبة لوضع العتلة موجودة هناك جراء الوضع العام للأمور»[5]. غير أن استراتيجية هِرتْسِل كانت، كما سبق لنا أن رأينا، مفرطة المرونة، ولا يجوز لنا أن نفهم هذه الأنواع من التصريحات بقيمتها الظاهرة. لم يكن هِرتْسِل مولعًا ولعًا خاصًا بالنظام البريطاني للحياة السياسية والاجتماعية، ويبدو أنه كان ذا ميول وطنية صادقة لمصلحة النظام الألماني. يَتَحَتَّم علينا أن نفترض أنه كان، حتى يوم موته، مستعدًا لأن يسارع إلى إعادة اللحمة بين آماله وحركته من جهة وبين ألمانية من الجهة المقابلة، فيما لو بادر القيصر إلى التعبير له عن الحدود الدنيا من التشجيع على الإقدام على مثل هذا التصرف.

أما مع حاييم وايزمن فإن القصة مختلفة تمامًا. لقد كان راسخ القناعة بأن القضية كانت أكدت الرغبة الصادقة لدى الجمهور البريطاني كما عند الحكومة

البريطانية في الاهتداء إلى حل ما للمسألة اليهودية، وبأن هذا الموقف الودي لم يكن، إضافة إلى ذلك، إلا تعبيرًا واحدًا عن الأفضلية المميزة للنظام السياسي ونمط الحياة البريطانيين، وعن الموقف الموالي للسامية أساسًا لدى الشعب البريطاني، بقدر أكبر من التخصيص، مع معارضته الشديدة خطة أوغندة.

زار وايزمن إنغلترا المرَّةَ الأولى في (1903 م). وقد تركز هدف ذهابه في تلك المرة على حشد المعارضة لمقترح أوغندة قبل موعد انعقاد المؤتمر الصِهْيَوْني. وبعد المؤتمر (كما بعد موت هِرتْسِل) قرر وايزمن أن ينتقل إلى إنغلترا حيث توافرت له إمكانية الحصول على منصب تعليمي لتدريس مادة الكيمياء بجامعة مانشستر.

ما لبثت إقامة وايزمن وعمله في إنغلترا أن عززتا نزوعه إلى الثقة بالبريطانيين وإيمانه بأن الحكومة البريطانية ستبرهن على أنها الصديقة الدائمة للصِهْيَوْنية. «لقد تنامى كرهي النظام الروسي جراء مقابلتي الحياة في روسيا مع نظيرتها في إنغلترا»[6]. وسرعان ما أصبح عضوًا في (جمعية مانشستر الصِهْيَوْنية/ Manchester Zionist Society).

بالمناسبة، كانت ثمة جالية يهودية كبيرة متركزة في مانشستر، وكان الكثير من أعضائها شخصيات مرموقة في حياة البلاد التجارية والسياسية. وكان الساسة يزدادون تنبهًا على ما يمكن أن نطلق عليه اسم (الصوت الانتخابي اليهودي)حسب القاموس الأمريكي. وعرف الصهاينة الإنغليز مدى أهمية خطب ود ‹[المانشستر غارديان] The Manchester Guardian› التي كانت في ذلك الحين إحدى الصحف الأكثر نفوذًا في إنغلترا. ومهما يكن فقد كان قادة مانشستر اليهود ميالين للتوافق مع ليبرالية يسار الوسط عند [المانشستر غارديان] ولا سيَّما فيما يخص ضرورة قيام الحكومة بتوسيع دائرة مسؤوليتها عن القضايا ذات العلاقة بالحاجات الاجتماعية والاقتصادية.

قبل أن تستقرّ حياة وايزمن الجديدة في إنغلترا، وفي حينَ كان يكافح ليتعلم اللغة الجديدة، تم جمعه بجيمس آرثر بلفور (Arthur James Balfour). كانت انتخابات (1905-1906 م) العامة جارية على قدم وساق، وكان بلفور المرشح المحلي عن حزب المحافظين. لم يكن بلفور نسي الضجة التي كانت أثارتها قضية أوغندة في (1903 م) حين كان رئيس الوزراء جوزِف تشمبرلين (Joseph Chamberlain) وزيرًا للمستعمرات، واللورد لاندزدَون (Landsdowne) وزيرًا للخارجية. وقد صُعق بالعناد الذي اتصفت به معارضة (الحل) الأوغندي، بتلك الطريقة التي أدت إلى إقحام سائر أشكال الحماسة والعاطفة والفكر معًا في صلب حجج الجميع حتى فعلت فعلها في الفيلسوف، رجل الدولة. وكان من ثَمَّ يريد أن يسمع قصة وايزمن.

سألني عن السبب الكامن وراء المعارضة الشديدة للعرض الأوغندي من جانب بعض اليهود الصهاينة. فالحكومة البريطانية كانت حريصة حقًا على أن تفعل شيئًا للتخفيف من بؤس اليهود، وقد كانت المشكلة عملية، وتستدعي موقفًا عمليًا. وردًا عليه خضت فيما أذكره خطابًا رنانًا عن معنى الحركة الصهْيَوْنية. توقفت عند الجانب الروحي للصهْيَوْنية. أبرزت حقيقة أنَ لا شيء عدا قناعة دينية عميقة تم التعبير عنها بصيغة سياسية حديثة يستطيع إبقاء الحركة على قيد الحياة، وأن على هذه القناعة أن تكون قائمة على فلسطين، وفلسطين وحدها. فأي انحراف عن فلسطين لم يكن إلا شكلاً من أشكال الوثنية. وأضفت أنه لو دخل موسى المؤتمر الصهْيَوْني السادس لدى عكوفه على تبني القرار المؤيد للجنة الأوغندية، لَبادر بالتأكيد إلى تحطيم الألواح مرة أخرى..

وبعد ذلك قلت فجأة: أيها السيد بلفور، لو عرضت عليك باريس بدلاً من لندن، فهل تقبل بها ؟.

استقامت جلسته وأجابني وهو ينظر إلي قائلاً: ولكن لندن هي لنا أيها الدكتور وايزمن .

قلت: ذلك صحيح، غير أننا كنا نملك القدس حين كانت لندن مستنقعًا ›[7].

في الأشهر التي أعقبت لقاءه مع اللورد بلفور تم جر وايزمن أكثر فأكثر إلى قلب النشاط الصِهْيَوْني. ومع أن أشكال التعبير عن الاهتمام من جانب الساسة البريطانيين شجعته كثيرًا فبات أكثر ثقة بأن إنغلترا سوف تبادر إلى حمل راية صِهْيَوْن، فقد كان على العموم محبطًا من جانب الجالية اليهودية في إنغلترا. ومن المفارقات الساخرة أن حقيقة نجاحهم في الحياة التجارية والاجتماعية والسياسية الإنجليزية، حقيقة ازدهارهم حصرًا، كانت كامنة في جوهر إخفاقاتهم كلها يهودًا. فذلك الازدهار ما كان ليتحقق لولا المودة العامة، الفريدة تاريخيًا، التي عاملهم بها الأمميون الذين كانوا يعيشون بين ظَهْرَانَيْهم. ومن ثَمَّ فإن اليهود الإنجليز قد كانوا فقدوا القدرة على تصور طابع الحَياة المَعِيْشَة من جانب أكثرية اليهود في العالم، من جانب أولئك اليهود المحرومين من الازدهار ومودة جيرانهم وحكوماتهم. فلولا موجات الهجرة المتعاقبة ليهود أورُبَّة الوسطى والمتدفقة إلى إنغلترا في السنوات الأخيرة، لبات اليهود الإنجليز حقًا محرومين عمليًا من أيّ رؤيا متبصرة تخترق الحقيقة الأكبر للحياة التي كانت أكثرية اليهود تلابسُها في الأماكن الأخرى، ومن الواضح أن هذه المعرفة الجديدة كانت تسبب لهم قدرًا غير قليل من الإحراج. بدا الأمر كما لو كانوا خائفين من أن يؤدي اندفاعهم في الدفاع عن قضية الصِهْيَوْنية إلى جعل حكومتهم وجيرانهم الأمميين يكتشفون فجأة وجه الشبه بين ذواتهم المصقولة جيدًا وبين القادمين الجدد من أورُبَّة الوسطى (اليهود الحقيقيين) الذين يؤكدون صحة الوصف الخارجي لليهود في الأدب الإنجليزي، أمثال شخصيتي شايلوك (Shylock) وفاغان (Fagan).

4 . 2 . 2) كسب حسن نيَّات قادة بريطانيا السياسيين: تمهيدًا لوعد بلفور

لم يكن النظامان الألماني والنمساوي، كما سبق لنا أن رأينا، بلا أسلحة في صراعهما مع بريطانيا العظمى وفرنسا على كسب مودة الصهاينة، حتى

لو كانت هذه الأسلحة أقل بكثير، فإن نقاط ضعف النظام الروسي المتحالف مع بريطانيا وفرنسا كانت كافية لدفع معظم الصهاينة إلى موالاة الألمان لدى اندلاع الحرب العظمى. ومن ثمَّ فقد كان من غير المناسب، خلال النصف الأول من الحرب، إلغاء احتمال حصول تحالف وثيق بين الصهاينة والألمان. ثمة، على أيّ حال، نوع من نقطة الانعطاف في مرحلة من المراحل الممتدة خلال عامي (1916 و1917 م) حين بات صانعو السياسة الألمان أنفسهم متأكدين بوضوح من أنهم بالغوا في تقويم تحالفهم مع الأتراك إذ توهموا أن الأخيرين لن يقولوا شيئًا عن تعاملهم مع الصهاينة. ولكن في حين كان الصهاينة الألمان يرون الأمر حاصلاً، لأن أحدًا في السلطة لم يكن مستعدًا للرد على نداءاتهم في لحظة من اللحظات، لم يستطع البريطانيون، بالطبع، أن يدركوا الحقيقة فترةً طويلةً بعد ذلك. وحقًا فإن أقوى رجال الدولة البريطانيين بات بالفعل، في ربيع عام (1917 م) مقتنعًا بأن الصهاينة الألمان كانوا يتسللون إلى مراكز صنع القرار لدى قوى المحور. فقد قام اللورد بلفور وزير الخارجية بإبلاغ مجلس الحرب يوم الرابع من تِشْرين الأول/ أكتوبر (1917 م) أن قرارًا كان موشكًا أن يتخذ، لأن الحكومة الألمانية كانت تبذل جهودًا كبيرة في سبيل كسب دعم الحركة الصِهْيَوْنية.

وهكذا فإن الظرف قدم تسويغًا كاملاً لرأي حاييم وايزمن المتمثل بأن من الضروري أن تكون بريطانيا العظمى هي راعية عملية إعادة اليهود إلى فلسطين، حتى أن الجميع، صهاينة وغير صهاينة، يهودًا وغير يهود، سارعوا فيما بعد إلى نسيان حقيقة أن مثل هذا الإيمان بدا شديد الغرابة والشذوذ في بداية الحرب. ففي تلك المرحلة بادرت أكثرية الصهاينة، ومعها أكثرية اليهود، في كل مكان إلى تعليق الآمال على انتصار قوى المحور. فمصلحة يهود أورُبَّة الوسطى العليا بدت متطلبة هزيمة روسيا القيصرية، المضطهدة الدائمة لهؤلاء اليهود، ما دامَت روسيا هذه كانت على الطّرف الآخر.

وخلال فترة دوام الحرب، ظلت (المنظمة الصِهْيَوْنية العالمية / World Zionist Organization) متوقفة عن النشاط. ومع أن (ترويسة) أوراقها الرسمية كانت تقول: إنَّ مقرها القيادي كان في ذلك الوقت موجودًا في كوبنهاغن، فإن معظم قياديي ما قبل الحرب كانوا خلف خطوط قوات المحور، فأي أثر مكتوب من آثارهم لم يكن ليصل إلى أي مكان على الطرف الآخر. أما المفارقة الساخرة فقد تمثلت بحقيقة أن الصهاينة الأورُبّيين «عَاقُوا خطواتي التجريبية الرامية إلى الاتصال مع رجال الدولة البريطانيين»[8] (كلام وايزمن) مع أن «أعداءنا في إنغلترا لم يترددوا في أن يشيروا، خلال الحرب العالمية الأولى، إلى أننا منظمة ألمانية». لم تكن ثمة أيّ عقوبات يستطيعون فرضها عليه، إضافةً إلى أن وايزمن كان مطمئنًا إلى النتيجة التي كان يَتَحَتَّم على الأمر كله أن يفضي إليها.

لم يكن المحافظون من حزب بلفور عادوا إلى السلطة في انتخابات عام (1905–1906 م) حين قدم الأخير نفسه لوايزمن، كما لم يتمكن من الاحتفاظ بمقعده في البرلمان. فلدى اندلاع الحرب في (1914 م) كانت في السلطة حكومة ليبرالية بزعامة آسكويث (Asquith). نجح وايزمن بسرعة في إيجاد طريق الوصول إلى هذه الحكومة وبدأ يتباهى قائلاً: «أنا مقتنع بأنني أنجزت أكثر مما أنجزه هرتْسل بدبلوماسيته كلها». أما مقابلاته مع رئيس تحرير صحيفة [المانشستر غارَديانَ] السيد سكُت (P. C. Scott) الذي لم يصبح داعية صِهْيَوْنيًا قويًا فحسبُ، بل قاده إلى مكاتب الأقوياء، لمقابلة دِيفِد لويد جورج (David Lloyd George) وزير المالية، ورئيس الوزراء لاحقًا لحكومة الحرب الائتلافية بين عامي (1916 م) و (1918 م) مع غيرهما من شخصيات المجلس ووزارة الخارجية، فقد كانت ذات أهمية (تكتيكية) عظيمة. ونتيجة لهذه المقابلات المختلفة، باتت مذكرة حول موضوع دولة يهودية تحت رعاية بريطانيا قيد التداول في مجلس الوزراء مع حلول نهاية شهر كانون الأول/ ديسمبر عام (1914 م).

انطوى دعم ديفِد لويد جورج الذي كان أبواه الويلزيان المنشقّان أورثاه التركة الكرُموليّة المتمثلة بنزعتي الولاء للسامية والإعادة المستندتين إلى ‹الكتاب› على أهمية حاسمة في هذه القصة. ويرد في مذكراته القول: «حين كان الدكتور وايزمن يتحدث عن فلسطين ظلّت تبرز أسماء أماكن مألوفة بالنسبة إليَّ أكثر من نظيرتها على الجبهة الغربية [في الحرب]»[9].

كذلك فإن دعم آرثر جيمس بلفور وقد عاد إلى الحكومة ثانية لوردًا أوّل للأدميرالية أولاً ووزيرًا للخارجية بعد ذلك، لم يكن أقل أهمية. فحين اجتمع وايزمن وبلفور مرة أخرى المرَّةَ الأولى بعد (1906 م) قال الأخير: «هل تعلم أنني كنت أفكر بحديثك إياه، وأعتقد أنكم قد تحصلون على قدسكم عند توقف المدافع عن إطلاق النار»[10].

شهد تأثير وايزمن في صانعي القرار السياسي تزايدًا لافتًا للنظر حين باتت الحكومة مدركة حقيقة أن عمله المهني عالمَ كيمياء كان قابلاً للتوظيف لخدمة المجهود الحربي. فحين بدأت مخزونات العالم من الأسيتون المنتج بالوسائل المعروفة حتى ذلك التاريخ تتضاءل، بدأ السباق على امتلاك البدائل. وهنا حصرًا برز اسم الدكتور وايزمن بصفته المرجع الأول في ميدان إنتاج الأسيتون التركيبي المعروف جيدًا لدى أعلى الدوائر. سارع ونستن تشرتشل (Winston Churchill) الذي كان لوردًا أول للأدميرالية إلى تجنيده. وقد جرى بالمقابل تجنيد تشرتشل نفسه بدوره ليصبح أحد أكثر مناصري القضية الصِهْيَوْنية حماسةً.

لعل العبء الأثقل الذي كان وايزمن يحمله في تلك الأيام هو المعارضة التي كان البَرْنَامَج الصِهْيَوْني يلقاها من الشرائح العليا ليهود إنغلترا. وقد كان زعيمها الأكثر فاعليةً ونجاحًا مؤرخًا مرموقًا من مؤرخي العصر، ذا صلات واسعة وعميقة وراسخة في وزارة الخارجية يدعى لوسيان وولف (Wolf Lucien). يقول وايزمن في مذكراته:

كانت الصِهْيَوْنية بنظره حركة أورُبّية شرقية خالصة، مع مجموعة معينة من الأتباع في [الحي اللندني الشعبي] (إيست إند/ East End) وفي منأى عن أنظار يهود بريطانيين محترمين. بالنسبة إليه كان أصعب، لا بل مستحيلاً، في حقيقة الأمر، فهم أن غير اليهود الإنجليز لم يعدّوا معاداته السّاميّةَ دليلَ ولاء أكبر. لم يخطر ببالي قط أن رجلاً مثل بلفور وتشرتشل ولويد جورج كانوا عميقي التدين، ومؤمنين بـ«الكتاب» وأن عودة الشعب اليهودي إلى فلسطين كانت بالنسبة إليهم حقيقة، وهذا ما جعلنا نحن الصهاينة نمثل في نظرهم تراثًا عظيماً يكنون له احترامًا هائلاً[11].

قد يكون حاييم وايزمن المراقب المطلع جيدًا الوحيد لتلك الأزمان الذي تشكل لديه انطباع يقول: إنَّ ونستن تشرتشل كان «رجلاً عميق التدين». من الأكثر دقة القول: إنه كان منجذبًا إلى الجانب الصوفي الباطني من الصِهْيَوْنية. فمثله مثل غيره من أبناء طبقته وظروف تنشئته، كان انغمس طفلاً في بحر أنغليكانية المدرسة العامة وحمل بين جوانبه مخزونًا لا يستهان به من المقاطع الكتابية المحفوظة عن ظهر قلب، ومن التراتيل المتذكرة بشوق، ومعرفة جيدة بالتاريخ الكتابي. كان أحد الأجداد، وهو العقيد تشارلز هنري تشرتشل (Charles Henry Churchill) دافع عن فكرة إيجاد محمية بريطانية لليهود، في زمن سابق يعود إلى أيام عصيان محمد علي، وبعد ذلك في كتاب تم نشره عام (1853 م).

في السيرة الذاتية التي أتمها خلال عامي (1948-1949 م) أي: العام الأخير من حياته، توقف ستيفن وايز عند السجل الذي عاينّاه توًّا، عند نزعة الإعادة البريطانية والدور الذي أدَّته في دفع رجال الدولة البريطانيين إلى اتخاذ قرار في مصلحة (وعد بلفور). لقد تذكر وايز أنه كان، عند إعلان (وعد بلفور) قد وقف أمام حشد من الجماهير في نيويورك وقال: «إن (وعد بلفور) ليس قصاصة ورق' كما وصف بتمن هولفغ (Bethmann-Hoolweg-)

المعاهدة الضامنة لحياد بلجيكا ' ولن يكون كذلك. التصريح ليس مكتوبًا بالألمانية بل باللغة الإنجليزية التي هي لغة الحرية والأحرار. سيبقى محترمًا على الدوام لتتم مراعاته لا لنقض مضمونه». ولكنِ وايز كان، حين قرر كتابة سيرته الذاتية، أدرك بوضوح أنه، مع إصداره حكمًا صحيحًا على جيل بلفور ولويد جورجٍ، أخطأ فيما يخص توقعاته من الجيل الذي جاء بعدهما. وقد اعترف قائلاً: «كنت على خطأ، وها أنَذَا أقتبس تلك الجملة العائدة إلى تِشْرين الثاني/ نوفمبر عام (1917 م) بقدر أكبر من السهولة بسبب التوتر الشَديد اليوم (1948-1949 م) بين الحكومة البريطانية والشعب اليهودي». وهذا التخلي عن تعهد بلفور من جانب هذا الجيل اللاحق أو التالي عزاه وايز إلى تعرض قبضة تراث الإعادية البريطانية، خلال السنوات الثلاثين الفاصلة، للوهن والضعف:

> **كائنًا ما يكون ما قد يحصل اليوم، تبقى الحقيقة التي يستحيل شطبها متمثلة بأن إنغلترا، بالانطلاق من التراث الكرُمويلي ومن وعد بلفور، كانت هي الدولة الأولى التي تقدم، بعد أكثر من ألف وثمانيمئة سنة، منذ عام (70 م) على الاعتراف 'بالشعب اليهودي' والمبادرة إلى 'بذل ما تستطيعه من جهد في سبيل تسهيل إقامة وطن قومي للشعب اليهودي'. إن ما أخفقت الحكومة البريطانية في فعله عام (1947 م) يجب أن يلطخ بالعار جباه جميع أولئك الذين شاركوا في خيانة (وعد بلفور) ولكن ذلك لا يقلل أو يقلص من عظمة الإنجاز البريطاني في عام (1917 م)[12].**

يقدم حاييم وايزمن، في سيرته الذاتية، المكتوبة في اللحظة نفسها من التاريخ، حكمًا مماثلاً على نحوٍ مدهش على أخلاق الجيلين:

> **لا تجوز إضاعة رؤية المعنى الأعمق للصِهْيَوْنية في زحمة الخطوات العملية، وفي التعديلات الاستراتيجية اليومية، التي أفضت إلى منح (وعد بلفور) والتي رافقت تطورات المستقبل. أعود الآن إلى الاتهام**

العام القائل: إن الصِهْيَوْنية لم تكن إلا مشروعًا إمبرياليًا بريطانيًا، وما وعد بلفور إلا الثمن أو الدفع المسبق بالأحرى مقابل الخدمات اليهودية للإمبراطورية. إن الحقيقة هي أن رجال الدولة البريطانيين لم يكونوا، بأي من الأحوال، حريصين على عقد مثل هذه الصفقة..كانت إنغلترا تشعر بأن ليس لها أي شأن في فلسطين عدا النظر إليها بصفتها جزءًا من خطة رامية إلى خلق الوطن اليهودي.. لقد أدركوا مفهوم العودة بصفتها حقيقة. لقد عزفت العودة على أوتار تقاليدهم وعقيدتهم الدينية(13).

وهكذا فإن وايزمن كان، عند بداية الحرب حصرًا، أصبح مقتنعًا بأن بريطانيا كانت موشكة على أن تبرز على الساحة بصفتها حاملة راية الدفاع عن صِهْيَوْن. فأفضل غرائز بريطانيا، المتجذرة في التاريخ، أهلتها للاضطلاع بمثل هذا الدور. غير أنه تنبّه على احتمال بروز ثلاث عقبات ممكنة، هي قيام أصوات مسيطرة من المؤسسة اليهودية بالتعبير عن المعارضة للبَرْنَامَج الصِهْيَوْني أولاً، وحرص السلطات البريطانية على عدم إثارة غضب الروس الذين كانوا شديدي الارتياب من الصفقات المكشوفة التي تتم بين الحكومة البريطانية واليهود، إلا أن هذا الحرص ما لبث أن غدا أمرًا عديم الأهمية على نحو مفاجئ في شُبَاط/ فبراير (1917 م) عندما تمت الإطاحة بنظام القيصر، ثانيًا، والرأي العام الأمريكي ثالثًا.

هنا، مرة أخرى، كان حاييم وايزمن هو الذي اكتشف الطريق المفضية إلى النصر.

5 . 2 . 2) جرّ العالم الجديد إلى الحَلْبَة

من البداية، كان حاييم وايزمن يعد الحرب العظمى [الحرب العالمية الأولى] صراعًا بين القيم المتجسدة بتاريخ بريطانيا ونظيرتها المتجسدة بتاريخ قوى المحور. أما نظرته إلى الحرب فقد كانت، باختصار، عقائدية أساسًا.

ولطالما آمن، بل عبر عن إيمانه هذا بصوت مرتفع قائلاً: «إن ما يطلق عليه اسم 'المعنى الأعمق للصِهْيَوْنية' يتعذر وضعه باطمئنان تحت الرعاية الألمانية، غير أن من الممكن وضعه بكل ثقة تحت الرعاية البريطانية. فالقيم اليهودية كانت تزدهر في ظل الرعاية (الليبرالية) والديمقراطية، غير أنها كانت تذبل وتتلاشى في ظل النظم التسلطية». وقد تمت البرهنة على صحة هذه النقطة، بأن التربة البريطانية كانت مثالية بالنسبة إلى الحياة اليهودية، حسب رأيه، من خلال تجربة المهاجرين اليهود في بريطانيا.

وإذا تم التسليم بأن هذا المبدأ العام صحيح، أفلا يكون تجليه بقوة مضاعفة (a fortiori) في أمريكا أمرًا متوقعًا ؟

أدى اندلاع الحرب إلى تعجيل نزوع في تفكيره يميل إلى ربط مصير يهود أورُبَّة بأداء يهود أمريكا. ولدى دراسته المشهد الأمريكي، رأى أن الجالية اليهودية الأمريكية كانت تعاني الانقسامَ العميق نفسه الذي سبق له أن اكتشفه في بريطانيا. فبالمقابلة مع القادمين الجدد، كان اليهود الأطول إقامة هناك قطعوا شوطًا أطول على طريق الاندماج والذوبان في البوتقة. وبالنسبة إلى وضع أمريكا كانت عبارة «وقت طويل» تعني أقل بكثير من قرن، نظرًا لأن أكثر اليهود استقرارًا فيها (باستثناء بقايا (سفاردية) غير ذات شأن عدديًا، موزعة على نطاق واسع، ومندمجة اندماجًا شبه كامل) كانوا منحدرين من مهاجرين يتحدثون اللغة الألمانية يعود تاريخ هجرتهم إلى أربعينيّات القرن التاسع عشر. أما هجرة يهود أورُبّة الشرقية إلى الولايات المتحدة فبدأت في ثمانينيّات القرن التاسع عشر، وكانت على نطاق أوسع بكثير من نظيرتها المتوجهة إلى بريطانيا العظمى. وكان المراقبون المتيقّظون بدؤوا يتكهنون بأن الأمريكيين [اليهود] سرعان ما سيصبحون كبرى الجاليات اليهودية خارج بولندا. كانت الصِهْيَوْنيّة في بريطانيا، وهي التي لم تكن بَعْدُ إلا عصبيّةً أقلية، أقوى بكثير نسبيًا بين صفوف الأورُبّيين الشرقيين، اليهود الناطقين باللغة اليديشية.

وانطلاقًا من حسابات اتجاهات الهجرة الحديثة، كانت آفاق انتصار الصهاينة على غير الصهاينة، آخر المطاف، أرحب في الولايات المتحدة منها في بريطانيا.

3 . 2) التراث الإعادي في الولايات المتحدة

1 . 3 . 2) الجذور البيوريتيانية

توقع بيوريتانيو إنغلترا أن يحصلوا على بركة الرب جراء ترحيبهم باليهود في إنغلترا في أيام كرُمويل. فقد كانوا يعتقدون أن آخر أزمان الأمميين لم يكن بعيدًا، ولدى مجيء تلك الأيام كان الناس على نحو جماعي مرشحين لأن يضطلعوا بدور قورش الجديد عبر إصدار الإيعاز في إعادة اليهود إلى إسرائيل فتحًا للطريق أمام سلسلة أحداث "الأسبوع" الأخير قبل حلول العصر الألفي السعيد. وفي الوقت نفسه كان الرب سيعمد إلى رَوْز ثروات الأمم وفقًا للقاعدة الواردة في سفر التكوين (12 : 3) «وأبارك مباركيك [إبراهيم] وألعن لاعنيك، ويتبارك بك جميع عشائر الأرض».

والبيوريتانيون الذين ذهبوا إلى أمريكا أوصلوا الأمور إلى ما هو أبعد من ذلك.

غالبًا ما يقال: إن البيوريتانيين رأوا تجربتهم الخاصة المتمثلة «بالهروب إلى البراري» من أورُبَّة المنحوسة مساوية لتجربة اليهود الذين قادهم موسى

من مصر، غير أنها كانت أكثر بكثير من تجربة مساوية. لقد آمنوا بأن تجربتهم لم تكن في الحقيقة إلا تجسيدًا حيًا لتجربة الخروج. وقد فسَّروا تجربتهم على أنها تكرار للتاريخ الذي شكل شعب الرب القديم. وعلى سبيل المثال فإن كتن مذر (Cotton Mather) ما لبث، لدى إلقاء النظر على حياة جون وِنثروب (John Winthrop) مؤسس مستوطنة بي (Bay Colony) أن وجد هذه الحياة متشكلة من جميع القوى التي شكلت موسى:

ومن ثمَّ ما إن بادر بعض الأشخاص المرموقين إلى إنجاز المخطط النبيل المتمثل بإيجاد مستوطنة شعب مختار في إحدى البوادي الأمريكية، حتى تم اختيار هذا الشخص المرموق، بموافقة الجميع للاضطلاع بدور موسى الذي يَتَحَتَّم عليه أن يكون قائدًا لمشروع عظيم كهذا. وحقًّا، ما من شيء سوى روح موسوية كانت قادرة على تمكينه من عبور غابة الإغواءات التي كان لا بد لسيد بمستواه التعليمي الرفيع من أن يتعرض لها سواء في وطنه حصرًا أم لدى سفره عبر أراض غريبة.

وحين قضى الحاكم وِنثروب نحبه، جرى نقش كلمة تأبينية طويلة على شاهدة قبره تتناول الموضوع التالي:

فلتطمئن رعيّته الغارقة في الحداد،

صحيحٌ أن موسى مات، ولكن يسوع لم يمت،

وأنا إنما أقصد نورتون الشهير،

خير خلف لموسانا،

فلتسعدي يا إسرائيل الهنيئة في أمريكا

بهذا الموسى وبهذا اليشوع ![1].

مما لا شك فيه أن الانطباع العام القائل بقدرة إنغليز القرن السابع عشر على الوصول، دونما عناء، إلى جوهر تجربة شعب الرب وممارسته واتّباع ما يجدونه هناك في أنفسهم في البراري الأمريكية، كان ينطوي على قدر كبير من الوهم.

غير أن ما يهم هنا هو أنهم كانوا يعدون أنفسهم مضطلعين بذلك الدور، أن الأمر غرس فيهم حبًا عميقًا للسامية (وفي غياب أي يهود أحياء لممارسة هذا الحب عليهم حسب اعترافهم !). كانت له تأثيرات طويلة المدى يتعذر تقديرها. وما هو شديد الأهمية فيما يخص موضوعنا أن الأمر جعلهم يماهون أقدارهم الخاصة بمصاير اليهود التي تصوروا أنها منقوشة حرفيًا في الكتب المقدسة التي كانت شِرْعَة حياتهم الخاصة.

كان من شأن الحماسة الأمريكيّة لإعادة اليهود إلى إسرائيل، بعد استثارته، أن يثبت أنه أقوى من النزعة الإعادية الإنغليزية، لأنه أكثر حيوية ومستندًا إلى قاعدة أوسع. فالطبعة الأمريكية تضيف إلى الاقتناع الإنجليزي بمسؤولية خاصة عن إنقاذ اليهود المشتتين، الإيمان بأن أمريكا نفسها صُبت في ذلك القالب منذ بداياتها الأولى، وبأن مصير إسرائيل يعانق مصيرها.

ومع ذلك ألن يتبع أن ثمة دورًا لأمريكا تم تشكيله مسبقًا في النبوءة الكتابية، على نحو مستقل عن الدور الذي تم تشكيله مسبقًا لإنغلترا، ولا يقل عنه كرامة، ما لم تكن " تجربتهم " كلها بصفتهم أهل «المدينة المشادة فوق تلة» واحدة من الخدع أو الأضاليل الشيطانية؟

ولكن السؤال الذي يبقى هو: أين 'الولايات المتحدة' في الكتابات المقدسة النبوئية ؟

2 . 3 . 2) ' الأرض المظللة بالأجنحة '

خلال السنوات الأولى من حياة الأمة الجديدة، كُتبت أعدادٌ هائلة من الكتب والكراريس والمواعظ والخطب للإجابة عن هذا السؤال. غير أننا، على أيّ حال، سنتوقف عند مادة شديدة التأثير والنفوذ، نشرت في عام (1814 م) يشي بمضمونها عنوانها المطول: «[ترجمة جديدة لنبوءة إشعيا، الفصل الثامن والثلاثون مع هوامش نقدية وتوضيحية، نبوءة مثيرة للاهتمام، حول إعادة

اليهود، بمساعدة الأمة الأمريكية، مع دعوة شاملة إلى معركة الهرمجدون، ووصف لذلك المشهد المهيب] John McDonald: A New Translation of Isaiah, Chapter XVIII, with Notes Critical and Explanatory. A Remarkable Restoration of the Jews, Aided by the American Prophecy Respecting the Nation; with a Universal Summons to the Battle of Armageddon, and a Description of that Solemn Scene)[2].

كان مكدُونالد، المُهَوَّس بالموجة العاتية للنزعة الوطنية الأمريكية التي اكتسحت الأمة في أيام كفاح بريطانيا العظمى أثناء حرب عام (1812 – 1815 م) عكف على غربلة الكتب المقدسة بتلك الروح الحرفية نفسها التي كانت تحرك أقدم البيورتيانيين، فاهتدى (وفق زعمه) إلى ما لم يتمكن باحث كتابي سابق من الاهتداء إليه، حين اكتشف تلميحًا شديد الوضوح إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وجده، إضافةً إلى ذلك، هاجعًا في مركز القلب من نبوءة أعظم الأنبياء، وبلغة التعاليم الأكثر صراحة.

تدور قضية مكدونَالد كلها حول تفسير أحد أكثر فصول العهد القديم إيجازًا، أي: حول تفسير الفصل الثامن عشر من نبوءة إشعيا. فهذه النبوءة تتحدث عن «ويل لأرض حفيف الأجنحة عبر أنهار كوش، المرسلة رسلاً في البحر، في قوارب البردى، على وجه المياه. اذهبوا أيها الرسل العَجَالى إلى أمة طوال جرد، إلى شعب الأرض المَهيْب أينما كان، إلى أمّة قوية جبارة الخطى تقطع أرضها الأنهار».كان مكدونَلدَ مطلعًا على ما كان الإعاديون الإنغليز يقولونه عن الدور الذي كانت إنغلترا ستؤدِّيه في عملية إنقاذ اليهود المشتتين، غير أن هذا يتجاوز ذلك ويصل إلى ما هو أبعد. ففي (سيناريو) مكدونَلد ثمة «رسل/ سفراء» بالمعنى الحرفي لمندوبي الأمة الدبلوماسيين، سيتركز عملهم حرفيًا على السعي لإعادة اليهود 'المشتتين' إلى صِهْيَوْن، إلى: «مقر اسم الرب القدير، جبل صِهْيَوْن».

أي «رسل» ينطبق عليهم وصف إشعيا ؟ لا ينطبق هذا الوصف في الحقيقة إلا على سفراء الولايات المتحدة !

> **كانت سائر الأمم الأخرى، القديمة أو الجديدة، التي نحن على معرفة بتاريخها وعاداتها، القادرة على إرسال سفرائها عن طريق البر فعلت.. أما أمريكا فهي الدولة (الأمة) الوحيدة على الأرض التي لا تستطيع إرسال سفرائها إلى أيّ أمة أو دولة متحضرة أو تجارية إلا بحرًا.**

توصف الأرض التي تقوم بإرسال «السفراء» بمجموعة معينة من السمات التي لا يمكن إضفاؤها إلا على الولايات المتحدة. فالزعم أنها «خلف أثيوبيا» يعني أنها في أبعد الأماكن الممكنة خلف الأوطان والبلدان المعروفة لدى اليهود في ذلك الزمان. من المؤكد أن المكان يجب أن يكون أبعد من أورُبَّة بما فيها بريطانيا. ولكن ما هو أقوى تعبيرًا من سائر الأشياء الأخرى هو التلميح إلى «حفيف الأجنحة» في إشارة بالغة الوضوح إلى النسر الذي هو الشعار القومي للولايات المتحدة المنقوش على جميع شاراته المميزة والذي يذكّر (وهذه ليست مصادفة) بدور قورش، ملك فارس، الذي يقول عنه إشعيا نفسه (إشعيا 46: 10،11): إن الربّ «من المشرق أدعو الطير الكاسر، ومن البعيد مَنْ يحقق مقاصدي» ما لبث أن ظهر حقًّا، وقام حقيقة بإعادة اليهود إلى القدس، المرَّةَ الأولى.

3 . 3 . 2) اليهود والأرض المقدسة

لم يكن كتاب مكدونالد إلا واحدًا من عدد هائل من الكتب التي كانت دائبة في إلهاب الاهتمام الأمريكي بمستقبل اليهود في الأرض المقدسة. وفي الوقت نفسه كانت الأرض المقدسة نفسها تأخذ شكلاً أوضح في تصوراتهم مع قيام الجيل الأول من الآثاريين العلميين بتقديم تقاريرهم إلى العالم.

لعل المهيمن على الفصل الأول من (علم الآثار الكتابي) هو شخص إدوَرد رُبنسن (Edward Robison) الذي بادر، منذ عام (1837 م) إلى القيام بمسح شامل لتضاريس المباني الموجودة، وللمخلفات الأثرية في القدس وما حولها. فكتابه ([أبحاث كتابية في فلسطين، جبل سيناء، وبلاد العرب الصخرية] Biblical Researches in Palestine Mount Sinai and Arabia Petraea) الصادر عام (1841 م) تمخض عن الموجة الأولى من الاهتمام بعلم الآثار الكتابي. وقبل أن يمضي وقت طويل، كان نزاع مكتمل الأبعاد محتدمًا بين آثاريي مختلف الدول الأورُبّية، ولا سيَّما بين البريطانيين والأمريكيين والفرنسيين والألمان. وقد انطوى العمل الآثاري العلمي على اتباعات في ميادين أخرى، فرسم الخرائط ومسح السمات والموارد الطبيعية عادا منطويين على قدر من الأهمية بالنسبة إلى رجل الدولة والسياسي، وما لبثا أن باتا، وبسرعة، ممولين من الموازنات العسكرية، بما فيها ميزانية الولايات المتحدة العسكرية.

تم إيفادُ (المجلس الأمريكي لمفوضي البعثات الأجنبية ' السلطة التبشيرية التعددية الرئيسة '/ The principal inter-denominational missionary authority) أوائلَ المبشرينَ الأمريكان إلى يهود فلسطين في عام (1819 م) وقد كان هؤلاء المبشرون مزودين بتعهد يوافر الحماية الكاملة صادر عن وزير الخارجية جون كوينسي آدامز (John Quincy Adams). ولكن هؤلاء وخلفاءهم لم يكونوا أوفر حظًا بالنجاح من زملائهم البريطانيين. وكان من شأن اهتمامهم أن يتحول مع الزمن إلى السكان العرب. ومع ذلك فقد أسهمت قصصهم ذات الألوان الزاهية المروية مرة بعد أخرى على مسامع أطفال مدارس أيام الأحد خلال العقود المتوسطة من القرن التاسع عشر، في إبقاء حلم إعادة يهود أورُبَّة إلى الأرض المقدسة، وهدايتهم هناك جماعيًا إلى الديانة المسيحية، بفضل الجهود التبشيرية الأمريكية، نابضًا بالحياة.

وهكذا فإن الأرض المقدسة تضخمت أكثر فأكثر في التصور العام منذ

أعوام عقد أربعينيات القرن التاسع عشر فصاعدًا. وبات معظم الأمريكيين يجدون التفكير بالأرض المقدسة دون التفكير أيضًا باليهود وبحيازتهم المستقبلية المؤكدة لها أمرًا مستحيلاً.

4 . 3 . 2) بدايات الاهتمام الأمريكي الرسمي بالمسألة اليهودية

تركز الاهتمام الأمريكي العام على نحو حاد المرةَ الأولى على قضية مستقبل اليهود جراء (قضية دمشق) التي وقّعت في عام (1840 م). ففي ذلك العام تفجرت أعمال شغب استهدفت اليهود في تلك المدينة. وكانت خلفية الأحداث إعادة إثارة (قصة دم تشهيرية) قديمة (حركها عن قصد، كما قيل، عملاء فرنسيون في سورية، رغبة في توفير العذر لتدخل فرنسا بصفتها حامية المسيحيين). فضّلت السلطات العثمانية أن تغض النظر، ولكن قنصلي الولايات المتحدة في الإسكندرية والقسطنطينية تلقيا توجيهات تقضي «بتوظيف مساعيهما الحميدة من أجل خدمة السلالة اليهودية المظلومة والمضطهدة». وهذا التحرك من جانب رئيس الجمهورية مارتِن فان بورِن (Martin Van Buren) ووزير الخارجية جون فورسايث (John Forsyth) ظَل يذكر لاحقًا بصفته سابقة للكثير من التصريحات المستقبلية المتعلقة «بالاهتمام» الأمريكي برخاء السكان اليهود المقيمين في وطن العثمانيين المتفسخ المنحط.

وخلال ثمانينيات القرن التاسع عشر وجدت الولايات المتحدة نفسها أكثر تورطًا في مصاير يهود العالم نتيجة تدهور أحوال اليهود في الإمبراطورية الروسية. فتضافر آثار المذابح والمواسم الزراعية بالغة السوء والقسوة في هذه الإمبراطورية ما لبث أن دفع بالملايين من اليهود إلى الهجرة. تمكن مئات الآلاف من هؤلاء، مع الزمن، من الوصول إلى الولايات المتحدة، ولكن حماسةً متأججةً للهجرة إلى صِهْيَوْن كانت تتصاعد وتتنامى في أفئدة ملايين كثيرة أخرى. وفي مواجهة ذلك، قررت السلطات التركية أن لحظة إغلاق باب

الهجرة الشرعية إلى أراضي الإمبراطورية قد أزفت.

وفي حين كانت أمواج المهاجرين اليهود القادمين من الإمبراطورية الروسية تتدفق على الولايات المتحدة، طلب الكونغرس في آب/ أغسطس عام (1890 م) إلى وزير الخارجية جيمس بلين (James G. Blaine) تزويده بمعلومات عن الوضع، فقام بدوره بتكليف سفيره إلى روسيا بإثارة جميع هذه المسائل مع وزير الخارجية الروسي، مؤكدًا وجهة النظر الأمريكية القائلة: إنَّ «على كل 'حكومة' أن تمارس نفوذها مع أخذ النتائج التي تتمخض عنها مثل هذه الممارسة بالنسبة إلى باقي العالم بالحسبان الجدي». وقد قام الرئيس بنغمِن هَرِسن (Benjamin Harrison) بإبلاغ الكونغرس نتائج هذه الاتصالات في خطابه السنوي عامَ (1891 م) قائلاً: «تمكنت هذه الحكومة من اغتنام الفرصة المناسبة للتعبير، بروح ودّية، ولكن بقدر كبير من الجدية والحزم، لدى حكومة القيصر، عن قلقها الشديد بسبب التدابير القاسية المتخذة إزاءَ العبرانيين في روسيا»[3].

4 . 2) وليم بلاكستون ومذكرته

1 . 4 . 2) وليم بلاكستون (1841 - 1935 م)

تبلغ وليم يوجين بلاكستون (William Eugene Blackstone) المولود في آدامز (Adams) بمقاطعة جفرسون (Jefferson County) في ولاية نيويورك، من أسرته، أنه سليل الباحث الحقوقي العظيم في القرن الثامن عشر وليم بلاكستون. غير أن شيئًا من ظروف عائلته لم يكن يعكس هذه التركة المتميزة. فأبوه كان عامل تمديدات صحية، كما كان بيت الطفولة، في ذاكرة وليم «متواضعًا». كانت آدامز هي البلدة التي شهدت اهتداء تشارلز غراندسن فيني (Charles Grandison Finney) وتركه مهنة المحاماة، ومباشَرته الاضطلاع بالدور الطليعي في اتباع مناهج المذهب الإحيائي (Revivalism) ولاهوته الذي قام بصياغة شكل العقيدة البروتستانتية الأنغليكانية منذ ذلك التاريخ. كانت اجتماعات الإحياء مستمرة بوتيرة لم تشهد أي تباطؤ حين جرى «إنقاذ» ابن السنوات العشر وليم في أحد هذه الاجتماعات. ومع أنه لم يذهب إلى أيّ

كلية أو معهد، كما لم يتم وقفه قسيسًا قط، فقد سَلَخَ حياته كلها وهو يعمل معلم كتاب شعبيًا وواعظًا. وبُعيْد زواج وليم من سارا لويز سْمِث (Sarah Louise Smith) عام (1866 م) توفي حموه مخلفًا وراءه تركة كبيرة، مع وصية تضع التركة تحت إدارة وليم لدعم النشاطات الأنغليكانية التبشيرية. استقر الزوجان بلاكستون في مدينة روكفورد بولاية إيلينويز، حيث حقق وليم نجاحًا كوكيل تأمين، وأصبح مزدهرًا بفضل الاستثمار الحكيم في العقارات. وفيما بعد ترك العمل والتجارة ليتفرغ للعمل أنغليكانيًا. أما أمواله الموظفة بطرق عاقلة مضافة إلى الثروات التي وضعها حموه تحت تصرفه فقد مولت أسفاره وطباعة كتبه وكراريسه وتوزيعها.

في إحدى هذه السنوات المبكرة من حياته أنغليكانيًا متفرغًا، كسبته مدرسة إعادة التفسير الكتابية المعروفة باسم (التدبيرية/ Dispensationalism).

ثمة الكثير من الأشياء الشاذة والغريبة في حياة وليم يوجين بلاكستون. فبعد وفاته في السابع من تِشْرين الثاني/ نوفمبر عام (1935 م) لم يحظ بأي نعي في صحيفة «[النيويورك تايمز]» كما لم يتم ذكر أي من نشاطاته في هذه الصحيفة، بمقدار ما يبينه «[دليل نيويورك تايمز] New York Times Index» عدا المادة الموجزة يوم قيامه بتقديم مذكرته إلى الرئيس بنغمِن هَرِسن في الخامس من آذار/ مارس عام (1891 م). لم تذكر سيرة حياته الوحيدة إلا من خلال كتيّب قامت جمعية تبشيرية مغمورة بنشره وتوزيعه. وبمقدار ما أستطيع أن أكتشف فإن اسمه لا يظهر في أي مكان، ولا في أيّ رواية تاريخية عامة للتاريخ السياسي أو الفكري أو الثقافي أو الديني الأمريكي. صحيح أنه يحظى أحيانًا ببضع فقرات في بعض الكتب البحثية عن الأصولية الأمريكية (American Fundamentalism) ولكن لا شيء يقارب الاهتمام الذي يستحقه. فقد كان وليم بلاكستون إحدى أكثر الشخصيات الدينية نفوذًا وإثارة للإعجاب في جيله، إذ كان كاتبًا ومحاضرًا وواعظًا ومبشرًا ومؤلفًا لأحد أكثر

الكتب تداولاً في عصره، في حين هو، من منظور اهتمامنا في هذا الكتاب، واحد بين حفنة من العناصر الأمريكية الفعالة الأقوى نفوذًا في صنع التاريخ المفضي إلى تأسيس دولة إسرائيل عام (1948 م).

من المؤكد أنه ليس منسيًا في إسرائيل إذ يستطيع المرء أن يرى في مُتْحَف هِرتْسِل الكتاب «مع الكثير من المقاطع النبوئية المهمّة المعلمة للفت النظر» الذي أرسله بلاكستون إلى المؤسس، وحيث يمكن المرءَ أن يزور غابة بلاكستون. فبين أوساط دارسي تاريخ الصِهْيَوْنية السياسية ثمة اعتراف عام بدوره الكبير. لقد كان أوفر حظًا من وليم هِتشلر على هذا الصعيد.

قامت (لجنة طوارئ الشؤون الصهْيَوْنية / The Emergency Committee for Zionist Affairs) في نشرتها الرسمية '[وقائع وتعليقات] Fact and Comment' الصادرة في الرابع عشر من آذار/ مارس (1941 م) بإحياء الذكرى السنوية لِ(مذكرة بلاكستون/ Blackstone Memorial) وأوصت الصهاينة بالعودة إلى تلك الوثيقة لمراجعة «المبادئ الصِهْيَوْنية الأساسية الثلاثة التي ينبغي اليوم توكيدها»[:]

> **لا بد للحل الصِهْيَوْني، أولاً: أن يكون متناسبًا مع ضخامة المشكلة اليهودية، وثانيًا: يجب السعي لمشروع تحويل فلسطين إلى وطن يهودي عبر تحرك سياسي دولي، وعلى المشروع، ثالثًا: أن يحظى بقدر واسع من التعاطف الكامن في أعماق وعي الشعب الأمريكي.. 'فمذكرة بلاكستون' تقدم، في الحقيقة، الحل الوارد في 'دولة اليهود' نفسه. يستحق بلاكستون أن يحتل مرتبة مميزة بصفته أحد أهم مبشري الصِهْيَوْنية السياسية**[1].

في الذكرى الخامسة والسبعين ليوم الخامس من آذار/ مارس عام (1891 م) الذي شهد قيام بلاكستون بتقديم (المذكرة) إلى الرئيس بنجمِن هَرسن عقدت مجموعة من القيادات الدينية اجتماعًا في نيويورك بتاريخ (5/ 3/

1966 م) تكريمًا للذكرى. وحمل بيانهم الصحفي (الذي لم تأت جريدة [النيويورك تايمز] على ذكره) تواقيع ستة عشر زعيمًا دينيًا، مسيحيًا ويهوديًا، بمن فيهم الكاردنيال سبلمن (Cardinal Spellman) ومدير (مجلس نيويورك البروتستانتي/ Protestant Council of New York). وقد أشار الموقعون إلى أن بلاكستون، مع أنه لم يعش حتى تأسيس الدولة، كان من شأنه «أن يُبْرِز بفرح جملة المقاطع الكتابية التي تُقْرَأ اليوم كما لو كتبت لزماننا تحديدًا»[2].

حظي بلاكستون، في أثناء حياته، بتكريم الصهاينة الرسميين أكثر من أي صديق مسيحي أمريكي آخر. ففي إحدى مراسلاته مع بلاكستون أبدى القاضي بْرَنْدَيْس رأيه بالرجل قائلاً: «إنك [بلاكستون] أبو الصِهْيَوْنية، لأن عملك كان قبل هِرتْسِل»[3]. وقد تم التعبير عن هذه العاطفة بقوة مساوية على الملأ في اجتماع (مؤتمر اللجنة المؤقتة/ Provisional Committee Conference) بفيلادلفيا في الثاني من تموز/ يوليو عام (1916 م). ففي تلك المناسبة قام بْرَنْدَيْس بتقديم ' الحليف الأهم للصِهْيَوْنية في أمريكا خارج صفوف اليهود، القس وليم بلاكستون بصفته ضيف الاجتماع الخاص قائلاً':

إن من قرأ منكم بعناية العريضة التي نشرها السيد بلاكستون وتقدم بها 'إلى' رئيس جمهورية الولايات المتحدة قبل خمسة وعشرين عامًا ملتمسًا مبادرته إلى استخدام نفوذه لدراسة مشكلات اليهود بهدف إعطاء فلسطين لهم، وأرجو أن تكونوا جميعًا فعلتم، لا بد أنه أصيب بالدهشة جراء المصادفة غير الاعتيادية المتمثلة بأن الحجج التي استخدمها السيد بلاكستون في ذلك الطلب كانت إلى حد كبير هي الحجج نفسها التي ساقها هِرتْسِل العظيم بعد خمس سنوات لدى السعي لإقناع العالم بحاجات الشعب اليهودي وآماله. وتلك المصادفة المتمثلة بتطابق الحجج المقدمة في أمريكا مع أخرى قدمها هِرتْسِل فيما بعد دون أن يعلم بحقيقة ما حصل في أمريكا، تبين مدى وضوح تلك الحجج وقوة أسسها. إنها [الحجج] تبلغ كل الرجال المكلفين بالنظر، نظرة سياسية وواضحة، إلى مشكلات الشعب اليهودي[4].

مرة أخرى جرى تكريم بلاكستون على الملأ في اجتماع صِهْيَوْني كبير عقد في لوس أنجلس في السابع والعشرين من كانون الثاني عام (1918 م). إنها شهادة غير عادية على الاحترام الذي كسبه اسم بلاكستون وعمله بين الصهاينة أن يجلس المجتمعون في تلك المناسبة أمامه باحترام في حين قام هو بإلقاء موعظة حماسيّة دعا فيها الجمهور إلى التوبة والاهتداء. وفي وصفه لجذور قناعته الصِهْيَوْنية قال للحضور:

إنني نصير متحمس للصِهْيَوْنية وقد كنت كذلك منذ ما يزيد على ثلاثين سنة. يعود السببَ إلى أنني أعتقد أن الصِهْيَوْنية الصحيحة قائمة على خطة الرب الأبدي الكليّ القدرة وغايته ومشيئته، كما ورد نبوئيًا في كلمته المقدسة، ‹الكتاب›.. 'ثمة' ثلاث طرق فقط مفتوحة أمام كل يهودي.. الأولى هي أن يصبح مسيحيًا حقيقيًا، مسَلِّمًا بيسوع ربًا ومخلصًا، وهذا ما لا يجلب الغفران وتجديد الشباب فحسب، بل يضمن النجاة أيضًا من زمن البلايا التي لا نظير لها الذي يتقدم ليعم الأرض كلها.. والثانية، هي أن يصبح صِهْيَوْنيًا حقيقيًا فيتمسك بالآمال القديمة للآباء، وبالخلاص المؤكد لإسرائيل، عبر مجيء مسيحهم، وباستكمال البعث القومي والاستقرار الدائم في الأرض التي منحها الرب لهم. صحيح أن هذا يمر عبر بحر لا مثيل له من الآلام، كما جاء في نبوءة إرميا خصوصًا.. 'وثمة، ثالثًا طريق' دعاة الاندماج والذوبان في البوتقة. إنها طريق اليهود الذين لن يكونوا مسيحيين أو صهاينة. فهم يريدون البقاء في الدول المختلفة مستمتعين بنعمهم وامتيازاتهم الاجتماعية والسياسية والتجارية.. آه يا أصدقائي اليهود، أيّ من هذه سيكون طريقكم؟.. يقول الرب: إنكم أعزاء على قلبه.. لقد زرع في قلبي حبًا طاغيًا لكم جميعًا، وهو ما جعلني أتحدث بهذا الوضوح. ادرسوا كلمة الرب الرائعة هذه.. فتروا بوضوح كيف أن الرب نفسه قد كشف النقاب عن طريق إسرائيل المفضية إلى يوم الكمال[5].

2.4.2) ' التدبيرية '

مع أن معظم العناصر التي تؤلف ما يطلق عليه اسم (التدبيرية) ظهرت على امتداد القرون، فإن (تدبيريي) القرن التاسع عشر يشكلون مدرسة متميزة من المؤولين الذين ينتمون إلى معلم محدد يدعى جون نِلْسُن داربي (John Nelson Darby[1] 1880 - 1882) وخطة معقدة وضعها، خطة يتم فهم مجمل تاريخ الجنس البشري منذ آدم بموجبها كسلسلة متتابعة من عمليات (التدبير) يباشر الرب خلال كل منها تعامله مع البشرية وفق (ميثاق) مختلف. وإذا تركنا سائر الأجزاء الصعبة والمعقدة، فإن 'التدبير' الحالي هو الأخير، قبل عودة المسيح. وخلال هذه الفترة ينخل البشر، ويجري إعدادُ الربِّ الباقيَ من المسيحيين الحقيقيين، لعملية (البهجة الكبرى/ The rapture) أي لعملية النقل المفاجئة دونما أي إنذار من دائرة التاريخ في اللحظة التي تسبق المحنة الكبرى (زمن مصاعب يعقوب) التي تكون بدورها سابقة لعملية عودة المسيح الثانية. لعل العنصر المذهبي الحاسم الذي يربط سائر الجماعات الفرعية للعقيدة (التدبيرية) هو أن البهجة الكبرى للكنيسة الحقيقية تترك الأمة اليهودية حيث هي، تواجه الفصل الأخير (الأسابيع السبعة) من التاريخ الذي يتكلل بعودة يسوع المسيح.

أما من وجهة نظرنا الحالية فإن العنصر المميز للتدبيرية هذا الفصل البديهي الجامد بين تاريخ الكنيسة (كيف تطور منذ عيد الحصاد أو العنصرة، وكيف سينتهي) وتاريخ اليهود (كيف يسير منذ تدمير الهيكل الثاني، وكيف سينتهي ذلك). ومن ثَمَّ فهناك التسلسل التالي: هناك «البهجة الكبرى» ثم العد التنازلي للأحداث التي تسبق عودة المسيح مباشَرة «' الأسابيع السبعة ' عند دانيال» فعودة المسيح، ومن ثم افتتاح العصر الألفي السعيد. وهذه الأحداث كلها تنتظر إعادة اليهود إلى دولتهم الإسرائيلية.

علينا قبل كل شيء أن نلاحظ أن هذه القناعات العَقَدية الجامدة (dogmatic) تضفي نوعًا من الدوام والاطراد على حماسة الأصوليين للشعب اليهودي (ولدولتهم بعد تحققها) هذه الحماسة التي يندر وجودها بين صفوف المسيحيين من أتباع لاهوت أكثر (ليبرالية) أو (عقلانية). فمنذ البدايات الأولى لتعاملهم مع الأصوليين لاحظ الصهاينة الهِرتْسِليون أن ولاء الفئة الثانية «أتباع اللاهوت الأكثر (ليبرالية) وعقلانية» ليس ناشئًا عن جملة من الحجج القائمة على العدالة المجردة أو عن حسابات سياسة النفوذ العالمية، إضافةً إلى أن هذا الولاء ليس مرتكزًا على مزاعم تتحدث عمَّا يمكن المسيحيينَ أن يكونوا مدينين به لليهود في سبيل التعويض عن مظالم سابقة.

صحيح أن المرء لا يحتاج إلى المرجعية التدبيرية (the authority of Dispensationalism) ليتوصل إلى الاستنتاج الذي استخلصه داربي وأتباعه حول إسرائيل ومستقبلها، فعلينا مثلاً أن نلاحظ أن وليم هِتشلر وصل إلى قناعاته دون الإفادة من التدبيرية على ما يبدو بوضوح، غير أن كتابات هِتشلر، من الجهة المقابلة، لم تصبح قط مراجع موثوقة بنظر مدرسة تأويلية ذات قاعدة عريضة، كما حصل لكتابات داربي، التي اهتمت بالتركيز على القراءة اليومية للكتاب والصلوات اليومية لملايين الأمريكان.

في أعقاب سلسلة من الزيارات المطولة التي قام بها جون داربي إلى الولايات المتحدة منذ عام (1862 م) فصاعدًا، ترسخ الشكل التدبيري لتعاليم ما قبل الألفية في قلب الحوزة الدينية التي دأبت في إبقاء التراث (البيوريتاني) المتمثل بالبروتستانتية الإحيائية أو 'الأنغليكانية' ("evangelical" or revivalist Protestantism) نابضًا بالحياة. ولعل أحد العناصر القوية في تلك القصة هو نجاح ‹[كتاب سكفيلد المرجعي] Scoffield Bible Reference› الذي ظهر المرَّة الأولى عام (1909 م). ودون أدنى شك، لم يكن أكثر أدوات النظرة العالمية التدبيرية نفوذًا فقط، بل أوسع أدوات التوجيه الديني الشعبي انتشارًا

في مجمل تاريخ الولايات المتحدة أيضًا.[6] وجزئيًا بسبب ‹[كتاب سكفيلد]› كانت النزعة التدبيرية فيما قبل الألفية، عشية الحرب العالمية الأولى، التفسير المفضل لدى البروتستانتيين الذين كانوا (محافظين) في اللاهوت و(إحيائيين) أو (أنغليكان) في الممارسة، وكان الكتاب المسؤول بالدرجة الأولى عن نشر هذا التفسير في ذلك الوقت هو: ‹[يسوع قادم] Jesus is coming› من تأليف وليم بلاكستون.

3 . 4 . 2) يسوع قادم

لم يكن ‹يسوع قادم› في طبعته الأصلية الأولى عام (1878 م) إلا كراسًا ورقي الغلاف من (96) صفحة جرى تعريف مؤلفه بأنه وليم بلاكستون فحسبُ. وفيما بعد تمت مراجعة العمل وتوسيعه مرتين قبل عام (1916 م). لقد تم توزيع ما يزيد على مليون نسخة من تلك الطبعة (الموسعة ذات 250 صفحة) في تلك الأثناء. وتُرجم الكتاب إلى ما لا يقل عن (43) لغة بما فيها العبرية. كما جرى تطوير وجهة النظر التدبيرية في الكتاب على نحو متعمد وعبر الاستناد إلى منظومة هائلة من الإشارات إلى الكتابات المقدسة عندً كل منعطف.

ما يهمنا هنا هو المقطع (البادئ على الصفحة 161) الذي يتناول فيه بلاكستون الوضع الحالي لليهود والحركة الصِهْيَوْنيَّة المعاصرة على نحو مكشوف. فهنا يلفت بلاكستون أنظارنا إلى التاريخ الفريد لليهود، إلى معجزةً استمرارهم الصامد إلى يومنا هذا:

> **قال فريدرك الأكبر لقسيسه: إذا كان دينك صحيحًا، يا دكتور، فإن عليه أن يقدم برهانًا وجيزًا وبسيطًا جدًا. هل لك أن تعطيني دليلاً على صحته بكلمة واحدة؟ أجابه الرجل الطيب: 'إسرائيل'.**
>
> **الأمم الأخرى تأتي وتذهب، أما إسرائيل فتبقى. يقول الرب عنها، 'هنيهة هجرتك وبمراحم عظيمة أضمك. في سورة غضب حجبت**

وجهي عنك لحظة وبرأفة أبدية أرحمك قال فاديك الربإ'» (إشعيا 54: 7-8..).

في عملية الإعادة الأولى لم يعد من بابل إلا من كان صاحب عقل (عزرا 7: 13) في حين بقي الكثير هناك كما في مصر وغيرها، ولكن أحدًا لن يتم تركه في المستقبل، أو في عملية الإعادة الثانية [يستشهد بنبوءتي إشعيا (43: 5-7) وحزقيال (34: 11-13 و 39: 28-29]..

في عملية الإعادة الأولى لم يعد سوى اليهود.

في عملية الإعادة الثانية، أو المستقبلية، ستكون يهوذا (السبطان) وإسرائيل (الأسباط العشر) مشمولة [نبوءتا إرميا (3: 18) وحزقيال (36: 10، 37: 15-22]..

في عملية الإعادة الأولى عادوا ليطاح بهم وليطردوا ثانية، أما في الثانية فسيعودون ليبقوا، ولن يرحلوا مرة أخرى. سوف يُمجَّدون وسيعيشون في أمان، والأميون سيتدفقون عليهم [عاموس (9: 15) وحزقيال (34: 28 و36: 11-12) وإشعيا (60: 15-16)]..

أما تفاصيل طريقة إعادتهم وتوبتهم، [أي] قبولهم بالمسيح، فليست شديدة الأهمية بالنسبة إلينا. فأولئك التابعون للكنيسة سيتم نقلهم أولاً، في أثناء البهجة الكبرى، فينجون من جميع هذه الأشياء التي يَتَحَتَّم على إسرائيل أن تمر بها[7].

سيعلم أولئك الذين درسوا (التدبيرية) من الخارج أن المؤلف، في تناقض مباشَر مع هذا الإنكار للاهتمام 'بتفاصيل' (السيناريو) المفضي إلى آخر الأزمان، سيبادر إلى الكشف عن المشير الدال على انشغاله المفرط (بالعلامات) التي عثر عليها في الجريدة اليومية.

ففي مقطع من الواضح أنه كُتب قبل بضع سنوات من اندلاع الحرب العالمية الأولى كتب يقول:

نحن نؤمن، إذا كنا قادرين على قراءة علامات الأزمان على نحوٍ صحيح،

أن ثلاثي الشيوعية [،] والعدمية والفوضوية الذي لا يعترف بالرب ولا بالقانون، الذي بات اليوم طاغيًا على الأمم على نحو مرعب جدًا، ليس إلا ثلاث أرواح ملوثة تمهد الطريق لظهور المسيح الدَّجال[8].

ليس تاريخ إسرائيل، كما يقول بلاكستون، إلا «مزاولة الرب».

إذا أردنا أن نعرف مكاننا على مسار تسلسل الزمن وموقعنا في مسيرة الأحداث، فما علينا إلا أن ننظر إلى إسرائيل. فاليهود يعودون إلى القدس منذ الآن. يقال: إن العدد الإجمالي للسكان اليهود في فِلَسْطِيْن بات أكثر من (80٬000) ومن ثَمَّ فإن عدد من رجع أكبر من (49٬697) الذين خرجوا برفقة زروبابل من بابل (عزرا 2: 64-65).

أدت التحريضات المعادية للسامية في ألمانيا والنمسا وفرنسا، وعمليات الاضطهاد القاسية في روسيا ورومانيا إلى إثارة يهود العالم وراحوا يفعلون ما يفعله النسر بعشه (التثنية 32: 11).

ما لبثت الآمال والتطلعات القومية أن وجدت متنفسًا لها في تنظيم جمعيات أحباء صِهْيَوْن وروابط ›شوا صيون‹ [استيطان صِهْيَوْن] في مختلف أرجاء أورُبَّة وأمريكا. يتم شراء الأراضي ويجري جمع التبرعات والأموال، وفق خطط قائمة على التقسيط، لإعادة الأعضاء بالقرعة.. أما القبضة التركية على البلد فتتعرض للوهن المستمر، وثمة كلام غير قليل عن دولة يهودية. أولا يمكننا أن نستخلص أن الرب بدأ من الآن بوضع 'يده مرة أخرى للإسهام، المرَّةَ الثانية، في إعادة شعبه؟' [مستشهدًا بنبوءة إشعيا 11: 11]..

يوصلنا هذا إلى الكلام عن الصِهْيَوْنيَّة التي هي الحركة الحالية لليهود الساعين إلى العودة إلى أرض آبائهم[9].

ويكتشف بلاكستون في قلب الصِهْيَوْنيَّة المعاصرة مجموعة متباينة من الدوافع والطموحات الممتدة بين المعتقدات الدينية (للأرثوذكس) ورؤى العلمانيين.

يندفع اليهود (الأرثوذكس) الذين انضووا تحت لواء الصِهْيَوْنيَّة انطلاقًا من أكثر الدوافع الدينية ورعًا وإخلاصًا.. أما يهود حركة الإصلاح "الديني" أو النيولوجيون (Neologists) فسرعان ما تخلوا عن إيمانهم بإلهام الكتب المقدسة. لقد ألقوا بجميع الآمال القومية والمسيحيّة في مهب الريح. راح حاخاماتهم يعظون بنشوة حول رسالة اليهودية، مع التحاقهم بركب أشد المنتقدين جذرية في عملية تدمير الأساس حصرًا، إلهام كلمة الرب. بل تاه بعضٌ في بوادي اللاأدرية (agnosticism).

ومما يثير الاستغراب أن الجناح الآخر من الحزب الصِهْيَوْني يأتي من بين صفوف هؤلاء اللاأدريين ولم يكتف بالانتساب إلى الحزب فحسبُ بل قدم قادته من أمثال الدكتور ماكس نورداو الباريسي (Dr. Max Nordau) والدكتور تيودور هِرتْسِل الفيّيناو أيضًا.. و"هؤلاء اللاأدريون" يؤكدون أن هذه ليست حركة دينية أبدًا، وليست سوى حركة اقتصادية وعصبية خالصة. لقد قام مؤسسها وزعيمها الرئيس، الدكتور هِرتْسِل باحتضانها بصفتها ملاذًا أخيرًا هربًا من ملاحقات عداء السامية الذي بات راسخ الجذور بين صفوف جماهير الشعب النمساوي. انتحَلَ الفكرة التي تقول: إنَّ من شأن نجاح اليهود في استعادة فِلَسْطِيْن وإقامة حكومة، ولو في ظل حماية السلطان، أن يمنحهم هوية قومية كفيلة بامتصاص معاداة السامية من أمم العالم الأخرى، وأن يمكن اليهود جميعًا من العيش المريح بين ظَهْرَانَي أيّ أمة يشاؤون.

قابل الحاخامات الألمان مع جزء كبير أيضًا من الصحافة اليهودية الدعوةَ التي أصدرها الدكتور هِرتْسِل باسم المؤتمر الصِهْيَوْني المعقود في بازل السويسرية عام (1897 م) بمعارضة شديدة، جنبًا إلى جنب مع جمهور اليهود الأغنياء من الإصلاحيين. غير أن أكثر من مئتي مندوب من سائر أرجاء أورُبَّة والشرق مع عدد من الولايات المتحدة اجتمعوا وأدَّوا بَرْنَامَج المؤتمر بحماسة كبيرة.. ومن اللافت للنظر أن هذا المؤتمر الصِهْيَوْني الأول تم عقده بعد مضي (1260) سنة بالتمام والكمال على قيام المحمديين في عام (637 م) باحتلال القدس(دانيال 12: 7)(10).

4.4.2) وليم بلاكستون والصهاينة

في الرابع من تِشْرِين الثاني/ نوفمبر عام (1887 م) بادر بلاكستون وأصدقاؤه إلى تأسيس (لجنة شيكاغو للعمل المسيحي العبري/ Chicago Committee for Hebrew Christian Work) (تحولت فيما بعد إلى: بعثة شيكاغو العبرية Chicago Hebrew Mission) (1891 م) ومن ثم في (1953 م) جرت إعادة التسمية إلى (الزمالة المسيحيّة الأمريكية / American Messianic Fellowship). واستمرت حماسة بلاكستون للعمل التبشيري الفعلي بين صفوف اليهود دونما توقف أو خفوت إلى اليوم الأخير من حياته.

حققت [بعثة شيكاغو العبرية] منذ بداياتها الأولى نجاحًا أكبر بكثير من أيّ بعثات بريطانية أو أمريكية بين يهود فِلَسْطِيْن. وكتفسير جزئي لهذا النجاح يقول ياكوف آرييل (Yaakov Ariel):

> **اعتمدت البعثات التدبيرية، بما فيها [بعثة شيكاغو العبرية] لبلاكستون موقفًا تجديديًا. فيما مضى، كان يفترض في اليهود المهتدين إلى المسيحيَّة أن يصبحوا أمميين ومسيحيين في آن واحد. كان ينتظر منهم أن يديروا ظهورهم إلى تراثهم اليهودي وأن يتخلوا عن جميع الروابط مع الجالية اليهودية. فالماضي اليهودي كان يعد عجزًا شائنًا لا بد من التغلب عليه.**

وهذا «الاختلاف في الموقف» كان ناشئًا عن تباين مميز للاهوت. ويلاحظ آرييل أن (التدبيريين) على النقيض من حال بعثات تبشيرية بروتستانتية أخرى «كانوا يؤكدون أهمية الأمة اليهودية في الأحداث العظيمة التي كانت ستسبق إقامة المملكة الألفية، ودورها القيادي في المملكة الألفية نفسها»[11]. وهكذا فإن منظمة بلاكستون لم تكن، ويا للمفارقة! تتصور، مع حماستها الشديدة وغير العادية لهداية اليهود، وهي مساوية بالتأكيد لحماسة البعثات التبشيرية الأخرى المستهدفة اليهود في أي مكان آخر، الهداية الكاملة لهم.

يبدو أن الكثير من اليهود (الأرثوذكس) عدوا بلاكستون روحًا قريبة، في غمرة محاربة ضياع الهوية اليهودية. صحيح أن الخطر الكامن في فتح الباب لبلاكستون ومبشريه كان واضحًا أمام أنظارهم، ولكن الإغراءات التي كانت تدفع المرء نحو فقدان روحه اليهودية كانت تحيط به من كل جانب في أمريكا. كان ثمة رجل وحركة حليفان، في نقطة واحدة على الأقل، هي نقطة حماسة الرجل لإعادة توجيه اهتمام اليهود إلى كتبهم المقدسة وإلى المستقبل المسيحيّ.

لم يكن (التدبيريون) جميعًا صهاينة مسيحيين. وقد كان آرنو غبلاين (Arno C. Gabelein) الذي دأب في التحذير من التحالف مع الصهاينة من أشهر الوعاظ التدبيريين.

> **الصِهْيَوْنيَّة ليست إعادة إسرائيل الموعودة من السماء.. [و] ليست عملية تحقق العدد الكبير من النبوءات الواردة في أسفار العهد القديم المقدسة، التي تروي قصة عودة إسرائيل إلى الأرض. وحقًّا فإن الصِهْيَوْنيَّة لا توظف إلا القليل جدًا من الحجج المأخوذة من كلمة الرب. إنها أقرب إلى أن تكون مشروعًا سياسيًا خيريًا أو إنسانيًا. فبدلاً من التجمع أمام الرب، من مناجاته بالاسم، ومن وضع الثقة به، كونه قادرًا على إنجاز ما وعد به كثيرًا، يتحدثون عن ثرواتهم، وعن نفوذهم، وعن مصرفهم الاستعماري ويغازلون السلطان. ليست الحركة العظيمة إلا حركة كفر وثقة حصرًا بدلاً من أهداف الرب السرمدية**(12).

لم يكن للاختلاف بين بلاكستون وغبلاين حول هذه المسألة أيّ علاقة بما نطلق عليه اليوم اسم (المواقف العنصرية). فقد كان كلاهما شديدي الولاء للسامية. أما الخط الذي كان يفصل بينهما فقد كان خطًا لاهوتيًا. إنه في الحقيقة، الخط الذي كان، وما يزال، يخترق اليهودية (الأرثوذكسية) نفسه، فاصلاً بين أولئك القائلين: إنَّ الرب كان يطالبهم بالمساعدة على مجيء ملكوته،

وأولئك الذين كانوا يقولون: إنَّ السعي إلى تعجيل وصول المسيح عبر النشاط السياسي عقوق وبُعْدٌ عن التقوى.

أما الصهاينة العلمانيون الهِرتْسِليون فسرعان ما اكتشفوا (كما سنرى) أن بلاكستون كان حليفًا لا يقدر بثمنٍ، وداعية عبقريًا ورجلاً ذا نفوذ كبير بين صفوف المجتمع المسيحي، ورجلاً كان يحقق، في إطار ديمقراطي، ما كان هِرتْسِل يأمل أساسًا في أن يحققه هِتشلر في الإطار التسلطي السائد في أورُبَّة القديمة، رجلاً يفتح الطريق الموصلة إلى الأمراء.

أثبت بلاكستون أنه كان صديقًا ثابتًا لليهود في سائر الخلافات التي شكلت تهديدًا لهم. كان داعية من دعاة إنقاذ يهود روسيا وهجرة اليهود إلى أمريكا. وقد دأب على نحو مطَّرد في ممارسة نفوذه الشخصي إزاءَ أيّ مظهر من مظاهر معاداة السامية. قام بجَدب ‹بروتوكولات حكماء صِهْيَوْن› وإدانتها حين صدرت بعد عام (1905 م). لم يكن التحلي بالصراحة التي تحلى بها بلاكستون في هذه القضية أمرًا صغيرًا، حين نتذكر، مثلاً، مدى اتّساع انتشار اعتقاد صحتها [البروتوكولات] في أرفع الأوساط في أيام الحرب العالمية الأولى، ومدى الأهمية التي اكتسبتها الوثيقة فيما بعد لدى الحركات الشعبوية (populist) في الولايات المتحدة في عشرينيات القرن العشرين. وقد كتب بلاكستون في تلك المرحلة إلى رئيس تحرير صحيفة هنري فورد (Henry Ford) المتنفذة المسماة ‹دِربورن إندبندنت / Dearborn Independent› يقول:

> **لا أعتقد ولو لحظةً واحدة أن لدى اليهود منظمة تسعى إلى السيطرة على حكم العالم، ولا أعتقد أنهم كانوا أدوات في إنتاج البروتوكولات المزعومة ونشرها، وما يدهشني أن تتمكن مثل هذه الدعاية المعادية السامية من أن تترسخ في هذا البلد كما في إنغلترا**[13].

وقد استطاع (كما سنرى لاحقًا في هذا النص) أن يقيم، مع مرور الزمن،

أقوى علاقات الصداقة مع القادة الصهاينة في سنوات هيمنة لويس بْرَنْدَيْس هؤلاء القادة الذين لم يكن إلا القليل منهم (أرثوذكسيين) كما لم يكن أحد منهم مرشحًا محتملاً لانتحال المسيحيَّة.

قام بلاكستون بزيارته الأولى إلى الأرض المقدسة بعد إطلاق ([بعثة شيكاغو العبرية] Chicago Hebrew Mission) ببضعة أشهر، حيث أصيب بصدمة استثنائية إزاء الوتيرة التي كان اليهود دائبين بها في استعادة الأرض واستصلاحها، وهو أمر عدَّه برهانًا على النعم التي من شأن الهجرة اليهودية أن تجلبها إلى الإمبراطورية العثمانية. وقد شكل أيضًا دليلاً على أن «الأزمان» كانت أبعدَ مما سبق له أن خمنها.

بعد عودته من الأرض المقدسة ببضعة أشهر، بادر بلاكستون إلى تنظيم المؤتمر الذي جمع المسيحيين باليهود، وعقد المؤتمر: ماضي إسرائيل وحاضرها ومستقبلها، في يومي (24-25) من شهر تِشْرين الثاني/ نوفمبر في (الكنيسة الميثودية الأولى بشيكاغو/ First Methodist Episcopal Church in Chicago). وكان بين الحضور ثلاثة حاخامات إصلاحيون، وعدد من رجال الدين والوعاظ والمعلمين المسيحيين، ممثلين طيفًا لاهوتيًا ومؤسساتيًا لا يستهان به. ولدى طرح موضوع الإعادة، أثبت الحاخامات الإصلاحيون أنهم لم يكونوا متحمسين. فقد قال أحدهم:

> **نحن اليهود الحداثيين لا نريد أن تتم إعادتنا إلى فِلَسْطِيْن. لقد فقدنا الأملِ في مجيء مسيح سياسي شخصي. إننا نقول: 'البَلد الذي نعيش فيه هو فِلَسْطِيْننا، والمدينة التي نقطنها هي أروشليمنا'. لن نعود.. لنشكل مرة أخرى قومية تخصنا.**

غير أن إجماعًا يلفه نوع من الدفء ما لبث أن تحقق في قرار كان سيتم توجيهه إلى السلطات في روسيا، تعبيرًا عن «جَدب جميع أشكال التمييز إزاءَ

اليهود» وتوسلاً يدعو هذه السلطات إلى «رفع يد الظلم عن هذا الشعب العريق الذي أعطى الروس كما أعطانا نحن كِتابَنا، ديننا، ومعرفتنا بالرب»، أضف إلى ذلك أنه «تقرر أن ندعو حكام بلدنا وساسته إلى استخدام نفوذهم ومساعيهم الخيرة مع سلطات جميع البلدان في سبيل تحقيق هذه الغاية الإنسانية العادلة»[14]. وقد أدت هذه المبادرات دورها في التشجيع على الاهتمام الذي عبرت عنه إدارة هَرِسن بهذه القضية.

5 . 4 . 2) مذكرة بلاكستون (1891 م)

بادر بلاكستون، بعدما نال التشجيع من ذلك كله، إلى إطلاق المشروع الذي يجري تكريمه من أجله اليوم في إسرائيل، أي مشروع '[مذكرة بلاكستون] Blackstone Memorial'. لم يكن الأمر، ببساطة، إلا طلبًا موجهًا إلى رئيس جمهورية الولايات المتحدة، بنجَمِن هَرسن، ووزير الخارجية جيمس بلين يلتمس منهما فيه «استخدام مساعيهما الطَيبة ونفوذهما لدى حكومات العالم الأورُبِّي» (التي يتم إيرادها الواحدة بعد الأخرى) «من أجل المبادرة في تاريخ غير بعيد إلى عقد مؤتمر دولي للنظر في وضع الإسرائيليين ومطالبتهم بفِلَسْطِيْن بصفتها وطنهم القديم، وتوفير الدعم، بجميع الطرائق العادلة والسليمة الأخرى، لعملية التخفيف من معاناتهم». جاء سطر الافتتاح على شكل سؤال، إنه السؤال الذي طغى على أعمال مؤتمر بلاكستون في شيكاغو: «ما الذي سيجري عمله من أجل اليهود الروس؟» ويأتي الجواب على شكل سؤال آخر: «لماذا لا تعاد فِلَسْطِيْن إليهم؟». ومذكرًا بمثال مؤتمر برلين في (1878 م) تدعو المذكرة القوى إلى الاجتماع ثانية وإعادة فِلَسْطِيْن إلى اليهود، كما قامت في (1878 م) بإعطاء بلغارية للبلغار وصربية للصرب وقبرص لبريطانيا العظمى. و«أيّ حقوق ثابتة حصلت عليها تركيا عن طريق الحيازة يمكن تعويضها بسهولة، ربما عن طريق تحمل اليهود أعباء حصة عادلة من

الدَّيْن القومي». ليست الوثيقة، باختصار، إلا بَرْنَامَج هِرتْسِل، المقدم إلى حكام العالم قبل صدور كتاب ‹دولة اليهود› بخمس سنوات وقبل المؤتمر الصِهْيَوْني الأول بستة أعوام.

تقوم حجة المذكرة من البداية إلى النهاية على استجداء «التعاطف، العدالة، والإنسانية». واللغة اللاهوتية المكشوفة لا تظهر إلا في جملة واحدة تقول فيها المذكرة لدى كلامها عن فِلَسْطِيْن: «لماذا لا تتم إعادة فِلَسْطِيْن إليهم؟ فحسب توزيع الرب للأمم فإنّ فِلَسْطِيْن هي وطنهم، ملكية مؤكدة لا جدال فيها طُردوا منها بالقوة».

وفي رسالة مرفقة بالمذكرة لم يوقعها غيره، يقوم بلاكستون بطرق باب المنطق الأسمى للتعاليم المسيحيَّة بإيجاز في الفقرة ما قبل الأخيرة:

> **ثمة على ما يبدو دلائل كثيرة تشير إلى أننا وصلنا في مسيرة الدوران العظيمة للقرون إلى حيث بادر الرب الخالد لإبراهيم وإسحق ويعقوب إلى رفع يده موعزًا للأمم (إشعيا 49: 22) في أن تعيد أبناءه وبناته من الأماكن البعيدة، وتزرعهم ثانية في أرضهم الخاصة، (حزقيال 34.. إلخ). وعلى امتداد أربعة وعشرين قرنًا منذ أيام قورش، ملك فارس، ما من مخلوق محكوم بالفناء عُرضت عليه مثل هذه الفرصة الممتازة لخدمة أغراض الرب فيما يخص شعبه القديم.**

لعل الشيء الأكثر إثارة للاهتمام حول المذكرة هي قائمة التوقيعات المرفقة. وقع الوثيقة أربعمئة وثلاث عشرة شخصية أمريكية مبرِّزة بمن فيهم رئيس المحكمة العليا في الولايات المتحدة، ورئيس مجلس النواب ورئيس لجنة العلاقات الخارجية بالكونغرس، مع عدد كبير من أعضاء مجلس الشيوخ، والكثير من أكبر صناعيي المرحلة (بمن فيهم روكفلر / Rockefeller ومورغان / Morgan وماكُرميك / McCormick) ورجال دين مشهورون ومسيحيون ويهود وكتاب وصحفيون ورؤساء تحرير الكثير من كبريات صحف تلك الأيام.

ومن الحوادث المشهودة والمسجلة أن الرئيس هَرسن استلم مذكرة بلاكستون في الخامس من آذار/ مارس عام (1891 م) وأنه «وعد بإيلائها اهتمامًا متأنيًا»، ولدينا ما يشير إلى أنها كانت ذات تأثير ملحوظ في الرأي العام. ونحن نعلم أن وزير الخارجية بلين طلب مشورة ممثلي الحكومة في الأراضي العثمانية حول الفكرة، وأن هؤلاء الممثلين جميعًا نصحوا بعدم مفاتحة الحكومة العثمانية بشأنها(15).

من الصحيح أن حكومة في ذلك الوقت لم تَرْقَ قط إلى مستوى التحدي بدعوة مؤتمر دولي للقوى بهدف إقامة وطن يهودي، فما من إشارة إلى المذكرة أو أيّ وثيقة ذات علاقة تظهر، في حقيقة الأمر، في مجلدات ‹[العلاقات الخارجية للولايات المتحدة] Foreign Relations of the United States› عن تلك الفترة، إضافةً إلى أن سيرة حياة الرئيس هَرسن الرئيسة لا تأتي على أيّ ذكر لهذه القصة، مع أن المذكرة كانت ذات تأثيرات كبيرة في المدى الطويل. غير أن فكرة الرعاية الأمريكية لعودة اليهود إلى فِلَسْطِيْن غُرست بقوة في الكثير من العقول.

بعد زُهاء ربع قرن تحديدًا، تنبه زعيم الصِهْيَوْنية الأمريكية لويس بْرَنْدَيْس على قصة المذكرة، وقد انطوى الأمر على نتائج كبرى سوف نطلع عليها في حينها (الفصل 2. 6). فالقصة أثارت بْرَنْدَيْس كثيرًا حتى إنه طرح بعض الأسئلة على وزارة الخارجية. ومن غير القابل للتصديق أن الوزارة ردت زاعمة أن باحثيها أخفقوا في العثور على أي أثر للطلب الأصلي. ويبدو هذا مستحيل الاحتمال. ربما كانوا، ببساطة، يقاومون تأييد الفكرة المحرجة القائلة: إنَّ رئيس جمهورية الولايات المتحدة أو وزارة الخارجية، وهذا أسوأ، كان مدمنًا سَلْخَ الوقت بالتعامل مع ناشري كراريس الأزمان الأخيرة. قام بْرَنْدَيْس وحيدًا بتعقب قصص الصحف عن تقديم بلاكستون المذكرة الأصلية، وبمعاينة جرائد الفترة ومجلاتها بحثًا عن التعليقات الافتتاحية(16).

تتحدث الملاحظات المخطوطة المؤلفة من زُهَاء (47) صفحة والموجودة

بين أوراق بْرَنْدَيْس عن هذا البحث. يورد بْرَنْدَيْس سلسلة طويلة من ردود الأفعال اليهودية. تقول ‹[المينورا] The Minora› وهي مؤيدة: «من الواضح أنْ ليس هناك في هذه الحركة أيّ مخطط للهداية.. وأولئك الذين يتحركون في هذا الاتجاه جديرون بتقديرنا وشكرنا». أما ‹الجويش إكسبوننت/ The Jewish Exponant› فقد عدت المذكرة «تصورًا عظيمًا جديرًا بإثارة حماسة أعظم العقول المسيحيَّة واليهودية، ومن المؤكد أنها ليست اقتراحًا يمكن استقباله بالسخرية والاحتقار». وقد عبرت صحيفة ‹ريفورم أدفوكت/ Reform Advocate › الشيكاغوية عن مشاعر ملتبسة إذ قالت: «نحن شاكرون للجهد المبذول ولكننا نأسف ونستنكر إنفاق هذه المبالغ الكبيرة من الأموال على ما لا يمكن أن يبدو، للعقول الهادئة، إلا 'مغامرة سخيفة'». أما في الطرف الآخر فقد ألحت ‹أمريكان إسرالايت / American Israelite› التي لاحظت أن ناشري ‹[الشيكاغو تريبيون] The Chicago Tribune› كانوا من بين الموقعين، على «إن الأمم لا يتم صنعها بالطريقة المقترحة من ‹تريبيون› والقس السيد بلاكستون.. دعوا أولئك القادرين على مساعدة 'اليهود الروس' يفعلون ذلك، بطريقة عملية. وأن يكفوا عن تبديد الطاقات والأموال على فكرة مثالية عقيمة». لم تكن ‹[الجويش مسنجر]The Jewish Messanger › شاكرة قط لبلاكستون: «يبدو أن اليهودي محكوم بأن يتعرض لاضطهاد مزدوج من أصدقائه من ناحية ومن أعدائه من ناحية ثانية.. فهذه [المذكرة] تؤدي إلى جلب شرين اثنين، إذ تعيد إحياء معاداة السامية أولاً.. وتجعل اليهود موضوعًا لتعليقات الجرائد ثانيًا». وما لبثت ‹[الجويش مسنجر]› هذه أن أثارت الذعر إذ قالت: «سترتد هذه المذكرة على يهود تركيا وإزاءَهم.. وليس هدف السيد بلاكستون النهائي إلا تحويل اليهود إلى أنغليكان [بروتستانت]. صحيح أن شخصيته ساحرة، وحماسته جديرة بالثناء، ولكن دعه يهدي القيصر وأعوانه إلى المذهب الأنغليكاني». لعل أعقل الردود من الجانب اليهودي هو

ذلك الذي جاء من رئيس تحرير ([هفسغا] Ha Pisga) المجلة الوحيدة الصادرة باللغة العبرية في تلك الأيام. ففي حديثه عن مسألة اللاهوت المعروف جيدًا للمؤلف كتب وولف شور (Wolf Schur) يقول:

ليسوا عازمين على وضعنا تحت أجنحة المسيحيَّة في عصرنا.. بل في الأيام المقبلة حين يعود السلم ويجلس كل منا تحت شجرة التين والكرمة، وبعد معركة ياجوج وماجوج. فليفعل المسيحيون ما يستطيعون فعله لمساعدتنا في عملية استيطان فِلَسْطِيْن من جديد. أما عن مسألة ديننا، فلها أن تبقى مرتاحة إلى أن يأتي إيلِيا، وبعد ذلك سوف نرى ما إذا كان حلمهم سيتحقق أم لا[17].

6.4.2) الحياة بعد مذكرة بلاكستون

في سبيلِ زيادة القيمة الدعائية للمذكرة، كتب بلاكستون في ذلك العام نفسه مقالاً قُرِئَ على نطاق واسع بعنوان ([هل يجوز أن تتدخل الولايات المتحدة لمصلحَة اليهود ؟] May the United States Intercede for the Jews ?) يبدأ بالعبارة التالية: «إن الحالة المثيرة للشفقة للاجئين اليهود تشد أنظار العالم» ثم ينتقل إلى استعراض جملة الجهود المبذولة من جانب اليهود وحكومات العالم لمعالجة هذه الأزمة. وسرعان ما يصل كاتب المقال إلى الحل المتمثل بوطن لليهود في إسرائيل:

ثمة متسع هناك لمليونين أو ثلاثة من البشر الإضافيين، كما أن الحدود الكتابية القديمة للبلد مؤهلة لمضاعفة طاقتها إلى حد كبير. فالأمطار بدأت تعود، والزراعة بدأت تتحسن، وموقعها يعد بإمكانيات تجارية عظيمة، يكفي وجود حكومة مستقلة، متنورة، وتقدمية حتى يتوافر وطن يتسع لجميع بني إسرائيل الراغبين في العودة.. خصوصًا إذا أمسكوا بزمام السيطرة على الحرم، أو حوزة الهيكل القديم. فمن شأن إمكانية إعادة بناء هيكلهم في ظل توجيه السماء أن يلهب حماسة كل

يهودي (أرثوذكسي) وأن يوافر دافعًا لا يقاوم إلى تزاحم شامل للعالم باتجاه وطنهم[18].

ومع ذلك فإن بلاكستون يتجاوز دائرة (التدبيريين) ذوي التفكير المماثل لملاقاة مسائل الساسة والناس العاديين. وهنا، كما في (المذكرة) يوافر مؤتمر برلين في (1878 م) السابقة المطلوبة لتحرك القوى العظمى. تنطوي الفقرة التي يتناول فيها مسائل الوضع القانوني للمنطقة التي هي قيد الدراسة، وهي مسائل ما زالت باقية، على قدر خاص من السحر والجاذبية. ففي حين يقوم في كتاب ‹[يسوع قادم]› بإزاحة الشك الحديث عن طريق تبني الفكرة التي تقول: إن «صك ملكية فِلَسْطِيْن ليس مدونًا في السراي المحمدي بالقدس ولا في سراي [كذا] القسطنطينية، بل في مئات الملايين من ‹الكتب› الموجودة الآن بلغات الأرض التي تزيد على ثلاثمئة».[19] وهنا يزعم لنفسه دور أستاذ القانون الدولي يطرح قضيته من منطلقات المفاهيم الحقوقية مثل «حق التقادم» و«حق الانتفاع» و«هجر المالك أو إهماله» فنجدنا أمام قضية محكمة كما لو كانت مسبوكة بقلم سميّه الشهير الذي عاش في القرن الثامن عشر.

خلال فترة العقد والنصف التي أعقبت تقديمه المذكرة إلى الرئيس هَرسن، لم يكف بلاكستون قط عن تذكير الساسة بأنها كانت هناك لتقرأ، وبأنها كانت تعكس الجاذبية القوية لفكرة الإعادة بالنسبة إلى الشعب الأمريكي. وما لبث أن أعاد تقديم المذكرة إلى الرئيس تيودور روزفلت (Theodore Roosevelt) في (1903 م). جرى تأليفُ المزيد من الكراريس التي دأبت في شرح لاهوته ما قبل الألفي ونشرُه، ووصف الحالة الراهنة لعملية استعادة فِلَسْطِيْن من جانب اليهود. لقد تابع جهوده التبشيرية على جبهة موسعة. وبعد أن قام أصدقاء أغنياء آخرون بإضافة ثروات جديدة إلى الثروة التي وضعها حموه تحت تصرفه، بات مسؤولاً عن توزيع ملايين الدولارات دعماً للبعثات والمنشورات

الأنغليكانية، وما لبث أحد أبنائه أن أصبح مبشرًا في الصين، فلحق به وليم بلاكستون الذي غدا أرمل ليعمل ميدانيًا (1908-1914 م) وليوزع الطبعة الصينية لكتابه الشهير. لقد أصبح رحالة عالميًا مُهَوَّسًا بالسفر، دائم التمحيص لاستغلال فرصه أحسن استغلال، ومتعاقدًا على ترجمة كتابه لتلبية حاجات البلاد التي كان يزورها. أما قراءته الأصولية-التدبيرية (Fundamentalist dispensationalist) الماضي والحاضر والمستقبل فلم تشهد أي تغيير أو تبديل جراء ما لقيه في أسفاره، بل كان في الحقيقة دائم الاكتشاف لأدلة جديدة على صحة أكثر القراءات حرفية للكتابات المقدسة على الصعيدين التاريخي والنبوئي. ففي زيارة له إلى بلاد ما بين النهرين (وكانت تحت الاحتلال البريطاني) في (1921 م) مثلاً، كتب يقول: «أريد رؤية موقع بابل القديمة التي أؤمن إيمانًا راسخًا بأنها لن تلبث أن تبرز فجأة وبسرعة بصفتها زعيمة النزعة التجارية ومركزها. انظر الأصحاحين (13 18) من رؤيا القديس يوحنا». أما عن الإمبراطوريات الأورُبّية فكتب، في أعقاب أسفاره العريضة عبر الشرقين الأوسط والأقصى «تتكلل الهيمنة الأممية من خلال نوع من تجلي الحقد والهمجية.. بما لا يبقي مجالاً للأمل إلا في الاهتداء الموعود [المتنبأ به] المفاجئ لإسرائيل.. ولإعادة تأسيس الحكم الديني لمصلحة شعوب الأرض المظلومة».[20] أي السيادة الأرضية للمسيح.

أدى اندلاع الحرب إلى الإلهام بالتأمل حول آخر الأزمان في سائر الأمكنة، وعلى مستويات غير مسبوقة.[21] ومع حلول عام (1916 م) أضيفت إلى شائعات الحرب شائعات عن صفقات تم عقدها بين القيادات الصِهْيَوْنيَّة والقوى العظمى. وبين صفوف المسيحيين الأصوليين تمخض هذا كله عن قدر أكبر من الاهتمام بكتاب بلاكستون، الذي ما لبث من ثَمَّ أن قام بإعادة النظر فيه وتوسيعه.

7.4.2) تضاؤل الحماسة لقضية اليهود بعد تسعينيات القرن التاسع عشر

فيما مضى لاحظنا مبادرات معنية أقدم عليها الرئيس هَرِسن ووزير الخارجية بلين لمصلحة يهود روسيا أدت إلى تشجيع أولئك المؤمنِين بأن إعادة اليهود إلى أرضهم ستتم برعاية أمريكية. وقد أثبتت هذه المبادرات أنها كانت ذات شعبية واسعة. ومنذ ذلك التاريخ فصاعدًا بات الجمهور الأمريكي يدرك أن هناك ما كان سيطلق عليه وزير خارجية لاحق اسم «ترابط» بين مسألة العلاقات الأمريكية العامة مع الامبراطورية العثمانية من جهة ومسألة مصير اليهود من الجهة المقابلة.

ويمكن في الوقت نفسه أن نتحرى قدرًا معينًا من التردد والإعاقة بين صفوف أولئك المسؤولين عن الأداء الفعلي للسياسة، أي بين صفوف الدبلوماسيين الميدانيين وموظفي وزارة الخارجية. فنحن لا نجد أي (تدبيريين) ذوي شأن بين الشريحة العليا من صانعي القرار الأمريكيين في سنوات ما قبل الحرب تلك، وما من صانع قرار نعرفه كان مُهَوَّسًا بقناعة تقول: إنَّ الساعة قد دقت لتحقيق الدور الذي رسمه ‹الكتاب› للولايات المتحدة، كما لا نعثر على أي (تدبيريين) معروفين بين صفوف الرؤساء في هذه الفترة. لقد بادر عاملو الولايات المتحدة المقيمون إلى جَدب سياسة بلاكستون من البداية. فسلا مريل (Selah Merrill) قنصل الولايات المتحدة في القدس خلال الجزء الأكبر من السنوات الثلاثين التي أعقبت عام (1882 م) كتب في أحد تقاريره يقول: «إن فِلَسْطِيْن ليست جاهزة لاستقبال اليهود، كما أن اليهود ليسوا جاهزين للذهاب إلى فِلَسْطِيْن». أما عن مذكرة بلاكستون فقد كان تعليقه الموجه إلى وزارة الخارجية على النحو التالي:

من شأن ضخ عشرات الآلاف من اليهود في هذا البلد الغارق في الفقر

أن يفضي إلى كارثة غير قابلة للتصور بالنسبة إلى كل من البلد واليهود أنفسهم. أين تعلموا فن الحكم الذاتي؟ ومتى؟ لعل أسرع طرق الإجهاز عليهم هي وضعهم في فِلَسْطِيْن دون قيود أو نفوذ لأيّ حكومة متمدنة، وتركهم يحكمون أنفسهم، إذْ لن يتأخروا في تدمير بعضهم بعضًا[22].

يبقى الرؤساء مع ذلك، خلافًا لحال موظفي وزارة الخارجية البيروقراطيين، مطالبين بأن يكونوا منتخبين من الجمهور كله، وهذا ما يمكنهم من تقويم الوزن السياسي لمثل هذه القوى الشعبوية الشبيهة بأنصار النزعة الإعادية المسيحيَّة، شرط أن تكون الظروف سليمة. وطوال بقائهم تحت نفوذ رئيس الجمهورية ووزير الخارجية حرص الموظفون على أداء السياسة. وإلى نقطة معينة ظلت القناعة بأن الولايات المتحدة كانت دائبة في إنقاذ الضعفاء وتعزف على أوتار العواطف الإنسانية الخيرة لدى (البيروقراطيين) غير أن هذه العواطف معروفة بتقلباتها السريعة حتى إننا نجد مع حلول نهاية القرن ظهور علامة ملل وكلل في اتصالات وزارة الخارجية بخصوص هذه المسائل ذات العلاقة. ومع مجيء تيودور روزفلت إلى الرئاسة (1901-1909 م) كان العاملون في الصفوف الدائمة لصانعي القرار على صعيد السياسة الخارجية بدَؤُوا يعملون معًا إزاءَ منطلقات السياسة التي نشأت أيام هَرسن وكليفلند (Celevland). وفي الشريحة العليا كلها من عملية صنع القرار في السياسة الخارجية، كان يتم تذكر مذكرة بلاكستون، إذا ما تذكرها أحد حقًّا، بصفتها وثيقة مزعجة ومحرجة.

ليس صعبًا أبدًا تسجيل نزعة معاداة السامية المميزة للسادة من الطراز القديم والطاغية في هذه الأوساط، وهذا أمر لا يجوز إسقاطه من الحساب. غير أن ما هو أقوى حقًّا، على المدى الطويل، إزاءَ أيّ سياسة قائمة على «رؤى ذات عظمة في مصير اليهود» كان نوعًا آخر من التحامل والإجحاف المتمثل باحتقار صاحب التعليم الجيد لمصلحة غير المتبحر وخصوصًا غير المتبحر

لاهوتيًا. ففي الأوساط الأبرشية والاستقلالية والتوحيدية بل والمشيخية أحيانًا حيث كانت تتم تنشئة نخبة صانعي القرار السياسي، ما من شيء كان يتعرض للاحتقار الشديد مثل «الأصولية» وبالنسبة إلى هذا العقل فإن نموذج أسوأ ثمار الأصولية حصرًا كان (وما زال) متمثلاً بمؤلف الكراريس عن آخر الأزمان. وطوال بقاء الأنصار الثابتين الوحيدين «لمصير اليهود» مؤلفي كراريس أصوليين، لم تكن هناك أيّ حاجة لإيلاء الصِهْيَوْنيَّة أهمية كبيرة. فمعاداة الصِهْيَوْنيَّة البسيطة ذات الطراز القديم التي نجدها في الأندية الريفية ليست إلا صفرًا في هذه المعادلة، مقابلة مع الخوف من الأصولية واحتقارها بين صفوف بروتستانتيين نالوا قسطًا كافيًا من التعليم.

ومما أدى إلى تعزيز هذا الانحراف نحو العداء للصِهْيَوْنية بين صفوف نخبة صانعي القرار السياسي نزوع آخر، ذو أمد طويل، يعود تاريخه إلى هذه الفترة، ألا وهو النفوذ المتنامي للبعثات التبشيرية البروتستانتية في صنع السياسة الخارجية الأمريكية. ففي الولايات المتحدة، كما في بريطانيا، جاءت الحماسة لهداية يهود فِلَسْطِيْن مصحوبة مع أولى تجليات النزعة الإعادية المسيحيَّة، ولكن حقيقة أن الجهد التبشيري كله بين صفوف اليهود لم يكن يتمخض إلا عن القليل جدًا من النتائج باتت شديدة الوضوح قبل (مذكرة بلاكستون) بوقت غير قصير. لقد أصبح المبشرون المرَسلون إلى اليهود قليلي العدد ومتباعدي التواتر، كما وضع الكثير منهم حدًا لعملهم خائبين ومحبطين. ومع حلول أواخر القرن التاسع عشر تمت إعادة توجيه الجهود التبشيرية في أراضي الإمبراطورية العثمانية نحو السكان العرب الذين كانوا يشكلون ملايين لا تعد ولا تحصى مقابلة بالثمانين ألفًا تقريبًا من اليهود في المنطقة. وكانت البعثات التبشيرية تتحدث عن معدلات هداية أفضل بكثير من تلك التي سبق لأي مبشر أن تمكن من تحقيقها جراء الجهود المبذولة بين اليهود.

ومن ثَمَّ فإن تقارير البعثات التبشيرية الميدانية المرَسِلة إلى الكنائس ما لبثت

أن أصبحت أكثر تعاطفًا مع الزُبُن العرب. ومن (القوالب) المتداولة هذه الأيام، وهي أكثر صوابًا مما يخمن الناس، كغيرها من (القوالب) أن القومية العربية، ألد خصوم الصِهْيَوْنيَّة، كانت إحدى ثمار الحركة التبشيرية، بمعنى أن الأخيرة قامت بتوفير فرص التعليم، وأسهمت، دونما قصد، في زرع المفاهيم الأورُبّية للقومية التي شكلت وقود 'اليقظة العربية'. وعلى هذا الصعيد فإن (روبرت كولدج/ Robert College) في القسطنطينية و(الكلية البروتستانتية السورية/ Syrian Protestant College) (الجامعة الأمريكية في بيروت، فيما بعد) أدَّيَتا أدوارًا رئيسة بالغة الأهمية. ومن ثَمَّ فقد بدأت وجهة نظر (عروبية) تظهر في أوساط وزارة الخارجية قبل الحرب الكبرى بزمن غير قصير. حتى حين كان المرء ذا موقف إيجابي من قضية اليهود، فقد بات يَتَحَتَّم عليه أن يعترف بأن جلب مئات الألوف، إضافةً إلى الملايين منهم، وتوطينهم في فِلَسْطِيْن كان، بعبارة لطيفة، مشكلة أكثر تعقيدًا بما لا يقاس مما بدت في أيام الرئيس هَرِسن.

باختصار: ما لبثت الاندفاعة الأولية الأصلية من القلق على مصير اليهود في بداية فترة المذابح الروسية أن أطلقت حماسة شعبية صادقة، وإن كانت قصيرة الأجل على ما يبدو، لمصلحة إعادة اليهود. أما بعد خفوت ضجيج القضية، فإن المختصين المحترفين باتوا قادرين دونما وجل على متابعة ما كانوا مؤمنين بأنه خط سياسي أفضل لأنه أكثر واقعية، خط سياسي قائم على استرضاء الأتراك والروس.



5 . 2) لويس بْرَنْدَيْس وَوُدرو ولسن

1 . 5 . 2) انقلاب في البيت الصِهْيَوْني : آب / أغسطس (1914 م)

كما سبق لنا أن رأينا كانت الحركة الصِهْيَوْنيَّة العالمية، لدى اندلاع الحرب في أورُبَّة في آب / أغسطس عام (1914 م) عمليًا، بلا رأس. أما اليهود، الذين كانوا مواطنين في الدول المتحالفة، أي: بريطانيا وفرنسا وإيطاليا فيما بعد، وكل الجماهير الروسية في المقام الأول، فلم يكونوا مؤهلين لتلقي النصح أو التوجيه من القيادات الرسمية التي كانت برُمّتها من مواطني هذه القوة المحورية أو تلك. فمن هي الجهة القادرة إذن على تمثيل الشعب اليهودي أمام أمراء العالم في ظل هذا الوضع؟ ومن الذي سيوافر الدعم لأولئك اليهود، خصوصًا، ممن باتت حياتهم في أشد الأخطار الممكنة، أولئك المقيمون في الإمبراطورية العثمانية (التي ما لبثت، مع حلول شهر تِشْرين الثاني/ نوفمبر من عام (1914 م) أن التحقت بقوى المحور) أولئك الَذين يعيشون في سائر أجزاء الإمبراطورية الروسية (ممن تعرضوا في الأعوام الأخيرة لدورات من المذابح

الموحى بها من الجهات الرسمية) وأولئك الموجودون في أورُبَّة الوسطى ممن وقفوا في طريق الجيوش التي خاضت معارك هذه الحرب الأولى حصرًا.

لدى اندلاع الحرب الأورُبّية حدث أن تعرض شمارياهو ليفن (Shmaryahu Levin) من (لجنة العمل في المنظمة الصِهْيَوْنيَّة العالمية / the Action Committee of the WZO) للإهمال والتجاهل في الولايات المتحدة حيث كان يقوم برحلة لإلقاء المحاضرات. ومِنْ فَوْرِه سارع إلى الانضمام إلى لويس ليبسكي (Louis Lipsky) المدير التنفيذي لَ(اتحاد الصهاينة الأمريكان/ Federation of American Zionists) وجاكوب دو هاس (Jacob de Hass) لدراسة الوضع واجتراح خطة طوارئ. وفي غضون أيام وصلت برقية إلى مكتب لويس بْرَنْدَيْس (Louis Brandeis):

> **تفكك مقر القيادة الصِهْيَوْنيَّة في برلين. تشتت لجان العمل. تعرض التنظيم الأورُبّي للشللَ جراء دعوة الصهاينة إلى الخدمة العسكرية في الجيوش. ثمة حاجة شديدة الإلحاح لعقد مؤتمر استثنائي لممثلي الصِهْيَوْنيَّة الأمريكيين مع شمارياهو ليفن لدراسة الوضع السياسي الاقتصادي الإداري وإنقاذ مؤسسات فِلَسْطِيْن. كابدوا جميع التضحيات للحضور إلى فندق مرسيليا بنيويورك. برقية الثلاثين من آب[1].**

أبلغ جاكوب دو هاس بْرَنْدَيْس، شفاهيًا، اعتزامه طرح اسم الأخير لرئاسة المؤتمر.

ومن نافل القول أنَّ ليفن حصل على تفويض بما كان يفعله من (الهيئة التنفيذية الصِهْيَوْنيَّة الأورُبّية/ European Zionist executive) وهي هيئة بالية اجتمعت بعيد ذلك في كوبنهاغن، غير أنها ما لبثت أن تعرضت للإهمال والتجاهل عمليًا فيما بعد. ما حصل كان انقلابًا بصريح العبارة.

غير أن عضوًا أورُبّيًا من القيادة الصِهْيَوْنيَّة يدعى حاييم وايزمن كان، كما

رأينا، شديد التأييد للمبادرة الأمريكية. مشجعًا بإصرار منظمة كوبنهاغن على (الحياد) ومعتقدًا، كما اعترف لاحقًا «أنّ قدرنا ومصيرنا كانا مرتبطين بالديمقراطيات الغربية» بادر وايزمن بكل بساطة إلى قطع الصلة مع القيادة الأورُبّية واعترف بقيادة يهود أمريكا التي «ربما كانت تحمل في أحشائها بذور 'الخلود'».

وهكذا فإن قيادة الصهْيَوْنيَّة العالمية كانت، في آب / أغسطس من عام (1914 م) قد حسمت لأجل غير محدد لمصلحة مجموعة صغيرة عديمة الخبرة من اليهود الأمريكيين، تحت قيادة لويس بْرَنْدَيْس.

2.5.2) الصِهْيَوْنيَّة تحل على أمريكا

كان القول بارتباط مستقبل الصِهْيَوْنيَّة بفرعها الأمريكي في عام (1914 م) يتطلب قدرًا كبيرًا من التفاؤل. ففي ذلك الوقت كان تعداد اليهود الأمريكان زُهَاء ثلاثة ملايين. وقيل في المؤتمر السنوي لاتحاد الصهاينة الأمريكان الذي عقد في روتشستر في حَزيْرَان/ يونيو عام (1914 م): إن العضوية كانت تزيد قليلاً عن (14000). وقد اقترحت موازنة تبلغ (12500) تتجاوز العائدات المتوقع أن تبلغ (2600) دولار.

قبل بدء الهجرة الجماعية ليهود أورُبَّة في السنوات الأولى من عقد ثمانينيات القرن التاسع عشر،لم يكن يهود أمريكا إلا جالية صغيرة مؤلفة من ربع مليون نسمة فقط. ومعظم هؤلاء كانوا يتكلمون الألمانية لغتهم الأم، ولكنهم أصبحوا طليقين بالإنغليزيَّة. وكانت الأكثرية إصلاحية من حيث الدين (90٪ من الكنس الأمريكية كانت إصلاحية) ودائبة في الاعتقاد أنها منتمية «ربما إلى أسعد جالية في التاريخ الطويل للشتات». وما لبثت تلك «السعادة» غير المسبوقة أن تعرضت للخطر جراء وصول زُهَاء مليونين من اليهود خلال الفترة الممتدة بين

عامي (1882 م) و (1914 م) كان جميعهم تقريبًا من أورُبَّة الوسطى، وكلهم تقريبًا يتكلمون لغة اليديش إضافةً إلى كونهم بأكثريتهم من (الأرثوذكس).

أما 'الصِهْيَوْنيَّة' وهي لغز كامل بالنسبة إلى يهود أمريكا الألمان (يهودي م) فقد أتت ضمن أمتعة قلة من المهاجرين الجدد. ولم يتنبه الأميون على الموضوع إلا في أواسط تسعينيات القرن التاسع عشر حين ظهرت مقالات رئيسة في صحيفتي (هاربرز ويكلي/ Harpers Weekly) وليتريري دايجست، Literary Digest) التي لاحظت أن «اثنين من أهداف الصهاينة كانا متمثلين بإحياء العبرية أولاً واستعمار فِلَسْطِيْن ثانيًا»[2]. أما تاريخ الصِهْيَوْنيَّة الهِرتْسِلية في الولايات المتحدة فيبدأ رسميًا مع تأسيس ([اتحاد صهاينة نيويورك] the Zionists Federation of New York) في تِشْرين الثاني/ نوفمبر (1897 م). وبعد بضعة أشهر بادر تحالف هش لزُهَاء مئةَ جماعة صِهْيَوْنية إلى الاجتماع في نيويورك لتشكيل اتحاد للصهاينة الأمريكان كان رئيسه الأول هو الأستاذ الجامعي رِتشارد غوتهايل (Richard Gottheil) من جامعة كولومبيا، وسكرتيره الأول حاخام إصلاحي شاب يدعى ستيفن وايز. ومع حلول عام (1905 م) بلغ عدد الأعضاء المسجلين على الورق (25) ألفًا، يكاد لا يكفي لدعم هيئة متفرغين صغيرة ومجلة شهرية حملت اسم ([المكابي] Maccabean).

لقد جرى في وقت مبكر جدًا تنبيه تيودور هِرتْسِل على ظاهرة الانشقاقات المتفشية بين صفوف الصهاينة الأمريكان. ففي عام (1901 م) أوفد يهوديًا بريطانيًا من أصول سفاردية هولندية، يدعى جاكوب دو هاس، إلى أمريكا للسعي إلى توحيد الصفوف الصِهْيَوْنيَّة. ومع حلول عام (1905 م) وصل عدد الأعضاء إلى (25000) عضو، ولكن الرقم ما لبث أن تدهور مرة أخرى إلى زُهَاء النصف. كانت الحركة الصِهْيَوْنيَّة الأمريكية، من حيث الجوهر، محض دائرة تبشير للصِهْيَوْنية الهِرتْسِلية. كيف كان يمكن انتظار قيامها بمهمات الحركة العالمية وهي عاجزة عن تمويل فعالياتها الخاصة؟

3 . 5 . 2) لويس دمبِتز برنديس (1856 - 1941 م)

في عام (1849 م) أتى إلى أمريكا ثلاثة وعشرون عضوًا في مجموعة واحدة ينتمون إلى ثلاث عائلات مترابطة ومتداخلة هي عائلات بْرَنْدَيْس وفِهْله (Wehle) ودمبيتز (Dembitz). لقد كانت عائلات تجارية يهودية من ضواحي براغ، متعاطفة مع القضية الليبرالية التي انتصرت لفترة وجيزة، وما لبثت أن تعرضت للقمع في مختلف أرجاء الإمبراطورية النمساوية خلال أشهر عامي (1848- 1849 م) المضطربة. وخلال بحثها عن عن مجالات جديدة واعدة للمشاريع التجارية المختلفة التي كانت تدور برؤوس أفرادها، انتقلت العائلات إلى أجزاء مأهولة من الحدود، إلى أوهايو أولاً، وإلى إنديانا بعد ذلك، وإلى لويزفيل بولاية كنتكي أخيرًا.

ولد لويس ديفِد بْرَنْدَيْس (Louis David Brandeis) في لويزفيل في الثالث عشر من تِشْرِين الثاني/ نوفمبر من عام (1856 م). كان أبوه أدولف بْرَنْدَيْس (Adolf Brandies) تاجرًا ما لبث، بعد سلسلة طويلة من النجاحات والإخفاقات، أن امتلك مؤسسة بيع بالمفرق عُرفت باسم: إيه بْرَنْدَيْس وابنه (A. Brandeis and Son) (حيث كان 'الابن' هو ألفرِد (Alfred Brandies) شقيق لويس). نشأ لويس في يسر مادي، واستطاع أن يتمتع بنعمة الإكثار من السفر والتعليم.

كان الجانب الثقافي الفكري من التركة أقوى بعض الشيء في طرف والدة لويس، أي: فْردريكا دمبِتز بْرَنْدَيْس (Frederika Dembitz Brandeis). فشقيقها لويس نفتالي دمبتز (Lewis Naphtali Dembitz) كان باحثًا ذا اهتمامات واسعة، خصوصًا في ميادين اللغات والفلسفة والتاريخ والقانون، وفي مجال العلوم أيضًا. وكان باحثًا متخصصًا في القانون، ومؤلف كتاب '[القضاء الكنتكي المرجعي] Kentucky Jurisprudence' المعروف. وبصفته أحد دعاة إلغاء الرق

المخلصين، ساعد على تأسيس الحزب الجمهوري في كنتكي، كما كان مندوبًا إلى المؤتمر الذي اختار أبرهام لنكلن (Abraham Lincoln) لرئاسة الجمهورية. وكان الوحيد من بين أفراد هذه العائلة المندمجة غير المتدينة من اليهود الناطقين بالألمانية، الذي سعى إلى انتحال اليهودية (الأرثوذكسية) في مرحلة المراهقة من عمره، وأصبح متدينًا ورعًا. وقد كتب مؤلفات معمقة عن اليهودية، وكان نائبًا لرئيس (اتحاد أمريكا المشيخاني لليهود الأرثوذكس/ Orthodox Jewish Congregational Union of America) في أمريكا.

لم تكن طقوس أيام السبت تراعى في بيت لويس بْرَنْدَيْس. فمنذ أيامها في أورُبَّة، قطعت العائلة كلُّهَا شوطًا طويلاً على طريق الاندماج والذوبان في بوتقة المجتمع. وعملية التقدم هذه ظلت مستمرة في أمريكا. غير أن لويس، كما يحصل غالبًا حين يكون أبوا المرء صوتا إزاءَ الموروث الديني للأجداد، ما لبث أن وجد نفسه منجذبًا إلى مثال خاله المتدين. وفي سنوات لاحقة استذكر «البهجة والرهبة اللتين كانتا تميزان استقبال خالي لويس دمبتز لقدوم يوم السبت إضافةً إلى الورع الذي كان يمتثله له»[3]. من اللافت لَلنظر أن لويسٍ قام، رسميًا، وهو دون العشرين من العمر بتغيير اسمه الثاني إلى دمبتز تكريماً لخاله. ومن ناحية ثانية فإنه تبنى في سن المراهقة مثال عدم التدين المَعتمد من أبويه. ومما يقال

أنَّ لويس لم يضع قدمه في الكنيس سوى مرتين، مرة لحضور اجتماع صِهْيَوْني في بتسبورغ عام (1916 م) ومرة ثانية حين زار كنيس زِخرون ياكوف في روحوفوت بفِلَسْطِيْن عام (1919 م)[4].

تلقى لويس بْرَنْدَيْس تعليمه الجامعي في جامعة درزدن (Dresden) بألمانيا، قبل أن يعود لمتابعة الدراسة في مدرسة الحقوق بجامعة هارفارد. وما لبث سجله الممتاز هنا أن أكسبه الكثير من الأنصار الحماة بين الأساتذة وكبار المحامين بمن فيهم الأستاذ أوليفر وندل هولمز الابن (Oliver Wendell Holmes Jr.).

وقد أدى ذلك بدوره إلى تمكينه من دخول الأوساط الفكرية البوسطنية، التي كانت، في تلك الأيام، خاضعةً لهيمنة أبناء (البيوريتانيين) وأحفادهم (براهمة بوسطن/ Brahmins of Boston) كما كانوا يعرفون، غير منتسبين إلى الكنيسة بأكثريتهم بعد، ولكنهم مستمرون في (بيوريتانيته م) الملحوظة على صعيد نزوعهم الأخلاقي. لم يجد لويس أيّ صعوبة في تأسيس شركة حقوقية ناجحة (وارن وبْرَنْدَيْس / Brandeis and Warren) بالاشتراك مع النجم الاجتماعي سام وارن (Sam Warren) ولا في الحصول على عضوية أندية بوسطن الحصرية، بما فيها (ذ يونيون/ The Union) و(ذ إكستشينج/ The Exchange). ليس صحيحًا تمامًا أنه «توقف عن أن يكون يهوديًا» كما بالغ بعضٌ. والمسألة تكمن، بالأحرى، في أنه لم يشعر، مع «استغلاله علاقاته اليهودية الألمانية في بوسطن وسيلة عمل.. بالاضطرار إلى.. التعايش الاجتماعي مع زُبُنه اليهود الألمان.. ولم يبادر إلى الاضطلاع بأي دور في (جمعية بوسطن اليهودية/ Boston Jewish Society) إضافةً إلى أن ‹[الموسوعة اليهودية] The Jewish Encyclopaedia› لم تأتِ على ذكر اسمه»[5].

مع حلول عام (1910 م) أضحى الرجل مليونيرًا. أما مثاليته التقدمية فقد وجد لها متنفسًا إذ أصبح (محامي الشعب) يعمل مجانًا دفاعًا عن المصلحة العامَّة في قضايا تتعلق بامتيازات النقل، ومصارف الادخارات، وتنظيم ساعات العمل والأجور، والكثير من الأمور الأخرى. وقبل عام (1912 م) بوقت غير قصير، أصبح مشهورًا على النطاق القومي بصفته نصيرًا لما بات يعرف باسم جناح (الحرية الجديدة/ New Freedom) للتيار التقدمي.

خلال الفترة الرئاسية لوليم هورد تافت (1909– William Hord Taft 1913) تمزق الحزب الجمهوري أشلاءً. ومع أخذ سائر العوامل الشخصية والضغائن الفردية الكامنة وراء الاختلافات بالحسبان، فإن ما كان مطروحًا على نحوٍ أساسي التباين على صعيد الفلسفة السياسية الذي شكل خطًّا فاصلاً

بين (المحافظين) من ناحية و(التقدميين) من الناحية الثانية. وفي هذا الصراع كان بْرَنْدَيْس واقفًا بوضوح في الطرف التقدمي، ومتحالفًا على نحو وثيق مع أقدم أبطال هذا الطرف وهو روبرت لا فوليت (Robert La Follette) الحاكم السابق لولاية وسكنسن وعضو مجلس شيوخ حالي عن تلك الولاية. وقام بدعم (عصبة الجمهورية التقدمية القومية / National Progressive Republican League) التابعة للافوليت التي أُسِّسَت في كانون الأول من عام (1910 م) أداةً لتمكين لافوليت من الترشح للرئاسة. وخلال عامي (1910 م) و (1911 م) باشر جولة إلقاء محاضرات لمصلحة لا فوليت عبر مجموعة من الولايات، غير أن تيودور روزفلت دخل، مع حلول أوائل عام (1912 م) الحَلْبَة، فراح التأييد للافوليت بين صفوف الجمهوريين يتضاءل. ومع أن تيودور روزفلت غازله وخطب وده فإن بْرَنْدَيْس بقي وفيًا للا فوليت، صديقًا شخصيًا حميمًا وحليفًا سياسيًا في الوقت نفسه، حتى بعد أن أصبح واضحًا أن حزب لا فوليت التقدمي حصرًا كان عازمًا على التخلي عنه من أجل تسمية الرئيس السابق النابض بالحيوية والنشاط مرشحًا لرئاسة الجمهورية. ومن تلك اللحظة بات الذخر السياسي الجوهري الكامن في سمعة بْرَنْدَيْس داخل ساحة رؤية المرشح الديمقراطي، تومَس وُدرو ولسن (Thomas Woodrow Wilson).

4 . 5 . 2) وُدرو ولسن (1856 - 1924 م)

جاء أسلاف تومَس وُدرو ولسن من إسكتلندة، مباشَرة من ناحية وعن طريق إيرلندة الشمالية من الناحية الثانية. وقد غادر جد أبيه جيمس ولسن (James Wilson) مقاطعة دون (Down) في عام (1807 م) قادمًا إلى بنسلفانيا أولاً، وأوهايو بعد ذلك، حيث عمل لفترة في الجهاز التشريعي للولاية. أما من ناحية الأم فقد تحدر وُدرو ولسن من عائلة عريقة من الباحثين والدارسين والوعاظ المشيخيين (Presbyterian) البروتستانتيين في إسكتلندة.

كان والد رئيس جمهورية اللاحق، واسمه تومَس رغلز ولسن (Thomas Ruggles Wilson) رجلاً واسع التعليم جمع بين رسالة التعليم في الكثير من الميادين المختلفة بما فيها العلوم والكهانة المشيخية (Presbyterian ministry) التي حصل عليها بالوقف عام (1849 م). ولدى ولادة تومَس وُدرو ولسن في الثامن والعشرين من كانون الأول (1856 م) كان أبوه كاهن (الكنيسة المشيخية/ Presbyterian church) المتفرغ في سْتُونتن (Staunton) الفيرجينية. وبعد عامين انتقلت العائلة إلى أوغستا (Augusta) الجورجية حيث تابع تومَس ولسن كهانته في (الكنيسة المشيخية الأولى/ First Presbyterian Church). وفي عام (1870 م) حين كان وُدرو في الرابعة عشرة من العمر، انتقلت العائلة إلى كولومبيا بولاية كرولاينا الجنوبية، حيث أصبح الأب أستاذ مادة اللاهوت الرعوي في الحوزة المشيخية.

لقد كرر وُدرو ولسن تأكيد حقيقة أن مفتاح فهمه كامن في واقع كونه (ابن منزل القس/ son of a Manse). تمت تنشئته في منزل مفعم بالتقوى والورع إضافةً إلى كونه ملآنَ بالكتب مولعًا بها. كان ثمة قدر كبير من التلاوة ذات الصوت المرتفع والنقاش الصاخب حول الكتب والمعارف، معارف اللاهوت والفلسفة الأخلاقية والآداب القديمة من جهة، ومعارف العلوم من جهة ثانية. ومع مجيء الوقت الذي أصبح فيه وُدرو جاهزًا للرحيل إلى الكلية كانت العائلة تعيش في يسر وراحة، وإن لم تكن ثرية بالتأكيد.

ثمة قوة أخرى أسهمت في تشكيل حياة وُدرو ولسن ألا وهي ذكرياته عن الحرب الأهلية. فوالده، مع ولادته في الشمال، اتبع الفرع الجنوبي من الكنيسة المشيخية حين انقسمت في (1861 م) وعمل قسيسًا في الجيش الاتحادي. ومع أن حياة وُدرو ولسن العملية بعد عام (1883 م) تمت على نحو شبه كلي في الشمال، فإن شخصيته الأخلاقية والسياسية الأساسية بقيت جنوبيّة.

تابع وُدرو ولسن دراسته الجامعية في كلية ديفِدسن (College Davidson)

القريبة من تشارلوت بكرولاينا الجنوبية (1873-1874 م) أولاً ومن ثم في برنستن (1874-9 Princeton). وبعد التخرج في برنستن درس القانون في جامعة فيرجينيا، وأتبع ذلك مهمة متميزة النجاح في ممارسة المحاماة في أطلانطة الجورجية. وفي عام (1883 م) عاد إلى العالم البحثي الذي بقي فيه إلى أن بدأت حياته السياسية في الخمسينيات من عمره. وفي جامعة جون هوبكنز ببلتمور، درس التاريخ والاقتصاد السياسي. جاءت أعمال التدريس في كليات صغيرة

بعد انجازه شهادة الدكتوراة، وبعد ذلك عاد في (1890 م) إلى برنستن أستاذًا للقانون والسياسة.

لقد حقق نجاحًا عظيمًا أستاذًا واجتذب إلى محاضراته جمهورًا دائم التنامي ما لبث أن أصبح كبيرًا جدًا. وفي الوقت نفسه اكتسب شهرة ودخلاً لا يستهان بهما مؤلفًا لكتاب جامعي في التاريخ الأمريكي، وكاتبًا مقالات، وخطيبًا فيما بعد الولائم، ومتحدثًا في سائر أرجاء البلاد عن طائفة واسعة من الموضوعات مثل الأدب وفلسفة الأخلاق والسياسة ودور الجامعات.

تتفق كل المرجعيات عن حياته على أنه كان شديد الإخلاص للدين الذي تمت تنشئته عليه. فقد كان يقرأ ‹الكتاب› يوميًا، وكان فعالاً في النشاط العائد لكنيسته. وفي رسالة كتبها لأحد أصدقائه قال: «ما كانت حياتي جديرة بأن تعاش لولا القوة الدافعة للدين، ولولا الإيمان نقيًا وبسيطًا. لقد رأيت كل حياتي الآراء المطروحة إزاءَه دون أن تؤدي إلى هز شعرة واحدة مني.. ثمة أناس لا يؤمنون إلا بمقدار ما يفهمون. يبدو لي ذلك منافيًا للعقل والطبيعة ويجعل فهمهم معيارًا للكون.. إنني شديد الحزن لأجل مثل هؤلاء الناس»[6].

في عام (1902 م) انتخبه مجلس عمداء جامعة برنستن رئيسًا للجامعة. وملتزمًا كما على الدوام برؤيته التي لازمته حياته كلها لتعليم عال مستند إلى

الثقة بالرب الخالق والداعم، ضرب مثلاً للطلاب والعاملين بحضوره المنتظم للقداس، بل ودرج حقًّا على تولي قيادة الصلوات بنفسه مرتين في الأسبوع. وفي الوقت نفسه كان مصمماً على أن تبقى جامعة برنستن، وبوضوح، في طليعة المعارف الحديثة في جميع فروعها. أما فيما يخص اللاهوت فقد كان هذا يعني العمل بنجاح في اختزال قوة المحافظين في كلية اللاهوت «حيث كان بعضهم من أكثر الأصوات تمتعًا بالاحترام على الجبهة 'الأصولية' من الحرب اللاهوتية» وحلفائهم في مجلس الحكام. لقد نجح في الحصول على قرارين بتعيين اليهودي الأول والكاثوليكي الأول في كلية اللاهوت، كما نجح في عام (1906 م) في إقناع المجلس بالمبادرة إلى اتخاذ قرار رسمي قضى بأن جامعة برنستن مؤسسة غير طائفية.

لامس خطاب ولسن عن موضوع جعل الجامعة ميدان تدريب للقادة على ممارسة الديمقراطية وترًا حساسًا. فالجمهور الأمريكي العائد للحِقْبَة التقدمية كان مدمنًا سلفًا فكرةَ كون الباحثين في السياسة أنصارًا للقضايا الديمقراطية. ومن ثَمَّ كان هناك أكثر من سابقة تشجع القادة السياسيين في ولاية نيوجيرسي على الشروع بالتفكير بالرئيس ولسن بصفته ثروة سياسية مرموقة. وفي وقت مبكر يعود إلى (1910 م) قام رئيس جهاز نيوجيرسي الديمقراطي، جِم سْمِث (Jim Smith) بمفاتحة ولسن ليعرض عليه تأييده (ما يعني الترشيح) مرشَحًا ديمقراطيًا لشغل منصب حاكم ولاية نيوجيرسي.

بعد انتخابه أبى بعناد أن يسير في خط الجهاز، رافضًا، مثلاً، الموافقة على مرشحه لعضوية مجلس الشيوخ. وحقق نجاحًا في تأسيس نفوذ لا يقاوم إزاء السلطة التشريعية عبر توليد التأييد الشعبي الجماهيري للتدابير المفتاحية من بَرْنَامَجه التشريعي. وكانت معظم تلك التدابير منسجمة مع البَرْنَامَج التقدمي للمرحلة: مثل قانون الانتخابات الأولية وقانون مكافحة الفساد وتعويضات العاملين وتنظيم المرافق العامة وغيرها.

وكواحد من عدد قليل جدًا من حكام الولايات الديمقراطية لولاية شمالية كبرى في الشمال،كان الرجل مرشحًا جذابًا لرئاسة الجمهورية عند الحزب في (1912 م). وفي الوقت نفسه فقد عنى الانقسام في الصفوف الجمهورية على الصعيد القومي أن الترشيح الديمقراطي كان المرَّةَ الأولى، منذ عام (1896 م) غنيمة يسيل لها اللعاب.

5.5.2) ولسن وبْرَنْدَيْس

تركزت مهمة ولسن في (1912 م) على خلق موقع له في الصف التقدمي من القضايا العامة، يميز موقفًا ديمقراطيًا أو (جفرسونيًا) عن موقف أناس سبق لهم أن كانوا في الحياة العامة مدة أطول منه، وبدوا أكثر استحقاقًا اللقب (تقدمي). ومن ثَمَّ كان من المنطقي أن يبعث برسول يستكشف وجهة نظر لويس بْرَنْدَيْس، على نحو مباشَر أكثر، إمكانية قيامه بخدمة حملة ولسن.

لم يكن المبعوث سوى جاكوب دو هاس نفسه الذي أوفده هِرتْسِل إلى أمريكا في وقت سابق يعود إلى (1902 م) في مهمة تشكيل الصِهْيَوْنيَّة الأمريكية. وكان جاكوب دو هاس نفسه سيفاتح لويس بْرَنْدَيْس حصرًا بعد عامين بالتمام تقريبًا بشأن طلب الصهاينة الأورُبّيين الاضطلاع بمسؤولية رئاسة الهيئة التنفيذية المؤقتة. ومع استمراره منذ عام (1902 م) سكرتيرًا لاتحاد الصهاينة الأمريكان، سار دو هاس قُدُمًا فأصبح رئيس تحرير (بوسطن جويش آدفوكيت/ Boston Jewish Advocate). وفي صيف ذلك العام (1912 م) استأجرته (اللجنة القومية الديمقراطية / The National Democratic Committee) ليسهم في جمع التبرعات، و«ليعمل بين صفوف المواطنين المؤمنين لمصلحة المرشحين الديمقراطيين»[7]. وبعد بضعة أسابيع، إثر مواجهة مباشَرة بين الرئيسين في الثامن والعشرين من آب عام (1912 م) وافق بْرَنْدَيْس على الاضطلاع بمهمة القيام برحلة لإلقاء الخطب والمحاضرات لمصلحة ولسن.

بعد انتخاب ولسن، تحدث مراقبون مطلعون عن إمكانية قيام ولسن باختيار بْرَنْدَيْس لمنصب المدعي العام، غير أن الأخير، مع الإغراء الشديد، توصل إلى استنتاج يقول: إنَّ بْرَنْدَيْس كان يُنظر إليه على أنه شديد العداء للأعمال والتجارة. ولكن بْرَنْدَيْس أدَّى، مع ذلك، دورًا بصفته مستشارًا لولسن إذ أسهم، على نحوٍ ملحوظ، في وضع مشاريع التشريعات المقيدة للشركات وغيرها من الأمور. وحقًّا فقد أصبح، في نظر عميد دارسي حياة ولسن، آرثر لِنك (Arhthur Link) «المهندس الرئيس للحرية الجديدة».

شكلت معرفة هذه العلاقة الحميميَّة والوثيقة، بطبيعة الحال، عاملاً ذا شأن في القرار الذي اتخذه دو هاس وليفن بعرض قيادة الهيئة التنفيذية المؤقتة على بْرَنْدَيْس في آب عام (1914 م).

6.5.2) لويس بْرَنْدَيْس والصِهْيَوْنيَّة

حين انطلق جاكوب دو هاس، في ذلك اليوم الآبي من عام (1912 م) إلى بْرَنْدَيْس للتحدث إليه، نيابة عن اللجنة القومية الديمقراطية، كان في رأس الرجل هدف ثان لم يفصح عنه أمام اللجنة، وبالتأكيد ليس هنري مورغنتاو (Henry Morgenthau) الرئيس المالي للحملة. وحسب رواية لويس بْرَنْدَيْس للقصة في رسائل موجهة إلى بعض الأصدقاء خلال الأيام القليلة اللاحقة، فإن الحديث لم يدخل في منعطف بدا مصادفة ولكنه لم يكن كذلك في الحقيقة، إلا بعد فراغهما من مناقشتهما الأمور المتعلقة بالحملة في حين كان بْرَنْدَيْس يقوم بإيصال دو هاس إلى محطة القطار. طرح دو هاس على لويس دمبتز بْرَنْدَيْس سؤالاً حول إذا ما كان ذا علاقة بلويس دمبتز المتوفى عام (1907 م) (يهوديًا نبيلاً) عرفه جيدًا خلال نشاطاتهما الصِهْيَوْنيَّة المشتركة. من الواضح أن بْرَنْدَيْس كان شديد التأثر بهذه الإشارة إلى خاله المحبوب، حتى إنه أدار السيارة ببساطة وانعطف بها معيدًا دو هاس إلى الكوخ الذي سَلَخَا فيه باقي

النهار وهو يصغي إلى الرجل الذي عكف على رواية قصة تيودور هِرتْسِل، مؤتمر بازل، ومغامرات دو هاس الخاصة مبعوثًا لهِرتْسِل في أمريكا. كانت هذه أولى حلقات سلسلة طويلة من الأحاديث بين بْرَنْدَيْس ودو هاس خلال العامين التاليين. وفيما بعد تحدث بْرَنْدَيْس عن «شكره الأبدي» لدو هاس الذي كان يعده «صانع الصِهْيَوْنيَّة الأمريكية»[8].

عكف لويس بْرَنْدَيْس، في غضون العقد السابق، بوعي وبلا وعي، على دراسة حياة يهود أمريكا ومعتقداتهم، متعمدًا ردم هوة المعرفة والخبرة التي دأبت في إبقاء حياته العامة والخاصة مختلفة عن حياتهم ومنفصلة عنها. ويكمن مفتاح فهم صِهْيَوْنية بْرَنْدَيْس في حقيقة أنها لم تأته عمليًا إلا نتيجة طبيعية مكتشفة حديثًا لعقيدته التقدمية الأصولية. فقد كتب رسالة في شُبَاط/ فبراير (1911 م) إلى بِرنارد غِرسن رِتشاردز (Bernard Gerson Richards) رئيس تحرير ([المكابي]) الآتي: «يستند تعاطفي مع الحركة الصِهْيَوْنيَّة، في المقام الأول، إلى المثالية النبيلة التي تنطوي عليها، وإلى الإيمان بأن شعبًا عظيمًا، تحركه الحماسة لمثل هذه الفكرة المثالية، يجب أن يضطلع بدور مهم في تحسين أحوال العالم»[9].

انتسب لويس بْرَنْدَيْس إلى رابطة بوسطن الصِهْيَوْنيَّة رسميًا بتاريخ السابع عشر من نَيْسَان/ أبريل عام (1913 م) وخلال صيف (1914 م) باشر أداء بَرْنَامَج مكثف للاطلاع على الصِهْيَوْنيَّة، نظرية وفلسفة. وفي عام (1915 م) أعلن في خطاب له بعنوان ([الصِهْيَوْنيَّة وطنيةً] Zionism as Patriotism) ما يلي:

> **خلال الجزء الأكبر من حياتي كانت صلتي باليهود واليهودية ضعيفة. لم أفكر كثيرًا بمشكلاتهم، باستثناء التساؤل بين الحين والآخر عمّا إذا كنا، عبر حياتنا، نقدّر الفرص التي يوافرها هذا البلد المضياف لنا حق قدرها. كانت نظرتي إلى الصِهْيَوْنيَّة تتم عبر منظار النزعة الأمريكية.**

ومع مرور الزمن أقنعتني التجربة والملاحظة العمليتان بأن اليهود كانوا، بسبب تقاليدهم وشخصيتهم، مؤهلين على نحو استثنائي لاحتضان المثل الأمريكية. وقد اتضح لي على نحو تدريجيٍ أن علينا، لنكون أمريكيين جيدين، أن نكون يهودًا أفضل، ولنًصبح يهودًا أفضل، يَتَحَتَّم علينا أن نصبح صهاينة[10].

6 . 2) ' ابن بيت القسيس '

1 . 6 . 2) لويس بْرَنْدَيْس يتسلم قيادة الحركة الصِهْيَوْنيَّة الأمريكية

كان الصهاينة الرسميون، بتحولهم إلى بْرَنْدَيْس، يتجاوزون جيلاً كاملاً من الصهاينة المخلصين الذين كانت الصِهْيَوْنيَّة الأمريكية تشهد، في ظل توجيهاتهم، تدهورًا مطّردًا على مدى العقد السابق، مفضلين عليهم مهتديًا حديثًا. وانطلاقًا من إحساسه الكامل بهذا الوضع، بادر بْرَنْدَيْس، قبل الموافقة على رئاسة الاجتماع في آب (1914 م) إلى الكلام عن «عدم أهليته لهذه المهمة»:.. «بقيتُ منفصلاً عن اليهود إلى حد كبير.. إنني شديد الجهل بالأمور اليهودية». لقد قال ذلك للمحاضر ليس إلا، وبعدها انخرط بْرَنْدَيْس في العمل».

سرعان ما تم اتخاذ قرار قضى بإلزام اللجنة بجمع مبلغ مئة ألف دولار لفِلَسْطِيْن، زُهَاء سبعة أضعاف المبالغ المجموعة سنويًا فيما مضى. وعلى نحو مباشَر بدأت قيادة بْرَنْدَيْس الفعلية بتوزيع رسالة صدرت بآلاف النسخ باللغتين

اليديشية والإنغليزيَّة معلنة عن تشكيل اللجنة التنفيذية المؤقتة (The Provisional Executive Committee PEC) وبداية قيادة لويس بْرَنْدَيْس الحركة.

إلى صهاينة أمريكا

نيويورك (نيويورك الولاية) في 31/ 08/ 1914

أدت الحرب في أورُبَّة إلى إقحام المنظمة الصِهْيَوْنيَّة في أزمة.. وفي مؤتمر استثنائي للصهاينة الأمريكان عُقد بنيويورك في الثلاثين من آب عام (1914 م) تم تشكيل (لجنة تنفيذية مؤقتة للشؤون الصِهْيَوْنيَّة العامة/ A Provisional Executive Committee for Zionist Affairs) لتعمل حتى تعود لجنة النشاطات إلى الاجتماع ثانية. أيها الصهاينة: إن واجبات الساعة جليلة. لا بدّ من الضغط على كل عصب من أجل الحصول فورًا على مبلغ مئة ألف الدولار الأساسي لرخاء حركتنا. بادروا إلى تحريك آلية جميع منظماتكم دونما تأخير.. من يعلم؟ فإن شعبنا المجرب في كل مكان يهب معنا لدى سماع رسالة الصِهْيَوْنيَّة المترددة الأصداء فوق ضجيج المعركة، هبة رجل واحد للكفاح في سبيل العدالة، والسلام، والحرية للشعب والوطن اليهوديين[1].

وفي مسعى لجعل القضية الصِهْيَوْنيَّة في طليعة المسائل المطروحة للنقاش العام قام بْرَنْدَيْس بجولة شملت أرجاء البلاد لإلقاء المحاضرات. وفي الوقت نفسه عمد إلى تجنيد صديقه نورمن هبغود (Norman Hapgood) رئيس تحرير ‹هاربرز ويكلي› لكتابة مقال ‹[الصِهْيَوْنية في أزمة] Zionism in Crisis› الذي نشرته المجلة في السادس والعشرين من أيلول/ سبتمبر (1914 م). وأعقب ذلك، في الأشهر القليلة التالية، صدور الكثير من المقالات المتفقة مع تقديم بْرَنْدَيْس الصِهْيَوْنيَّة بصفتها جزءًا من قضية النزعة التقدمية الأمريكية المتعولمة (globalizing American progressivism). وفي ظل قيادة بْرَنْدَيْس تضخم حجم العضوية فأصبح العدد (200000) تقريبًا في عام (1918 م) بعد أن كان عشرين ألفًا فقط في (1914 م).

لعل الجزء الأكثر ثباتًا من تركة تلك الأشهر هو قيام بْرَنْدَيْس بتجنيد جيل من المهنيين والمثقفين الشباب، كثير منهم من وسَطِه في [جامعة] هارفارد، وآخرون من صفوف الطلاب الخريجين، والمحامين الشباب والباحثين الجامعيين والحاخامات. وقد ضمت هذه المجموعة كلاً من فليكس فرنكفُرتر (Felix Frankfurter) وبنجَمِن كوهن (Benjamin V. Cohen) وجوليان ماك (Julian Mack) وإمانويل نيومَن (Emanuel Neumann) وستيفن وايز.

2.6.2) ستيفن وايز (1874 - 1949 م)

هاجر آرون فايج (Aaron Weisz) المولود في المجر والمتحدر من سلالة حاخامات (أرثوذكس) مثقفين في تلك البلاد، إلى الولايات المتحدة في عام (1874 م) بعيد ولادة ابنه الذي سيتم تذكره باسم ستيفن وايز. وقد اشتغل بعضَ الوقتِ عاملاً، قبل تلقي الدعوة لتولي مهمة الحاخام في أحد كنس برُكلن، وبعدها دعا أسرته إلى الالتحاق به في أمريكا. ومع أنّ أباه كان أرثوذكسيًا متعصّبًا، فإن آرون فايج ما لبث أن تحرك في أمريكا باتجاه لاهوت الإصلاح وممارسته، اللذين رآهما أفضل تكيفًا مع الحياة الأمريكية. لقد كان في الجناح المعتدل للإصلاحيين الذين أسسوا (الحوزة اللاهوتية اليهودية / Jewish Theological Seminary) التي ما لبثت بدورها، أن أصبحت منبع الحركة المعروفة باسم: اليهودية المحافظة (Conservative Judaism).

صحيح أن ستيفن تلقى دراسته في مدارس نيويورك العامة، غير أن الجزء الأفضل من تعليمه تم في المنزل، في الأدب الألماني والإنغليزي. أما تعليمه اليهودي فقد جاء عبر دروس خاصة عند أقدام الكثير من أصدقاء أبيه في باحثي الحوزة اللاهوتية اليهودية. التحق بكلية ستي كُلدج العائدة لنيويورك، ثم انتقل إلى جامعة كولومبيا حيث درس اللغات السامية وآدابها على يدي باحث مرموق وصِهْيَوْني متشدد يدعى رِتشارد غوتهايل (Richard J. H.

Gottheil). وبعد عام من الدراسة في فيينا عاد ليجري وقفه حاخامًا، وليتسلم على الفور منصبه الأول مساعد حاخام في مدينة نيويورك عام (1893 م) وهو في التاسعة عشرة من العمر!

وبعد خدمة أبرشيته فترةً قصيرةً، انتقل وايز (فايج) إلى منبر جديد للوعظ في الطرف الآخر من البلاد، في بورتلاند بولاية أرغِن حيث كانت جالية يهودية صغيرة تحافظ على نفسها بقوة الإرادة على أَطراف المجتمع البروتستانتي وهوامشه. وقد حدث أن كان عدد معين من رجال الدين البروتستانت في بورتلاند نشطاء في جوانب من عمل (الإنجيل الاجتماعي Social Gospel) والوعظ به، فاستطاع الحاخام وايز أن يوظف فعاليته الاجتماعية جسرًا للصداقة مع أولئك الرجال. وبعد أن أصبح، بسرعة، فعّالاً في الأوساط التقدمية المحلية، بات أحد المدعوين لحضور الوليمة المقامة على شرف رئيس الجمهورية تيودور روزفلت في (1903 م) فاغتنم الفرصة للتحدث إلى الرئيس عن مذبحة كيشنيف (Kishinev) الأخيرة.

وفي (1907 م) عاد وايز إلى مدينة نيويورك ليتولى خدمة أبرشية جديدة مستقلة طائفيًا جرى تنظيمها رسميًا في التاسع عشر من نَيْسَان/ أبريل، (1907 م). كان هنري مورغنتاو هو الرئيس الأول لجماعة الأبرشية، كما كان يهودٌ آخرون مرموقون من أعالي المدينة مبرِّزون في قيادتها في البدايات. وقد ظل وايز يخدم الكنيس الحر (Free Synagogue) إلى أن قضى نحبه عام (1949 م) فصار يعرف باسم: (كنيس ستيفن وايز الحر / Stephen S. Wise Free Synagogue). أدت ممارسته عملية تبادل المنابر مع كهنة بروتستانت ذوي تفكير مماثل، إلى إثارة شكاوى الحاخامات (الأرثوذكس) وهذا ما أبقاه، طوال حياته كلها، هدفًا لتهمة نسف الاستقرار الديني بين صفوف يهود نيويورك.

وواصل ستيفن فعالياته التقدمية التي بدأها في أُرغِن. وكان نصيرًا قويًا للعمال، كما كان أحد مؤسسي (الرابطة القومية لرَقي البشر الملونين

The National Association for the Advancement of the Colored People /
NAACP). وسرعان ما بادر إلى فضح المشهد السياسي في نيويورك فراح يهاجم الفساد ويرفع صوته داعماً مرشحي الإصلاح إزاءَ المرشحين الحزبيين في الانتخابات المحلية. وفي البيت الأبيض العائد لوليم هورد تافت كانت تتم استشارته في شؤون التعيينات وطلب نصحه حول الهجرة، وجملة تلك القضايا السياسية الخارجية التي كانت تنطوي على أهمية خاصة بالنسبة إلى الجالية اليهودية.

كان الصهاينة من اليهود الإصلاحيين قلة. وكان الحاخام وايز، في هذه المسألة، كما في الكثير غيرها، استثناءً. وكان نشيطًا في العمل التنظيمي المبكر للجماعات الصِهْيَوْنيَّة، ومثل الصهاينة الأمريكان في بازل خلال المؤتمر الصِهْيَوْني الثاني (1898 م) وأرسل تقريرًا عن أعمال المؤتمر إلى صحيفة ‹[نيويورك جورنال] New York Journal› وهناك التقى هِرتْسِل الذي ظل يقدسه بعد ذلك. وقد بقي ستيفن وايز، طوال حياته، يتذكر أن هِرتْسِل قال له، في الاجتماع الصِهْيَوْني الأخير الذي حضره (نَيْسَان/ أبريل 1904 م): «لن أعيش لأرى دولة اليهود، ولكنك شاب يا وايز، ستعيش لترى دولة اليهود».[2] وقد عاش حقًّا ليشهد اليوم الذي تم فيه خلق الدولة، ولكنه مات في (1949 م) قبل أن يتمكن من زيارتها.

3 . 6 . 2) ثلاثي بْرَنْدَيْس، ووايز، ودو هاس

كان تعامل ستيفن وايز مع وُدرو ولسن يعود إلى أوائل عام (1911 م) حين لبّى الأخير دعوة الحاخام وايز وجاء لمخاطبة جمهور (الكنيس الحر) عن موضوع (السياسة والمُثُل). وقام وايز بتقديم هنري مورغنتاو إلى ولسن أوائل عام (1911 م) بالقول: «أملاً في أن يترك لديه انطباعًا إيجابيًا فيصبح أحد مؤيديه في حملته الرئاسية». وقد فعل. فقد غدا واحدًا من مجموعة صغيرة جدًا

موّلت حملة ولسن من أجل الترشيح للرئاسة، كما أصبح، بعد المؤتمر، رئيس اللجنة المالية للحملة. (وفيما بعد، ما لبث الرئيس ولسن أن عين مورغانتاو سفيرًا له في تركيا)[3]. ومع حلول شهر أيار/ مايو (1912 م) وقبل انعقاد أي من المؤتمرين [مؤتمري الحزبين الرئيسين] كان وايز مستعدًا لدعم ولسن علنًا في حملته الرئاسية.

في الثامن والعشرين من كانون الثاني/ يناير (1916 م) رشّح الرئيس ولسن لويس بْرَنْدَيْس رئيسًا للمحكمة العليا (The Supreme Court). ثم عقدت جلسات استماع في مجلس الشيوخ لمناقشة هذا الترشيح. لم تكن المناقشات مطوّلة وحامية على نحو غير مسبوق بسبب "انتماء" بْرَنْدَيْس اليهودي، أو صِهْيَوْنيته (حسب رأيٍ أكثرية الباحثين) بل جرّاء ما يمكن عد آرائه المناوئة للأَعمال (Antibusiness). ولم يقم مجلس الشيوخ بتثبيت تسميته بأكثرية عشرة أصوات مقابل ثمانية، حسب الانتماءات الحزبية، حتى تاريخ الرابع والعشرين من أيار/ مايو عام (1916 م). وبعد تسمية بْرَنْدَيْس نشرت صحف متنفذة مقالات افتتاحية زاعمة أن من غير الملائم بالنسبة إلى لويس بْرَنْدَيْس أن يواصل الاضطلاع بدوره زعيمًا للحركة الصِهْيَوْنيَّة الأمريكية. أما بْرَنْدَيْس الذي عزا حملة الافتتاحيات كلها، في أحاديثه الخاصة، إلى «عصابة خائنة، ومعادية للصِهْيَوْنية، وداعية إلى الاندماج متركزة حول ناشري صحيفة ‹نيويورك تايمز› وظَل يقاوم التذمر الصاخب قدر الإمكان، ولكنه ما لبث أن أذعن للأمر. ففي مؤتمر عقد بفيلادلفيا في تموز/ يوليو (1916 م) قام بتسليم منصب الرئاسة إلى ستيفن وايز الذي طمأن الحضور إلى أن «تعييني ليس، إلى درجة معينة، كما آمل صادقًا ومن أعماق قلبي، إلا تعيينًا اسميًا وتقنيًا»[4].

ثمة كثرة من الوثائق في المحفوظات البْرَنْدَيْسية تؤكد أن بْرَنْدَيْس ظل الرئيس الفعال وغير المنازع للصهاينة الأمريكيين إلى يوم وفاته في عام (1941 م). غير أن ستيفن وايز غدا منذ ذلك الحين صلة الوصل النشطة المرئية بين

الصهاينة ورئيس الجمهورية. وحقًّا فإنه كان، على ما يبدو، قادرًا على الوصول إلى الرئيس ولسن خلال فترة الأخير الكاملة بسهولة، طارحًا قضايا ذات علاقة بالتعيينات في المناصب، ومسائل مثيرة لأكبر أشكال القلق لدى الجالية اليهودية.

وإلى جانب وايز كان ثمة جاكوب دو هاس، الذي واصل خدمته وُدرو ولسن بصفة ضابط ارتباط مع 'الكتل العرقية' المهمة. وبين مهام أخرى، قام أوائل الموسم الانتخابي لعام (1916 م) بإعداد مذكرة سرية خاصة بالرئيس، تحت عنوان: ‹[الوضع السياسي والناخبون اليهود] The Political Situation and the Jewish Voters›. كان الاستنتاج الرئيس للمذكرة متمثلاً بزعم «أن المسألة اليهودية كانت» بالنسبة إلى الناخبين اليهود «تسدّ سائر الحسابات الأخرى، والشعور السائد أن ولسن هو القادر على خلق أفضل الحلول لهذه المسألة». ثمة قائمة بأسماء جميع البلدات التي يعيش فيها ناخبون يهود في الولايات المتحدة مربوطة بالمذكرة. تزعم المذكرة أن العدد هو أربعون ألفًا ! وانطلاقًا من النتيجة الاقتراعية القريبة جدًا، كان دو هاس قادرًا، إن أراد، على الزعم أنه أسهم إسهامًا جوهريًا في هامش الانتصار[5].

4.6.2) كسب ولسن إلى صف وعد بلفور

مع إعادة انتخاب ولسن بأغلبية ضئيلة في (1916 م) أمكن توجيه الاهتمام الموحد للصهاينة الأمريكان نحو مهمة جعل الأول يقف وراء الجهود المبذولة، تحت قيادة حاييم وايزمن، لتوفير تعهد معلن من جانب الحكومة البريطانية لمصلحة «وطن لليهود»

الذي بات يعرف في الثاني من تِشْرِين الثاني/ نوفمبر لعام (1917 م) باسم (وعد بلفور/ The Balfour decalration). أراد الصهاينة أن يصدقوا أنّ العلاقة الحميميَّة غير العادية التي كانت تربط زعيميهم بْرَنْدَيْس ووايز برئيس

الجمهورية كانت كفيلة بحصول الإقرار الأمريكي بالبَرْنَامَج الصِهْيَوْني، غير أن البشائر كانت، على الصعيد الواقعي ملتبسة. لقد كان معروفًا جيدًا أن وُدرو ولسن كان يفوق جميع أسلافه قربًا من البعثات التبشيرية، وأن تلك كانت برمّتها الساحقة معادية للصِهْيَوْنية.

بدأت المفاتحة الرسمية للصِهْيَوْنية الأمريكية مع الإدارة باجتماع عقد مع مستشار الرئيس الموثوق في شؤون السياسة الخارجية، إدوَرد هاوس (Eduard House) في كانون الثاني/ يناير من عام (1917 م) حتى قبل دخول أمريكا الحرب. أحضر وايز إلى الاجتماع مذكرة كان أعدها مع كل من بْرَنْدَيْس وفليكس فرنكفُرتر (Felix Frankfurter) تطالب بإقرار أمريكي بنوع من الحماية البريطانية لفِلَسْطِيْن، مع ضمانات لليهود «النقاط الجوهرية في التصريح اللاحق لبلفور». ترك هاوس انطباعًا بأنه قد اقتنع، غير أنه ما لبث أن أصبح واضحًا، بعد سنوات، حين تم الكشف عن الوثائق، أنه كان في الواقع شديد البعد عن أن يكون وديًا، وأن الشيء نفسه كان صحيحًا، بدرجة أعلى أو أدنى، بالنسبة إلى أكثرية مستشاري ولسن الرسميين.

مع حلول أواخر ربيع (1917 م) بات واضحًا أن على مؤيدي مشروع بلفور أن يهتدوا إلى طريقة تمكنهم من الالتفاف على النزعة المعادية للصِهْيَوْنية المعشّشة بعمق شديد في مسامات عائلة ولسن الرسمية. أما الاستراتيجية التي حققت الفوز للصهاينة فقد وضعها حاييم وايزمن، وانطوت على الإفادة من حرص اللورد بلفور المعلن على الاجتماع بالحقوقي الشهير القاضي بْرَنْدَيْس، وصلة الأخير الوثيقة بالرئيس. تمت ترتيبات تمكن اللورد بلفور من الاجتماع بهدوء مع القاضي بْرَنْدَيْس في نَيْسَان/ أبريل (1917 م) حيث كان الأول يقوم بزيارة واشنطن. وقد فهم بوضوح أن بْرَنْدَيْس تحدث إلى بلفور بصفته رئيس الصهاينة الأمريكيين. لقد أعجب كلّ من الرجلين بالآخر عن بعد، وما لبثت الصلة الشخصية أن أصبحت عاملاً قويًا من عوامل إقناع وُدرو ولسن

بالالتزام بالموقف الذي تم التعبير عنه لاحقًا في الوثيقة المعروفة باسم: وعد بلفور (الثاني من تِشْرِين الثاني/ نوفمبر 1917 م).

5.6.2) ثنائي بْرَنْدَيْس وبلاكستون

يشغل مؤرخو موضوعنا الحالي المتمثل بكيفية كسب وُدرو ولسن إلى صف القضية الصِهْيَوْنيَّة أنفسَهم، على نحو شبه كامل، بهذه القصة عن تحركات الدبلوماسية والرَسِل جيئة وذهابًا، الَّتي حاولنا إيجازها في الفصول الثلاثة السابقة. ثمة، مع ذلك، عنصر آخر في هذه القصة تم تعامل القيادات الصِهْيَوْنيَّة في تلك الأيام معه بأكبر قدر من الجدية، وإن جرى إهماله على نحوٍ شبه كامل من جانب أكثرية المؤرخين، ألا وهو العنصر المتمثل بدافع ولسنَ الديني. وحقًّا فإن كلاً من لويس بْرَنْدَيْس وستيفن وايز أقرّا لاحقًا، للتذكير ليس إلا، أن ما ضمن انتصار الصهاينة لم يكن متمثلاً بمهارتهم الأكبر في أداء اللعبة السياسية والدبلوماسية، بل بنجاحهم في مخاطبة إيمان وُدرو ولسن المسيحي المستند إلى ‹الكتاب›.

نعلم أن كلاً من وايز وبْرَنْدَيْس ناشدا على نحو مباشَر وعي ولسن على أنه (ابن بيت قسيس) ناشدًا إحساسه بالرهبة من إمكَانية إعداد السماءِ إيّاه لأداء الإمكانيات الكامنة في منصب رئيس جمهورية الولايات المتحدة، ولكنها غير قابلة للظهور إلا لعين الإيمان المؤهلة جراء التدريب الطويل في ميدان الكتابات المقدسة. ومع ذلك فإن بْرَنْدَيْس ووايز لم يكتفيا بترك ولسن وحده عاكفًا على تأمل هذه الأمور. لقد بادرا إلى العمل من أجل توظيف الصلة القورُشية (The Cyrus connection).

وكما سبق لنا أن لاحظنا، ثمة من قام، في وقت مبكر، يعود إلى عام (1916 م) أي: بعد مضي زُهَاء ربع قرن كامل على استلام الرئيس هَرِسن

مذكرة بلاكستون، بلفت نظر بْرَنْدَيْس إلى قصة هذه المذكرة. وتتضمن أوراقُ بْرَنْدَيْس المراسلاتِ التي توثق جهوده غير الموفقة المبذولة في سبيل الحصول على مساعدة وزارة الخارجية في أبحاثه. وبعيدًا عن الإحساس بالخيبة عكف القاضي بْرَنْدَيْس على دراسة الموضوع وحده، وما لبث أن وضع زُهَاء سبع وأربعين صفحة من الملاحظات المكتوبة باليد مؤلفة برمّتها من مقتطفات مأخوذة من الصحف الصادرة خلال الفترة الممتدة من (1891–1912 م). وبعد ذلك وجه ناتان شتراوس (Nathan Straus) بتوصية من بْرَنْدَيْس، رسالة إلى بلاكستون في الثامن من أيار/ مايو عام (1916 م) جاء فيها:

> **إن السيد بْرَنْدَيْس مفتون تمامًا بالعمل الذي قمت به خدمة للصِهْيَوْنية. ربما كان قلبك قد اطمأن لو سمعته يؤكد مدى المساهمة القيِّمة التي شكَّلَتْها وثيقتك لمصلحة القضية. إنه متفق معي في الحقيقة على أنك أبو الصِهْيَوْنيَّة، لأن عملك كان قبل هِرتْسِل[6].**

على الفور أطلق وليم بلاكستون والقاضي بْرَنْدَيْس سيلاً ذا اتجاهين من الرسائل ظل مستمرًا إلى أن مات الأول في عام (1934 م).

وبعد فترة وجيزة كتب شتراوس ثانية إلى بلاكستون، مقترحًا إعادة الحياة لمذكرته[7] ذلك أن الوقت مناسب. ولكن بلاكستون، شاعرٌ بضيق الوقت إذا كانت الولايات المتحدة مدعوة لقيادة صف القوى التي باتت متعاملة مع الصهاينة، لم يحاول أن يضاهي عدديًا التواقيع الملحقة بطلبه الأصلي المرفوع إلى الرئيس هَرسن، بل اكتفى باثنين وثمانين توقيعًا فقط. وقد كتب لولسن يقول: «كان مَن الممكن توفير أي عدد من التواقيع ذات الطابع الأكثر تمثيلاً للمذكرة، ولكن الأمر كان شديد الوضوح حتى بات غير ضروري. فإقرار (الجمعية العامة المشيخية / Presbyterian General Assembly) و(اجتماعات قساوسة الميثوديين والمعمدانيين / the Ministers' Meetings of the Methodists and the Baptists) والكثير من الأفراد والرسميين ذوي

الصفة التمثيلية، تشكل دليلاً قاطعًا على الاستحسان العام الذي تتمتع به المذكرة لدى السكان كلهم».

كان الوضع في الأعوام (1916–1918 م) مختلفًا على نحو مدهش عن نظيره في عام (1891 م). فبدلاً من أن تقف فكرة قيام القوى العظمى بخلق وطن يهودي وحدها بصفتها تعبيرًا طليعيًا عن التأييد الشعبي لفكرة جديدة، كانت ([المذكرة الثانية] Second Memorial) حَلْقَة من سلسلة طويلة من المواد المنهمرة على رأس ولسن في ذلك الوقت، ضمن الكثير من أشكال الرعاية، طالبة إليه بإلحاح أن يبادر إلى التحرك دعمًا لمقترح بات مدرجًا على جدول أعمال القوى العظمى. من المستحيل لهذا السبب حصرًا عزل وزن هذه المذكرة الثانية وتأثيرها. صحيح أنه لا يظهر أي أثر لها في أوراق ولسن المنشورة، لكن لا شك أن الضجة الكبرى التي كانت تثيرها في أوساط الكنيسة تركت بعض الأثر في ولسن.

كانت (مذكرة بلاكستون الثانية) جاهزة مع حلول شهر أيار/ مايو من عام (1916 م) ولكن القاضي بْرَنْدَيْس كتب الآن إلى بلاكستون ليقول: إنه كان مقتنعًا بأن من شأن تأثير المذكرة أن يكون أكبر إذا ما تم إرجاء تقديمها «إلى حين يصبح.. [ولسن] حرًا متفرغًا حتى يتمكن من تركيز تفكيره على هذه القضية». ولم يقم بْرَنْدَيْس بإرسال توجيهاته إلى دو هاس حتى نَيْسَان/ أبريل (1917 م) والتي قال فيها: «تحدث إلى وايز عن مدى صلاحية هذا التوقيت لجعل الجمهور البلاكستوني يبتهج». وقد وقع اختيار بلاكستون على ستيفن وايز لإيداع المذكرة مع رسالة تغطية منه، وقد نقلها وايز إلى الرئيس في الثلاثين من حَزِيْرَان/ يونيو (1917 م). وكان بلاكستون قد كتب يقول:

' بعناية الرب الإلهية ' كان لي شرف الحصول على تصديق شهير للمذكرة نيابة عن اليهود، مرفق نسخة منها.. مؤمنًا بأن تقدُّمَ الأحداث يبشر بقرب اللحظة النفيسة لعمل الخير من أجل اليهود،

للعمل الشبيه بذلك الذي أقدم عليه قورش ملك فارس، وموقنًا بعطفك واستعدادك لمساعدة الشعب اليهودي في محنته المأساوية الحالية الملأى بالمعاناة، وداعيًا لك أن تتمكن من الإمساك بفرصة توفير البركة والنعمة اللتين وعد الرب بهما إبراهيم وذريته لك ولأمتك، عن طريق إبداء الحنان العطوف لإسرائيل.

غير أن القيادات الصِهْيَوْنِيَّة تدخلت مرة أخرى مقترحة تأجيل إقرار الرئيس العلني بالمذكرة. فحسبُ تقرير وايز لبلاكستون اتفق الرئيس والقاضي بْرَنْدَيْس على انتظار «أفضل اللحظات» المناسبة لإعلان نبأ استلام الرئيس المذكرة. لم يكن بلاكستون مقتنعًا بالذريعة المقدمة للتأجيل. فقد كتب إلى وايز فورًا: «قناعتي راسخة بأن أكثر الأحداث جلالاً وندرة في تاريخ البشرية باتت وشيكة، ولن أفاجأ إذا ما جرت هذه الأحداث قبل تقديم المذكرة جراء مثل هذا التأجيل». وانطلاقًا من مشهد «التدمير المخيف للأمم» الوشيك، ألح بلاكستون على الحاخام وايز طالبًا منه إقناع الرئيس بمدى أهمية قيام الولايات المتحدة بإعلان وقوفها مع إسرائيل قبل عودة المسيح الوشيكة.

غير أن «أفضل اللحظات» لم تأت قط. ونجد مفتاح هذه الترددات وأشكال الارتداد والشك في رسالة كتبها بْرَنْدَيْس إلى جاكوب دو هاس في أيار/ مايو (1917 م) كشف فيها عن أن «نزوعي هو إزاءَ تقديم عريضة بلاكستون الآن، لأنها تقترح ضمانات دولية»[8]. ومع حلول صيف (1917 م) كان ثمة احتمال واقعي بأن تبادر بريطانيا إلى الاضطلاع بمهمة إقامة الوطن لليهود. وفي ضوء هذا الوضع الجديد، كان من شأن الفكرة البلاكستونية، جراء تأكيدها أشكال الرعاية الدولية للدولة اليهودية، أن تتسبب بالإحراج. أما بْرَنْدَيْس ووايز فقد كانا، لتوقعهما تجاوبًا حارًا من جانب ولسن مع لاهوت الوثيقة وجملة الشهادات الدالة على التأييد الواسع داخل الكنائس، حريصين على تمكين الرئيس في السر من الإطلاع على المذكرة. وقد وصف بْرَنْدَيْس

الوضع لجيمس روتشيلد قائلاً:

أما عن عواطف غير اليهود، فنحن موقنون بأن القطاع الواسع من الرأي العام المسيحي في البلاد، وخصوصًا الكنائس البروتستانتية بالطبع، إضافةً إلى موقف الإدارة، يؤيد فكرتنا. وقد تم إعداد عريضة حول ذلك الموضوع، وقعها عدد كبير جدًا من المسيحيين المرموقين، وسيتم تقديمها إلى رئيس الجمهورية في اللحظة المناسبة، وهذا ما يؤكد موقفه الموالي[9].

صحيح أن رد فعل ولسن قد شكل تسويغًا كاملاً لتوقعاتهما، غير أن الثلاثة (بْرَنْدَيْس ووايز وولسن) سلموا، على ما يبدو، بأن من شأن نشر المذكرة في ذلك الوقت أن يبدو إلزامًا للولايات المتحدة بالتصور السياسي الأصلي الذي كان، كما نذكر، يدعو إلى عقد مؤتمر علني لقوى العالم، يكون مؤهلاً لأن يتمخض عن تحرك دولي جماعي. أما الحل المطروح حاليًا على ولسن من الجانب البريطاني فقد كان متمثلاً إما بنظام أمريكي–بريطاني مشترك في فِلَسْطِيْن (نظام لن يقبل به الجمهور الأمريكي باعتقاد ولسن) أو بنظام بريطاني. وطوال بقاء ولسن عارفًا بالمذكرة ومتأثرًا بأفكارها، كان الصهاينة مرشحين للحصول على فوائدها الكاملة، دون التسبب بأيّ تعقيدات ومضاعفات لمفاوضاتهم مع البريطانيين، هذه المفاوضات التي تكللت حقًّا في تِشْرِين الثاني/ نوفمبر (1917 م) بوعد بلفور.

من نافل القول أن أيًا من هذه المسائل السياسية لم يكن مؤهلاً للتأثير في بلاكستون، ومن ثَمَّ فإن أحدًا لم يقم بلفت نظره إلى هذه الأمور. فإيمان بلاكستون الإعادي (Restorationalist faith) كان منيعًا على هذا النوع من الحسابات السياسية. وفي ضوء جميع الأحداث التي جرت لاحقًا، تخلي بريطانيا اللاحق عن وعدها المعروف باسم (وعد بلفور) تحديدًا، نستطيع أن نستنتج بثقة أن بْرَنْدَيْس ووايز كانا مخطئين في حساباتهما في صيف (1917 م) حين

بادرا، بعد تشجيع بلاكستون على تشغيل حملة مُذكِّرَتَهُ ثانية، إلى التآمر، لاحقًا، مع وُدرو ولسن، لحرمانها من اهتمام الجمهور. ربما تلقى مستقبل اليهود خدمة أفضل لو قام رئيس الولايات المتحدة على الملأ باستلام، بل وتصديق، وذلك أفضل، المذكرة التي ما لبثت، عمليًا، أن تعرضت للخنق بهدوء في صيف (1917 م) عملاً بنصيحة قيادات صِهْيَوْنية.

وهكذا ففي ختام المطاف كسب الصهاينة ولسن. ففي حَزيْرَان/ يونيو (1917 م) قال ولسن لوايز: «حينما يأتي الوقت، وحين تشعر أَنت والقاضي بْرَنْدَيْس بأن الوقت بات ناضجًا بالنسبة إلي للكلام والفعل، فإنني سأكون جاهزًا». ثم مضت خمسة أشهر بالغة الصعوبة، كان ولسن خلالها مترددًا في منح البريطانيين إعلانًا لا لبس فيه للتأييد الأمريكي، غير أن بْرَنْدَيْس تلقى أخيرًا، في الثالث عشر من تِشْرين الأول/ أكتوبر (1917 م) ما يسمح له بإبلاغ بلفور ومجلس الوزراء البريطاني عن «تعاطف» الرئيس «الكلي» مع الوطن المقترح لليهود. ويجمع معظم الباحثين على أن مجلس الوزراء البريطاني ما كان قط ليتبنى وعد بلفور لولا ذلك البلاغ.

6 . 6 . 2) العواقب

حافظ القادة الصهاينة، أولئك الدائرون في فلك بْرَنْدَيْس على الأقل، على صلاتهم الودية مع بلاكستون إلى حين وفاته في (1935 م). ومن الواضح أن حماسة بْرَنْدَيْس لعمل بلاكستون كانت صادقةً، كما كانت حماسةُ بلاكستون للصِهْيَوْنية صادقةً وكاملةً أيضًا. فعلى مدى السنوات التالية ظل بلاكستون يرَسِل إلى بْرَنْدَيْس مبالغ كبيرة من المال دعمًا للنشاط الصِهْيَوْني. ومع أن تعاملاتهما تمت عن طريق المراسلة فقط، على ما يبدو، فإن من غير المبالغة القول: إنَّ علاقتهما اتسمت بشيء من الطابع الذي ميز العلاقة بين هِرتْسِل وهِتشلر. فمثل هِرتْسِل وهِتشلر، كان بْرَنْدَيْس وبلاكستون يمثلان أقوى

أشكال التناقض الممكنة على صعيدي الخلفية والفلسفة الأخلاقية. كان بْرَنْدَيْس، مثل هِرتْسِل، يعد نفسه إنسانيًا إضافةً إلى أنه كان، إذا جاز القول، أقل صبرًا مع الدِّين. ومع ذلك فإن تعامله مع بلاكستون أدى إلى فتح عينيه وقلبه على عالم الإيمان القائم على التقوى.

ومن الأمثلة المدهشة أن بلاكستون (الذي كان، كما نتذكر، مسؤولاً عن إنفاق ملايين الدولارات المودعة لديه على الأعمال التبشيرية والأنغليكانية) كتب يومًا للقاضي بْرَنْدَيْس يشرح أنه وضع خططًا لإيداع هذه الأموال في مكان آمن، حتى تكون، في حال وقوع حادثة موته قبل النشوة، في مأمن إلى أن تحصل هذه البهجة الكبرى. وكان الآن يطالب قائلاً: «إذا جاءت النشوة حقًّا ولم تكن أنت بين المشاركين فيها» فإن القاضي بْرَنْدَيْس مكلف بتحمل مسؤولية إنفاق هذه الأموال بعد النشوة وفق ما هو مطلوب لإغاثة اليهود الذين تتم بعد ذلك هدايتهم إلى طريق المسيح، وكذلك بتحمل أعباء عمليات التبشير بالكتاب المقدس في العالم كله بعد ذلك. وبشيء من الانحدار في النبرة لاحظ أن «ليس هناك، على ما يبدو، أي قوانين بشرية تعالج أيّ أحداث من هذا النوع»[10].

إذ واجه الصهاينة الهِرتْسِليون أحيانًا صعوبات معيّنة في قبول الصهاينة المسيحيين كما هم، فإنهم ظلوا على الدوام يقدرون ثباتهم، بل وكانت الأكثرية تكن لهم، على ما يبدو، احترامًا كبيرًا، بل حتى محبة. ولدى قلب (الميدالية) نجد أن الصهاينة المسيحيين كانوا بالمثل يشعرون بالحرج حين يرون أنهم كانوا يساعدون ويدعمون عمل أناس علمانيين ينكرون الرب، في الساحة السياسية. وكما سبق لنا أن رأينا فإن بلاكستون لم يتلعثم قط في توبيخ هِرتْسِل ومعاصريه على خيانتهم وغدرهم رب إسرائيل. فقد كتب في ([يسوع قادم]) الآتي:

لقد أمسك الصهاينة بالزمام وراحوا يتجنبون معونة رب أبراهام، واتخذوا لاأدريين قادة لهم وانغمسوا، بجنون وحماقة، في هذا المخطط

الرامي إلى رفع صرح دولة عديمة الرب.

غير أن دارس الكتاب سوف يقول بالتأكيد: إن هذا الحشد القومي عديم الرب لإسرائيل ليس هو تحقيق عملية الإعادة المجيدة الكاملة، الموصوفة بقدر كبير من الألق والنور على ألسنة الأنبياء.

لا، وألف لا !..

لم يكن الصهاينة الرسميون حسب مفهوم بلاكستون إلا أولئك الذين تنبأ بهم صفنيا:

تجمعي واجتمعي أيتها الأمة التي لا تنكسف، قبل أن تتبددي كالتبن يلد الرسم في يوم من الأيام، قبل أن يحل بك اضطرام غضب يهوه قبل أن يحل بك يوم غضب يهوه [(صفنيا 2: 1-2)].

وقد سأل بلاكستون عمَّا إذا كان ثمة ما هو أكثر من الحركة الصِهْيَوْنيَّة الحالية حرفية في التحقق بالنسبة إلى هذه النبوءة.[11] كانت «أمة لا تنكسف» كما تنبأ صفنيا، إنها أمة أولئك اليهود الذين لا يتطلعون إلى الرب، أولئك الذين لا ينطلقون من أي دوافع دينية في سلوكهم السياسي، أولئك الذين كانوا في الحقيقة يحققون عملية العودة. وبصرف النظر عن كفرهم، فإن عملهم عيَّنه رب إسرائيل، عمل ضروري، يجري أداؤه بدوافع غير جديرة، ولكن لا بدّ من مسيحيين أتقياء للإسهام فيه انطلاقًا من أكثر الدوافع جدارة. وتمامًا كما جرى انجذاب صهاينة ذوي عقول منفتحة، مثل هِرتْسِل نفسه، إلى المتعصبين المسيحيين عبر الانبهار بالطريق التي لم يتم اعتمادها في حياتهم الخاصة، طريق الإيمان القائم على التقوى، فإنَّ من صحيح القول أنَّ المسيحيين المتعصبين انجذبوا إلى الصهاينة، كما يجري انجذاب نظرائهم اليوم إلى الساسة الإسرائيليين، عبر الانبهار بالطريق التي لم يتم اعتمادها في حياتهم الخاصة، طريق الفعل السياسي في الملكوت العلماني.

قد يصح القول: إنَّ وُدرو ولسن كان الرئيس الأخير للولايات المتحدة الذي كان مستعدًا للاقتناع بحجج مذكرة بلاكستون. فرؤساء جمهوريات عشرينيات القرن العشرين لم يكونوا أناسًا من النمط الفكري والذهني والأخلاقي نفسه. أضف إلى ذلك أن تلك العشرينيات كانت عقدًا شهد تحول عقل الجمهور، إلى الأبد، حسب ما نعلم حتى الآن، عن القناعات الأصولية التي جعلت من مذكرة بلاكستون مثل تلك الوثيقة الشعبية والقوية في أيام ابتداعها. لقد كانت العشرينيات العقد الذي شهد أخيرًا تحطيم هيمنة البروتستانتية الأمريكية. ففي ميادين الفكر والمعرفة وفي ميدان السياسة، وداخل البيت المحاصر للبروتستانتية نفسها، تعرضت الأصولية أخيرًا، مع كسبها الكثير من المعارك، لخسارة حرب التحكم بالفكر والسياسة في جميع المجالات الرئيسة.

ومع أنه سيكون طيشًا وتهورًا الزعم أننا قادرون على اتباع خط سلسلة أسباب ونتائج واضحة، من مذكرة بلاكستون لعام (1891 م) إلى خلق دولة إسرائيل في (1948 م) فإن القول: إنَّ المذكرة هي المرجع الذي يَتَحَتَّم الرجوع إليه للعثور على التعبير الأوضح للدافع الذي كسب الرئيس وُدرو ولسن، والذي سيبقى المنبع الأقوى والأكثر رسوخًا وثباتًا للصِهْيَوْنية المسيحيَّة الأمريكية لن يكون منطويًا على أي قدر من المبالغة. ومع تفكك النسيج الأنغليكاني البروتستاني في السنوات التي أعقبت عام (1916 م) ومع تدهور المكانة الفكرية والثقافية 'للأصولية' فقد كان ثمة أفراد انطوت أفكار بلاكستون، برأيهم، على قدر كبير من الجاذبية. يستذكر بيتر غروز (Grose Peter) ويقول: «حاول بلاكستون إقناع رئيس جمهورية الولايات المتحدة بنجامين هَرسن (Benjamin Harrison) عن طريق التذكير بالحاكم الفارسي قورش، الَذي سمح للأمة بالعودة من بابل لبناء بيتهم المشترك [Commonwealth] الثاني في القدس.. صحيح أن هَرِسن نفسه لم يتأثر، ولكن

أحدًا لم يكن في ذلك الحين قادرًا على معرفة مدى التأثير الذي قد تنطوي عليه قصة قورش الكتابية وحكاية إعادة اليهود بالنسبة إلى شاغل لاحق للمنصب الرئاسي، لم يكن حينها إلا صبيًا ريفيًا 'ابن مزارع' في السابعة من عمره من ولاية ميسّوري»[12].

3) لمّ شمْل الصّهاينة المسيحيين

3 . 1) العمل على كسب الرأي العام

3 . 1 . 1) مسألة فِلَسْطِيْن في حِقْبَة الجمهوريين

في حَزِيْرَان/ يونيو (1918 م) نشرت المنظمة الصِهْيَوْنِيَّة الأمريكية نتائج استطلاع الآراء الواردة في المقالات الافتتاحية في الولايات المتحدة فيما يخص (وعد بلفور). وقد قيل: «ليس ثمة معارضة، للحركة حصرًا، في عقول رؤساء التحرير العلمانيين. لم يتم استبعاد أيّ افتتاحيات من هذا الكُرَّاس لذلك السبب. ببساطة، لا وجود لأيّ معارضة»[1].

واستمر الرأي العام مؤيدًا خلال الأعوام الباقية من رئاسة ولسن، كما عبرت فترات حكم رؤساء الجمهورية الجمهوريين الثلاثة الذين جاؤوا بعده.

قبل انتهاء ولاية ولسن، تبرأ مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة من حزمة المعاهدات التي عاد بها ولسن من فرساي، وكانت تتألف من المعاهدات المتعددة الأطراف التي فرضت شروط السلام على القوى المهزومة ورسمت الحدود الجديدة لأورُبَّة، والاتفاقية (الفقرة 10) التي كانت الولايات المتحدة

ستنضم بموجبها إلى العصبة. وما لبث أن جرى تصديق هذا الحكم الصادر عن مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة إزاءَ التورط المتعدد الأطراف عبر انتخاب الجمهوري ورن هاردنغ (Warren Harding) لرئاسة الجمهورية في (1920 م).

مع وجود صيغة مدرسية نمطية تقول: إن الرؤساء الجمهوريين (1921–1933 م) درجوا على ممارسة سياسة (انعزالية) فإن هذا ليس إلا تصورًا خاطئًا. قد يكون الوصف الأفضل للسياسة التي اتبعها كل من هاردنغ وكولِدج (Coolidge) وهوفر (Hoover) القول: إنها سياسة (أممية أحادية الطرف) قائمة على رفض المشاركة في العصبة، أو في أيّ مسؤولية تنسيقية أخرى، جنبًا إلى جنب مع دبلوماسية أحادية تكاد أن تكون عدوانية مصممة على أساس توفير الفرص الاقتصادية للولايات المتحدة في مختلف أرجاء العالم.

شكلت المواقف الأمريكية في تلك السنوات عبئًا ثقيلاً جدًا على أعصاب الأورُبّيين، والبريطانيين على نحو خاص. فبصرف النظر عن رفضها الانضمام إلى العصبة وسياستها القائمة علىً القبول بعقد معاهدات سلام ثنائية منفصلة مع كل من القوى المهزومة في الحرب، ظلت الولايات المتحدة تصر على أن من حقها أن تقوم بريطانيا أو فرنسا أو عصبة الأمم باستشارتها وأخذ رأيها في أيّ تحركات بادية للأولى منطوية على مصالح تخصها. وقضية انتداب فِلَسْطِيْن شكلت ثوبًا مفصلاً لهذا الغرض، فقد كانت المنطقة الوحيدة في العالَم التي تتّبع بريطانيا فيها حقًّا، عبر إقرارها بوعد بلفور لعام (1917 م) سياسة سبق للولايات المتحدة نفسها أن تعهدت باتباعها. كانت الحكومة الأمريكية تعلم أن التأييد الشعبي للهدف الصِهْيَوْني كان كبيرًا على نحو غير عادي، ولكن بريطانيا كانت، خلافًا لحال الوَلايات المتحدة، مكلّفة فعليًا بتحقيقه، وانطوى أداؤها على الكثير مما كان يستدعي النقد.

علينا أن نتوقف عند هذه النقطة لنذكّر أن الولايات المتحدة ابتعدت عام

(1919 م) عن فرصة مشاركة بريطانية في إدارة فِلَسْطِيْن. كانت، في الحقيقة، ثمة لحظة اقترحت فيها الحكومة البريطانية أن يتحمل الأمريكيون مسؤولية الانتداب، ولكن الرئيس ولسن كان يعلم (أو ظن أنه كان يعل م) أن هذه كانت فكرة مفرطة في التقدم بالنسبة إلى الجمهور الأمريكي.

وخلال عقدي العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين تنامى عدم الثقة بدوافع بريطانيا في صفوف جميع ألوان الطيف السياسي الأمريكي من اليسار إلى اليمين. لعل الجاذبية الخاصة لقضية اليهود ومستقبلهم كانت متمثلة في أنها من تصميم الرب الذي أراد إظهار التفوّق الأخلاقي الأساسي للأمريكيين على البريطانيين. ومن نافل القول أنَّ التصريحات الأمريكية بشأن موضوع فِلَسْطِيْن كانت تثير بقوة حفيظة البريطانيين الذين كانت أيديهم في النار.

2 . 1 . 3) قرار لودج - فِش (1922 م)

في عام (1922 م) قامت عصبة الأمم رسميًا بتحميل بريطانيا مسؤولية الانتداب على فِلَسْطِيْن. وكما رأينا آنفًا، فإن الولايات المتحدة لم تكن عضوًا في العصبة، غير أنها كانت مصممة على ألا يكون أي عمل تقوم به العصبة متناقضًا مع مصلحة أمريكا أو متضاربًا مع مبادئ سبق أن تعهدت الالتزام بها. وانطلاقًا من ذلك تم تقديم مشروع قرار إلى الكونغرس يؤكد من جديد التزام الولايات المتحدة بوعد بلفور، ويدعو بريطانيا إلى السعي لاستكمال تحقيق الهدف المنظور في التصريح.

ومع ذلك فإن الإلهام بقرار الكونغرس لم يصدر ناضجًا عن النخبة المرموقة من أعضاء الكونغرس. من الممكن، في الحقيقة، أن نتلمس بدايات الأمر في عمل مجموعة ضغط (لوبي) نشطاء صِهْيَوْنيين صغار نسبيًا بقيادة مساعد مدعي عام من بوسطن يدعى إليهو ستون (Elihu Stone) وضمت

إمانويل نيومَن. وفي سيرته الذاتية يتحدث نيومَن عن الأمر على أنه الانتصار السياسي الأول لجيل جديد من مجموعات الضغط اليهودية، وقد حققه ما يطلق عليه اسم «شعبنا.. اليهود 'المهاجرون' من ذوي الأصول المتواضعة، دون مساعدة القيادات المتنفّذة التي درجت على الاضطلاع برئاسة المنظمة [المنظمة الصهيوينة لأمريكا]».

3 . 1 . 3) إمانويل نيومَن (1893-1980 م)

يبدو أن إمانويل نيومَن كان، من بين جميع الصهاينة الرسميين، الأكثر ثباتًا في إيمانه بوجود شيء اسمه: ضمير مسيحي، ومن المؤكد أنه بذل أكثر الجهود اتصافًا بالوجدانية لدراسة ذلك الضمير وفهمه، وصولاً إلى امتلاك القدرة على تجنيده لخدمة القضية الصِهْيَوْنيَّة.

كان إمانويل نيومَن المولود في ليبان (لاتفيا) عام (1893 م) قد جاء به أبويه إلى أمريكا ولمّا يمض على ولادته سوى أسابيع قليلة. ترعرع في أسرة صِهْيَوْنية شديدة التعصب، اختلط فيها تيار تقي وآخر علماني من التيارات الصِهْيَوْنيَّة. فقد كان أبوه باحثًا تلموديًا وواحدًا من (أحباء صِهْيَوْن) آمن بأن إعادة اليهود كانت خطة الرب التي تستدعي التعاون النشيط بين اليهود في كل مكان. وفي الوقت نفسه كان أحد أتباع التنوير (الحسكلا) ونصيرًا لاستخدام اللغة العبرية في جميع مناحي الحياة الأدبية والعلمية، ومُهَوَّسًا بتيودور هِرتْسِل. أسس سندل نيومَن (Sundel Neumann) مدرسة للتعليم اليهودي باللغة العبرية في حي وليمزبورغ من برَكلن، حملت اسم ›شعر صِهْيَوْن‹ [ثغر صِهْيَوْن/ باب صِهْيَوْن]. كانت العبرية اللغة الوحيدة المسموح بها للحديث في عائلة نيومَن. وما لبث إمانويل أن قام، فيما بعد، باعتماد هذه السياسة في أسرته، كما فعل أولاده من بعده.

من شأن حياة إمانويل نيومَن أن تقدم صورة واقعية إنسانية عن الإطار

الزمني الذي نتعامل معه في هذا المؤلف. فقد كان، وهو المولود قبل نشر كتاب (دولة اليهود) بثلاث سنوات فقط، ناشطًا في جماعات الشباب الصِهْيَوْنيَّة خلال سنوات ركود الصِهْيَوْنيَّة الأمريكية التي سبقت الحرب العظمى مباشَرة. بلغ سن الرشد مع الصِهْيَوْنيَّة الأمريكية في وقت واحد، بمعنى من المعاني، فقد كان تفرغه لخدمة الصِهْيَوْنيَّة بصفته الأصغر سنًا ربما بين عصبة الشبيبة التي تحول إليها لويس بْرَنْدَيْس من أجل التفرغ لإدارة (اللجنة التنفيذيّة المؤقتة/ Provisional Executive Committee) في آب (1914 م) بعد بلوغه الحادية والعشرين من العمر، بما جعله، حسب التحديد الأكثر تزمتًا للعصر، وراشدًا. وبعد ذلك بقي نيومَن في قلب الحركة الصِهْيَوْنيَّة خلال الجزء الأكبر من العقود التالية إلى أن مات في تل أبيب في شهر تِشْرين الأول/ أكتوبر من عام (1980 م). وفي عقدي عشرينيّات وثلاثينيّات القرن العشرين أدَّى دورًا حاسمًا في تقوية الصوت الأمريكي على صعيد مداولات الصِهْيَوْنية العالمية. كان رئيسًا للمنظمة الصِهْيَوْنية الأمريكية في عام (1947- 1948 م) التاريخي المشهود (Annus Mirabilis) وكان الفصل الأخير من حياته يتقاطع مع الأعوام الثلاثين الأولى من حياة دولة إسرائيل.

اطَّلعَ نيومَن من لويس بْرَنْدَيْس وستيفن وايز على الأهمية الحاسمة للإيمان المسيحي في قرار وُدرو ولسن الذي قضى بتبني وعد بلفور. كان وايز يحب رواية قصة قيامه بتذكير ولسن بحقيقة أن الإمبراطور قورش «بغض النظر عن صفاته الأخرى، أصبح منقوشًا في صفحات (الكتاب) بصفته الملك الفارسي الذي مكّن اليهود المنفيين في بلاده من العودة إلى القدس، ومن إعادة بناء الوطن والهيكل» حيث بادر ولسن إلى مناجاة نفسه بصوت مرتفع قائلاً: «ياله من حلم جميل! هل أكون أنا الخارج من بيت القسيس قادرًا على المساهمة في إعادة الأرض المقدسة إلى أصحابها ؟!».

وكان نيومَن اطلع من بْرَنْدَيْس ووايز كذلك على قصة مذكرة بلاكستون.

فبعد سنوات كثيرة، حين كان رئيس قسم العلاقات العامة والعمل السياسي لدى (لجنة الطوارئ للشؤون الصهيَوْنيَّة/ Department of Public Relations and Political Action of the Emergeney Committee of Zionist Affairs) قام نيومَن بتأليف خطاب تكريم بلاكستون، بمناسبة الذكرى السنوية الخمسين لصدور مذكرة بلاكستون في آذار/ مارس (1941 م) التي سبق أن ورد ذكرها سابقًا. إن المعرفة الدقيقة والعميقة للعلاقة الحميميَّة

بين بلاكستون وبْرَنْدَيْس تلقي الضوء على تقويم نيومَن لإمكانيات اللازمة القورُشية على نحوٍ عام.

وفي الوقت نفسه كان نيومَن يمتلك الإحساس الذي أهله لرؤية وجود قوى فاعلة قد تجر الرأي العام المسيحي في الاتجاه المعاكس، إذا ما تمت إضاعة الفرص المتاحة في اللحظة الآنية. (فبعبارات نيومَن) كانت مقدمة (قرار لودج-فِش) (Fish–Lodge Resolution):

> **تثير جدلاً مستفيضًا.. مع موالين للعرب وحاخامات معادين للصِهْيَوْنية يتحدثون 'أمام لجنة الشؤون الخارجية في البرلمان' ويثيرون معركة إزاءَنا.. [القيادة العليا للمنظمة الصِهْيَوْنيَّة العالمية، ومنظمة أمريكا الصِهْيَوْنيَّة] كانتا شديدة الانزعاج من القضية كلها.. خشية احتمال أن يتمخض ضمان التأييد الرسمي للكونغرس، آخر المطاف، عن الهزيمة ويكون ضرره أكثر من فائدته.. [ومع ذلك] فإن قرار الكونغرس المشترك المؤيد [إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلَسْطيْن] مر بالمجلسين كليهما مرورًا رائعًا وما لبث الرئيس هاردنغ أَن وقَّعه**[2].

نستطيع أن نكون متأكدين تمامًا من أن أكثرية الشيوخ والنواب الذين صوتوا مع (قرار لودج-فِش) إنما فعلوا ذلك لأنهم كانوا مقتنعين بأن القضية كانت تتمتع بالشعبية، وهو ما ينبغي أن يكون عليه الأمر في أي نظام

ديمقراطي. قليلون من النواب والشيوخ تمّنوا أن يُحرموا من فرصة إعلان تأييد (وعد بلفور) كي يتم وضعهم في قائمة الملائكة في القضية «الدولية» الوحيدة التي كانت أكثرية الأمريكيين تشعر بأنها تفهمها فهماً كاملاً في تلك الأيام.

4 . 1 . 3) لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية (1932 م)

كشف انتصار الصهاينة في موضوع (قرار لودج-فِش) عن وجود مخزون كبير من التأييد في كل من الكونغرس والبيت الأَبيض. ومع ذلك فإن الصهاينة الرسميين لم يبادورا خلال عدد غير قليل من السنين بعد الحدث إلى أي مسعى منسق في سبيل بناء صرح قابل للاستمرار على قاعدة الانتصار الدعائي الحاصل في عام (1922 م). شهدت العلاقات اليهودية العربية بفِلَسْطِيْن هدوءًا خادعًا أواسط عقد العشرينيات، ما لبث أن تعرض للنسف «الدرامي» المثير جراء أعمال الشغب العربية لعام (1929 م) [كذا !]. جاء رد البريطانيين على هذه الأعمال على شكل الحَلْقَة الأولى وهذا ما كان مرشحًا لأن يصبح سلسلة لجان تحقيق ملكية لدراسة الوضع الفِلَسْطِيْني، تقوم جميعًا بإصدار بيانات سياسية حكومية على نحو أو آخرَ، تشكل نقاط علاّم على طريق التراجع التدريجي ولكن الثابت والمّطرد عن وعد بلفور، وصولاً إلى تخلي البريطانيين عن الانتداب (1947 م).

مع نشر ‹[كتاب باسفيلد الأبيض] Passfield White Paper› في عام (1930 م) دبت الحياة في الصهاينة الرسميين. ففي آب من عام (1931 م) كتب إمانويل نيومَن إلى سِلغ برودتسكي (Selig Brodetsky) الذي كان آنذاك مسؤولاً عن حقيبة (الشؤون السياسية) داخل المنظمة الصِهْيَوْنيَّة العالمية الآتي:

> **يوافر الوضع السياسي هنا [في الولايات المتحدة] فرصة معينة. فالإدارة الجمهورية تشعر بقلق شديد بالعلاقة مع انتخابات (1932 م) العامة.**

ثمة احتمال قوي لأن يتم انتخاب أحد الديمقراطيين بسبب الركود الاقتصادي. والاحتمالان المبرِّزان نيويوركيان، هما فْرَنكلِن روزفلت وأوين يَنْغ (Owen D. Young). الأول صديق بالتأكيد، فقد تعاون مع ولسن في باريس في أثناء مؤتمر السلام. وبسبب نظامنا الخاص بالأصوات الانتخابية، تنطوي نيويورك على أهمية قصوى، بل وأهمية حاسمة غالبًا في الانتخابات العامة على الصعيد القومي. فالدولة لا تستطيع أن توصل على نحو عادي مرشحًا جمهوريًا للرئاسة دون دعم قوي من مدينة نيويورك الّتي يشكل اليهود فيها زُهاء ثلث القوة الانتخابية.

في ظل هذه الظروف.. لن يسع القيادات الجمهورية إلا أن تعد إلى العشرة قبل رفض طلباتنا المعقولة. وقد يكون من الحكمة بالنسبة إليّ، في هذه الظروف، أن أحاول الشروع بتحرك سياسي ما في واشنطن بمساعدة أصدقائنا».

مع اللهجة المتسمة بقدر من الواقعية لتلك الملاحظات الختامية، فإننا نعلم أن نيومَن وحليفه، ماكس رود (Max Rhoade) أصبحا يكنان شيئًا من الاحترام للإدارة الجمهورية، ويقوّمان إرادتها الطيبة تقويماً عاليًا جدًا. وكان أحد أفضل الأصدقاء المسيحيين للصِهْيَوْنية في تلك الأيام تشارلز كرتس (Charles Curtis) نائب الرئيس هربرت هوفر (Herbert Hoover) الذي أدَّى دورًا فعالاً في قضية القرار المشترك عام (1922 م) وعبَّر، مرة تلو أُخرى، عن استعداده لتقديم المزيد من العون لقضية الوطن اليهودي، ولا سيَّما عن طريق الكتابة في المجلة الصِهْيَوْنيَّة «[نيوبلستاين] New Palestine».

ثمة صديق جيد آخر للصِهْيَوْنية هو الانعزالي الأول (arch–isolationalist) عضو مجلس الشيوخ وليم بورا (William B. Borah) من ولاية أيداهو، التقطته مراصد الصهاينة الرسميين المرَّةَ الأولى حين أقدم على تبني قضية الصهاينة المضطهدين في الاتحاد السوفيتي. وقد انطوى صوته على بعض

الوزن في هذه المسألة، كونه أحد المناصرين الجادين القليلين في تلك السنوات للاعتراف بالاتحاد السوفيتي. وثمة ما يشير إلى أن الدعم السخي للقضايا اليهودية من جانب هذا السياسي الأيداهوي، الذي لم يكن مدينًا لأي 'صوت انتخابي يهودي' هو الذي وجه تفكير كل من بْرَنْدَيْس ونيومَن وروده وآخرين نحو المشروع الذي ما لبث أن تمخض عن (لجنة فلسطين الأمريكية) في عام (1932 م). أما وزير الداخلية راي ولبر (Ray L. Wilbur) الذي وصفه نيومن بأنه: «أفضل أصدقاء هوفر في المجلس» فقد كان عنصر اتصال آخر ذا قيمة، مثله مثل مساعد وزير الخارجية جيمس غرافتن روجرز (James Grafton Rogers). وثمة أعضاء مبرِّزون في مجلسي الشيوخ والنواب، كان القاضي بْرَنْدَيْس وفليكس فرنكفُرتر عرّف نيومَن على كثيرين منهم، وكانوا أيضًا يمن دون قدرًا كبيرًا من الاهتمام. وبعد بضعة أسابيع كتب نيومَن إلى المسؤول التنفيذي الصِهْيَوْني بلندن يقول: «مما يبعث على السرور أن الوضع في السياسة الأمريكيَة يشير إلى أن من المحتمل أن يصغي قادة الحزبين إلى ما نقوله».

في السابع عشر من كانون الأول عام (1931 م) عقد اجتماع استكشافي في منزل القاضي بْرَنْدَيْس، حضره كل من نيومَن، وماكس رود، وعضو مجلس الشيوخ وليم كنغ (William H. King) من أوتا (من طائفة المورمون) وعضو مجلس الشيوخ روبرت لافوليت الابن (obert La Folette Jr.) من ولاية وسكنسن، والنائب هاملتن فش (Hamilton Fish) ومساعد وزير الخارجية جيمس غرافتن روجرز، ووليم هارد (William Hard) (صحفي مرموق في تلك الفترة) ووليم هوبكنز (William R. Hopkins). وهذا الأخير، الذي شغل منصب مدير المدينة في كليفلند قال كلامًا في المناسبة أدهش به نيومَن كثيرًا:

> **فسَّر اهتمامه بالصِهْيَوْنيَّة بحقيقة أنه كان قبل كل شيء من جذور تمتد إلى ويلز، وكان، ثانيًا، من عائلة واعظين وتمت تنشئته على ‹الكتاب›..**

يرى السيد هوبكنز أن أقوى الاحتمالات هو أننا مؤهلون لكسب المؤيدين بين صفوف نمط معين من المسيحيين الذين تمت تنشئتهم على ‹الكتاب› والذين يتخذون موقفًا قائمًا على الحنان والعطف والمحبة تجاه الأرض المقدسة، وهذا ما يجعلهم ميالين، سلفًا، للوقوف في صف القضية الصِهْيَوْنيَّة. وهو يحذرنا من الاكتفاء بالتعويل على الساسة والليبراليين، الذين لا يستندون إلى مثل هذه الخلفية والارتباط العاطفي بفِلَسْطِيْن[3].

في السنوات العشرين التالية أتيحت لنيومَن فرص كثيرة لاختبار الحكمة النبوئية لتلك الأفكار الصادرة عن وليم هوبكنز.

تمثلت الخطوة التالية بوليمة عشاء رسمية، أقيمت في فندق ميفْلَوَر (Mayflower) بواشنطن في السابع عشر من كانون الثاني/ يناير من عام (1932 م) برئاسة نائب رئيس الولايات المتحدة. جاءت رسالة تأييد من الرئيس هوفر، وألقى كل من إمانويل نيومَن وفليكس فرنكفُرتر وعضو مجلس الشيوخ كنغ، وآخرين، كلمات، وفي الختام جرى اتخاذ القرار القاضي بتأسيس (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية/ American Palestine Committee). وكان ممن انتسب على الفور عضو مجلس الشيوخ كنغ ونائب الرئيس كورتس، والقاضي هارلان ستون (Harlan Stone) من المحكمة العليا، وزعيم الأكثرية البرلمانية هنري ريني (Henry Rainy) ووزير الزراعة آرثر هايد (Arthur M. Hyde) وعضوا مجلس الشيوخ النيويوركيان روبرت واغنر (Robert Wagner) ورويال كبلاند (Royal Copeland). وقد جرى ذكرٌ مفصَّل للحدث في الصحافة.

وبعد بضعة أسابيع عُقد اجتماع تنظيمي، وجرى توزيع (بيان الأهداف والمبادئ الخاص بلجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية/ Statement of aims and Principles and aims of the American Palestine Committee) على وسائل الإعلام. تألفت هيئة القيادة من روبرت فاغنر، رئيسًا وتشارلز مكنري (Charles L.

McNary) رئيسًا مساعدًا، ووليم غرين (William Green) ووليم كنغ وجون ريان (John A. Ryan) نوابًا للرئيس. وقد تمثلت غايتها بالعمل «أداة للتعبير عن تعاطف أمريكا المسيحيَّة ونيتها الحسنة إزاء الحركة الرامية إلى إعادة إقامة الوطن القومي اليهودي في فِلَسْطِيْن». وكانت فلسفتها وبرامجها تردد أصداء الصيغة البلاكستونية المعروفة:

تحقيق الأمل الألفي المعقود على إعادة توحيد الشعب اليهودي مع الأرض الموروثة منذ القدم، وهو أمل يتناغم مع روح النبوءة الكتابية، ظل على الدوام حاصلاً على تعاطف العالم المسيحي الليبرالي.

على الفور أعد نيومَن تقريرًا وجهه إلى موظفي المنظمة الصِهْيَوْنيَّة العالمية، يعكس الاعتزاز بما تم إنجازه إلى الآن، وقدرًا حصيفًا من الواقعية حول المهمة المطروحة في المستقبل. لا بد من إطلاق حملة كتابة رسائل لتجنيد الأعضاء الجدد، عقد الاجتماعات الجماهيرية وإصدار النشرات.

من الجوهري بطبيعة الحال أن يتم إنجاز هذا وغيره من العمل السياسي المطلوب القيام به في هذا البلد بالارتباط الوثيق مع اللجنة المثلة للمنظمة الصِهْيَوْنيَّة العالمية و(الوكالة اليهودية/ The Jewish Agency) العاملة من أجل فِلَسْطِيْن.. وهذا العمل كله سيتطلب أموالاً.. ثمة أشياء كثيرة تثير المَخاوف من أن تكون القضية كلها مظهرًا فارغًا، مع أن خطواتنا الأولية كانت ناجحة، مالم يتم اتخاذ خطوات فورية مباشرة لمواصلة العمل على نحو صحيح. ليس ذلك وحده، بل ثمة احتمال أن يبرز على السطح رد فعل بالغ السوء والشؤم إذا ما سُمح لمثل هذه الجماعة أن تتعرض للإذعان أو التفكك بعد أن تشكلت. سيكون إحياؤها مستحيلاً سنواتٍ طويلةً.

كتب نيومَن لعدد المجلة الصِهْيَوْنيَّة ‹[أُبْنيُون] Opinion› الصادر في الأول من شُبَاط/ فبراير (1932 م) مقالاً بعنوان ‹[استنفار الرأي العام الأمريكي من أجل فِلَسْطِيْن] Mobilizing American Opinion for Palestine› يكشف فيه

عن تقويم غير عادي للوضع التاريخي الذي كنا بصدد السعي إلى تحديده في هذه الصفحات.

> **تمتد جذور بذور التعاطف الأمريكي مع الفكرة الصِهْيَوْنيَّة إلى التراث الثقافي لهذا البلد وإلى ذهنية شعبه.. [إننا] نتذكر جملة المقترحات الأمريكية المختلفة القاضية ببعث اليهود في فِلَسْطِيْن والتي تقدم بها بين الحين والآخر يهود وأمميون على حد سواء. ولعل أبرز هذه المقترحات كان ذلك الصادر عن القس الدكتور بلاكستون الذي قام عام (1891 م) قبل ظهور هِرتْسِل بخمس سنوات، بتقديم مذكرة إلى رئيس الولايات المتحدة، مذيلة بتواقيع بعض أكثر الأسماء شهرة في الجمهورية، تقترح قيام أمريكا بدعوة مؤتمر دولي لمعالجة المشكلة اليهودية ولإعادة الوطن (Commonwealth) اليهودي في فِلَسْطِيْن.**

غير أن نيومَن حذر من وجود الاحتمال المرعب المتمثل بإمكانية فقدان الصهاينة ميزة هذا التراث (الإعادي) مع تعرض مواقف (الليبراليين) الأمريكان لإعادة الصياغة والتشكيل جراء «طوفان دعاية قوية ولكنها ماكرة» تصور الصِهْيَوْنيَّة على أنها جبهة لمصلحة الإمبريالية البريطانية وعرب فِلَسْطِيْن على أنهم ضحاياها.

> **نحن كنا، آخر المطاف، ضحايا هجوم منظم و إجرامي [أي أعمال الشغب العربية الحديثة]، وجدنا أنفسنا وقد جرى تصويرنا بأننا المعتدون. ومما يزيد من حزننا وكربنا أن الليبراليين هم الذين قادوا عملية نسج مثل هذه القصة حول الوضع. لقد تعرضنا للخيانة، على ما يبدو، في بيت أصدقائنا.**

كان هدف التنظيم الجديد، إذن، منصبًا على استغلال «القدر الكبير من التعاطف الكامن مع قضيتنا في الأوساط الرسمية.. [و]..إلقاء ما يكفي من الضوء على مشكلاتنا».

ومنذ البداية كان لويس بْرَنْدَيْس، الذي كان دوره في هذا كله معروفًا للمشاركين مع عدم مناقشته قط على الملأ، ألح على ضرورة امتلاك الصهاينة الرسميين «أولوية متفقًا عليها في جمع الأموال» حتى تتوافر إمكانية وجود «جهاز مكتبي دائم». ولأداء هذا العمل لا بد من وجود «لجنة توجيهية» مؤلفة من أكثر الشخصيات مسؤولية في المنظمة الصِهْيَوْنيَّة. أما اللجنة التوجيهية التي ما لبثت أن ظهرت فقد جرى انتقاء أعضائها من الصفوف الأمامية للهيئات التنفيذية الصِهْيَوْنيَّة مثل جوليان ماك وستيفن وايز وأبرام ماغيدا (Abram Magida) الذي كان رئيس (منظمة أمريكا الصِهْيَوْنيَّة/ Zionist Organization of America ZOA) آنذاك وماكس سوكولوف (Max Sokolow) من المنظمة الصِهْيَوْنيَّة العالمية. وقد تم الاتفاق على أن يقوم ماكس رود بتسيير أعمال (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) في واشنطن، منسقًا بانتظام مع سلطات (منظمة أمريكا الصِهْيَوْنيَّة) و(المنظمة الصِهْيَوْنيَّة العالمية) من خلال ماغيدا.

مما عقد الأمور من البداية أن الهيئة التنفيذية للمنظمة الصِهْيَوْنيَّة العالمية نيومَن الذي بات عضوًا فيها للاضطلاع بمهمات جديدة بلندن في وقت مبكر من عام (1932 م) ولم يخدم هناك، كما تطورت الأحداث، سوى بضعة أشهر قبل إبعاده أكثر عن الساحة، إلى فِلَسْطِيْن. وكما قال كارل فُس (Voss Carl) فيما بعد، سرعان ما بات واضحًا أن نيومَن كان (الروح القيادية) وما إن غادر أمريكا حتى «غرقت (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) وهي البادئة بداية رائعة، في حالة من الشلل والموات».

أما وضع (منظمة أمريكا الصِهْيَوْنيَّة) المالي فقد كان ميْئُوسًا منه منذ بعض الوقت، وكان يزداد سوءًا بسبب أزمة الكساد الكبيرة. فمحاضر اجتماعات مجلس مديري منظمة أمريكا الصِهْيَوْنيَّة التي كان نيومَن يرَسِل إليها تقاريره عن سير أعمال (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكة) ويطرح عليها الميزانية اللازمة لتشغيلها، تظهر أنها كانت غارقة كليًا في بحر من الويلات المالية، وإحصائيات

عن العضوية المتدهورة، والمعلومات المؤسفة عن أن أقلية صغيرة فقط من الأعضاء الباقين كانوا يسددون التزاماتهم. لقد كان صهاينة في مواقع رفيعة دائبين في مناقشة إمكانية إعلان الإفلاس وحل التنظيم.

لا يمكن وصف ما أعقب ذلك إلا بالمعيب والشائن. فبعد أسابيع طويلة من الوليمة الاحتفالية، كانت الفواتير غير مدفوعة، وكان الدائنون راحوا يطالبون بديونهم بوقاحة. نرى أن ما كتبه ماكس رود إلى الهيئة التنفيذية العالمية شاكيًا من إخفاقها في سدّ الموازنة ما لبث أن نال الموافقة.

> **بات الوضع بالغ الإحراج بالنسبة إليّ شخصيًا كما بالنسبة إلى المنظمة الصِهْيَوْنيَّة. كثيرًا ما يسألني أعضاء مجلس الشيوخ عن موعد عقد الاَجتماع، وقد كانت (فبركة) الأعذار صعبة. لقد نشأت أوضاع بالغة البؤس، أوضاع لا تؤدي، أؤكد لكم، إلى تحسين هيئة المنظمة الصهيونية في عيون الشخصيات التي نجحنا في لفت أنظارها بعد قدر كبير من الجهد والألم.. إنني ضائع تمامًا ولا أعرف ما أقوله لهؤلاء الناس.**

مع حلول شهر أيار/ مايو كانت (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) قد تيتمت. صحيح أن اللجنة لم تنحل رسميًا قط، غير أنها توقفت عن عقد الاجتماعات، فنسيها الجمهور.

وهكذا فإن السؤال الذي برز هو الآتي: كيف استطاع نيومَن وبْرَنْدَيْس ورود، وهم مطلعون اطلاعًا كاملاً على هذه الصورة الأعم، أن يقنعوا أنفسهم مع آخرين بإطلاق هذا المشروع المكلف في عام (1932 م) لا لشيء إلا ليراقبوه وهو ينهار ويتمزق أشلاء بعد أشهر قليلة فقط من نشاطه؟

مع إعطاء كل ما هو ممكن من الأهمية للوضع المالي المأزوم السائد في ذلك الوقت، يساورنا الشك في وجود عامل آخر فعل فعله في قصة تيتم (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية). إنه العامل الذي نجده متمثلاً بالوضع السياسي المتغير بين لحظة مناقشة المشروع المرَّةَ الأولى (خريف عام 1931 م) ولحظة هبوط ما يشبه صمت

القبور على هذا الموضوع في مراسلات الصهاينة الرسميين، أي في أواخر ربيع عام (1932 م). بعبارة واضحة، مع حلول ذلك التاريخ المتأخر، كان ثمة توقع شامل بأن الجمهوريين مقبلون على الهزيمة في الانتخابات الرئاسية المقبلة. من المؤكد أن الكثير فكروا بعدم جدوى الحفاظ على هذه الجبهة القائمة على الحزبين بالنسبة إلى الصهاينة، وهي جبهة كان رؤساؤها، حسب الأوراق الرسمية، من الجمهوريين الشاغلين المناصب الرسمية. ومن المؤكد أن السياسة الأفضل الآن كانت متمثلة بالسعي إلى ضمان مكان في صف الفائزين.

مع حلول أواخر ربيع (1932 م) كان الصهاينة، بأكثريتهم، متحالفين علنًا مع حملة فْرَنكلِن روزفلت. ثمة أناس من أصحاب الذكريات القديمة راحوا يتحدثون عن نوع من العودة إلى أيام محور بْرَنْدَيْس/ وايز/ ولسن، بعد كسب فْرَنكلِن روزفلت بدلاً من وُدرو ولسن. وبما أن معظم الصهاينة درجوا على التوهم بأنهم «تقدميون» فإن كثيرين باتوا متضايقين من الفكرة القائلة: إنَّ قدرًا كبيرًا من الوقت تم تبديده على مغازلة قباطنة النظام القديم. وهذه الفرضية غير قابلة للتوثيق نظرًا لأنها تدور حول افتراض أن الرؤساء كانوا، ببساطة، شديدي الانزعاج وهذا ما جعلهم يخفقون في ترجمة هذه الأفكار إلى كلمات.

غير أن الحقيقة كانت تقول: إنَّ الصهاينة حققوا أشياء كثيرة في ظل القيادة الجمهورية التي دأبت في التعامل معهم بقدر كبير من اللباقة غير الشائبة. وكثير منهم كان حائرًا، كما قال رود، بشأن السبب الكامن وراء توقف الجميع عن الدعوة إلى عقد الاجتماعات، ومن المؤكد أنهم كانوا يتساءلون عمَّا إذا كان نقص الأموال هو السبب الوحيد.

وبعد الانتخاب ببضعة أيام، كتب ماكس رود إلى ستيفن وايز يقول:

> **أعلم كم ينبغي أن تكون مسرورًا بشأن الآفاق التي تنتظر الصِهْيَوْنيَّة نتيجة الانتخاب إن لم يكن بسبب آخر. صحيح أن إدارة هوفر كانت**

صديقة بطبيعة الحال، ولكن عودة التراث الولسني، الذي أسهمتَ في صياغته، إلى الظهور، محكومة بأن تفعل الشيء الكثير لمصلحتنا.. كلنا يعلم أن عددًا من إخوتنا قريبون من (إف دي آر) [فْرَنكلِن ديلانو روزفلت] وإذا تمكن أحدهم من الوصول إلى 'الداخل' فإن من شأن ذلك أن يساعد. من المؤكد أننا نستطيع إنجاز أشياء كثيرة فيما يخص الموقف الداخلي للوزارة، إذا كان وزير الخارجية الجديد صديقًا.

نستطيع أن نقرأ بين السطور الفكرة التالية: ما جدوى الإبقاء على حياة (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) غير الحزبية، إذا كانت الإدارة الجديدة مغلقة إلى هذه الدرجة الكاملة، في حقيقة الأمر، أمام القضية الصِهْيَوْنِيَّة ؟

لا شك أن الجميع توقفوا على نحو شبه فوري عن ذكر اللجنة. فليس في أي من محفوظات تلك الفترة أي تعًبير رسمي عن الأسف أو الاعتذار من الهيئة التنفيذية الصِهْيَوْنِيَّة للشخصيات العامة الخيرة التي تبرعت بأسمائها وحماستها لمصلحة هذا المشروع.

لعل الجزء الأشد غرابة من الحدث كله هو أن نيومَن حين طاف، بعد تسع سنوات، على الساسة حاملاً اقتراحًا يقضي بإطلاق لجنة فِلَسْطِيْن أمريكية أخرى، سارع معظم الشخصيات نفسها إلى احتلال كراسيهم في مجلس الإدارة من جديد! غير أن النتائج في هذه المرة الثانية الجديدة كانت، كما سوف نرى، مختلفة اختلافًا يثير الدهشة.

3 . 1 . 5) الاتحاد الموالي لفِلَسْطِيْن (1932-1940 م)

في مذكرة لا تحمل تاريخًا، ولكنها تعود، كما يبدو، إلى أوائل كانون الثاني/ يناير (1932 م) قام إمانويل نيومَن، باستعراض مخططاته بشأن (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) أمام الهيئة التنفيذية لـ(منظمة أمريكا الصِهْيَوْنِيَّة) مؤكدًا (كما رأينا) الحاجة الماسة للمال. وبعد ذلك يقول: «ثمة مشكلة أخرى ما لبثت أن برزت

على شكل جماعة معروفة باسم (اتحاد أمريكا الموالي لِفِلَسْطِيْن/ Pro-Palestine Federation of America)».

من اللافت للنظر أن هذه الإشارة الأولى إلى (الاتحاد الموالي لفِلَسْطِيْن) التي نجدها في الوثائق الرسمية لمنظمة أمريكا الصِهْيَوْنيَّة، وهي نشرة مجانية موزعة باليد تبدو المنظمة فيها كما لو كانت 'مشكلة'. وقصة (الاتحاد الموالي لِفِلَسْطِيْن) تلقي الضوء على بعض أفضل سمات تاريخ تعامل الصهاينة الهِرتْسِليين مع الأصدقاء المسيحيين للصِهْيَوْنية من جهة وبعض أسوأ سمات ذلك التاريخ من جهة أخرى. وبعد أن يكون كل شيء قد قيل وتم فعله، فإن السمات الأخيرة، أي الأكثر سوءًا، هي التي تطغى على قصة هذه المنظمة.

ليس ثمة قدر كبير من التوثيق عن تعامل الصهاينة الرسميين مع هذه المنظمة، وجزء كبير مما هو موجود محفوظ خطأ (عرضيًا) تحت عنوان: لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية. من البداية، كانت خطيئتها الرئيسة كامنة، في نظر الصهاينة الرسميين، في عدم طلبها إذنًا لتبدأ الحياة، وأنها جاءت إلى العالم في أشد اللحظات الممكنة انطواء على الإحراج، حين كانت أفضل طاقات القيادة مشغولة بتأسيس (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية). ما من إشارة إلى (الاتحاد الموالي لِفِلَسْطِيْن) تظهر في مذكرات إمانويل نيومَن أو ستيفن وايز، ولا في مذكرات أي من الزعماء الآخرين الذين خلفوا وراءهم مواد سيرية (ذاتية) منشورة. ومع ذلك يحس المرء، لدى انشغاله بالوثائق غير المنشورة المتبقية، بأن (الاتحاد الموالي لفِلَسْطِيْن) ربما لم يكن سوى أداة لتجنيد كامل زخم النزعة الموالية للإعادة في الرأي العام الأمريكي، لولم يبادر الصهاينة الرسميون إلى التعبير عن قدر مفرط من الاحتقار والاستهجان لبدايته غير المرخصة أو المجازة، وقدر مماثل من التحسس إزاء إخفاق (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) الخاصة بهم.

تم تأسيس (اتحاد أمريكا الموالي لِفِلَسْطِيْن) على يد قادة مسيحيين معينين في

منطقة شيكاغو، كانوا مهتمين بتشجيع الحوار اليهودي المسيحي. وقد جرى عقد بضعة اجتماعات صدرت عنها تصريحات تؤيد قضية صِهْيَوْن، وتم طبع المنشورات وتوزيعها. أما بَرْنَامَج (الاتحاد الموالي لِفلَسْطِيْن) فقد كان يدعو إلى:

1) **تشجيع ورعاية روح المودة والاحترام بين اليهود وغير اليهود.**
2) **محاربة الهجمات العدائية التي يشنها الأميون الرجعيون والمنحازون بهدف إثارة المشكلات الدينية والعنصرية لغير مصلحة أمريكا والتقدم الإنساني.**
3) **التشجيع على قدر أفضل من تفهم المشكلات التاريخية لليهود بين صفوف الأمميين.**
4) **تقديم المساعدة لعملية الدفاع عن وعد بلفور، و إلزام القوة المنتدبة بأداء انتداب فِلَسْطِيْن نصًا وروحًا.**

تنبه صهاينة منطقة شيكاغو، ولا سيَّما القاضي جوليان ماك أحد أعضاء الهيئة التنفيذية لمنظمة أمريكا الصِهْيَوْنيَّة، ورئيسها الفخري، على هذه المواد. وبعد وقت قصير وصلت إلى منظمة أمريكا الصِهْيَوْنيَّة رسالة تطالب بمبلغ (500) دولار للإسهام في تمويل مؤتمر وشيك، ولكن الإسهام الوحيد الذي نجده حتى صيف عام (1931 م) أتى من أي فرع من فروع منظمة أمريكا الصِهْيَوْنيَّة كان النصائح: وتحديدًا الاقتراح الصادر عن القاضي ماك والذي يقول: إنَّ على مؤسسي (الاتحاد الموالي لِفلَسْطِيْن) أن يقنعوا تشارلز إدوَرد رسل (Charles Eduard Russel) بأن يصبح رئيس الاتحاد. من الواضح أن هذه النصيحة لقيت قَبولاً، فحين تبدأ المراسلات المنتظمة بين موظفي (الاتحاد الموالي لِفلَسْطِيْن) و(منظمة أمريكا الصِهْيَوْنيَّة) نجد أنفسنا أمام طاقم من القياديين مختلف كليًا عن أولئك الواردة أسماؤهم في منشور جماعة شيكاغو الأصلية. فتشارلز إدوَرد رَسِل يظهر على رأس قائمة شخصيات أدبية و(أكاديمية) ودينية شهيرة، تضم نورمَن هبغود ووليم آر هوبكنز

وجون هاينز هولمز (John Haynes Holmes) وبيير فان باسن (Pierre Van Paasen) وكارل ويتكه (Carl Wittke) (وجميعهم شخصيات ذات شأن في الحياة الأدبية و(الأكاديمية) البحثية في عقدي العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين) إضافة إلى بن إلياس (A. Ben Elias) الذي يظهر بصفته السكرتير التنفيذي.

كان اقتراح تشارلز إدوَرد رَسِل رئيسًا إلهامًا سماويًا. فالرجل، الذي بات غارقًا في ثنايا النسيان منذ زمن بعيد، كان في ذلك الوقت مشهورًا بصفته صحفي يكتب في مجلات، في عصر كانت فيه صحافة المجلات في أوج نفوذها. لقد كان، بصفته «مثير فضائح» مرموقًا، واشتراكيًا نشطًا، وأحد مؤسسي (الرابطة القومية لرقي البشر الملونين) تجسيدًا حيًا للوجدان التقدمي. خرج على الحزب الاشتراكي في أعقاب المؤتمر الاستثنائي الطارئ الذي عُقد في نَيْسَان/ أبريل عام (1917 م) حين اتخذ الحزب بأكثرية أربعة إلى واحد قرارًا يجدب قيام الولايات المتحدة بإعلان الحرب على ألمانيا «بصفته جريمة بحق أمم العالم». وبعد ذلك جرى استغلاله على نحوٍ جيد من جانب اللجنة الإعلامية التابعة لإدارة ولسن، وما لبث أن أصبح، وبسرعة، قريبًا منه شخصيًا.

ظل تعامل رَسِل مع الصهاينة الرسميين وديًا من البداية إلى النهاية. لعله نموذج مثير لمسيحي ليبرالي محب السامية ينبع تأييده للصِهْيَوْنية، في المقام الأول، من الاقتناع بأن مدنيتنا وحضارتنا مدينتان لفضائل الشعب اليهودي وإنجازاته. ففي أول تبادل للرسائل مع ستيفن وايز، قام رَسِل بإبلاغ الحاخام عن أنه هو الذي «هداني إلى الصِهْيَوْنيَّة»:

> **لا يساورني أي شك في أنك نسيت الحدث، أما أنا فأذكره جيدًا. كان ذلك منذ أمد طويل، إما في عام (1897 م) أو (1898 م) حين كنت مديرًا لتحرير ‹نيويورك مورننغ جورنال/** York New Morning Journak› **القديمة، دخلت أنت ذات يوم (كانت المرة الأولى التي**

أقابلك فيها) وتحدثت إليَّ عن صِهْيَوْن، حديثًا بالغ الإثارة والاقناع حتى إنني أصبحت صِهْيَوْنيًا منذ ذلك اليوم، مع أن الصِهْيَوْنيَّة لم تكن تعني لي من قبلُ شيئًا أكثرَ من اسم. وبعد سنين كثيرة، حين ذهبتُ إلى فِلَسْطِيْن، كنت حاضرًا في تفكيري على الدوام إذ بقيت متذكرًا ما قلته وراجيًا أن أكونَ هناك للإسهام في جعل أحلامك تعطي ثمارها. ما رأيته كان فرحًا يتعذر وصفه. ففِلَسْطِيْن لم تعد حلمًا بل واقعًا.. إنني مدين لليهود بدين وجميل يجعلانني غير قادر على التقاعس بسهولة عن الإمساك بفرصة العمل معهم من أجل قضية كهذه [(الاتحاد الموالي لفِلَسْطِيْن)].. ثمة أشياء كثيرة في هذا العالم أنا جاهل بها، غير أنني أعرف الروح اليهودية والقلب اليهودي على الأقل.

وفي مراسلاتهما اللاحقة دأب وايز ورَسِل في التنافس فيما بينهما لرؤية الأكثر قدرة على كيل المديح الأكمل للآخر. وكذلك فإن المراسلات الموجودة لدينا بين رَسِل وقادة صهاينة آخرين تتصف دائمًا باللطف الملحوظ.

غير أن الشيء نفسه لا يمكن أن يقال عن المراسلات ذات العلاقة بالسكرتير التنفيذي للاتحاد الموالي لفِلَسْطِيْن، بن إلياس. فإمانويل نيومَن، على سبيل المثال لا الحصر، كان يكره بن إلياس كرهًا واضحًا منذ الاتصالات الأولى بينهما بالرسائل. ربما كان الأمر منطويًا على ما هو أكثر مما تظهره الوثائق. وعلى أيّ حال فإن نيومَن اقتنع، على نحو ما، أن من شأن الجماعة المبادرة إلى تأسيس (الاتحاد الموالي لفِلَسْطِيْن) أن تغدوَ مصدرًا محتملاً للمشاكل بالنسبة إلى الصهاينة الرسميين. ففي المذكرة (تمت الإشارة إليها من قبل) التي يأتي فيها على ذكر الجماعة المرَّةَ الأولى تعبير عن بعض الاحترام لحقيقة أنها، خلافًا لحال (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) كانت قادرةً على تمويل نشاطاتها، غير أنه يبدو، في الوقت نفسه، ميّالاً إلى الاعتقاد أن هذا نفسَه باعث على الشك والشبهة.

> **يبدو أن الجماعة مؤلفة برمّتها الساحقة، وعلى نحوٍ شبه حصري، من أمريكيين ألمان، برز عدد غير قليل منهم خلال الحرب بصفتهم موالين لألمانيا ومعادين لبريطانيا، وكان يُنظر إليهم بعين الشك لذلك السبب. ومهما كانت دوافعهم فإن بعضهم كان، فيما يبدو، على درجة من الاهتمام كانت كافية لتقديم بعض الأموال اللازمة للحفاظ على هيكل تنظيمي كان محصورًا إلى حد كبير بشيكاغو وبقي عمليًا هامدًا سنةً إلى أن بدا نشاطي الأخير قادرًا على بث الروح فيهم مرة أخرى. من الواضح أنهم يمن دون قلقين إزاء بروز هيئة جديدة (أعني: لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية، لن تكون جزءًا من منظمتهم.**

لم يكن التلميح إلى كثرة الأسماء الألمانية بين المؤسسين مسوّغًا، وكان، في حقيقة الأمر، سلوكًا كارثيًا صارخًا، كما أن الفكرة القائلة: إنَّ الجماعة لم تبرز إلى الوجودِ إلا تعبيرًا عن الحسد من مساعي نيومَن في حديقة (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) أو رغبة في منافسته، ليست مفتقرة لأيّ قيمة فحسبُ، بل ومستحيلة تأريخيًا أيضًا. لعل أفضل المفاتيح لسائر أشكال الصراع المرشحة لأن تنهمر هو ما نجده في السطر التالي، حيث يقال: «إنني عازم على وضع هذه الجماعة وخصوصًا سكرتيرها تحت إشرافنا وسيطرتنا، حتى ولو انطوى ذلك على صراع قد يكون شرسًا ولكنه قصير الأجل».

قطع نيومَن في أول مراسلاته مع قيادي (الاتحاد الموالي لفِلَسْطِيْن)، نيابة عن منظمة أمريكا الصِهْيَوْنيَّة، وعودًا صريحة بالدعم المالي، ولكنه ما لبث، مع حلول شهر كانون الثاني/ يناير من عام (1932 م) بعد إطلاق مشروع واشنطن (the Washington project) أن ندم، فيما يبدو، على تلك الوعود، فراح يعمل على إبعاد الموارد المالية والمعنوية عن (الاتحاد الموالي لفِلَسْطِيْن) وتوجيهها نحو (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية). عندئذ بدأ قادة (الاتحاد الموالي لفِلَسْطِيْن) بالكتابة إلى ستيفن وايز شاكين من قيام مشروع (لجنة فِلَسْطِيْن

الأمريكية) بالسطو على جميع الأموال والعواطف الودية العائدة للاتحاد الموالي لِفلَسْطِيْن.

ثمة بُعْدٌ بالغ القسوة، يتعذر الصفح عنها، في هذا الأمر. فالصهاينة الرسميون وبكل بساطة فقدوا حماستهم للولاء الأممي الطوعي للصِهْيَوْنية، ولكنهم لم يستطيعوا أن يقنعوا أنفسهم بالاعتراف بذلك على نحوٍ مباشَر. وجراء تصوراتهم التي ضخمتها خططهم الخاصة (بمشروع واًشنطن) واعتزامهم، بعد ذلك، السيطرة على إدارة روزفلت من الداخل، ما لبثوا أن انحدروا إلى مواقع «ازدراء يوم الأمور الصغيرة» (زكريا 4: 10). من الواضح أنهم كانوا يبحثون عن ذرائع لحلحلة الروابط مع الاتحاد، وربما، يشك المرء، لدفعه إلى الضياع لولا الإعجاب الذي كانوا جميعًا يكنّونه، على ما يبدو، لشخص تشارلز إدوَرد رَسِل.

خلال شهري كانون الثاني/ يناير وشُبَاط/ فبراير من عام (1932 م) قام نيومَن، في حين كان شديد الانشغال بالعمل من أجل إطلاق (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) إضافةً إلى الإعداد لعملية انتقاله إلى لندن، بإجراء مراسلات ذات شأن مع شخصيات الاتحاد الرئيسة الثلاثة، تشارلز إدوَرد رَسِل، جون هاينز هولمز وبن إلياس. كانت الأمور كلها سمنًا وعسلاً مع الأولَين، أما مع الثالث فثمة إشكالات على نحوٍ مباشَر.

كما يؤكد نيومَن لرسل، فإن بن إلياس لم يكن، بصريح العبارة، إلا مصدر ازعاج، إنه دائب الاتصال هاتفيًا وبرقيًا ('على حساب المتلقي' غالبًا) زاعمًا أن علينا أن نجتمع ونتحدث.

عارض بن إلياس ورسل إطلاق (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) مفضلين بدلاً من ذلك أن يبادر الصهاينة الرسميون إلى توظيف جميع الموارد المالية التي يمكن أن تتوافر لهم من أجل تشجيع تحول التأييد المسيحي إلى (الاتحاد الموالي

لفِلَسْطِيْن) على نحو موسع، ولكن رَسِل وافق، منذ أمد طويل، على وضع خطة للتنسيق بين الجماعتين تحت رعاية منظمة أمريكا الصِهْيَوْنيَّة وفي رسالة وجهها إلى رَسِل قام نيومَن بتحديد الخطوط العامة للتفاهم:

إن نمط التعايش الممكن، في الوقت الحالي، هو بكل بساطة الآتي: ستبقى الجماعتان موجودتين هيئتين منفصلتين على أمل أن تبادرا، عاجلاً أم آجلاً، وأرجو أن يكون عاجلاً.. إلى التقارب فالتوحد. أما في هذه الأثناء فعلى هاتين الجماعتين أن تبقيا على صلة، كل منهما مع الأخرى، ولا سيَّما مع لجنة من المنظمة الصِهْيَوْنيَّة ستضم كلاً من القاضي ماك والدكتور ستيفن وايز، بغية تجنب مضاعفة الجهد أو الصراع.

غير أن نيومَن يبدو أقل كياسة في كلامه الموجه إلى الزملاء من الموظفين الصِهْيَوْنيين:

كان الاتفاق الذي توصلت إليه مع الدكتور إلياس كما مع السيد تشارلز إدوَرد رَسِل يقضي باستمرار جماعتهما في الوجود إلى حين حلول اللحظة المناسبة، بموافقة الطرفين، لاندماج المنظمتين. وفي الوقت نفسه فإن أصدقاءنا في شيكاغو وافقوا على امتثال آرائنا كليًا حول ما يَتَحَتَّم عليهم أن يفعلوه أو أن يتجنبوا القيام به.. لا أرى أي سبب يدعو للكتابة إلى الأقاليم في اللحظة الراهنة عن هذا، مع احتمال أن يصبح ذلك مناسبًا بعد قليل. أعتقد أن علينا أن نعد إعدادًا كاملاً لعمل (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) أولاً.

صحيح أن مطالب (الاتحاد الموالي لفِلَسْطِيْن) المالية كانت متواضعة، غير أنه سرعان ما تبين أن موظفي الصِهْيَوْنيَّة لم يكونوا جادين في تلبيتها. سبق لنا أن تحدثنا عن الوضع المالي البائس في منظمة أمريكا الصِهْيَوْنيَّة في أكثر أشهر الكساد حلكة تلك، فإضافةً إلى المأزق المالي، ثمة في اللهجة المتبناة من جانب الصهاينة الرسميين، حين يكتب بعضهم عن هذه المنظمة، شيء يشي بأن

الفكرة الخفية الكامنة في أعماق قلوبهم كانت متمثلة بضرورة الحيلولة دون استمرار (الاتحاد الموالي لِفِلَسْطِيْن) في الحياة إلى الأبد.

من الصعب إصدار حكم منصف على هذه المسألة. فمن البداية إلى النهاية، لا يكف بن إلياس البَتّةَ عن لوم القادة الصهاينة الذين يراسلهم على استخفافهم بمنظمته. إنه الشهيد والنبي على الدوام.

> **تبدو تضحياتي العظمى على امتداد زُهاء خمس سنوات محكوم عليها بالعقم.. فمنذ إطلاق الاتحاد أسهمت بما يزيد على (8500) دولار لبقائه، (4000) دولار منها من مدخراتي الخاصة والباقي قروض استدنتها بتعهدات شخصية وقعتها شخصيًا، ويَتَحَتَّم علي، بطبيعة الحال، أن أسددها. كما أسهم الأميين (gentiles) أيضًا بما يزيد على (3500) دولار، وهو مبلغ مناسب تمامًا نظرًا لحجم العضوية الصغير. أما من المصادر الصِهْيَوْنيَّة واليهودية الأخرى فلم يصل أكثر من (2000) دولار في غضون هذه السنوات الأربع والنصف.. وأنا، الذي لم أحصل قط على قرش واحد مقابل نضالي الشاق في سبيل هذه القضية، تحتّم علي أن أترك وظيفتي التعليمية، التي هي مصدر رزقي، وأن أرحل من نيويورك إلى بوسطن في سبيل توفير بعض المال من أجل إنقاذ الوضع.**
>
> **كثيرًا ما أطرح على نفسي أسئلة لا أستطيع الإجابة عنها. هل يقضي الإنصاف أن تقع أعباء عمل أمة كاملة على كاهل فرد وحيد؟.**

أقْدَمَ إلياس على مقابلة نفسه بأنبياء الكتاب دونما خجل، فهو، في إحدى رسائله «صوت صارخ في البرية» (مقتبسًا من إشعيا 40: 3). وفي مكان آخر يقول: «مصير إسرائيل في الميزان وأنا أستغيث طالبًا النجدة! إنني، مثل إرميا، في صراع مع شعبي وفي سبيله». وهو مقتنع بأن كل الرسميين الصهاينة باتوا يكرهونه شخصيًا كرهًا شديدًا، وهذا ما يبدو مجسدًا حقًّا لحقيقة المسألة المؤلمة.

وفيما بعد، سوغت القيادة الصِهْيَوْنِيَّة إخفاقها في استخدام (الاتحاد الموالي لفِلَسْطِيْن) على نحو فعّال بالزعم أن منظمة تدعي النطق باسم الضمير المَسيحي ما كان بوسعها أن تبدو ذات مصداقية على نطاق واسع مع أنه كان معروفًا أن يهوديًا (بن إلياس حصرًا) كان يديرها. وثمة إيجاز لهذا الخط في رسالة تلقاها بن إلياس في آذار/ مارس (1939 م) من سُلُمُن غولدمان (Solomon Goldman) المنصّب حديثًا رئيسًا لمنظمة أمريكا الصِهْيَوْنِيَّة:

لا أعتقد أن (الاتحاد الموالي لِفلَسْطِيْن) يمكن تمويهه كمنظمة عائدة للمسيحيين طوال بقاء سكرتيرها ومديرها [كذا] يهوديًا. أضف إلى ذلك، لا أظن أن هناك أيّ حاجة لتمويه أي جهد يبذله اليهود باسم فِلَسْطِيْن.

وفي رد انتقامي، ألح بن إلياس على أن دوره كان متمثلاً بالقيام بدور الجسر بين القادة المسيحيين لهذه المنظمة من جهة والصهاينة اليهود من الجهة المقابلة:

إن (اتحاد أمريكا الموالي فِلَسْطِيْن) منظمة مسيحية حقًا. ولا يمكن لواقع كون سكرتير الاتحاد يهوديًا أن يشوه طابع المنظمة أو يموّهه. من المنطقي تمامًا بالنسبة إلى جماعة من المسيحيين، المخلصين لقضية تهم اليهود بالدرجة الأولى، أن تحمِّل يهوديًا مسؤوليات ومهمات تنفيذية، ليتولى وظائف 'ضابط الارتباط' بين اليهود والأميين.. إنها شراكة مطلوبة بإلحاح شديد بين اليهود والمسيحيين المتنورين التي يسعى الاتحاد إلى تأسيسها، من شأنها أن تسهل كثيرًا المهمة الصعبة جدًا المتمثلة بحشد تأييد لأرض إسرائيل يشمل العالم.

وفي رسائل موجهة إلى ستيفن وايز خلال السنوات الأولى من حياة المنظمة، عبّر إلياس عن قناعته بأن هذه الشكوى المحددة منه ومن عمله لم تكن إلا لعقلنة وتسويغ إخفاق منظمة أمريكا الصِهْيَوْنِيَّة حصرًا.

إذا بادر شعبنا الطيب إلى الإفادة من بعد النظر وسار خلف هذه الجماعة الموالية لفِلَسْطِيْن فإننا نتمكن من شن حملة ناجحة لتجنيد الآلاف من الأمين في طول البلاد وعرضها. ونستطيع، بعد ذلك، أن ننظم عملاً مؤثرًا إزاءَ أيّ محاولات رامية إلى انتهاك الانتداب، وأن نحشد دعماً قويًا ومفيدًا لمصلحة المطالب الصِهْيَوْنيَّة المتمثلة بسياسة الباب المفتوح وضم شرق الأردن إلى دائرة الهجرة والاستيطان اليهوديين. ويمكننا أيضًا أن نقدم علاجًا شافيًا فعّالاً لحملة الدعايات المسمومة المعادية لليهود التي تقوم أجهزة عملاء هتلر في إنغلترا وهنا في أمريكا بنشرها بقدر كبير من الإتقان.

تنطوي نظرية بن إلياس عن الحاجة إلى يهودي يكون «ضابط ارتباط» يتولى رئاسة الفعاليات اليومية لمنظمات أصدقاء صِهْيَوْن من المسيحيين، على معنى. فالدلائل تشير، في الحقيقة، إلى أن مثل هذه المَنظمات ما كانت ناجحة إلا حين كان يوجد «ضابط ارتباط» يهودي. وهو أمر ملحوظ بوضوح في قضية (لجنة فِلَسْطِيْن أمريكا) اللاحقة، خلال السنوات التي كان زعيمها الرسمي عضو مجلس الشيوخ روبرت فاغنر (Robert F. Wagner) في حين كان ضباط تنفيذيون يهود يقومون بجميع المهمات اليومية العملية.

واضح، من جهة أخرى، أن التعامل مع بن إلياس كان يتطلب سَعَةَ صدر قديسين وصبرهم. لعل أحد أكثر الأمثلة دلالة على مدى لامسؤولية بن إلياس قصة وليمة غداء تشارلز إدوَرد رَسِل. كانت تلك مناسبة رعاها (الاتحاد الموالي لفِلَسْطِيْن) على شرف رئيسه الذي لا يعرف معنى التعب، وتمت في شُبَاط/ فبراير من عام (1934 م). كان الحضور ضعيفًا، وهذا ما سبب حرجًا كبيرًا عده إلياس عداء القادة الصهاينة له مسؤولاً عنه. ومن ثَمَّ فمن الصائب تمامًا أن يتم إجبارهم على تحمل مسؤولية هذا الإحراج. وتأكيدًا لهذه النقطة يعمد إلياس ببساطة إلى تقديم فواتير الفندق غير المسددة إلى ستيفن وايز قائلاً: «من

المؤكد أن مبلغًا معينًا من المال يمكن جمعه من أصدقائك المتنفذين الذين يتبنون هذه القضية العظمية بصدق، في سبيل إنقاذنا من مصير من شأنه أن يفرح قلوب أعداء شعبنا وخصوم صِهْيَوْن». وبعد بضعة أشهر يبادر إلى اعتماد موازنة أكثر اتساعًا، إذ يكتب، ببساطة، إلى الحاخام وايز مبلغًا إياه أنه دفع فواتير طباعة صحيفته (بلستاين هيرالد/ Palstine Herald) بموجب صك ليس عنده ما يغطيه به، مفترضًا أن وايز لن يتردد عن أداء واجبه على صعيد تسليفه قرضًا قصير الأجل بذلك المبلغ في الوقت المناسب لسحب الشيك من المصرف. وعند هذه النقطة، ولفترة لاحقة من الزمن، لا تتمخض رسائل بن إلياس إلى الحاخام وايز إلا عن ردود مقتضبة ومتأخرة صادرة عن سكرتير الأخير.

ومع مرور الزمن باتت الصراحة الفظة مع إلياس حول تأثير هذه (التكتيكات) أمرًا ضروريًا. ففي عام (1939 م) كتب إليه رئيس منظمة أمريكا الصِهْيَوْنيَّة غولدمان الآتي:

> **أبديتُ عزوفًا عن رؤيتك بسبب (التكتيكات) التي استخدمتَها من أجل الحصول على مقابلة. لستُ ممن يتأثرون بالتهديدات. أن تدفع أحدهم إلى الاتصال بي هاتفيًا في زحمة الأحوال الطارئة في تِشْرين الأول/ أكتوبر 'لدى التخطيط للرد على الإعلان البريطاني الوشَيك عن سياسة الكتاب الأبيض' لإبلاغي بأنك معرض لخطر الاعتقال بسبب شيكات أصدرتها دونما رصيد في المصرف ولتذكيري بأن من شأن اعتقالك في مثل هذا الوقت أن ينعكس على الحركة الصِهْيَوْنيَّة كلها وعلى الشعب اليهودي، تجعل قبولي بك زميل عملَ أمرًا مستحيلاً.**

أما بن إلياس فقد اكتفى، في الرد، بكل بساطة بإنكار هذه الاتهامات على أنها أكاذيب من نسج الخيال. غير أن كل من يتمكن من الاطلاع على الملفات لن يتردد في تفسير الشك لمصلحة غولدمان. يبدو أن بن إلياس كان يتصرف

منطلقًا من الافتراض القائل: إن تضحياته في سبيل القضية كانت تؤهله لفرض مسؤوليات معينة على آخرين تلزمهم بالمبادرة الفورية إلى إنقاذه ماليًا.

ظهر (اتحاد أمريكا الموالي لفِلَسْطِيْن) إلى الوجود معلنًا عن نفسه أنه التنظيم الأفضل تجهيزًا لحشد الرأي العام المسيحي الأمريكي لمصلحة الصِهْيَوْنيَّة، وأن الشيء الوحيد الذي كان ينقصه في الحقيقة هو المال.

حتى مع أخذ التضخم منذ ذلك التاريخ بالحسبان، دعونا، من أجل مناقشة المسألة ليس إلا، نضاعف الرقم عشرين مرة، فإن مبلغ (500) دولار الذي نجد بن إلياس يطلبه، في بداية القصة، من منظمة أمريكا الصِهْيَوْنيَّة في (1932 م) يبدو ثمن صفقة دسمة جدًا. وبما أن منظمة أمريكا الصِهْيَوْنيَّة لم تبادر قط إلى دفع هذا المبلغ، كما لم تقدم قط في الجزء الباقي من القصة أكثر من بضع منح رمزية، فإننا لن نستطيع البتّةَ أن نقول: إنَّ بن إلياس كان على خطأ، حين زعم أن منظمة أمريكا الصِهْيَوْنيَّة كانت، حين امتنعت عن دفع هذه المبالغ الصغيرة، تفوت الفرصة التي ساقها الرب إليها للتحكم بتأييد الوجدان المسيحي الأمريكي ودعمه.

من المؤكد أن بن إلياس كان معذورًا في شكواه من غياب دعم القيادة الصِهْيَوْنيَّة، ولكن إلى أي مدى من الجدية يَتَحَتَّم علينا أن نتعامل مع مزاعمه حول إمكانات منظمته ؟.

إذا افترض أن من حقه تبصير الآخرين (بواجباتهم الجلية) إذا أقدم دونما تردد على إقحامهم في مواقف كانت تلزمهم بالمسارعة إلى نجدته، فإن تيودور هِرتْسِل فعل الشيء نفسه. أليس كذلك؟ من الممكن حقًا، للكثير من المقاطع المأخوذة من رسائل بن إلياس الموجهة إلى كل من ستيفن وايز وسُلُمُن غولدمان أن تبدو كما لو كانت متقتطفات مأخوذة من تلك الرسائل التي كتبها هِرتْسِل إلى البارون هيرش (مثلاً) ثمة الافتراض نفسه الذي يقول: إنَّ من حق

النبي أن يبصّر الآخرين ويفتح عيونهم على واجباتهم أمام الرب والقضية. فقد جاء في رسالة له إلى ستيفن وايز كتبها في شُبَاط/ فبراير (1938 م) ما يلي:

بحر من الويلات والكوارث يحاصر إخوتنا عبر المحيط. فجمهور إسرائيل المشتت يرنو إلى الرب في السماء كما يتطلع إليكم ملتمسًا النجدة والخلاص. إن مسؤوليتكم أمام الرب والتاريخ مسؤولية غير مسبوقة. ومن ثَمَّ فأنا أناجيكم أن تنحّوا جانبًا كل أشكال التحامل على عملي. فأقدار ملايين اليهود ومصايرهم أكثر أهمية من وجهات النظر المضللة لدى الرسميين الصهاينة الصغار. إنني بحاجة إلى دعمك في هذه المهمة العظيمة، أرجوك ألا تتجاهل ندائي في هذه الساعة التي هي أكثر ساعات شعبك حلكة وظلامًا !.

من المؤكد أن الرجل كان مشجاتيًا ومصابًا بجنون العظمة، ولكن هل يحق لنا أن نقول: إنه كان مخطئًا في الأشياء الجوهرية ؟

ومرة أخرى، كيف نستطيع أن نمتنع عن التعاطف مع الحاخام وايز وغيره ممن كانوا هدفًا لمثل هذه الغطرسة ؟

يبقى السؤال: ما الذي أنجزه (الاتحاد الموالي لِفِلَسْطِيْن) حقًّا ؟

لم يحظ إلا القليل من التصريحات الصحفية الصادرة عن (الاتحاد الموالي لفِلَسْطِيْن) بأي مكان في الجرائد، إذا استطعنا عدّ ‹[دليل نيويورك تايمز]› أفضلَ الأدلة. ويبدو أن المنظمة بلغت أوج نفوذها في عام (1936 م). ففي أيار/ مايو من ذلك العام، قامت المنظمة بإحضار وفد من رجال الدين المسيحيين، يضم فيمن يضم قسيس واشنطن الأبرشي (Episcopal Bishop of Washington) للإسهام في تقديم عريضة إلى السفير البريطاني، لإيصالها إلى رئيس الوزراء البريطاني ستانلي بولدوين (Stanley Baldwin). وكما في سائر بياناته العامة، ادعى (الاتحاد الموالي لفِلَسْطِيْن) التحدث نيابة عن «إجماع الرأي العام الأمريكي المسيحي المتنور» بما أَفضى في هذه الحالة إلى أن يعني عمليًا «أن

الرب أنعم على إنغلترا بإحدى أعظم المهمات في تاريخ الإنسانية، هي إنقاذ إسرائيل واستعادة إرثها القديم». وبعد ذلك، في كانون الأول من العام نفسه تولى الاتحاد رعاية مؤتمر مسيحي أمريكي عن فِلَسْطِيْن، تم عقده في فندق آستور بنيويورك. وكان رئيس البلدية لاغوارديا (La Guardia) الرئيس الفخري في تلك المناسبة، كما تحدث كثيرون بمن فيهم القسيس الميثودي فرنسس مكنل (Francis J. McConnell) وعضو مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة رويال كبلاند، ووليم غرين (William Green) رئيس (الاتحاد الأمريكي للعمل/ American Federation of Labor). ومما قالته صحيفة ‹نيويورك تايمز›: «إن أكثر من مئتي شخص، بمن فيهم قيادات الكثير من الطوائف والفئات والكثير من ممثلي المنظمات اليهودية المهتمة» أسهموا في اتخاذ قرار يدعو بريطانيا إلى «الوفاء بالتزاماتها المتفق عليها». وبعد ذلك لم يرد للاتحاد الموالي لفِلَسْطِيْن أيّ ذكر مرة أخرى في صحيفة ‹نيويورك تايمز›[4].

لم أتمكن من العثور على وثيقة تشي بالزوال الرسمي للاتحاد الموالي لفِلَسْطِيْن ولكنني أفترض أنه انطوى على نفسه ليفسح في المجال أمام (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) و(مجلس فِلَسْطِيْن المسيحي/ Christian Council on Palestine) (الذي سيرد عنه كلام كثير قريبًا) كذلك لم أستطع أن اكتشف ما حصل لبن إلياس. فاسمه غير وارد في أي من مراجع أسماء الأعلام، ولا في ‹[موسوعة اليهودية] Encyclopaedia Judaica›، وهو أمر لا يسهل تسويغه. فالصهيونيَّة مدينة لهذه المنظمة، ولهذا الرجل غير المحبوب، بن إلياس، ولريادتهما الكثير من المناهج التي استخدمتها (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) و(مجلس فِلَسْطِيْن المسيحي) و(لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) المسيحيَّة) إضافةً إلى مبادرتها إلى تجنيد الكثير من الناس في الحقيقة (مثل جون هاينز هولمز (John Heinz Holmes) ممن كانوا ركائز لمنظمات لاحقة. وقد عاش الاتحاد إلى ما بعد لجنة فِلَسْطِيْن الأصلية على الأقل، وتحقق له هذا لأنه صمد في وجه التحول في (التكتيكات) التي

أدت، كما قلت من قبل، إلى جعل قادة منظمة أمريكا الصِهْيَوْنيَّة يتهربون من التزاماتهم إزاء (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية).

6.1.3) النزعة الإعادية في كسوف سياسي

خلال عشرينيات القرن العشرين بادرت النخب السياسية والثقافية، على حد سواء، إلى التخلي، مرة وإلى الأبد، على ما بدا، عن النزعة الإعادية المسيحيَّة القديمة (Christian Restorationism). وما لبث رجال الكنيسة المتعلمون جيدًا أن حذوا بسرعة حذو تلك النخب.

أما المتحدثون الليبراليون من البروتستانت الذين تبنوا (وعد بلفور) أيام الربيع الولسني المزدهر لأعوام (1917–1919 م) مناسبةً لرسم الحدود السياسية بأساليب تقوم على الدفاع عن الهويات القومية، فقد بدأت هممهم تفتر فيما يخص الولسنية والصِهْيَوْنيَّة في الوقت نفسه تقريبًا. لم يغب عن أنظارهم أن أولئك الذين لم تتضاءل حماستهم لإقامة الوطن اليهودي كانوا هم الذين يتحدثون لغة النزعة الإعادية الكلاسيكية، أولئك الذين ظلوا يرددون الجمود العقائدي المزعج المتمثل بـ«بخطة الرب» الأداء الحرفي للوعود الكتابية، أي «الأصوليين» المحتقرين.

حين يغوص المرء في الأدبيات الصادرة عن مختلف المنظمات المسيحيَّة الصديقة للقضية اليهودية خلال العقود الثلاثة الممتدة من (وعد بلفور) إلى خلق الدولة في (1948 م) فإنه يكتشف نزوعًا نحو قدر أكبر من الحرج إزاء الحجج المأخوذة من النبوءة الكتابية، الذتي شكلت حجر الزاوية للحكاية الإعادية المسيحيَّة الأصلية، والركيزة الأساس لأطروحة مذكرة بلاكستون، مع نزوع مساوٍ لتفصيل حجج قائمة على العدالة المجردة، ملفوفة بافتراضات ليبرالية راهنة حول حقوق القوميات، وزوال الإمبراطورية، وتقدم الحضارة، وما إلى ذلك.

ومع حلول الثلاثينيّات محل العشرينيّات، والأربعينيّات محل سابقه، يُلْفي المرء في هذه الأوساط لجوءًا متزايدًا إلى الحجج العلمانية، واستخدامًا متناقصًا للمفردات اللاهوتية المكشوفة. وحين حصل هذا فقدت القضية اليهودية ذخرها السياسي الأكبر المتمثل بقدرتها على استثارة الالتزام القديم للشعب الأمريكي بعقيدته (البيوريتانية) القائمة على الإيمان بحتمية إعادة اليهود وبعثهم.

لم يبذل القادة الصهاينة في العشرينيات حتى الأربعينيات من القرن العشرين أي جهد لاستجداء دعم الناطقين باسم التراث البلاكستوني وتشجيعه، الذين ظلوا ثابتين على التزامهم بالصِهْيَوْنيَّة، غير أنهم كانوا أيضًا، كما رأينا، محتقرين في أنظار النخب صانعة القرار السياسي. التحق الصهاينة الرسميون، ببساطة، بركب المسيحيين الليبراليين وتبنوا رأيهم المتمثل بأن الأنغليكانية والأصولية كانتا قوتين هامشيتين، عديمتي المعنى ثقافيًا وفكريًا، عديمتي الأهمية والنفوذ سياسيًا.

لعل أفضل انعكاس الرأي في معسكر المسكونية الليبرالية البروتستانتية (liberal–ecumenical Protestantism) لمجمل الفترة التي يجري استعراضها في هذا الفصل تلك التي يمكن العثور عليها في صفحات المجلة البروتستانتية المشتركة بين الطوائف المعروفة باسم «[القرن المسيحي] Christian Century». واعترافا منه بهذه الحقيقة عكف هِرتْسِل فِشمن (Herzl Fishman) بكل إخلاص على تمشيط صفحات تلك المجلة خلال الفترة الممتدة من انتهاء الحرب العالمية الأولى حتى الأشهر الأولى من الحرب العالمية الثانية، لتدوين سيرته عن المواقف البروتستانتية من الصِهْيَوْنيَّة وإسرائيل. ومع التنبيه المُهمّ على أن هذه ليست آراء البروتستانت عمومًا، بل وجهات نظر أكثر العناصر البروتستانتية حذلقة، وجهات نظر القساوسة، يمكننا أن نورد بعضًا من اكتشافات فِشمن هنا على أنها متناسبة مع هدفنا الحالي.

لا يجد فشمن إلا القليل من الاهتمام بموضوع صِهْيَوْن في «كريسْتْيَن

سنتشري› خلال الفترة المبكرة من عقد العشرينيّات. وهو يعزو ذلك إلى التدهور الواضح للحماسة قبل الألفي في عقد ما بعد الحرب، كما إلى مزاج الانسحاب من الشؤون العالمية في أعوام هاردنغ وكولِدج[5]. ثمة افتتاحية في عام (1927 م) تعبر عن الأسف إزاء سياسة بريطانيا القائمة على تشجيع «اليهود العدوانيين الذين يزعمون أن البلد 'وطن' لشعبهم»، وتقول: «إنَّ.. اليهودي لم يكن قط حائزًا فِلَسْطِيْن تاريخيًا»[6]. وبدءًا بعام (1929 م) حين لفتت أعمال الشغب العربية [كذا] انتباه المهتمين وشدت أنظارهم ثانية نحو الأرض المقدسة، بدأت ‹كريسْتْيَن سنتشري› تحذر على نحو منتظم مما يعرقل التفكير الواضح جراء الكلام الأصولي عن الإعادة والبعث. لقد أعلن أعضاء هيئة التحرير «أن قناعة أكثرية الباحثين الكتابيين الحديثين تقول: إنَّ العهد القديم لا يتضمن أي توقع لإعادة إسرائيل إلى وطنها القديم، يمكن أن ينطبق على الشعب اليهودي وعلى العصر الحالي». ومع حلول التاسع والعشرين من تِشْرين الأول/ أكتوبر (1930 م) توصلت ‹كريسْتْيَن سنتشري› إلى استنتاج يقولَ: إنَّ وعد بلفور كان «وعدًا ضارًا وغامضًا يتعذر تحقيقه مع توفير العدل لعناصر أخرى من السكان»[7].

كان موقف ‹كريسْتْيَن سنتشري› من الصِهْيَوْنيَّة شديد التأثر والتلون بالتزام المجلة بمفهوم بوتقة الإذابة الأمريكية:

هل تستطيع الديمقراطية أن تتحمل قيام أقلية وراثية بتأبيد نفسها كأثرية دائمة بثقافتها المميزة، الموقوفة بأشكال عبادتها المميزة الخاصة؟.. لا يحق لهم في الديمقراطية أن يعزلوا عقيدتهم عن التأثير الطبيعي للعملية الديمقراطية عن طريق سجنها خلف أسوار نوع من التضامن العرقي العنصري والثقافي. [التاسع من حَزيْرَان/ يونيو 1937 م].. صُلب [يسوع] لأنه جاء ببَرْنَامَج لإسرائيل كان متناقضًا مع النزعة القومية الأثيرة على قلوب قادة إسرائيل، سياسيين ودينيين. لقد عارض [يسوع] نزعتهم القومية بالنزعة الكونية الشاملة لمحبة

الرب وملكوته.. إن النزعة القومية هي التي صَلَبَتْ يسوع.. [لقد أحبط] طموحهم العزيز المتطلع إلى جعل إسرائيل ورب إسرائيل القوة المسيطرة في العالم (3/ 5/ 1933 م).

لعل المفارقة التي يَتَحَتَّم علينا أن نتعامل معها فيما يلي هي أن قادة الصِهْيَوْنيَّة الرسمية لم يتعاملوا، علنًا على الأقل، إلا مع اليسار اللاهوتي في عقدي الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين، مع أن الفرسان الدائمين للصِهْيَوْنية المسيحيَّة وحملة راية هذه الصِهْيَوْنيَّة المسيحيَّة كانوا جميعًا من اليمين اللاهوتي. علينا ألا نشك في أن العقل الشعبي كان قابلاً للاستثارة بالقصص والحجج الإعادية، غير أن جيلاً من اليهود الأمريكان عاكفًا على قراءة سنكلير لويس (Sinclair Lewis) لم يكن مستعدًا للعمل على نصب الخيمة الصِهْيَوْنيَّة على أرض المسيحيَّة الشعبية (Popular Christianity).

كان ثمة تصميم واع لكسب الساسة وصانعي الرأي الذين كان رجال السياسة يذعنون أمامهم، وذلك فق الاعتقاد السائد. ومن هؤلاء تم استجرار قادة سلسلة من المنظمات التي تناولناها أو سنتناولها قريبًا مثل (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) و(الاتحاد الموالي لفِلَسْطِيْن) و(لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية الجديدة/ the revived American Palestine Committee) و(مجلس فِلَسْطِيْن المسيحي) و(لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية المسيحيَّة/ American Christain Palestine Committee). أدرك الصهاينة الرسميون أنْ ليس ثمة أي سبيل لجلب القوى المتنفذة التي يتوقون إليها وإدخالها في الخيمة نفسها مع الأصوليين. كان من الممكن عد دعم الأصوليين والأنغليكان أمرًا بديهيًا مسلمًا به، ولم يكن تنبيه الليبراليين على هذا منطويًا على أيّ فائدة. وفي الوقت نفسه كان تأييد الصهاينة المسيحيين الأنغليكان والأصوليين أمرًا مرحبًا به، ولكن دون الاحتفال به بصخب على مسامع الليبراليين ودون الحديث عنه على صفحات المجلات الصِهْيَوْنيَّة الرسمية.

وجد الصهاينة الرسميون أنفسهم في مصيدة. لم يكن باستطاعتهم أن يؤذوا مشاعر المؤسسة البروتستانتية عبر التوجه، للحصول على الدعم، نحو «الأصوليين» المحتقرين، الذين جعلهم لاهوتهم الأصدقاء الدائمين لصهْيَوْن، غير أنهم كانوا عديمي الأهمية على الصعيد السياسي. ومن ثَمَّ فإن الأَسلوب الأمثل كان قائماً، في المحصلة، على العزوف عن إثارة أي نقاش حول القضية اليهودية في الأوساط اللاهوتية المسيحيَّة، مع العمل على تغليف الحجج الصهْيَوْنيَّة بكلام خطابي عن العدالة والذرائعية السياسية. ولعل أفضل الطرِق هو التسلل المباشَر في قلب إدارة موالية ذات عقلية ليبرالية، كان قادتها سادة محترمين مسيحيين حصيفين، ولكنهم ميالون إلى التعبير عن الأهداف العامة بكلام ديني.

3 . 2) فْرَنكلِن روزفلت ، واليهود والصهاينة

3 . 2 . 1) العودة إلى البيت الأبيض

جرى تأسيس (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) في عام (1932 م) لتكون رابطة تضم أقوى السياسيين من كلا الحزبين، وتمت إحاطة صفوفهم بطوق من الشخصيات الأدبية والفكرية وكبار رجال الدين، ولكن الصهاينة ما لبثوا، بعد بضعة أشهر، كما رأينا قبل قليل، أن توقفوا عن التعويل على هذه الهيئة، ونقلوا رهانهم، بدلاً من ذلك، إلى الفريق الديمقراطي الذي نجح في اكتساح الانتخابات الرئاسية لعام (1932 م).

لم تكن تلك حركة استراتيجية بل تكتيكية. فالتكتيك الجديد كان، في حقيقة الأمر، نسخة، تمت مراجعها وإعادة النظر فيها، عن نظيره الذي سبق له أن كسب إدارة ولسن إلى صف (وعد بلفور) من خلال العمل الهادئ من داخل إدارة ذات موقف ودي، في المقام الأول، مع إبقاء النشاطات العامة [الجماهيرية] محصورة داخل الحدود المقررة من جانب تلك الإدارة. وبما أن

خطة اللعبة كانت منصبّةً على كسب انتباه المؤسسة، فقد تركز اهتمام الصهاينة على إعادة توجيه جهودهم نحو إدارة روزفلت الجديدة، ولا سيّما بعد أن باتوا يعلمون يقينًا أن صفوف هذه الإدارة كانت زاخرة بأعداد غير مسبوقة من اليهود، وبأعداد يتعذر إحصاؤها من أصدقاء الجالية اليهودية، إضافةً إلى تميزها (حسب اعتقاده م) بالموالاة الصريحة للصِهْيَوْنية. توقعت حكومة روزفلت أن تلقى معاملة بالمثل عبر الامتناع عن جعل الحياة أكثر صعوبة مما كان ينبغي، عن طريق جعل التحرك الجماهيري محصورًا بمناسبات الغضب الاستثنائي، غير أن التشجيع الروتيني للدعاية الموالية للصِهْيَوْنية ذات القاعدة العريضة كان بلا حدود.

تقول أطروحة هذا الفصل والفصلان التاليان: إن التحول في الاستراتيجية السياسية من الثنائية الحزبية إلى التحالف مع إدارة روزفلت لم يحقق شيئًا، بل أدّى، في الحقيقة، إلى إضعاف الصهاينة، على المدى الأطول، من خلال دفعهم إلى تقليص جهودهم الرامية إلى ممارسة التأثير المباشَر في الجمهور الأمريكي كله، حيث كانت بقايا تأثيرات النزعة الإعادية المسيحيَّة أقوى بما لا يقاس بالمقابلة مع حالها في الدائرة الأضيق من الفئات النخبوية التي كانت تشكل قاعدة إدارة فْرَنكلِن روزفلت.

3 . 2 . 2) فْرَنكلِن روزفلت (1882 - 1945 م)

ترعرع فْرَنكلِن روزفلت في ظروف شديدة الشبه بتلك التي تخص الأرستقراطية الوراثية بمقدار ما كان العثور على مثل تلك الظروف ممكنًا في أمريكا. فعائلتا كل من جيمس روزفلت (James Roosvelt) وسارة دِلانو (Sarah Delano) استقرتا منذ الأيام الأولى للاستيطان والاستعمار في وادي هدسن النيويوركي، حيث ساد نمط شبه إقطاعي لحيازة الأرض، أوجده الهولنديون في أيام نيوأمستردام، وتم الحفاظ عليه حتى زمن (حرب الريوع/

Rent Wars) في أربعينيات القرن التاسع عشر. وقد ظل الغرباء، إلى مواعيد متقدمة في القرن العشرين، يعلقون على القدر اللاأمريكي، من الاحترام الذي كانت الطبقة المحلية من المزارعين تكنه للأرستقراطية.

نال فْرَنكلِن دِلانو روزفلت، الولد الوحيد لزواج تم عام (1880 م) بين جيمس روزفلت الأرمل (كان في الثانية والخمسين من عمره آنذاك) وسارة دِلانو (كانت في السادسة والعشرين) قسطًا وافرًا من الدلال وهو طفل، وافره أَبواه وأقاربه ومعلموه ومربياته ممن جرى استخدامهم لتعليمه وتربيته. وقد حصل على الميزة الاستثنائية المتمثلة بزُهَاء ثماني رحلات، دامت كل منها بضعة أشهر، إلى أورُبَّة قبل بلوغه الخامسة عشرة.

3 . 2 . 3) ديانة روزفلت

تمثل أكثر التأثيرات العائدة إلى مرحلة الفتوة دوامًا ورسوخًا (إضافة إلى تأثير أبويه الحبيبين) حسب شهادته الخاصة، بتأثير إندكت بيبودي (Endicott Peabody, 1857 - 1944) مؤسس مدرسة غرتُن (Groton) الداخلية للبنين وناظرها، والحاذية بحرص شديد حذو 'المدارس العامة' العظيمة، التي كان الأمريكيون من صنف آل روزفلت مولعين بأن يؤمنوا بأنها كانت تتولى مهمة تشكيل طابع الطبقة الحاكمة في بريطانيا العظمى وصياغته. كان النظام مشتملاً على وجبة يومية من التعليم الديني والعبادة المشيخية (Episcopalian worship) والدراسات الكلاسيكية، ومن التمرينات التدريبية المفعمة بالحيوية.

وبشهادة روزفلت الخاصة، مرة أخرى، شكلت مواعظ بيبودي اليومية في أبرشية غرتُن في ساعات الصباح المبكرة، والتوجيهات الواردة في حصصه الدرسية الدينية أساس تأملاته اللاهوتية والأخلاقية بعد بلوغه سن الرشد.

وعلى النقيض من أستاذه اللاحق، وُدرو ولسن، فإن روزفلت لم يعترف

على الملأ كاشفًا عن خصوصيات إيمانه، ولم يُنْظَر إليه عمومًا على أنه (رجل متدين) غير أنه كان كذلك بكل تأكيد، وفقًا لأي معيار طبيعي. فمن أولئك المنتمين إلى 'العائلة الرسمية' لفْرَنكلِن روزفلت الذين خلّفوا مذكرات، لا يقدم سوى اثنين فقط هما ركسفورد تَغْول (Rexford Tugwell) وفرنسِس بِركنز (Frances Perkins) أيّ رواية مطولة عَن مسألة الدين بصفته أحد دوافع روزفلت. ومما يثير الدهشة أنهما يصفان جوهر ولاء روزفلت الديني بعبارات تكاد تكون متماثلة، في حين يستخلصان استنتاجات شبه متناقضة فيما يخص تأثير ذلك في شخصيته وعمله. وكلاهما يعلق على الانتظام النسبي لذهابه إلى الكنيسة، وتكرر إسداء النصح للآخرين بالذهاب إلى الكنيسة، وتأكيد التدريب الديني الرسمي بصفته دعمًا للفضيلة المنزلية والسلم الأهلي، وانتظام التزاماته العقائدية المذهبية، وغموضه فيما يخص الأبعاد الفكرية والفلسفية للإيمان الديني.

يرى تَغول أن روزفلت كان «ذا عقل غير معقد» ومن ثَمَّ ذا إيمان بلا تعقيدات، وهذا ما تمخّض، بدوره، عن ثقة بالنفس استطاعت أن تحصنه إزاءَ أي توجيه. ذلك هو منبع «مَكره» المميز، وعدم ثبات التزامه بالكثير من القضايا الكبرى.

> **في مراحل متأخرة من حياته ما لبثت الصعوبات الحتمية التي يمكن أيَّ عقل يرفض المعاينة الذاتية أن يقع فيها أن ظهرت إلى الوجود، حيث بات يجد صعوبة في الفصل بين الغايات والوسائل، وبادر أحيانًا إلى استخدام الوسائل التي ما كان ينبغي له أن يستخدمها.. غير أنه، حسب ما يبدو لي بوضوح، كان يحس بأنه صاحب حق أو معذور جراء نوع من الوعي بأنه فعل ما بوسعه وبموافقة من السماء[1].**

أما بِركنز فترى فْرَنكلِن روزفلت، على النقيض من ذلك، رجلاً ذا إيمان خالٍ من التعقيدات ومن ثَمَّ رجلاً ذا شخصية متوازنة وراسخة:

> **أذكر أنني قلت ذات مرة للسيدة روزفلت: من الواضح أن فْرَنكلِن مسيحي بسيط جدًا في الحقيقة.**
>
> **فكَّرتْ لحظةً، وبحركة حاجبين ملغزة إلى الأعلى، قالت: نعم مسيحي بسيط جدًا.**
>
> **صحيح أنني لم أتوقف ثانية معها عند هذه النقطة، غير أنني أدركت، وأنا أراقبه وأفكر به بين الحين والآخر، أن إيمانه المسيحي كان مطلق البساطة. وبمقدار ما أستطيع أن أفهم، لم تكن لديه أيّ شكوك..كانت صلة إنسان حقيقية مع الرب، وكان يحس بأنها مؤكدة مثلها مثل واقع حياته الحقيقية[2].**

3 . 2 . 4) روزفلت السياسي

بعد حياة جامعية غير متميزة بهارفارد، وعام غير متميز بالمثل في مدرسة القانون بكولومبيا، انخرط فْرَنكلِن روزفلت في العمل السياسي، فائزًا عام (1910 م) بعضوية مجلس الشيوخ ممثلاً لدائرة مسقط رأسه، دتشس كاونتي بولاية نيويورك. وبصفته أحد أوائل مؤيدي ترشيح وُدرو ولسن لرئاسة الجمهورية، كوفئ، في آذار/ مارس (1913 م) بوظيفة تلي منصب الوزارة مباشَرة إذ جرى تعيينه وزيرًا مساعدًا للبحرية.

أدى اندلاع الحرب الأورُبّية في (1914 م) إلى جعل منصب روزفلت حاسمًا، ومع انتهاء الحرب غدا بوضوح على رأس عصبة الديمقراطيين الولسنيين الشباب. وبصفته مرشحًا لمنصب نائب الرئيس في ظل جيمس كُكس (James Cox) حاكم أوهايو نجح روزفلت في إثارة اهتمام الجمهور بحملته النشطة، وما إن هدأ الغبار، حتى بدأت الشائعات تتحدث عن حظوظه في الحملة الرئاسية لعام (1924 م). غير أن فْرَنكلِن روزفلت ما لبث، مع حلول أواخر صيف عام (1921 م) أن أصيب بالشلل. ومع التزامه

الكامل عبر السنوات التالية بالسعي البطولي لاستعادة قوته البدنية وإعادة بناء حياته الشخصية، دأب روزفلت بهدوء في مراكمة كنز هائل من محبة الجمهور وإعجابه، مع امتلاك الذريعة المناسبة جدًا لعدم خوض معارك أوائل عقد العشرينيات الانتخابية، موسم هيمنة جمهورية على جميع مستويات الحكم، حين كان الديمقراطيون يغوصون إلى قاع البرميل بحثًا عن مرشحين. ثم عاد إلى الحياة العامة في (1928 م) حين وافق على الترشح لشغل منصب حاكم ولاية نيويورك الذي شغر جراء ترشيح الحزب الديمقراطي آل سْمِث (Al Smith) للرئاسة. غير أن انتصاره الهزيل جدًا في (1928 م) سرعان ما أعقبه فوز ساحق وكاسح في إعادة الانتخاب التي تمت عام (1930 م). وضمن اختياره مرشحًا ديمُقراطيًا للرئاسة في حَزِيْرَان/ يونيو (1932 م) انتصارًا ديمقراطيًا كاسحًا في تِشْرِين الثاني/ نوفمبر من ذلك العام.

5.2.3) فْرَنكلِن دِلانو روزفلت واليهود الأمريكيون

منذ البداية الأولى، لوحظ أن عددًا كبيرًا غير متكافئ من أفراد البطانة الأكثر قربًا من روزفلت كانوا يهودًا. وكان في هذا الأمر بعيدًا عن الانسجام مع بيئته الاجتماعية على نحو لافت للنظر. فدون الحاجة إلى الذهاب إلى ما هو أبعد من عائلته حصرًا، نجِد في رسالة تعود إلى المراحل الأولى من المغازلة كتبتها زوج المستقبل إليانور كلامًا عن حفلة حضرتها كان فيها فريق من اليهود، ومما قيل في الرسالة: «.. كان الفريق اليهودي مفزعًا. كم أمقت الكلام عن المال، المجوهرات، والفراء مكرورًا مرة بعد أخرى!» وبعد بضع سنوات، لدى اللقاء الأول مع هنري مورغنتاو، الابن، قيل: «.. إنه رجل صغير لافت للنظر، غير أنه يهودي أصيل»[3]. وحين أصبح حاكمًا لنيويورك، أضاف فْرَنكلِن روزفلت إلى مجموعته الخاصة من الأصدقاء، والمستشارين، والحلفاء السياسيين اليهود، عددًا من اليهود ممن شغلوا مناصب مسؤولة في عهد الحاكم

آل سْمِث. وما لبث أحد هؤلاء هو هربرت لِهْمن (Herbert Lehman) الذي كان مساعد حاكم، أن خلف روزفلت حاكمًا في عام (1933 م).

في سنوات رئاسة روزفلت ضمت قائمة اليهود الذين شغلوا مناصب عامة ذات شأن، أو تمتعوا بعضوية (برين ترست/ Brain Trust) غير الرسمي، أو متمتعين بالقدرة على الوصول إليه بصفتهم قادة عماليين، ومستشارين سياسيين، أو زعماء معترف بهم لدى الرأي العام اليهودي، الأسماء التالية: روز شنايدرمن (Rose Schneiderman) وهنري مورغنتاو الابن (Henry Morgentau Jr.) وفليكس فرنكفُرتر، وبنجَمِن كوهن، وساموِيل روزنمن (Samuel I. Roseman) وسيدني هيلمن (Sidney Hillman) وبرنارد باروخ (Bernard Baruch) وديفِد ليلينتال (David Lilienthal) ومُردخاي إيزكييل (Mordeccai Ezekiel) وروبرت ناثان (Robert Nathan) وديفِد نايلز (David K. Niles). وفي وقت مبكر جدًا قام أحد أصحاب التفكير العميق بالضرب على وتر عبارة (صفقة اليهودي / The Jew deal). راح الأصدقاء من ذوي النيَّات الحسنة ينصحون قائلين بانعدام الحاجة إلى توفير مثل هذا الطعم السهل للمتعصبين، ربما كان يَتَحَتَّم عليه أن يختزل من الإشارة العلنية إلى هذه الأسماء اليهودية، وربما كان عليه ألا يأخذ صورًا ضوئية مع الزوار اليهود، إلا في حالات الضرورة القصوى. وحين جاء موعد استبدال رئيس المحكمة العليا لويس بْرَنْدَيْس، لابَسَ روزفلت تجربة وُدرو ولسن مرة أخرى حين كان الأخير يفكر في مسألة تسمية بْرَنْدَيْس حصرًا، حيث أصرَّ وفد يهودي طالبًا منه عدم تعيين يهودي (كان فليكس فرنكفُرتر هذه المرة) خوفًا من (اللاسامية). إلا أن روزفلت ما لبث، بعد أن هدأت أعصابه، أن رد بغضب على هذه النصيحة الجبانة، كما سبق له أن فعل في مسألة فرنكفُرتر. كانت ردود أفعاله تتصف بالمكر والعبث إذا كان متمتعًا بمزاج جيد. ثمة قصة رواها رئيس الوكالة اليهودية ناحوم غولدمن (Nahum Goldmann) عن فترة عطلة نهاية

أحد الأسابيع حين قام روزفلت بجلبه مع ستيفن وايز وساموبل روزنمن إلى هايد بارك لمساعدته في صياغة بيان عن موضوع محدد. وعلى نحو مفاجئ علق روزفلت قائلاً: «تصور كم من المال سيدفع غوبلز (Gobbels) مقابل صورة ضوئية لمثل هذا المشهد! صورة رئيس جمهورية الولايات المتحدة وهو يتلقى تعليماته من حكماء صِهْيَوْن الثلاثة!» (4).

قبل عام (1932 م) بزمن طويل، كان رؤساء الجمهورية الأمريكان رسخوا سابقة تعيين يهود في مناصب وزارية مع واحد أو اثنين ممن تم تعيينهم سفراءً. بصرف النظر عن هذه التعيينات الرمزية، فإن حكومة الولايات المتحدة كانت مدارة فعليًا من جانب المؤسسة البروتستانتية إلى حين قيام روزفلت متعمدًا بمكافأة الجماعات الفرعية المختلفة التي دعمت آل سْمِث في عام (1928 م) ودعمته هو في عام (1932 م) عن طريق إجراء الكثير من التعيينات على جميع المستويات بما يتناسب مع أوزانها السياسية إلى هذا الحد أو ذاك. ومع أنّ اليهود لم يشكّلوا سوى (3 ٪) من مجموع السكان في ذلك الوقت، فقد وصل نصيبهم إلى نسبة (15 ٪) من التعيينات الكبرى التي قام بها الرئيس روزفلت. وفي عام (1932 م) بلغت نسبة اليهود الذين منحوا روزفلت إلى نظرائهم الذين أعطوها لهوفر (5 3 : 1) غير أنها ارتفعت في عامي (1940 م)و(1944 م) إلى (9 : 1)(5).

6 . 2 . 3) ستيفن وايز وفْرَنكلِن دِلانو روزفلت

مع انتهاء فترة فْرَنكلِن روزفلت الرئاسية الأولى، بات من المسلم به على نحو عام وشاملة أن هناك رجلاً واحدًا كان يفوق الجميع طول باع سفيرًا للجالية اليهودية لدى إدارة روزفلت، ألا وهو الحاخام ستيفن وايز. غير أن الأمور لم تكن كذلك في البداية. فخلال الموسم الانتخابي لعام (1932 م) كان ستيفن وايز التزم علنًا بالوقوف في صف نورمَن تومَس (Norman Thomas) مرشح الحزب الاشتراكي، ولدى حلول يوم التنصيب في (1933 م) كان

اسمه مدرجًا في قائمة قصيرة بأسماء الناس الأقل تمتعًا بالتفضيل لدى فْرَنكلِن روزفلت.

بعد رحيل ولسن عن البيت الأبيض، عاش وايز على أمل مجيء ولسن جديد. ففي رسائله إلى أصدقاء في عشرينيات القرن العشرين، لا يكف وايز عن كيل المديح لهذا وذاك نظرًا لأنه كان قريبًا من ولسن، ولأنه كان في إدارة ولسن أو قريبًا منها، بصفته أحد مواصلي التراث الولسني، أو بتمتعه ببعض الصفات الولسنية. ولم ينظر إلى فْرَنكلِن روزفلت بتلك الصفة إلا إلى ما بعد انتخابه رئيسًا في عام (1932 م).

مثله مثل التقدميين جميعًا، بات ستيفن وايز قانطًا جراء الانعطاف الذي حدث في الحياة السياسية في عشرينيات القرن العشرين، والذي قام على الاحتفاء بحياة الأعمال والتجارة و' الحالة السوية '، وبالنزعة المادية، وباللذة، وباحتقار المُثُل وازدرائها، وبتغرب المفكرين والمثقفين عن التقاليد الديمقراطية لأمريكا. وتعويضًا عن الإخفاق في الوصول إلى كراسي السلطة، عاد إلى الدور السياسي الذي اضطلع به بقدر كبير من الاقتناع قبل ولسن ألا وهو دور الجلاد المستقل الذي يسوط الساسة الممسكين بزمام السلطة.

كان الفصل الأكثر حلكة في فترتي ولاية فْرَنكلِن روزفلت الناجحة إلى حد كبير بالنسبة إلى حكام نيويورك متمثلاً بقضية جِمي ووكر (Jimmy Walker). بدأت القصة بالنسبة إليه في ليلة السابع عشر من آذار/ مارس (1931 م) لدى عودته إلى البيت من احتفال متأخر بعيد القديس باتريك (وهو بالمناسبة الذكرى السنوية السادسة والعشرين لزواجه من إليانور) ليجد كلاً من الحاخام وايز والقس جون هاينز هولمز (John Haynes Holmes) ينتظرانه في مكتبه ليقدما له نيابة عن (لجنة الشؤون المدنية/ Civic Affairs Committee) عريضة مذيلة بتواقيع الآلاف من النيويوركيين المطالبين بالتحقيق في اتهامات بحدوث مخالفات مالية واستغلال رئيس بلدية نيويورك، جِمي ووكر نفوذه. كان لقاء

بالغ السوء بالنسبة إلى جميع الفرقاء الرئيسين. فعلى الفور قام فْرَنكلِن دِلانو روزفلت بإغراق رجلي الدين في سيل من التوبيخ والتعنيف لأنهما دسا أنفيهما في أمور السياسة. وفيما بعد حاول روزفلت تبديد الحاجة إلى التحقيق نظرًا لأن التهم كانت «مفرطة في عموميتها» ولكنه سرعان ما بات واضحًا أن الجمهور كان على قناعة مختلفة، ومن ثَمَّ فقد اضطُرّ روزفلت، رغمًا عنه، إلى تشكيل (لجنة سيبري/ Seabury Commission). وفي الأشهر التي تلت ذلك، إلى أن تمكن الحاكم روزفلت أخيرًا من توفير استقالة رئيس البلدية ووكر، في الأول من أيلول/ سبتمبر عام (1932 م) بات الكثيرون مقتنعين بأن روزفلت كان شديد الارتباط بالأجهزة السياسية الديمقراطية بما لا يؤهله لحمل أمانة رئاسة جمهورية الولايات المتحدة. وقد حمّل فْرَنكلِن روزفلت مسؤولية ذلك لكل من ستيفن وايز وجون هاينز هولمز. ومما قاله بصوت مرتفع: «إذا كانا يريدان أن يخدما ربهما كما يريدان أن يخدما نفسيهما، فإن أهالي مدينة نيويورك سيكونون الطرف الرابح»[6]. وفي عام (1932 م) كتب وايز إلى بعض الأصدقاء عن فْرَنكلِن روزفلت، ومما قاله في وصف الرجل: «يفتقر إلى القناعات الراسخة، لا يقف على أي أساس صلب. كله طين وصلصال، ليس فيه حبة صوان».

تزامنت الأشهر الأولى من عام (1933 م) كما نتذكر، مع الأشهر الأولى من نظام أدولف هتلر. ومثلها مثل حكومات تلك الأيام جميعًا، فإن إدارة فيودور روزفلت عانت كثيرًا على الصعيد الداخلي بخصوص الموقف الذي يَتَحَتَّم أخذه إزاء قيام نظام هتلر بتنفيذ المراحل الأولى من بَرْنَامَجه القائم على تصعيد الإرهاب إزاءَ اليهود. كان الرأي، داخلِ الإدارة الروزفلتية، في صف أولئك الذين اعتقدوا أن هتلر لن يدوم طويلاً، وبأن من شأن امتناع الحكومات الخارجية عن الرد على استفزازاته لليهود بردود أفعال استفزازية مماثلة أن يساعد المعتدلين ممن يحيطون به.

أما اليهود داخل الإدارة أو الأفراد القادرون على الوصول إليها، الذين

كان نفوذهم حسب اعتقاد الكثيرين كفيلاً بتوفير الآذان الصاغية لسماع قصة القضية اليهودية، فقد برهنوا على أنهم لم يكونوا مستعدين لأن يرفعوا أصواتهم احتجاجًا على معاناة اليهود الأورُبّيين. واستجابة لتحذيرات وتنبيهات القادة اليهود من خارج الإدارة سارع الذين في داخلها (هنري مورغنتاو الابن، وهربرت لِهمن، وبِرنارد باروخ، وهربرت فايس، وجيمس واربورغ (James Warburg) وبن كوَهن (Ben Cohen) وفليكس فرنكفُرتر) إلى الرد بصوت واحد قائلين: إن بإمكان (الزعيم م) أن ينجز الكثير إذا لم يبد كما لو كان مستجيبًا لنداءات جماعة الضغط (اللوبي) اليهودية. وفيما بعد لن يجد المؤرخون إلا القليل جدًا مما يشير إلى وجود أي جهد عملي بذله الرئيس روزفلت على صعيد الدفاع عن قضية اليهود وتبنيها في العالم الدبلوماسي.

خلال تلك الأشهر الأولى من رئاسة روزفلت، وفي حينَ كانَ غريبًا [عنصرًا خارجيًا]، فإن ستيفن وايز، هو الذي نظم اجتماعًا جماهيريًا في حديقة ماديسون سكوير، في السابع والعشرين من آذار/ مارس (1933 م) حين استمع (25000) شخص في الداخل و(30000) شخص في الخارج، مع مئات الآلاف ممن جرى ربطهم بإحدى محطات الإذاعة القومية إلى عدد من الخطباء بمن فيهم ألفريد سْمِث (Alfred E. Smith) والقس وليم مننغ (William Manning) والقس فرنِسس مكُنل (Frances McConnell) وعضو مجلس الشيوخ روبرت فاغنر. وأعقبت ذلك حملة مقاطعة لألمانيا، في الواقع مقاطعة مضادة مقابل المقاطعة التي أعلنها هتلر للشركات والمصالح اليهودية في ألمانيا. وقد فعل هذا كله مع اعتراضات (اللجنة اليهودية الأمريكية/ American Jewish Committee) و(بناي بريت/ B'nai Brith) التي كانت تخشى من أن تتمخض مثل تلك الفعاليات عن إعاقة «جهود بناءة أكثر». أما رد وايز على تلك الاعتراضات فكان على النحو التالي: «كيف نستطيع أن نطلب إلى أصدقائنا المسيحيين أن يرفعوا أصواتهم احتجاجًا على المظالم التي

يعانيها اليهود إذا بقينا نحن صامتين ؟»[7]. وفي تلك الفترة تقريبًا كان يصف رئيس الجمهورية بأنه «متعذر التحريك، متعذر الشفاء، بل ومتعذر الوصول إليه فيما عدا أصدقاءَه اليهود أولئك الذين يثق بهم تمامًا ويطمئن إلى أنهم لن يزعجوه بأيّ مشكلات يهودية» غير أن غروره تضافر مع تفاؤله الطبيعي على إقناعه بأن الشيء الوحيد الذي كان مفقودًا تمثل بإقامة علاقة شخصية بينه وبين (الزعي م).

في الوقت نفسه، كان روزفلت مدركًا حقيقة أن هيبة وايز داخل الجالية اليهودية تعاظمت جراء القابلية القيادية الجريئة التي أبداها في حشد عواطف الجمهور وتعبئتها إزاءَ حكومة هتلر في المقام الأول. ومثله مثل ستيفن وايز كان فْرَنكلِن منجذبًا بنوع من الحنين الماضوي (nostalgic) إلى الأيام الولسِنية، كما كان شاعرًا بإمكانيات تجديد ما كان صنوًا لتحالف ولسن / بْرَنْدَيْس/ وايز. وفي أيلول/ سبتمبر من عام (1935 م) قام روزفلت بمبادرة، حين طلب إلى ستيفن وايز أن يزوره. ونظرًا للجهود الشاقة جدًا التي بذلها في سبيل فتح أبواب الت الأبيض على امتداد زُهاء ثلاث سنوات، فإن وايز لا يقنعنا حين يكتب في سيرته الذاتية قائلاً: «لم يكن الذهاب سهلاً، فما من رجل ذي شأن في الحياة العامة هاجمنا، هولمز وأنا، كما فعل هو. ومع ذلك، فإنني لم أستطع أن أسمح للحقد أو السخط الشخصيين بالحيلولة دون تأييدي له»[8].

وبعد لقاء المصالحة هذا، بادر ستيفن وايز إلى التخلي عن دوره منظمًا للرأي العام خارج البيت الأبيض. ومن عام (1936 م) فصاعدًا، بات معترفًا به عمومًا على أنه القائد اليهودي الأمريكي الأوثق صلة بالرئيس. راح النقاد يقولون: لقد أصبح «يهودي البَلاط» لدى فرَنكلِن روزفلت. وقبل حلول موعد انتخابات عام (1936 م) بزمن غير قصير، أصدر ستيفن وايز بيانه الداعم لروزفلت:

أقدم دعمي القلبي الصادق للرئيس روزفلت، لا بوصفي يهوديًا بل بوصفي أمريكيًا. أنا لا أصوت يهوديًا أبدًا.. وهو نفسه عضو في إحدى الكنائس المسيحيَّة العظيمة.. إن [فرَنكلِن روزفلت] جار جيد للبشرية جمعاء[9].

إن قراءة بعض رسائل وايز وتقاريره إلى فرَنكلِن روزفلت تثير الإرباك تمامًا. فكما قال ديزرائيلي (Disraeli) عن نفسه في تعاملاته مع الملكة فكتوريا، فإنه دأب في «تصديرها بديباجة طويلة». تبدأ رسائله، بلا استثناء، بعبارة التحية التالية: «أيها الزعيم العزيز / Dear Boss». فبعد العودة من إحدى رحلاته إلى أورُبَّة، يكتب تقريرًا «عن إيمان الشعوب الأورُبّية بقيادتك البلاد، فهي مقتنعة قناعة بديهية بأن إعادة انتخابك أمر محسوم سلفًا. إنني أكثر شغفًا مما يمكنني التعبير عنه، إبلاغك بالطواف على أرجاء البلاد وإضافة صوتي إلى فرقة متفهمي قيادة أبعدت عنا الشيطان الأكبر وأعطتنا هذا الخير كله وهذه البركات الواعدة بالنسبة إلى مستقبل بلدنا»[10]. لقد عمل، وهو الذي يتعذر أن يأنف إظهار نفوذه على البَلاط، على تحويل الكثير من «التقارير» الشبيهة بما يلي بعد قليل (إلى جهات غير محددة بالأسماء غير أن من المفترض أنها أطراف صِهْيَوْنية مسؤولة) عن «زيارة إلى الرئيس فْرَنكلِن روزفلت في هايدبارك، الاَثنين الخامس من تِشْرِين أول 1936»:

سري جدًّا

على الفور عبرت للرئيس 'الذي كان تجسيدًا حيًا للمودة نفسها' عن تقديرنا العميق جميعًا لما قام به هو ووزير الخارجية هَلّ (Hull) على صعيد التدخل في فِلَسْطِيْن. تألق وجهه. بدا جيد الاطلاع. أبلغته أن فرحي كان يشاركني فيه كل من القاضي بْرَنْدَيْس وفليكس [فرنكفُرتر]، والقاضي ماك، إلا أنه قاطعني ليقول، 'أيها العظماء! اعلم يا ستيفن، أننا مع البطانة الداخلية نطلق عليه [أي على بْرَنْدَيْس] اسم ' إشعيا '.. ثم قام 'فْرَنكلِن دِلانو روزفلت بشرح الأسلوب الذي

اعتمده لإقناع تشمبرلِن (Chamberlain) وحكومته في قضية فِلَسْطِيْن '. قد لا أكون بحاجة لأن أضيف، بأعلى درجات السرية، (كما هي حال كل شيء هنا) أنني أخبرت فْرَنكلِن دِلانو روزفلت بأننا لا نستطيع، بالطبع، أن نوظف الأمر على الملأ، إلا إذا حصل بالضرورة قدر معين من التسريب بطبيعة الحال، غير أنني أينما ذهبت ولكل من التقيت به أوضح أن الإدارة قدمت لنا خدمة بالغة الأهمية وأننا لا نملك أي حق في نسيان ذلك في مثل هذه الأوقات العصيبة. 'علنًا، لا أجرؤ على قول المزيد بسبب رد الفعل الذي يمكن أن يكون ضارًا والذي يمكن أن يستخدمه إزاءَكم في هذا لوقت الفريق الآخر '.

7 . 2 . 3) فرنكلين دِلانو روزفلت ويهود العالم

كانت المهمة المنتصبة أمام القيادة الصِهْيَوْنيَّة، عبر عقد ثلاثينيات القرن العشرين، متمثلة بممارسة الضغط المطرد على الحكومة الأمريكية لإلزامها باحترام تعهداتها التي لم تلغ قط بشأن الوطن اليهودي، تلك التعهدات الناجمة عن إقرار ولسن بـ(وعد بلفور) والمؤكدة في (قرار لودج–فِش) لعام (1922 م) والتي تم تأكيدها مرة أخرى في معاهدة الانتداب الأمريكية البريطانية في الثالث من كانون الأول (1924 م) والمعاد تأكيدها مرة رابعة في تصريح وزارة الخارجية الصادر بتاريخ الثالث عشر من تِشْرين أول (1939 م). وحسب ما هو مكرر في السجلات فإن فْرَنكلِن روزَفلت لم يكن قط أقل من رؤساء الجمهورية الجمهوريين في عقد العشرينيات تأييدًا مطلقًا وغير مشروط لتعهدات بلفور وتعبيرًا عن الإعجاب بالقضية الصِهْيَوْنيَّة، في حين كان، في أحاديثه الخاصة، يطمئن القادة الصهاينة مرة بعد أخرى مؤكدًا لهم أنه كان يستكشف جميع السبل، المكشوفة منها والسرية، لإبقاء الضغط على البريطانيين في مسألتي الهجرة إلى فِلَسْطِيْن ومستقبل دولة اليهود. ومع ذلك،

فإن الباحثين الذين عكفوا لاحقًا على تمشيط الوثائق والملفات لم يجدوا إلا القليل جدًا من الأدلة على الرعاية الفعالة للمصالح اليهودية التي تباهى بها فْرَنكلِن روزفلت على مسامع ستيفن وايز في ذلك الوقت. صحيح أن الضغوط الصِهْيَوْنيَّة تمخضت، بين الحين والآخر، عن إقدام الحكومة، عن طريق القنوات الدبلوماسية، على إصدار مذكرات تمت صياغتها بعناية فائقة تقول: إنَّ الولايات المتحدة كانت تعد نفسها صاحبة حق في أن تؤخذ وجهات نظرها بالحسبان كلما أقدمت بريطانيا على تحرك شبيه بما حصل توًّا (ربما فرض قيود جديدة معينة على شراء اليهود الأرض في فِلَسْطِيْن، حظر (مؤقت) معين للهجرة اليهودية، وانتظارًا للتقرير الخاص بالتحقيقات الأخيرة، وبعض الخطوات القاسية على نحو استثنائي التي تم اتخاذها إزاءَ الإرهابيين اليهود الفِلَسْطِيْنيين). وفي كل مرةٍ كانت الحكومة البريطانية تعمد ببساطة إلى إرهاق الأمريكيين خلال أشهر كثيرة من المراسلات الدبلوماسية، دون أن يؤدي ذلك إلى أي تغيير. ومهما يكن فإن فْرَنكلِن روزفلت رحب بشكر الصهاينة الأمريكيين على جهوده البطولية وتابع مسيرته ليهتم بأمور أخرى.

نعلم أن السلطات البريطانية كانت حريصة على استغلال جميع الصلات المتوافرة لها في واشنطن في سبيل الغوص إلى عمق التفكير الحقيقي للإدارة الأمريكية، ونعلم أيضًا أن هذه السلطات كانت عمومًا موقنة بأن الحكومة الأمريكية لن تذهب في ثباتها وإصرارها إلى ما هو أبعد من هوامش الاحتجاج المتحضر. لدينا مثلاً هذه المذكرة التي أعدها أنطوني إيدن وزير الدولة للشؤون الخارجية لمجلس الوزراء:

> **منذ أمد طويل لم تكن ثمة تعبيرات علنية عامة عن الرأي العام اليهودي، تعبيرات محددة أو مُهِمّة، كما أن يهود أمريكا شديدو الانقسام في الرأي، كما يتعذر زعم وجودِ موقف يهودي سائد حيال القضية الفِلَسْطِيْنية، غير أن النقاط التالية يمكن عدها مشتركة بالنسبة إلى الأكثرية الساحقة:**

آ) الجميع شديدو الكآبة والحزن إزاء معاناة أبناء قومهم في البلدان الأخرى.

ب) الجميع مقتنعون بأنه يجب توفير منطقة قادرة على توفير الملاذ لمن هم بحاجة إليه، مع وجود اختلافات كبيرة في الرأي حول الوضع السياسي الذي يَتَحَتَّم على تلك المنطقة أن تأخذه.

ج) عمليًا يتحدث الجميع بلغة العرفان عن الجهود البريطانية.

من الصعب أن نصدق أن أي بحث أمين كان من شأنه أن يجعل السفارة البريطانية تتوصل إلى مثل هذا الاستنتاج عن وجهة النظر الأمريكية.

مع حلول عام (1938 م) باتَ وضعُ اليهود الأورُبّيين بالغَ البؤس. فقد كان هتلر يتباهى باعتزامه ترحيل الكتلة السكانية اليهودية كلها ووضعها على أكتاف الدول الديمقراطية، موقنًا بأن تلك الدول لم تكن تريد أولئك اليهود. تمخضت ضغوط كل من ستيفن وايز ولويس بْرَنْدَيْس المطردة على فْرَنكلِن رزفلت عن الدعوة إلى مؤتمر دولي لبحث أزمة اللاجئين في منتجع إيفيان الفرنسية في تموز/ يوليو عام (1938 م). لم توافق بريطانيا على حضور المؤتمر إلا إذا تم استبعاد قضية فِلَسْطِيْن من النقاش، وهذا ما وافقت عليه البلدان المشاركة الثلاثة والثلاثون. خُطَبٌ كثيرة تحدثت بحزن واستهجان عن الظروف التي كانت تفضي إلى أزمة اللاجئين في أورُبَّة، غير أن جميع البلدان، بما فيها الولايات المتحدة، أعلنت أنها لم تكن قادرة على قبول المزيد من اللاجئين.

وعند هذا المنعطف، بادر، كما سبق لنا أن رأينا، قادة (الاتحاد الموالي لفلَسْطِيْن) مع قدر متواضع من المساعدة من جانب المنظمة الصِهْيَوْنيَّة الأمريكية، إلى الرد عن طريق تأسيس (لجنة مؤقتة بخصوص فِلَسْطِيْن/ Provisional Committee on Palestine). ثمة طلبات جاءت أيضًا من (لجنة طوارئ قومية صِهْيَوْنية عارضة عن فِلَسْطِيْن/ ad hoc Zionist National Emergency Committee on Palestine) مذيلة بتواقيع (51) عضوًا في مجلس

الشيوخ، و(154) نائبًا، و(30) حاكمًا، كانت تحث الرئيس روزفلت على العمل لقلب السياسة البريطانية. ومع ذلك كان قادة المنظمة الصِهْيَوْنيَّة الأمريكية عازفين عن تجنيد هذه الحركات المسيحيَّة الذّاتية الجذور، مكتفين ببعض الدعم المالي المتواضع للمؤتمر. أما تفسير هذا العزوف فيكمن في المشورة الآتية من ستيفن وايز والمتضمنة أن قدرة فْرَنكلِن روزفلت على استخدام نفوذه المعنوي والدبلوماسي الهائل، وبالشكل الأفضل، مع البريطانيين، متوقفة على عدم ظهوره بمظهر من يتصرف تجاوبًا مع تحريض سياسي من جانب يهود أمريكا.

في أوائل عام (1939 م) قام هتلر بإبلاغ البرلمان الإمبراطوري الألماني (الرايخستاغ) بما يلي:

سيَتَحَتَّم علينا أن نحل المسألة اليهودية. ثمة مجال كاف في العالم، ولكن علينا نحن أن نتحرر من فكرة أن الرب اختار الشعب اليهودي ومن ثَمَّ يتمتعون بحق أن يكونوا طفيليين يعيشون على أجساد الأمم المنتجة الأخرى.. إذا نجح المال اليهودي الدولي، داخل أورُبَّة وخارجها، في جر الدول إلى حرب عالمية أخرى، فإن النتيجة لن تكون بلشفة عالمية، ومعها انتصار اليهود، بل استئصالاً للعنصر اليهودي من أورُبَّة.

وبعيد ذلك أصدرت الحكومة البريطانية (الكتاب الأبيض) عام (1939 م) فباتت التفاصيل متداولة علنًا، كانت دولة فِلَسْطِيْنية مستقلة مرشحة لأن تظهر إلى الوجود في غضون عشر سنوات، ولضمان أن تكون ذات أكثرية عربية، تقرر أن يبقى الحجم الإجمالي للهجرة اليهودية خلال هذه الفترة بحدود (75000) فقط. وفي الثاني عشر من شُبَاط/ فبراير (1940 م) قام في مجلس الوزراء، وزير الدولة لشؤون المستعمرات ومؤلف الكتاب الأبيض، مالكولم مكدُنلد، بتلخيص المعادلة السياسية على النحو التالي:

من شأن المبالغة في نفوذ العنصر اليهودي في الولايات المتحدة أن تفضي

إلى خطأ في الحكم. لقد قيل لنا أيام (الكتاب الأبيض): إن العنصر اليهودي قادر على إثارة الرأي العام في ذلك البلد وتوجيهه إزاءَنا، ولكن هذا لم يثبت أنه كان صحيحًا في حقيقة الأمر[11].

وطوال تلك الفترة كلها ظل ستيفن وايز يغوص أعمق فأعمق في بئر وعود روزفلت بالتحرك. ومن الشهادات الدالة على إطراء جهود روزفلت المبذولة لخدمة مصالح يهود العالم علنًا، والموقعة من كل من ستيفن وايز وسُلُمُن غولدمان (رئيس منظمة أمريكا الصِهْيَوْنيَّة آنذاك) والموجهة إلى فْرَنكلِن دِلانو روزفلت في السابع عشر من أيار/ مايو (1939 م) في أعقاب مؤتمر لندن، حيث أخفق الصهاينة في ثني حكومة تشمبرلِن عن إصدار كتابها الأبيض المشؤوم حول فِلَسْطِيْن، ما يلي:

في ساعة الأسى هذه على خيانة حكومة تشمبرلِن الدين والأمل اليهوديين، لا يسعنا إلا أن نقول لكم: إننا مدركون لكل ما حاولتم أن تفعلوه لمصلحة قضيتنا في السنوات الأخيرة.

في مناسبات كثيرة كان تفهمكم وتدخلكم في لندن هما اللذان أديا إلى إبعاد الكارثة. أما اليوم فإن جهودكم الجادة والمخلصة لم تكن، يا للأسف، ناجحة، في حين حصلت الحكومة البريطانية على الرضى المفعم بالكآبة الناجم عن انتهاك تعهدها الذي قطعه بلفور، وعن التنكر لعملية تحقيق العدل بالنسبة إلى شعبنا.

لن ينسى يهود العالم، وخصوصًا يهود فِلَسْطِيْن، يا سيادة الرئيس، كل ما فعلتموه أو سعيتم لتحقيقه من أجلنا. سوف نتذكر وسنبقى مفعمين شكرًا على الدوام[12].

3 . 3) مجلس الطوارئ الصِهْيَوْني الأمريكي والصهاينة المسيحيين

قبل سحق اليهودي، لن تتمكن قوى الظلام من فتح قلاع الإنسانية الأخرى المتمثلة بالنزعة الإنسانية، والديمقراطية، والمسيحيَّة التي هي بنات اليهودية الثلاث.. إذا سارعت الكنيسة المسيحيَّة، ولو في هذه الساعة المتأخرة، إلى تفهم علامات الأزمان وأدركت أن الهجمات على اليهود، وهي تتضاعف هذه الأيام، إن هي إلا تمهيد للانقضاض على القواعد الخاصة للمسيحية.. إذا تمكن الإدراك من اختراق الأوساط المسيحيَّة وإقناعها بعمق بأن خلاص الشعب اليهودي من خلال إعادة بناء الأرض المقدسة ما هو إلا مرحلة من مراحل النضال في سبيل إقامة ملكوت الرب على الأرض، فإن الأمل، حسب اعتقادي، ما يزال موجودًا. وليس الأمل بإنقاذ الشعب اليهودي من كارثة مرعبة فقط، بل الأمل بإنقاذ المجتمع!.. إن كنيسة مسيح كهذه، نجحت في استعادة استقلالها وشجاعتها، من

شأنها أن تمتلك الجرأة الكافية لتخاطب إنغلترا بكلمات ناثان: أنت هو الإنسان ! (بيير فان باسّن Pierre Van Passen)[1] .

1 . 3 . 3) مستوى إمانويل نيومَن التعليمي

في الثاني والعشرين من آب (1939 م) اليوم الذي شهد إعلان التحالف بين هتلر وستالين، كان المؤتمر الصِهْيَوْني الحادي والعشرون منعقدًا في جنيف. جرى لمّ الأوراق والأعمال على عجل وهرع المندوبون إلى أوطانهم. وكما في صيف (1914 م) ساد خوف من أن قيادة العالم ستكون مبعثرة، أو ما هو أسوأ، ومن ثَمَّ، تقليدًا لسابقة كانت في آب (1914 م) فقد تم تشكيل لجنة طارئة للشؤون الصِهْيَوْنيَّة (أعيدت تسميتها لاحقًا: المجلس الصِهْيَوْني الأمريكي للطوارئ / American Zionest Emergency Council AZEC) في الولايات المتحدة. وأعادت قادة اللجنة الطارئة المشكلة حديثًا إمانويل نيومَن أحد أعضاء اللجنة التنفيذية للمنظمة الصِهْيَوْنيَّة العالمية إلى قلب النشاط الصِهْيَوْني في الولايات المتحدة حيث كلف بتسيير أعمال قسم العلاقات العامة والعمل السياسي.

كانت أولى أولويات إمانويل نيومَن متمثلة بحشد الوجدان المسيحي وتعبئته لمصلحة الوطن اليهودي. وكان نيومَن، وهو الرجل المتدين، ومن ثَمَّ من الشخصيات النادرة بين الأوساط الصِهْيَوْنيَّة الرسمية، قد تعلم من ستيفن وايز ولويس بْرَنْدَيْس أن هناك شيئًا يدعى: الوجدان أو الضمير المسيحي، وأن أعمق منابع هذا الوجدان في أمريكا كان متمثلاً بمسيحية البيورتيانيين الكتابية (biblical Christianity of the Puritans) التي شكلت أساس (مذكرة بلاكستون).

سبق لنا أن رأينا، من قبل، أن إمانويل نيومَن جرّد سيرته الذاتية من أي أثر

عن مسؤوليته الخاصة عن إهمال (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) و(الاتحاد الموالي لفِلَسْطِيْن) في ذلك الوقت. بل إنه لا يأتي على ذكر (الاتحاد الموالي لفِلَسْطِيْن). غير أنه كان مع ذلك رجلاً قابلاً للتعلم، ومن الواضح أنه بات مع حلول عام (1939 م) مقتنعًا بأن إهمال تلك الجهود كان خطأ كارثيًا. وقد ترتب هذا الإخفاق، بدوره، كما أصبح يرى، على خطأ سياسي أساس هو القرار القاضي بالالتفاف حول الرئيس روزفلت والحزب الديمقراطي. فأولئك المقربون من فْرَنكلِن روزفلت كانوا يفيدون أنّ الأخير، مع صداقته المؤكدة لصِهْيَوْن، كان يعاني بعض الهنات الثانوية، بما فيها عدم تحبيذه لأن يبدو في وضع من يتخذ قراراته استجابة لطلب جماعات ضغط منظمة واضحة العيان للناس، إضافة إلى أنه لم يبق، وهو مرتبط بما سبق، على علاقة ودية مع الأفراد أو الجماعات التي كانت ناشطة على نحو متزامن على الضفة الأخرى من شارع السياسة الحزبية. وفي هذا الضوء أصبح الصهاينةُ الرسميونَ فاتري الهمم حول فكرة تجنيد الوجدان المسيحي على الصعيد الجماهيري، أي خارج إطار الحكومة.

نادرًا ما كانت تلك الحسابات تناقش بصوت مسموع في ثلاثينيات القرن العشرين، غير أنها ما لبثت أن عادت أواسط الأربعينيات بحدة مضاعفة حين بات من المتعذر تجنب ذكر حقيقة أن فْرَنكلِن روزفلت خان الصهاينة ويهود أورُبَّة وفِلَسْطِيْن. إن ثمنًا مخيفًا كان يتم تسديده يوميًا مقابل التخلي عن السياسة الحكيمة التي كانت تقف وراء إطلاق (الاتحاد الموالي لفِلَسْطِيْن) و(لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية). ولم يكن ما نتج من ذلك سوى مثال نموذجي تقليدي عن إغواء الأبرياء بسراب «الوصول» أو عن وضع المرء ثقته بالأمراء، حسب لغة المزامير أو الترانيم.

غدا إمانويل نيومَن، في السنوات الأخيرة، صاحب أحد أعلى أصوات الصهاينة الأمريكان الشاجبين قيادة حاييم وايزمن وسياسته، وقبل كل شيء، إيمان وايزمن بالدبلوماسية الهادئة مع الحكومات المنتخبة في كل من الولايات

المتحدة وبريطانيا. وفي مرحلة مبكرة من هذه القصة كانت سياسة نيومَن المعادية لوايزمن وضعته في المعسكر نفسه مع ستيفن وايز، غير أن الأخير كان عمليًا متحالفًا مع وايزمن بصفته أحد دعاة سياسة التعاون مع رجالات الدولة. فقد أضحى وايز، صديق فْرَنكلِن روزفلت، عماد تلك السياسة على الطرف الأمريكي.

كان الحاخام أبا هِلل سِلفر السِّنسِناتي وهو صديق نيومَن وحليفه منذ أيام ترددهما على نادي الشباب الصِهْيَوْني نفسه في نيويورك، منافسًا قويًا لستيفن وايز في منظمة أمريكا الصِهْيَوْنيَّة. وقد بادر الصديقان القديمان، نيومَن وسِلفَر، إلى طرح فكرة العودة إلى الأساليب والتحركات المتناغمة مع السياسات التي كانت سائدة قبل عام (1933 م) أي قبل فْرَنكلِن روزفلت. من الضروري أن يتم إيجاد قنوات رأي موالية للصِهْيَوْنية في سائر مجالات النفوذ الجماهيري. لا بد من وجود جمهوريين موالين للصِهْيَوْنية جنبًا إلى جنب مع ديمقراطيين موالين للصِهْيَوْنية، وينبغي لكل من الطرفين أن يعيش في خوف من الطرف الآخر.

بمنتهى البساطة، كان الخلاف بين سياسة وايز ووايزمن، من جهة، وسياسة نيومَن وسِلفَر، من الجهة المقابلة، يدور حول مدى وجود المزيد من الوجدان المسيحي القابل للتجنيد داخل البيت الأبيض أو خارجة. فإذا كان وجدان البيت الأبيض المسيحي من فصيلة الأوكتان التي وصفها ستيفن وايز وديفِد نايلز وبن كوهن وساموِيل روزنمن وغيرهم من مشاهير اليهود الذين اقتربوا منه إلى درجة مكنتهم من اختباره، فمن شأن تعريضه لأي خطر سياسي عن طريق اعتماد تكتيكات صاخبة في الخارج أن يشكل إساءة كبيرة لصِهْيَوْن. أما إذا كان الوجدان المسيحي في الجمهور العام من الصنف الذي اعتقده نيومَن، فقد كان من غير الجائز قطعه أو إيقافه، بل كان لا بد من تجنيده وتوظيفه إلى مداه الأقصى، حيثما كان موجودًا في الأوساط السياسية، في سوق تداول الأفكار، أي: في الكنائس.

لقد ظل هذا الخط الأساسي نفسه يفصل على الدوام بين وجهتي النظر الصِهْيَوْنيتين، كما هي حاله اليوم.

3 . 3 . 2) لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية الجديدة (1941 م)

تم كشف النقاب عن فلسفة نيومَن في وثيقة جرى توزيعها بعد تعيينه ببضعة أسابيع:

> **ثمة نوع من نفاد الصبر، مفهوم غير أنه مؤسف، إزاء أي نقاش لترتيبات ما بعد الحرب في وقت ما يزال الصراع فيه حادًا وما تزال فيه القضية غير محسومة. أضف إلى ذلك أننا نحن اليهود، بالاشتراك مع الآخرين ذوي الأمزجة الذهنية الليبرالية والتفاؤلية، درجنا على التسليم بأن الأمور 'هذه المرة' ستكون مختلفة وجيدة. فَعلَّة النزعة التقدمية التي تصيب العقل غير قابلة للشفاء.. [ومن ثَمَّ فإن معظم الصهاينة] يفضلون أن تواصل السياسة الصِهْيَوْنيَّة الانطلاق من افتراض أن فكرة استعادة فِلَسْطِيْن كرابطة كومنولث يهودية ستهبط على مائدة مجلس الأمم كالمن والسلوى النازلين من السماء.**
>
> **أنا لست من مؤيدي هذا الرأي. فالقوى التي تناصبنا العداء كثيرة وجبارة وبعد صراع الحرب سيأتي صراع السلام.. [نحن الآن بصدد] إنجاز مهمة نشر أسلوب محدد لفهم الصِهْيَوْنيَّة بين أصدقائنا المسيحيين، واستنفار تأييدهم.**

وبعد بضعة أشهر، في مؤتمر بلتمور (Biltmore Conference) في أيار/ مايو (1942 م) حيث التزمت الجالية اليهودية الأمريكية بالمطالبة بهجرة يهودية غير محدودة إلى فِلَسْطِيْن وبالمبادرة سريعًا إلى خلق (كومنولث) يهودي هناك، بادر نيومَن إلى الكشف بوضوح لا لبس فيه عن الدور الحيوي المنوط بالعلاقات العامة قائلاً:

> **' علينا ' أن نقنع جميع العاملين في الحياة العامة بأنهم موحدون على**

صعيدي الرغبة والتصميم على رؤية البَرْنَامَج الصِهْيَوْني مؤدًّى، وأن نضمن تأييدهم.. 'علينا أن نقنع' اتحادات الكنائس ومنظمات رجال الدين وجماهير المؤمنين، وكبار الإعلاميين والمعلمين والوعاظ الذين ينطقون باسم ضمير أمريكا. لا بد لنا من أن نقدم لهم الأمر بصفته قضية أخلاقية كبرى، منطوية على مسائل معنوية عظيمة.. علينا أن نغطي أمريكا كلها.

تمثل مشروع نيومَن الرئيس الأول في حقيبته الجديدة بإعادة تشكيل (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) «وهو أمر تطلب قدرًا من الخوتسبا (Chutzpah)» نظرًا للطريقة التي اتبعها الصهاينة الرسميون في التخلي عن مسؤولياتهم إزاء المنظمة التي كانت تحمل هذا الاسم أساسًا قبل زُهَاء عقد من الزمن ويشكل العدد الكبير جدًا من أولئك الذين ظلوا متمسكين بمناصبهم من المنظمة القديمة ممن وافقوا على الانتساب إلى لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية الثانية حصرًا شاهدًا على صدق التزامهم.

وكما في حال (لجنة فِلَسْطِيْن الأصلية) الأولى، ثمة دور رئيس على صعيد التجنيد أدَّاه القاضي بْرَنْدَيْس (الذي توفي في الخامس من تِشْرين أول عام 1941 م) بهدوء. وكما في (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) الأصلية، مرة أخرى، تم افتتاح (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) الجديدة جماهيريًا في وليمة عشاء أقيمت هذه المرة في فندق شورهام بواشنطن في الثلاثين من نَيْسَان/ أبريل (1941 م). ومع حلول هذا الموعد تم تسجيل أسماء ثلثي أعضاء مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة.

وافق عضو مجلس الشيوخ من نيويورك روبرت فاغنر، وهو أحد كبار أصدقاء الصِهْيَوْنيَّة منذ سنوات كثيرة، على تولي الرئاسة. وقد عزا كارل هيرمن فوس، الذي تعاون مع عضو مجلس الشيوخ سنوات كثيرة في حشد الدعم المسيحي لقضية الوطن اليهودي، حماسة فاغنر في هذه القضية إلى إعجابه

باليهود والديانة اليهودية، بمعنى أنه كان مثالاً للمسيحي التقليدي المحب للسامية، أصيب بقدر استثنائي من الكآبة جراء العار الذي كانت الهتلرية جلبته على ألمانيا، مسقط رأس أبويه[2].

في إحدى أولى تصريحاته الصحفية وصف عضو مجلس الشيوخ فاغنر غاية (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) واستراتيجيتها على النحو التالي:

ما الذي سيشكل بَرْنَامَج لجنتنا؟ ما الذي تستطيع أن تفعله لدفع القضية التي تبنتها إلى الأمام؟ لجنتنا منظمة غير رسمية كليًا، ولا تتمتع بأيّ سلطات تنفيذية، إدارية، أو تشريعية، غير أنها قادرة على الوصول إلى سلطة متوجة فوق هذه جميعًا، ألا وهي سلطة الرأي العام السيادية. نحن عازمون على مخاطبة وجدان أمريكا وضمير العالم المسيحي كله.

ومن ضمن أعضاء اللجنة التنفيذية وجد الدكتور دانييل مارش (Dr. Daneil L. Marsh) رئيس جامعة بوسطن، ووليم أُلبرايت (Prof. William F. Albright) من جامعة جون هوبكنز (John Hopkins University) والدكتور هنري آتكنسن (Dr. Henry Atkinson) والأستاذ كارل فريدريش (Prof. Carl J. Friedrich) من جامعة هارفارد ووليم غرين (William Green) رئيس اتحاد العمل الأمريكي، وإرك جونستن (Eric A. Johnston) رئيس غرفة تجارة الولايات المتحدة، وجون مكرمَك (John W. McCormack) زعيم الأغلبية في مجلس النواب وفيليب مراي (Philip Murray) رئيس (السي آي أو/ CIO) ومن أعضاء مجلس الشيوخ كلود ببر (Claude Pepper) وآرثر فاندنبرغ (Arthur Vandenburg) ودانيل بولنغ (Daniel Poling) رئيس تحرير (كريسْتْيَن هيرالد / Christian Herald) والمونسنيور جون ريان (Msgr. John A. Ryan) من (مجلس الرخاء القومي الكاثوليكي / National Catholic Welfare Council).

بادرت (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) فور تنظيمها إلى نشر بيانها المتضمن

جملة الأهداف والمبادئ، واصفة نفسها بأنها «أداة التعبير عن تعاطف أمريكا المسيحيَّة وإرادتها الطيبة مع الحركة الرامية إلى إحياء الوطن القومي اليهودي في فِلَسْطِيْن». والارتباط مع مذكرة بلاكستون واضح:

لقد ظل تحقيق الحلم الألفي المتمثل بإعادة الجمع بين الشعب اليهودي ووطنه القديم الموروث، وهو حلم يتناغم مع روح النبوءة الكتابية، متمتعًا على الدوام بتعاطف العالم المسيحي الليبرالي.

وتبع هذا البيان سيل مطرد من التصريحات الصحفية والبلاغات المنشورة، ومن الرسائل الموجهة إلى المحررين والإعلانات الدعائية الشاغلة لصفحات كاملة من الجرائد. ونحن نعلم أن هذه لفتت نظر البيت الأبيض، حيث قدر أن عدد أعضاء مجلس الشيوخ في (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) كان يساوي العدد المطلوب دستوريًا لإقرار المعاهدات. ففي تناقض صارخ مع القيادات الصِهْيَوْنيَّة في أوائل الثلاثينيات، أعطى (المجلس الصِهْيَوْني الأمريكي للطوارئ/ American Zionist Emergency Council) الأولوية الأولى لهذا العمل، وكان التمويل سخيًا. كلف المجلس نشطاء ميدانيين باقتناص رجال الدين المتعاطفين في كل تجمع سكاني ذي شأن في البلاد، وقام بتوظيف صلات هؤلاء القساوسة من أجل الوصول لاحقًا إلى تشكيل أكثر من (75) فرعًا محليًا تابعًا لـ(لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية). جرى دفع أعضاء هذه الفروع باتجاه تقديم التبرعات وتوفير الخدمات الدينية والدعم المعنوي لجيرانهم من الصهاينة المسيحيين. وهذا النشاط كله تم تمويله بسخاء من المجلس الصِهْيَوْني الأمريكي للطوارئ حيث تجاوز المبلغ (72000) دولار في السنة في الأعوام الأولى، وجرى رفعه إلى (150000) دولار سنويًا مع حلول العام المالي (1947-1948 م). ودأب نيومَن في تذكير مجنديه بالشعار التالي: «التعاطف شبيه بأيّ قوة أخرى، لا يكون فعّالاً إلا إذا تم توجيهه على نحوٍ صحيح».

شكلت الوليمة السنوية الثانية لـ(لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) التي تمت في فندق ميفلور بواشنطن في الخامس والعشرين من أيار/ مايو (1942 م) والتي بثتها إذاعة (إن بي سي/ NBC) عبر أراضي البلاد، إحياء للذكرى السنوية العشرين لقيام مجلسي الشيوخ والنواب باتخاذ قرارهما المشترك المؤيد إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فِلَسْطِيْن. وقيل: إن العضوية «وصلت الآن إلى (725) رجلاً وامرأة من الشخصيات المرموقة والمبرِّزة في سائر الميادين، بمن فيهم (67) عضوًا من أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي و(143) عضوًا من أعضاء مجلس النواب و(22) حاكمًا من حكام الولايات وقاضيًا ومريعًا وقسيسًا وناشرًا ومحررًا وكاتبًا وزعيمًا أهليًا». قرئت رسالة إطراء موجهة من الرئيس روزفلت، كما تم إلقاء الكثير من الخطب. ولعل الخطاب الذي يتذكره أولئك الذين حضروا الوليمة أكثر من سائر الخطب الأخرى هو ذلك الذي ألقاه عبر المذياع من بريطانيا اللورد جوسيا ودجوُد (Lord Josiah Wedgewood) أحد كبار الصهاينة المسيحيين الإنغليز:

> **لقد حاولت أن أدخر لأبناء وطني مجد إعادة بناء القدس، مجد تحقيق العدالة وخلق الحرية. لا فائدة! ليسوا مستعدين لأن يفعلوا! لا يسعني أن أفعل شيئًا.. لقد ظلت مسؤوليات العالم ملقاة على كواهلنا زمنًا كافيًا. لقد جاء دوركم. باتت عباءة إيليا على كتفي أليشا، ليس في فِلَسْطِيْن فقط. إنه موعدكم مع القدر[3]!.**

وفي رده على هذا الخطاب قال حاييم وايزمن:

> **إذا أغمضنا أعيننا دقيقةً، فقد نظن أن هذه أزمان مسيحيّة حقًا. المرَّةَ الأولى في تاريخنا نرى، أيها السيداتُ والسّادةُ، أن لليهود حلفاء. لقد دفعنا ثمنًا باهظًا، غير أننا، المرَّةَ الأولى، لسنا في حقيقة الأمر وحدنا.. فالصراع اليوم هو بين [كتاب] ‹كفاحي› و(الموعظة على الجبل) (إنجيل متى 6: 12).**
>
> **منذ ست سنوات أو سبع كان هذا الصراع الذي بدا واضحًا بالنسبة**

إلينا، يعده آخرونَ قضية داخلية في ألمانيا. فأمم العالم ودوله لم تدرك أن هذا التحدي لليهود كان تحديًا للحضارة المسيحيَّة التي نلابسها والتي نناضل في سبيلها. إن أوان التصحيح لا يفوت أبدًا، والجو السائد هنا الليلة يبرر الأمل بأن النسيان لن يلفنا بعد أن ينتهي النضال. وإذا حاولتم أن تنسوا، فسوف نكون أمامكم لنذكركم.

في الثاني من تِشْرين الثاني/ نوفمبر من عام (1942 م) أصدرت (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) بلاغها الخاص بإحياء الذكرى السنوية الخامسة والعشرين لصدور وعد بلفور، تحت عنوان: ([الهدف المشترك للبشرية المتحضرة] The Common Purpose of Civilized Mankind) مؤكدًا «السياسة الأمريكية التقليدية» المؤيدة قيام وطن يهودي، مذيلاً بتواقيع (68) عضوًا في مجلس الشيوخ و(194) عضوًا في الكونغرس. وقد تم تقديم البلاغ إلى فْرَنكلِن روزفلت. كما جرى توزيع عشرات الآلاف من النسخ بعد ذلك»[4].

وفي آذار/ مارس عام (1944 م) (مع استباق الإطار الزمني لهذا الفصل بعض الشيء) رعت (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) مؤتمرًا قوميًا عن فِلَسْطِيْن تمت المطالبة فيه برفع حجم الهجرة اليهودية إلى فِلَسْطِيْن إلى الحد الأقصى وبإقامة (كومنولث) يهودي هناك، وهذا ما أدى إلى جعل اللجنة منسجمة تمامًا مع منبر بلتمور. وبعد بضعة أشهر أسهمت مساعي الإقناع التي بذلها قادة (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) في مجلسي الكونغرس في تحرير قرار مؤيد لهذه المبادئ.

مع حلول عام (1946 م) كان ثمة (15000) عضوٍ في (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) منظمون في أكثر من (75) فرعًا.

3 . 3 . 3) تحدي تجنيد الرأي الليبرالي

مما يلفت النظر أن إمانويل نيومَن عكف أولاً على ترتيب أمر السياسيين (عبر تشكيل '(لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية)') قبل الذهاب إلى المثقفين ورجال

الكنيسة. وكانت هذه الاستراتيجية تعكس معرفة الصهاينة، المؤكدة مرة بعد أخرى، حجم سيل الرسائل المتدفقة على أعضاء الكونغرس ومكاتب تحرير الصحف، لوجود تأييد شعبي ساحق لإعادة اليهود إلى دولة يهودية. أما الخطوة الثانية في مخطط لعبة نيومَن فكانت متمثلة بالوصول إلى الفئات النخبوية الصانعة للرأي.

تمثلت المشكلة، كما اكتشفها نيومَن، بما يلي:

> **لم تكن الصحافة الأمريكية.. عمليًا أعارت اهتمامًا للمشكلة اليهودية. صحيح أن مقالات ظهرت حول مختلف قضايا ما بعد الحرب، غير أنني لم أجد أيّ كلمة عن مستقبل وضع اليهود ومشكلتهم، كما لو كانت ثمة مؤامرة صمت مع هتلر والإرهاب النازي. كان ذلك أمرًا غير قابل للفهم[5] !.**

ربما كان أمرًا ليس ثمة ما يسوّغه، غير أنه لم يكن بالتأكيد أمرًا غير قابل للفهم. فالمجلات الليبرالية التي دأبت روتينيًا في تأنيب الإمبريالية البريطانية خلال العشرينيّات والثلاثينيّات، غيرت لهجتها مع حلول نهاية عام (1941 م). ومنذ ذلك الحين فصاعدًا بات الحرص على عدم تعريض بريطانيا في مجهودها الحربي الراهن للنسف جراء انتقادات آتية من أمريكا التي ألقت بثقلها عليها في تلك الأجزاء من العالم (مع تراجع مطرد خلال عام 1941 م)، حيث باتت تتصرف على هواها، قانونًا غير مكتوب بالنسبة إلى كتاب المقالات الافتتاحية والتعليقات الليبرالية. وما جعل فِلَسْطِيْن إشكالية بالنسبة إلى أصدقاء بريطانيا العظمى، هو حقيقة أن الأخيرة كانت هناك، في فِلَسْطِيْن، مسيطرة على نحو كامل وعاكفة منذ الآن على اتباع سياسة ما بعد الحرب الخاصة بها، تلك السياسة التي جرى تفصيلها بإطناب في كتاب (1939 م) الأبيض. فمعظم الليبراليين صبوا كل ما في جعبهم من غضب على سياسة بريطانية الفِلَسْطِيْنية خلال السنة الأولى التي أعقبت نشر كتاب (1939 م)

الأبيض. أما بعد بيرل هاربر (Pearl Harbor) فلم يكن أحد حريصًا على إذكاء النار مرة أخرى في ذلك الجدل.

من المفارقات أن المثقفين اليهود كانوا شديدي الإحساس بالحاجة إلى ضبط النفس. (فنيويورك تايمز) العائدة، برمّتها، على صعيدي الملكية والكتابة، لليهود، كانت صريحة العداء للصِهْيَوْنية. وفي ضوء ذلك كله تذكر نيومَن: «ذهبت لأرى فريدا كيرتشوي (Freda Kirchwey) رئيسة تحرير (ذَ نيشن / The Nation) قمت بلفت نظرها إلى هذا الوضع وعبرت عن دهشتي من أنّ (ذَ نيشن) ذات النزعة الليبرالية المفرطة في سياستها والمدعومة كثيرًا من جانب اليهود، كانت مهملة على هذا الصعيد. اعترَفت بالذنب على الفور». واتفقا معًا على أن من شأن الناطق الأكثر فعالية ونجاحًا باسم قضية الصهاينة أن يكون متمثلاً بشخص راينهولد نيبور.

4 . 3 . 3) راينهولد نيبور (1893-1971 م)

ولد راينهولد نيبور قبل إمانويل نيومَن بعام واحد، في عام (1892 م) في إحدى البلدات المِيسورية الصغيرة. هاجر أبوه من ألمانيا وأصبح قسيسًا في (الكنيسة الأنغليكانية المقومة/ the Reformed Evangelical Church) وهي طائفة بروتستانتية محافظة عقائديًا، تحصر خدماتها على نحو شبه كامل في نطاق الأمريكان ذوي الجذور الألمانية. تولى رعاية عدد من الكنائس في مختلف بلدات ولايتي ميسوري وإلّينويْز.

بعد تخرجه في مدرسة الطائفة اللاهوتية وحصوله على شهادة الماجستير من مدرسة لاهوت ييل (Yale Divinity School) أصبح راينهولد قسيسًا. في عام (1915 م) تولى وظيفته الأولى والمتفرغة الوحيدة راعيًا أبرشية في كنيسة بيت إيل الأنغليكانية بديترويت (Bethel Evangelical Church) حيث بقي إلى

عام (1928 م). وطامحًا في الوصول إلى جمهور أوسع، قام راينهولد بتدبيج الكثير من المقالات للصحف الكنسية، غير أنه ما لبث أن اهتدى إلى من يفتح له أبواب مجلات الرأي الليبرالية. سرعان ما حقق لنفسه شهرة على صعيد التعليقات التأملية على الدين المعاصر وعلى القضايا السياسية، الداخلية منها والخارجية، وراح ينتج ما معدله مقال واحد في الأسبوع يتم نشره في مجلات تدرجت بين المجلة الداخلية الناطقة باسم طائفته حصرًا، عبر ‹كريستيان سنتشري› (المجلة الفكرية الرئيسة للتيار الأساس البروتستانتي في ذلك الوقت ‹ذَ نيشن› و‹ذَ نيو ريبلِك / The New Republic› والكثير من الفصليات الجامعية، ومجلات لاهوتية، إضافةً إلى فصلية ‹راديكال ريليجن / Radical Religion› أصبحت ‹كريسْتْيَنيتي آند سسيتي / Christianity and Society› فيما بعد، كان يشارك في تـحريرها. وبدءًا من شهر شُبَاط/ فبراير (1941 م) نشرة صادرة مرة كل أسبوعين كان يحررها هو حملت عنوان ‹كريسْتْيَنيتي آند كريسز/ Christianity and Crisis›.

على أساس كتابته المتألقة ومواعظه القوية أمام مجموعات الطلبة المسيحيين في أرجاء البلاد، تم تعيين نيبور أستاذًا لمادة الأخلاق المسيحيَّة (Christian Ethics) في (معهد الاتحاد اللاهوتي / Union Theological Seminary) بنيويورك عام (1932 م). كان اللاهوتيون الليبراليون من الطراز الأقدم يزدرون نيبور على «أرثوذكسيته الجديدة» في حين كان الليبراليون العلمانيون، على ترحيبهم عادة بتعليقاته الثاقبة على الشؤون السياسية الراهنة، يسخرون من نزعته فوق الطبيعيّة البالية. غير أن جمهورًا متناميًا باطّراد بات يعلن عن «واقعيته المسيحيَّة / Christian realism».

عشية الحرب العالمية الثانية كان واحدًا من الحفنة الصغيرة جدًا من المثقفين الأمريكيين الذين بدت أعمالهم مثيرة لاهتمام الأورُبّيين. ففي ربيع عام (1939 م) ومع تزاحم سحب الحرب فوق أورُبَّة، كان نيبور في أدنبرة في إسكتلندة،

لإلقاء الجزء الأول من جزئي سلسلة المحاضرات المخصصة لمجموعة محاضرات غيفورد (Gifford Lecturship) المتميزة والمهيبة، وفي الخريف، بعد أن دخلت بريطانيا العظمى الحرب، ومع بدء فترة الانتظار القاتلة الطويلة لأمريكا، عاد ليلقي الجزء الثاني على أصوات دوي القنابل المرافقة حرفيًا لكلماته. وفيما بعد كانت هذه المحاضرات قد تمت إعادة كتابتها لتصبح مؤلفه الرئيس المعروف، ([طبيعة الإنسان وقدره: تأويل مسيحي] The Destiny and Nature of Man: A Christian Interpretation).

تحول نيبور، مثل معظم أبناء جيله الذين كانوا مثاليين ولسنيين، ومنهم ستيفن وايز مثلاً، إلى الاشتراكية والنزعة السلمية في العشرينيات. وكان منح صوته الانتخابي لمرشحي الحزب الاشتراكي حتى عام (1936 م) غير أنه ما لبث، مع حلول عام (1938 م) أن تصادم علنًا مع زعيم الحزب نورمَن تومَس بخصوص تصميم الأخير على إبقاء الحزب محايدًا في الصراعات التي أطلقها النازيون والفاشيون. وانطلاقًا من قَدْر مماثل من القلق والتوجس إزاء النزعة الستالينية الباقية في الأوساط اليسارية وإزاء تنامي القوى المحافظة داخل الحزب الديمقراطي، بادر نيبور إلى قيادة عملية تأسيس (وحدة العمل الديمقراطي/ Union for Democratic Action) في نَيْسَان/ أبريل (1941 م). في السنوات الأولى من وجودها احتلت (وحدة العمل الديمقراطي) مكانها بين طليعة مؤيدي شعار «كل أشكال المساعدة، عدا الحرب» لبريطانيا العظمى. وخلال الحرب قُصفت الجمهور، عبر الإعلانات والاجتماعات الجماهيرية، بسيل من الإدانات وأشكال الجَدب لأعمال الحكومة الأمريكية وتصرفاتها التي لم تكن منسجمة مع توصيفها الحرب بأنها هادفة إلى تصفية النزعة الشمولية وإقامة صرح الحريات الأربع. من المؤكد أن رئيس الولايات المتحدة كان شاعرًا بوزن وحدة العمل الديمقراطي السياسي، كما أن عددًا غير قليل من عائلته الرسمية كانوا يكنون لها قدرًا من الاحترام جعلهم يوقعون

عرائضها عن قضايا متباينة ويظهرون في برامجها، كما كانت السيدة روزفلت تفعل[6]. ومما ينطوي على أهمية خاصة هنا أن الوحدة كانت دائمة المطالبة الصارخة بإزالة جميع العقبات المكتبية القائمة أمام إنقاذ ضحايا النظام النازي في أورُبَّة.

باختصار، أدَّى نيبور دورًا كبيرًا في توجيه اليسار المستقل في الجسم السياسي الأمريكي نحو الاضطلاع بدور ذي فاعلية سياسية أكبر، دور قادر على ممارسة الضغط على إدارة روزفلت لإجبارها على الاستمرار في إخلاصها لبَرْنَامَج الصفقة الجديدة وعلى التحلي بالواقعية والإنسانية في سياستها الخارجية.

5 . 3 . 3) راينهولد نيبور والمسألة اليهودية

قيل عن راينهولد نيبور: «إنه كتب عددًا من المقالات والتعليقات والافتتاحيات عن موضوع الانقضاض النازي على اليهود يفوق ما كتبه أي مسيحي أمريكي آخر»[7]. وأمام مجموعات من اليهود الأمريكيين تحدث عمَّا أطلق عليه اسم «إحساسي بالعار جراء قدرة حضارة تزعم أنها مسيحية على الانحدار إلى مثل هذا الدرك من القسوة»[8]. كان نيبور يعرف ألمانيا جيدًا، كما كانت لديه، من خلال أصدقائه في أوساط الكنيسة الألمانية والدوائر السياسية الألمانية، وفرة من مصادر المعلومات عن حياتها اليومية الحقيقية. لقد اضطلع بدور كبير في العمل من أجل إنقاذ الباحثين الأكاديميين والمثقفين الألمان والنمساويين بعد عام (1938 م) والفرنسيين، بعد حَزِيْرَان/ يونيو (1940 م) عبر (رابطة أصدقاء الحرية الألمانية/ Friends of German Freedom) و(الأصدقاء الأمريكان للأمم الأسيرة/ American Friends of Captive Nations) في المقام الأول، ومن خلال شبكة من الاتصالات غير المعلنة داخل الإمبراطورية النازية. ساعد نيبور على إيجاد لجنة مسيحية لمقاطعة ألمانيا النازية، سعت إلى إقناع المواطنين الأمريكان بعدم السفر على متن البواخر

الألمانية أو شراء المنتجات الألمانية، أو «وضع القدم على أرض الرايخ الثالث». وكان، في الوقت نفسه، نشيطًا في كوكبة من المنظمات الوطنية الموقوفة لتحقيق العدالة الاجتماعية لمصلحة المحرومين، بما فيها (زمالة المسيحيين الاشتراكيين / Fellowship of Socialist Christians).

في وقت مبكر يعود إلى (1941 م) قبل أن يصبح معظم اليهود مستعدين لمواجهة الحقيقة، كان نيبور مهيأ ليقول في كلام مطبوع: إنَّ «الطغيان النازي عازم على إبادة العنصر اليهودي»[9]. أما أكثرية الطوائف البروتستانتية، من خلال وكالاتها الرسمية وعبر (المجلس الاتحادي للكنائس/ The Federal Council of Churches) (التعبير المؤسَّسي الرئيس للمذهب البروتستانتي بتياره العا م) و‹كريسْتْيَن سنتشري› و(الرابطة المسيحيَّة للطلاب/ the Student Christian Association) وكلها أصوات معتمدة ناطقة باسم المؤسسة البروتستانتية، فقد شوهت سمعتها كأدوات نبوءة عبر الإصرار بعناد إلى يوم بيرل هاربور على مناصرة النزعة السلمية وتأييد الحياد الأمريكي. ولتلبية الحاجة إلى التعبير عن «الواقعية المسيحيَّة» في هذه الفترة من النبوءة المطمئنة المسترخية، بادر نيبور إلى إصدار مجلة تولى هو نفسه رئاسة تحريرها تحت اسم ‹كريسيتاينتي آند كرايسز/ Christianity and Crisis› ظهر عددها الأول في شبَاط/ فبراير (1941 م). وقد تم إعلان أطروحة نيبور في أولى مقالاته الموقعة باسمه في ‹كريسْتْيَنيتي آند كرايسز›:

> **ثمة أوضاع تاريخية قد يتمخض عنها رفض الدفاع عن موروث الحضارة، على علاَّته، إزاءَ الطغيان والعدوان عن عواقب أسوأ حتى من الحرب.. يعتزم الاستبداد النازي إبادة العنصر اليهودي، وطمس الديانة المسيحيَّة، وإلغاء الحريات والمعايير القانونية التي تشكل التراث الذي لا يقدر بثمن لدى الثقافة المسيحيَّة والإنسانية، جعل عُهرْ السلطة السياسية حقيقة، السيطرة على العالم من خلال عملائه وحلفائه، وتدمير صرح حضارتنا حصرًا عمومًا.**

6 . 3 . 3) ' اليهود بعد الحرب '

كانت موالاة راينهولد نيبور للصِهْيَوْنية تولى رعايتها سنواتٍ كلّ من صديقيه الحاخامين فيليب برِنشتاين (Philip Bernstein) ومِلتن شتاينبرغ (Milton Steinberg) وكلاهما من نشطاء (لجنة رجال الدين المسيحيين/ Committee on Christian Clergy) التابعة للمجلس الصِهْيَوْني الأمريكي للطوارئ. وكان من بين أصدقائه المقربين الآخرين كل من ستيفن وايز وفليكس فرنكفُرتر. لم يجد نيومَن أيّ صعوبة في إقناع نيبور بتولي مسؤولية المقال نظرًا لأنه كان قادرًا على جعل كل من فليكس فرنكفُرتر وإيسايا برلين (Isaiah Berlin) يقدمان المادة البحثية وغيرها من الإرشادات.

ظهرت المقالة التي حملت عنوان '[اليهود ما بعد الحرب] Jews after the War' على حلقتين في 'نيشن/ Nation'[10] وقد زعم نيومَن فيما بعد أنها «المقالات الأولى، حول هذا الموضوع، التي ظهرت خلال سنوات الحرب في أيّ دوريّة أمريكية خارج الصحافة اليهودية». أثار المقال اهتمامًا كبيرًا جدًا في ذلك الوقت، وعلى امتداد السنوات القليلة اللاحقة وزّع المجلس الصِهْيَوْني الأمريكي للطوارئ، ولجنة فِلَسْطِيْن المسيحيَّة ولجنة فِلَسْطِيْن المَسيحيَّة الأمريكية وغيرها من المنظمات الصديقة للصِهْيَوْنية أعدادًا كبيرة من النسخ الجديدة.

سنكتفي هنا بالإشارة إلى بضع مقاطع أو مقتطفات من مقال نيبور ذي الحلقتين، لتذكيرنا بالخلفية التاريخية:

> **ينبغي لمسألة ما سيجري لليهود في عالم ما بعد الحرب أن يشغلنا جميعًا، ليس لأن شعبًا معذبًا يستحق عطفنا وإشفاقنا فحسبُ، بل لأن لنوعية حضارتنا حصرًا علاقة بالحل.. يعتزم النازيون تقطيع أوصال البولونيين وتحويل شعوب أخرى إلى أقنان، غير أنهم مصممون على**

استئصال اليهود من الجذور.. لا بد لليهود من امتلاك وطن، إذا لم يكن لأي سبب آخر، فلأن أكثر قوانين الهجرة كرمًا في الديمقراطيات الغربية لن تسمح لجميع اليهود المطرودين من أورُبَّة بالعثور على ملاذ يمكنهم من التطلع نحو مستقبل يسوده التسامح.. أن تتاح لليهود فرصة إنشاء وطن حقيقي خاضع لسيادتهم الخاصة في إطار الإمبراطورية البريطانية يتوقف فقط على مدى الدعم الذي يؤمنونه في البلدين الديمقراطيين العظيمين، لأن هاتين القوتين ستكونان قادرتين، إذا ما تم إلحاق الهزيمة بهتلر، على اتخاذ الترتيبات السياسية الضرورية.. فالهيمنة الأنغلوسكسونية التي يقدر لها أن تبقى، في حال دحر المحور، ستكون في وضع يمكنها من تخصيص فِلَسْطِيْن لليهود، ومن إلغاء القيود الحالية المفروضة على الهجرة، ومن تعويض العرب بطريقة أخرى.

كانت لجنة الشؤون الصِهْيَوْنيَّة موقنة بأنها وجدت في راينهولد نيبور أفضل الأدوات الممكنة لتحقيق هدفها المتمثل بطرح هواجسها ومخاوفها إزاء مستقبل اليهود على ميدان النقاش والبحث. ومع ذلك يَتَحَتَّم علينا أن نلاحظ أن ثمة مكانين اثنين على الأقل في المقالات ينحرف فيهما نيبور على نحو فاضح عن وجهة النظر الصِهْيَوْنيَّة الرسمية، مع أن اللجنة دافعت عن مقالًات (نيشن) آنذاك وسنواتٍ طويلةً بعدَه.

أولاً، أشار نيبور بصراحة إلى أن:

القادة الصهاينة غير واقعيين في إصرارهم إبقاءَ مطالبهم خالية من "أي عدل" بالنسبة إلى السكان العرب لأن الهجرة اليهودية أكسبت فِلَسْطِيْن قوة اقتصادية جديدة. إنه من الأمور الباطلة توقع أي شعب أن يعَد تقييد سيادته على حيازة تقليدية "عادلاً"، بصرف النظر عن الفوائد الأخرى التي يمكن هذا التقييدَ أن يتمخض عنها.. ينبغي للحل، وهو ممكن، أن يكون مقبولاً من العرب إذا ما تم جعله جزءًا من تسوية عامة وشاملة لمجمل قضايا عالم البحر الأبيض المتوسط والشرق الأدنى، ولا يجوز

> **للحل أن يكون ظالمًا للعرب على المدى الطويل إذا ما نجحت السياسة "الإمبريالية" التي أقامت الوطن اليهودي نفسها أيضًا في تعزيز العالم العربي وتوحيده.**

لم يكن في ذلك الوقت بين صفوف الصهاينة الرسميين من يتّبع وجهة النظر القائلة: إنَّ العرب كانوا، آخر المطاف، عانوا وجودَ اليهود في فِلَسْطِيْن. وهو موقفٌ تبنّته أيضًا أكثريةُ الجماعات المسيحيَّة الصديقة للصِهْيَوْنية في تلك الأيام، وقد بدا، هنيهةً على الأقل، محكمًا قبضته على إدارة روزفلت. ومما يميز راينهولد نيبور أنه دأب في القول: إنَّ أي تصور يغفل هذه القضايا لم يكن ممكنًا، وإنّ أصدقاء صِهْيَوْن تعجّلوا في إصدار أحكام الإطراء على الآثار الإيجابية اللطيفة للهجرة والاستثمار اليهوديين في فِلَسْطِيْن.

إذا كانت المعارضة بين صفوف الصهاينة لمدى صحة الشكاوى الفِلَسْطِيْنية العربية نادرة، فإن أيّ معارضة لقضية ثانية أثارها نيبور في الفقرة الأخيرة من المقال الثاني لم تسمع قطّ سنواتٍ، بل عقودًا. لقد كانت هذه هي قضية قدسية موقع دولة اليهود.

> **ينبغي أن يلاحظ ختامًا أن هناك يهودًا وأميين على حد سواء لا يؤمنون بأن فِلَسْطِيْن بؤرة ملائمة ومرغوبة لأن تصبح وطنًا يهوديًا، مع أنهم مقتنعون بضرورة إيجاد وطن ما. يزعم هؤلاء أن ليس هناك، بعد، ما يشير إلى قدرة فِلَسْطِيْن على الاحتفاظ بوجود اقتصادي مستقل دون أشكال من الدعم، وأن المشروعات الزراعية التعاونية لدى اليهود ليست، على إثارتها للاهتمام نوعيًا ولكن ليس على صعيد الحجم والمساحة، منطوية على أي أمل في توفير قاعدة زراعية راسخة للاقتصاد القومي، وأن من شأن عداء العالم العربي أن يستدعي التدخل المستمر لأسلحة إمبريالية، وأن موارد فِلَسْطِيْن غير قادرة على إعالة الملايين من الذين يأمل الصهاينة في توطينهم هناك، وأن النزوع إلى استخدام العمالة الزراعية العربية قد يفضي مرة أخرى إلى خلق طبقة مدنية يهودية**

جامدة. من الصعب معرفة مدى صحة مثل هذه الانتقادات.. غير أنها، حتى ولو تأكدت صحتها كليًا، ستبقى عاجزة عن التأثير في الأطروحة التي تقول: إنَّ اليهود بحاجة إلى وطن. من شأنها ببساطة أن تطرح مسألة وجوب اختيار منطقة مختلفة أو إضافية. من المستبعد أن يكون وجوب العثور على موقع كهذا في أورُبَّة أمرًا ممكنًا.

3 . 3 . 7) طبيعة موالاة راينهولد نيبور الصِهْيَوْنيَّة

أن يكون راينهولد نيبور قادرًا على القبول، ولو لحظةً واحدةً، بفكرة «بؤرة» أخرى للوطن اليهودي، يميط اللثام عن حقيقة أن ولاءه للصِهْيَوْنية لم يكن مستندًا إلى النزعة الإعادية المسيحيَّة. فأصل هذا الولاء كان بالأحرى متمثّلاً بمحبة راسخة لليهودية، مستمدة، بدورها، من التجربة الشخصية والفلسفة الدينية.

يتحدث نيبور في مقتطفات من سيرته الذاتية عن أنه اطلع في فتوته في وسط غربي الولايات المتحدة على «قوة النماذج النمطية» اليهودية. ثم جاءت تعاملاته اللاحقة مع اليهود بعد بلوغ سن الرشد لتزوده بجملة معينة من حقائق معممة ذات طابع مختلف. وفي سنوات لاحقة، تكلم عن اكتشافه حياة يهود ديترويت:

> إذا زعم المرء أن القابلية اليهودية للفضيلة الأهلية المدنية تفوق في الأغلب نظيرتها لدى المسيحيين، فإن هذا الزعم قائم على القابلية اليهودية للإخلاص النقدي للجماعة الذي غالبًا ما يكون فائقًا الولاءاتِ الأكثرَ تقليدية لدى الجماعة الأمية أو الطيبة الخيرية النموذجية لدى رجَل الأعمال المسيحي. قد يصطبغ حكمي بسنوات نشاط سياسي في تيار يسار الوسط. وسواءٌ أكانت المسألةُ مسألةَ تحدّي نزعة قومية انعزالية، أم كانت مسألةَ تعديل المواقف الليبرالية التقليدية لفئات رجال الأعمال، فإن أغنياء اليهود كانوا أكثر تحررًا من تحامل طبقتهم بالمقابلة مع رجال الأعمال المسيحيين.

كانوا يعتمدون أسلوب التمييز في أحكامهم على السياسة الاجتماعية. كما كانوا عادة أكثر سخاء في دعم المشروعات الجماعية التي تسمو فوق الولاءات لجماعة بعينها[11].

سواء اعترفوا أم لم يفعلوا، فإن المسيحيين من النمط المتدين الجاد غالبًا ما ينجذبون إلى اليهود واليهودية من خلال الأمل في الاهتداء هناك إلى ما يعبر عن جملة الوعود والتوقعات التي سبق لهم أن تعلموا الاهتداء إليها في الكنيسة، أو في الشخصية المسيحيَّة، أو في الصلاة، أو في العمل الاجتماعي المسيحي، والتي أخفقوا في العثور عليها، أو بالأحرى وجدوها شديدة التشابك في نفايات الشخصية المهملة والمحتقرة وهذا ما جعلها غير جديرة بالامتلاك. ثمة، بعبارة أخرى، بُعد رومانسي لهذه القصة. فالفرديّ المسيحيّ عديم الروح الذي يصوره نيبور واقفًا على الطرف الآخر من البرزخ العظيم الذي يفصله عن اليهودي الحساس اجتماعيًا ليس إلا صورة (كاريكاتورية) غير ذات شأن، وليس إلا نموذجًا نمطيًا. كثيرة هي مجالات العقيدة والممارسة المسيحيتين التي كانت تؤدي إلى عدم ارتياح راينهولد نيبور أستاذ الأخلاق المسيحيَّة في معهد اللاهوت الاتحادي بنيويورك. ومع نشوئه في أجواء لاهوتية محافظة وفي بيئة كنسية، أضحى شديد الازدراء للمسيحية الأنغليكانية. كانت هناك قبل كل شيء، ضحالة دراساتها البحثية، وبعدها جاءت القضية المزعجة جدًا المتعلقة بالشهادة الشخصية، وفوق تلك وهذه كان ثمة ما يعدّه فضيحة النزعة الإحيائية. ففي سنوات لاحقة كان من شأن ذكر اسم بيلي غراهام (Billy Graham) أن يطير العقل من رأسه.

إذا أخذنا باع نيبور الطويل عالم لاهوت بالحسبان، فمن الغريب، للوهلة الأولى، ألا يكون سوى ذلك القدر القليل من الإشارة إلى البعد الديني للصِهْيَوْنية. ويعكس هذا اعتزازه «بواقعيته» وازدراءه «المثالية». لقد التحق راينهولد نيبور بركب الأنصار المسيحيين للمطالبة اليهودية بفِلَسْطِيْن أواخر

الثلاثينيات، حين جعلت المحرقة الوشيكة المنطوية على خطر إبادة اليهود معالجة مسألة مستقبل اليهود بصفتها قضية ملحة واستثنائية أمرًا ضروريًا بالنسبة إلى الليبراليين ذوي النيَّات الطيبة. أما الحرْفيون الكتابيون فقد دأبوا باستمرار، على النقيض من ذلك، في فهم ماضي اليهود وحاضرهم ومستقبلهم بصفته موضوعًا استثنائيًا بالمعاني كلها. فالحجج الدائرة حول «العدالة النسبية» لقضية العرب في (1938 م) وآيات العذاب التي أحاطت بالمخاوف المشروعة لدى الإمبراطورية البريطانية في الشرق الأدنى لم تكن، بنظر الحَرفيين الكتابيين (Biblical literarists) أكثر (ولكن أيضًا ليست أقل) من مناقشات عن العدالة بالنسبة إلى الكنعانيين أو آيات عذاب ذات علاقة بمستقبل العلاقة بين الأسرة الملكية المصرية الثالثة عشرة والحثيين. وقد بدا لراينهولد نيبور أن الليبراليين من أمثاله كانوا فائقينَ (كي لا نقول غير ذلك) الحرفيينَ الكتابيينَ في أن دفاعهم عن الصِهْيَوْنيَّة كان مَصُوغًا بلغة العدالة، وفي أن من شأن العالم أن يجده أكثر قدرة على الإقناع، إلى هذا الحد أو ذاك، ما دام يخاطب وقائع صراع القوى العظمى الجاري حاليًا. وهكذا فإن الدفاع الفردي الذي قدمه عالم اللاهوت البروتستاني راينهولد نيبور، كان قابلاً لأن يوضع في القالب اللغوي نفسه الذي استخدمه الأصدقاء العلمانيون في دفاعهم.

بعد انجراره إلى قضية مستقبل اليهود بفعل الظروف التاريخية العالمية الاستثنائية التي سادت في تلك اللحظة، واعيًا وعيًا كاملاً لمتطلبات اللحظة في ضوء الأخلاق المسيحيَّة، مع جزعه المفرط وخوفه الشديد من لغة 'النزعة الإعادية' التقليدية. كان راينهولد نيبور أقل بكثير من حاييم وايزمن شعورًا بالحرية في استخدام لغة النبوءة الكتابية. ليس ثمة أي حديث عن أهداف الرب فيما يخص إعادة اليهود، لا قبل عام (1948 م) ولا بعده، في أي من تعليقاته. فمصداقيته عالمًا لاهوتيًا (أكاديميًا) كانت مستندة إلى عزوفه عن التحالف مع أنصار اليمين اللاهوتي. لقد كان راغبًا في استحضار قاموس مفردات الفلسفة

الأخلاقية المسيحيَّة (Dictionary of Christianity in America) ليدخلها في صلب تعليقاته الصارمة والمتبحرة على الأحداث السياسية المعاصرة، إلا أنه ظل يعتقد أنَّ من شأن أقل إشارة دالة على التعاطف مع النزعة الحَرفية الكتابية أن تفضي على الفور إلى تكنيس كل ما ينطوي على قيمة يمكن سوقه دفاعًا عن الصِهْيَوْنيَّة. ومهما يكن فإن نيبور لم يكن ميّالاً البتّةَ لأن يغازل النزعة الإعادية المسيحيَّة، التي لم تكن إلا وجهًا واحدًا من مجموع تلك القوى الكثيرة المنتمية إلى المسيحيَّة الشعبية التي باتت شديدة الفظاظة والإزعاج بالنسبة إليه منذ رحيله عن منبر الوعظ إلى حياة البحث الأكاديمي.

3 . 3 . 8) تعقيب

في حديث هاتفي عام (1990 م) سألت كارل فوس عن المسألة التالية: هل سبق لراينهولد نيبور أن علق، في حضورك، على حقيقة أن إعادة اليهود كانت على الدوام مسألة تنبأ بها، مرة بعد أخرى، الحَرْفيون الكتابيون؟ هل سلّم بأن أولئك تأكدت صحة نبوءتهم جراء ما حدث في عام (1948 م) وما جرى في عام (1967 م)؟ وقد تذكر كارل فُس أن نيبور قال بشيء من الضيق، ولكن بقدر من الدهشة الاضطرارية، «كيف يمكن التفكير بأنهم تنبؤوا بما حصل؟!». غير أن ذلك كان، على ما يبدو، دهشةً من النوع الذي يحتفظ به لمدعي العلم الأبله (savant idiot) «المغفل» التقني، الذي يجلس أمام البيانو ويعزف شوبان دون تعليم، أو يعرف جميع السنوات التي كان فيها الثالث من شهر آذار/ مارس يوم خميس في التاريخ، وإن لم يكن قادرًا على جمع أرقام مؤلفة من حدّين اثنين !.

في مقاله: ([علاقات المسيحيين واليهود في الحضارة الغربية] The Relations of Christians and Jews in Western Civilization) 1958 يقول نيبور:

كثير من المسيحيين موالون للصِهْيَوْنية بمعنى أنهم يؤمنون بأن شعبًا بلا وطن بحاجة إلى وطن، غير أننا نشعر بعدم الارتياح، مثل اليهود المتدينين المعادين للصِهْيَوْنية، حين يجري استخدام مزاعم مسيحيّة للبرهنة على حق اليهود في الوطن الفِلَسْطِيْني الخاص.. إن التاريخ زاخر بالتخريجات الغريبة. منها الانبثاق المثير لدولة إسرائيل[12].

كانت إشارات نيبور إلى إسرائيل بعد عام (1948 م) المنشورة قليلة ومتباعدة، ومتركزة كليًا تقريبًا على لحظتي الأزمة اللتين عاش ليراهما: السويس عام (1956 م) وحرب الأيام الستة عام (1967 م). أما مسألة اهتمام أمريكا بإسرائيل فقد باتت، في تعليقاته، خاضعة للنظرة العالمية العامة التي أفرزتها الحرب الباردة. بعد عام (1948 م) لم يقم نيبور قط بتذكير قرائه عن وجود أي شئ استثنائي في السيرورات التاريخية التي أدت إلى وضع إسرائيل على الخريطة وبين الأمم المتحدة. لقد أصيب بالرعب وهو يتابع الأهمية السياسية المستمرة لليهودية الأرثوذكسية في إسرائيل، مفسرًا هذه الأمور في ضوء الملاحظات العامة عن التجرية الأوربية والأمريكية مع لعنة «الأصولية».

ومع ذلك فإن راينهولد نيبور، بعد أخذ الأمور كلها بالحسبان، بقي على علاقة ود متميزة مع الصِهْيَوْنيَّة ومع إسرائيل. وقد كان في هذا متناقضًا على نحو متزايد مع أكثرية الليبراليين البروتستانت. وفي السنوات الأخيرة من حياته بات شديد الاستياء من الموقف الموالي «للفِلَسْطِيْنيين»، أي الموالي للعرب، البعيد عن الروح النقدية الذي اتخذته أصوات المدرسة البروتستانتية الرئيسة، وقد كان سخطه شديدًا على نحو خاص على الخط الذي اعتمدته المجلة التي أسسها: (كريسْتْيَنيتي آند كريسز). ومن المفارقات أن هذا كان يعني، فيما يخص هذه القضية، أن نيبور وقف في الصف نفسه مع «الأصوليين» المحتقرين، مواجهًا جل كتيبة رجال الكنيسة وعلماء اللاهوت من ليبراليي

البروتستانت! وما كان من ذلك الظرف الذي لا يطاق إلا أن دفعه فعليًا باتجاه تصعيد هجومه الكلامي على «المسيحيّة» و«الألفية» واحتقاره لهما. إذا كان هؤلاء الناس المزعجون يصرّون إعلانَ وجود «يد الرب» في استعادة يهودا والسامرة عام (1967 م) مثلاً، أو في تجميع يهود المنافي المغربية والعراقية واليمنية، فإن نيبور بقي مصرًّا على ألا يرى سوى «تخريجات غريبة» من اصطناع التاريخ.

9 . 3 . 3) مجلس فلسطين المسيحي و(لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) المسيحيَّة

يشرح الاختلاف بين المجلس المسيحي من أجل فِلَسْطِيْن، التي كان عدد غير قليل من الحاضرين منتسبين إليها. قال نيومَن: إن (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) «مهتمة بالدرجة الأولى بإبقاء قضية الصِهْيَوْنيَّة، ولاسيما المراحل التاريخية للقضية حية أمام أنظار الجمهور» في حينَ سيكون اهتمام المجلس المسيحي من أجل فِلَسْطِيْن منصبًا على كسب رجال الدين وقادة الرأي المسيحي. ثمة بيان حدد سياسة اللجنة قال: إن المنظمة «ملتزمة بإقامة (كومنولث) يهودي في فِلَسْطِيْن بالارتباط مع التسوية الشاملة في حِقْبَة ما بعد الحرب»، مع «المطالبة، بإلحاح، باعتماد السماح للمنفيين اليهود بدخول البلدان الأخرى، بما فيها الولايات المتحدة وفِلَسْطِيْن كسياسة مباشَرة». كانت اللجنة التنفيذية تضم كلاً من كارل فُس وراينهولد نيبور وجيمس لوثر آدامز (James Luther Adams) (باحث ورجل دين توحيدي/ Unitarian) ودانيل بولنغ (Daniel Poling)[13]. وبول تيلليتش (Paul Tillich) ووليم أُلبرايت وبيير فان باسّن (Pierre Van Paassen) (أحد أكثر صحفيي العصر نفوذًا وجدّية) وكارل فريدريش (أستاذ فلسفة متميز) والقس جون هاينز هولمز وإدوَرد لندمن (Eduard Lindemann) ووالتر كلي لودرمِلك (Walter Clay Lowdermilk)[14].

ومما استذكره كارل فُس فيما بعد أن الرئيس هنري آتكنسن قال: «ما إن تقع أنظار البريطانيين على قائمة الرجال في قرطاسيتنا، مثل نيبور وتيلليتش ومكُنل وألبرايت وشولمن وبولنغ، حتى يسارعوا إلى فتح بوابات فِلَسْطِيْن ويسمحوا لأولئك اللاجئين اليهود بالتدفق. وبعد ذلك سنقوم بحل اللجنة. إن المسألة على هذه الدرجة من البساطة»[15].

تمثل الأسماء الواردة في (ترويسة) أوراق المجلس المسيحي من أجل فِلَسْطِيْن الرسمية قائمة جوهرية لمجمل الانتماءات الطائفية والولاءات اللاهوتية، غير أنها ليست ممتدة إلى الطرف الأنغليكاني/ الأصولي. ربما كان بولنغ الأشد 'محافظة' في حين كان نيبور وتيللتيش في تلك الأيام ممن يوصفون 'بالأرثوذكس الجدد'. أما هولمز فكان ليبراليًا غير طائفي ونصيرًا مرموقًا للطرف ' الحداثي/ modernist' من الصراعات الدائرة مع الحرفيين الكتابيين في عشرينيات القرن العشرين. كان كارل فُس، السكرتير التنفيذي، توحيديًا. أما لندمن فيصفه فوس بأنه «إنساني، طبيعي، لا ديني» غير أنه مع ذلك «عميق التدين مثلهم» (بصرف النظر عمَّا قد يعنيه ذلك!). من الواضح أن (المجلس المسيحي من أجل فِلَسْطِيْن) بتوجيه فوس ونيبور، تعمد تجنب مقاربة الطرف الأصولي، إلى الأنغليكاني من عالم الكنيسة.

في الأشهر التالية لذلك ظهر الكثيرُ من الكراريس والكتب برعاية (المجلس المسيحي من أجل فِلَسْطِيْن) تم عقد الكثير من الاجتماعات الجماهيرية، كُتبت الرسائل إلى محرري الصحف، وظهرت إعلانات صفحات كاملة في 'نيويورك تايمز'. ومع حلول عام (1946 م) كان زُهَاء (3000) رجل دين مرموق وقادة مسيحيين عاديين منتسبين إلى (المجلس المسيحي من أجل فِلَسْطِيْن). وكما كانت حال (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) فإن التمويل كله، عدا جزء رمزي، جاء من مصادر صِهْيَوْنية رسمية ويهودية أخرى. وفيما بعد تم دمج هاتين المنظمتين (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) و(المجلس المسيحي من أجل فِلَسْطِيْن)

بصفتهما شعبتين فرعيتين في (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية المسيحيَّة / American Christian Palestine Committee) مع الاحتفاظ (بترويستي) أوراقهما الرسمية ومكاتبهما.

3 . 3 . 10) لجنة فِلَسْطِيْن العالمية

تحت الرعاية الصِهْيَوْنيَّة الأمريكية في المقام الأول، تم، في خريف (1945 م) إطلاق مسعى استهدف إقامة شبكة (لجان مؤيدة لفِلَسْطِيْن/ Pro– Palestine Committees) في مختلف أرجاء العالم. بدأت العملية في (مؤتمر دولي من أجل فِلَسْطِيْن / International Conference for Palestine) حضره، كما قيل، ممثلو خمس وعشرين دولة، وعُقد في واشنطن يومي الأول والثاني من تِشْرِين الثاني/ نوفمبر (1945 م). ومع أن منشورات (اللجنة العالمية/ Committee World) لا تشير إلى الأمر، فإن الوثائق تبين أن حصة الأسد من الوقت والمال والطاقة ذهبت لمصلحة العمل من أجل التوغل في أمريكا اللاتينية، حيث لوحظ في محاضر اللجنة التنفيذية «ثمة إحدى وعشرون دولة متمتعة بواحد وعشرين صوتًا في منظمة الأمم المتحدة، بصرف النظر عن حجم كل من هذه البلدان أو عدد سكانه»، وحيث ثمة أيضًا «نقص محزن للمعلومات عن المسألة اليهودية». وعلى نحو إجمالي تقرر افتتاح مكاتب إعلامية عائدة للجنة العالمية في كل من واشنطن ولندن وتورنتو ومكسيكو سيتي وباريس ومونتفيديو، مدعومة ومجهزة جميعًا من هيئات الإعلام الصِهْيَوْنيَّة العالمية في القدس ولندن وواشطن.

من شأن هذا كله أن يكلف مالاً. ومن ثَمَّ فقد تمت مخاطبة اللجنة التأسيسية.

> **شرح الدكتور لو سورد (Le Sourd) باختصار وثقة تركيبة (المؤتمر العالمي من أجل فِلَسْطِيْن/ World Conference for Palestine) المالية، والذي موّلته الوكالةُ اليهوديّةُ، وذكرت نبأَهُ بالتفصيل عالميًّا.**

وقد بين أن (المجلس الصهْيَوْني الأمريكي للطوارئ) الذي يضم عددًا من المنظمات الصهْيَوْنيَّة في الولايات المتحدة هو الذي يمون (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكيَة المسيحيَّة). تنشط الوكالة اليهودية في أرجاء العالم وعاكفة على تنظيم الجماعات الصهْيَوْنيَّة في مختلف البلدان. آخر المطاف، من المتوقع أن تصبح هذه الجماعات الصهْيَوْنيَّة المحلية قادرة على تمويل النشاطات التي تقوم بها اللجان الموالية لفِلَسْطِيْن في بلدانها المختلفة، وعلى تسديد نفقات الوفود القادمة من تلك البلدان إلى اللقاءات الدولية.. [وتابع] الدكتور لو سورد شرحه قائلاً: إنه بات مؤكدًا أن عضوية (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية المسيحيَّة) لا تنطوي على أيّ التزامات مالية، والتبرعات الطوعية تصل يوميًا ويتم تشجيعها حيثما أمكن ذلك.. وتم الاعتراف عمومًا بأن من غير المريح، بالنسبة إلى غير اليهود، أن يأتوا إلى اليهود ويطلبوا إليهم تمويل عملهم. وقد ساد شعور بأن على الوكالة اليهودية أن توعز للصهاينة المحليين في أن يتعاونوا مع المؤيدين غير اليهود لقضية الشعب اليهودي.

في اجتماع مشترك ضم (لجنة فِلَسْطِيْن العالمية) و(الوكالة اليهودية) في الثامن من تِشْرين الثاني/ نوفمبر (1945 م) تم اعتماد (خطة تعاون لجان من أجل فِلَسْطِيْن العالمية/ Committees Palestine–Pro World of operation–Co of Paln The) وانتخاب هيئة تنفيذية. وقد ضمت الهيئة كلاً من السيدة أورد واينغيث (Mrs. Orde Wingate) (بريطانيَا) وعضو مجلس الشيوخ غابرييل غونزاليس فيديلا (Senator Gabriel Gonzales Videla) (تشيلي) والكثير من رجال السياسة والأدب المسيحيين المرموقين من أورُبَّة وأمريكا اللاتينية. عمليًا كانت القيادة العليا للوكالة اليهودية كلها حاضرة بمن فيهم لويس ليبسكي (Louis Lipsky) والدكتور ناحوم غولدمن ومَيَر فايزغال (Meyer W. Weisgal) وإيلياهو إيبشتاين (Epstein Eliahu) وروفن زاسلاني (Reuven Zaslani) وآرثر لوري (Arthur Lourie) وإمانويل نيومَن بالطبع. تعهد ناحوم

غولدمن، باسم الوكالة اليهودية، بضمان التمويل الكامل لعمل مختلف اللجان. وفي أيار/ مايو (1946 م) ثم انتخاب عضو مجلس الشيوخ سير إللسورث فلافيل (Sir Ellsworth Flavelle) الكندي رئيسًا، وكان عضو مجلس الشيوخ روبرت فاغنر أحد نواب الرئيس. التزمت لجنة فِلَسْطِيْن العالمية بما يلي:

1) **تنسيق فعاليات مختلف اللجان الموالية لفِلَسْطِيْن، الداعمة للوطن القومي و(الكومنولث) اليهودي في فِلَسْطِيْن.**
2) **التخطيط لتعبير أكثر فاعلية عن الوجدان المستثار للعالم المسيحي فيما يخص مسؤوليته عن تحقيق الأمن اليهودي.**
3) **تشجيع يقظة عقول البشر للتنبه على المعاناة المأساوية ليهود أورُبَّة الذين ما زالوا يتعرضون للاضطهاد.**
4) **تعزيز الاهتمام الذكي والمدروس بين دول العالم بتحويل فِلَسْطِيْن قانونيًا وعمليًا إلى الوطن القومي لليهود.**
5) **دعم الأهداف الصِهْيَوْنيَّة الرامية إلى جعل فِلَسْطِيْن (كومنولثًا) يهوديًا ديمقراطيًا وعاملاً لا يمكن الاستغناء عنه من عوامل حل المسألة اليهودية العالمية، مع توسيع الديمقراطية وإقامة السلام الدائم.**
6) **رعاية نوع من التبادل على صعيد الأفكار والآداب والخطباء والبرامج بين اللجان الموالية لفِلَسْطِيْن في سبيل بلوغ قدر أكبر من الوحدة واعتماد تدابير أكثر فاعلية في ميدان التعليم.**

شهد شكل (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية المسيحيَّة/ اللجنة العالمية من أجل فِلَسْطِيْن) صعودًا ملحوظًا جراء نجاح قيادة (المجلس الصِهْيَوْني الأمريكي للطوارئ) في تجنيد النائب السابق لوزير الخارجية سومّر ولز (Summer Welles) وتعيينه رئيسًا لفرع المجلس في مِريلاند. لقد جرى كسبه لمصلحة القضية الصِهْيَوْنيَّة كردّ فعل لما بدا سياسة شائنة من جانب البريطانيين كان ولز

يتابعها من داخل الإدارة الروزفلتية سنوات كثيرةً. وتمثلت مساهمته في النقاش حول فِلَسْطِيْن بكتاب مفعم حيوية صدر عام (1948 م) تحت عنوان «[لا يجوز أن نخفق] We Need Not Fail» وقد أطلق الكثير من التصريحات العلنية كما شارك في الكثير من النشاطات التي كانت برعاية (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية المسيحيَّة) أو (المجلس العالمي من أجل فِلَسْطِيْن). ولعل ما هو أكثر أهمية من كل ذلك، أن الوكالة اليهودية نجحت كثيرًا إذ وظفته محاورًا لشخصيات حاسمة في وزارة الخارجية وفي وفد الولايات المتحدة إلى الأمم المتحدة[16].



4) « أنا قورُش »

1 . 4) قضية فِلَسْطِيْن في سنوات الحرب

1 . 1 . 4) فْرَنكلِن دِلانو روزفلت والصهاينة (1942 - 1945 م)

لقد أتينا على وصف الكثير من المساعي الخلاقة والنشيطة التي بذلتها القيادة الصِهْيَوْنيَّة الأمريكية، العاملة في المقام الأول من خلال المجلس الصِهْيَوْني الأمريكي للطوارئ، بهدف حشد الوجدان المسيحي وتعبئته لمصلحة القضية الصِهْيَوْنيَّة. وكانت هذه القيادة تملك جميع الأسباب التي تجعلها فخورة بتلك المساعي وموقنة بأنها ستعطي الثمار المرجوة.

غير أن الصهاينة الأورُبّين والفِلَسْطِيْنيين كانوا، مع ذلك، أقل ثقة بكثير من نظرائهم الأمريكيين بقيمة هذه المساعي والجهود. ففي تقريره المقدم إلى الوكالة اليهودية في أثناء زيارته للولايات المتحدة عام (1942 م) شكا موشي شرتوك (Moshe Shertok) من فوضى إدارية وقيادة مقسمة، ونقص حماسة في صفوف منظمة أمريكا الصِهْيَوْنيَّة، ومن ثَمَّ «فإنني حزين وأنا أخبركم أنّ مؤيدي الحركة الصِهْيَوْنيَّة بين يهود أمريكا قليلون. ومما يبعث على الأسى أن

خمسة ملايين يهودي أمريكي يبالغون في الإيمان بما يدور في رؤوس الجيران، ويشعرون بأن من شأن الترحيب المفتوح بشعبهم والدعم اللامحدود للحركة الصِهْيَوْنيَّة أن يؤديا إلى جعلهم ضحايا الأعمال المعادية للسامية»[1]. كذلك أعطى حاييم وايزمن درجات متدنية للقادة الأمريكيين، غير أنه كان ميّالاً لأن يؤمن بأن ما يهم حقًا، آخر المطاف، لم يكن نوعية قادة المجلس الصِهْيَوْني الأمريكي للطوارئ ولا مساعيهم الرامية إلى تعبئة الرأي العام، بل المغازلة الناجحة للإدراة الأمريكية من داخلها. ومن ثَمَّ فإن تقريره أمام اجتماع المجلس التنفيذي الصِهْيَوْني بلندن في الخامس من تموز/ يوليو (1943 م) كان متّصفًا بقدر أكبر من الإيجابية:

كان ثمة، بالطبع، أناس ممتازون كثيرون. كان هناك، مثلاً، ستة آلاف يهودي في الإدارة، من مورغنتاو حتى ضاربو الآلة الكاتبة، وبينهم بعض الشباب المتألقين. كان السيد سِيْف (Mr. Sieff) قد جمع حوله عددًا من الناس في واشنطن.. ممن كانوا جاهزين ومستعدين لأن يفعلوا كل ما هو ممكن.. كان ثمة قدر غير قليل من التعاطف الغامض في واشنطن. كانوا على الدوام قادرين على حشد قائمة طويلة من الأسماء لمصلحة أيّ قضية يهودية، وهو أمر قد يبعث على الدهشة خارج أمريكا، ولكنه لم يعن في الحقيقة إلا القليل.. كان الأمر كله معلقًا على الرئيس وعلى بطانة البيت الأبيض المباشَرة»[2].

بدت ثقة حاييم وايزمن بفْرَنكلِن روزفلت في هذه المرحلة من الأمور مكافئة لنظيرتها لدى ستيفن وايز. جُلب وايزمن المرَّةَ الأولى لمقابلة فْرَنكلِن روزفلت في شُبَاط/ فبراير (1940 م) حين توافرت له فرصة طرح القضية الصِهْيَوْنيَّة، وتقديم الإجابات خصوصًا عن أسئلة الرئيس المتبحرة الصادرة عن اطلاع جيد حول الإمكانيات «الاستيعابية» لفِلَسْطِيْن. كان الأمر كله «نظريًا» تمامًا كما جاء على لسان وايزمن فيما بعد. وما لبث الأخير أن دعي إلى مقابلة ثانية في تموز/ يوليو (1942 م) لتمكينه، بالدرجة الأولى، من

شرح الاتباعات العسكرية لعمله العلمي. وفي تلك المناسبة اتبع وايزمن نصيحة السيد وِنَنْت (Mr. Winant) (سفير الولايات المتحدة في لندن) المتمثلة بقدرته على «خدمة القضية الصِهْيَوْنيَّة بقدر أكبر من النجاح» في تلك المناسبة عبر الالتزام بعدم الاستطراد والانحراف عن «مشكلة المطاط». وثمة اجتماع ثالث تم في حَزِيْرَان/ يونيو (1943 م). في تلك المناسبة اتفق فْرَنكلِن روزفلت مع وايزمن على وجوب عقد مؤتمر حول مستقبل فِلَسْطِيْن بسرعة، يحضره الأول وتشرتشل والزعماء اليهود والعرب جميعًا، تتم فيه صياغة خطة لمستقبل فِلَسْطِيْن. قام فْرَنكلِن روزفلت بإبلاغ وايزمن (حسب تعبير الأخير) «بأن العرب، حسب اعتقاده، قابلون للشراء». غير أننا نعلم أنّ وزارة خارجية روزفلت كانت في الوقت نفسه عاكفة مع وزارة الخارجية البريطانية على إعداد بلاغ إنغليزي أمريكي مشترك حول اعتزام الطرفين تأجيل أي إعلان لالتزاماتهما بشأن فِلَسْطِيْن إلى ما بعد الإنهاء الناجح للحرب. غادر وايزمن تلك اللقاءات موقنًا بأن «مصاعبنا لم تكن مرتبطة بساسة الصف الأول» ومن ثَمَّ فإن سلطة الرئيس ستغلب في النهاية «المعارضة العنيدة، المراوغة والخفية» التي يعلم أنها موجودة في وزارة الخارجية[3].

لم يكن صحيحًا بالتأكيد، كما يلمح وايزمن في مذكراته ويقرر مؤكدًا في رسائله وملاحظاته في تلك الأيام، أن الصهاينة الأمريكيين لم يكونوا يدركون قيمة الصلات من الداخل. فرسميو المجلس الصِهْيَوْني الأمريكي للطوارئ، ولا سيَّما نيومَن، كانوا شديدي الحرص على إبقاء الرجال الذين ذكرهم وايزمن حصرًا ودودين، ولكنهم كانوا قد تعلموا، بعد تسديد أثمان باهظة، أن أي قدر مهما كان كبيرًا من النيَّات الطيبة في الداخل، لم يكن مؤهلاً لتحقيق الغرض ما لم تتوافر إمكانية جعل العناصر الداخلية ترى وتلمس أن الجمهور الأمريكي كان يريد ما كان الصهاينة يريدونه. وهكذا، في حين كانت (جماعة سيف) تجتمع لتنسيق جهودها من الداخل لمصلحة الشعب

اليهودي والوطن اليهودي، وفي حين كان ستيفن وايز وحاييم وايزمن (خلال زياراته الكثيرة المطولة للولايات المتحدة بين عام 1939 م وإقامة الدولة في عام 1948 م) يعزفان على أوتار النيَّات الحسنة لوزير الخارجية ورئيس الجمهورية، دأبت قيادة (المجلس الصِهْيَوْني الأمريكي للطوارئ) بحكمة، في بذل أفضل جهودها في سبيل إبقاء الرأي العام مؤيدًا. كثيرًا ما كان يتم تعطيل هذه المساعي وإعاقتها جراء الالتزام الذي عبّر عنه وايزمن وستيفن وايز بشأن الفكرة التي تقول: إنَّ «ساسة الصف الأول» هم الأقدر على العمل لمصلحة القضية الصِهْيَوْنيَّة، شرط عدم تشتيت أذهانهم عن طريق إثارة البَرْنَامَج الصِهْيَوْني على الصعيد الجماهيري.

جاءت نقطة الانعطاف الكبرى في قصة تطور الاستراتيجية السياسية الصِهْيَوْنيَّة هذه مع المؤتمر الصِهْيَوْني الاستثنائي المعقود في فندق بلتمور بنيويورك في شهر أيار/ مايو (1942 م). وخلال أعمال هذا المؤتمر مالت الكفة لمصلحة بن غوريون وأبا هِلل سِلفر، نصيري بذل أقصى الجهود لحشد الرأي العام خارج مواقع السلطة دعمًا للمبادرة فورًا إلى إقامة الوطن (الكومنولث) اليهودي.

ثمة كانت أشياء كثيرة بدت، إذا لم نقل أكثر من ذلك، متناقضة في تحالف القوى الجديد داخل الحركة الصِهْيَوْنيَّة الأمريكية. فأبا هِلل سِلفَر، حاخام معبد كليفلند الليبرالي جدًا والمزدهر جدًا منذ عام (1917 م) حتى وفاته في عام (1963 م) لم يكن متحمّسًا للصفقة الجديدة، في حين كان معظم اليهود الأمريكيين متعاطفين معها بكل التأكيد. ومع ذلك فإن سِلفَر لم يكن جمهوريًا ملتزمًا، ففي الحقيقة منح صوته في الانتخابات الرئاسية منذ عام (1920 م) لمصلحة كل من نورمَن توماس وروبرت لا فوليت ولألفرد سْمِث وفْرَنكلِن دِلانو روزفلت في عامي (1936 م) و(1940 م). غير أنَ صلاته السياسية الأنشط، في الوقت الراهن، كانت مع جمهوريين، خصوصًا عضو مجلس

الشيوخ روبرت تافت (Robert Taft) (أحد أكثر أصدقاء الصهاينة السياسيين اطِّرادًا) وحاكم ولاية نيويورك تومَس ديوي (Thomas Dewey) وهما مرشحا الحزب الأقوى احتمالاً للرئاسة في انتخابات عام (1944 م). وانسجامًا مع استراتيجية سِلفَر قام الصهاينة الرسميون بتركيز نشاطاتهم على طرفي الشارع السياسي في انتخابات (1942 م) التمهيدية وخلال الانتخابات الرئاسية لعام (1944 م). ومنذ ذلك التاريخ أعلن سِلفَر شعارًا يقول: «لقد انتهت الدبلوماسية الهادئة، وبدأت الدبلوماسية الصاخبة» وبعبارة أكثر وقاحة «لقد فات عصر يهود البَلاطات»[5].

كان فْرَنكلِن روزفلت وهَري ترومان من بعده، يمقتان أبا هِلل سِلفر بعمق. صحيح أنه كان، بصفته الرسمية صوتًا ناطقًا باسم الشعب اليهودي المعذب، شخصًا غير جذاب، غير أنه صحيح أيضًا أنهما كانا قادرين على التعايش مع أشخاص غير محببين إذا ما اضطُرّا لذلك. لعل السبب الأعمق كان متمثلاً بالاستياء الذي شعر به الرئيسان الديمقراطيان إزاء قيام سِلفَر بدفع الناخبين اليهود نحو الطرف الآخر من الشارع.

أعلن سِلفَر: «سنجبر الرئيس على التسليم بمطالبنا». أما حاييم وايزمن فقد كان الاستثناء الأقوى من هذا الخط السياسي الجديد ومن موقف حامل رايته الذي أطلق عليه اسم (مفتي كليفلند). وما لبث ستيفن وايز وحاييم وايزمن، الخصمان اللدودان في الصراعات التنظيمية الداخلية للحركة الصِهْيَوْنيَّة أوائل عقد الثلاثينيات، أن اتفقا على معظم أحكامهما بشأن الأشخاص والقضايا والفرص. ولم يكن مصادفةً أن وايزمن كان موشكًا على فقدان تحكمه بالوكالة اليهودية في الوقت الذي كان فيه وايز يفقد سيطرته على (المجلس الصِهْيَوْني الأمريكي للطوارئ). فبعد لحظة من الفوضى حين أقدم سِلفَر ووايز على إدانة كل منهما الآخر بأقسى العبارات وأعنفها وعلى الاستقالة، كان (المجلس الصِهْيَوْني الأمريكي للطوارئ) قد صاغ اتفاق تقاسم سلطة مهلهل بين سِلفَر

ووايز ظل نافذًا على نحوٍ متقطّع خلال هذه الفترة كلها حتى عام (1946 م).

لم تكن هذه ساعة الصِهْيَوْنيَّة الأمريكية المشرقة. فوايز كان مدفوعًا بالحاجة إلى تسويغ حياته السياسية عبر البرهنة للمنظمة الصِهْيَوْنيَّة العالمية واليهود عمومًا على أنه كان يمسك شخصيًا بالمفاتيح الموصلة إلى البيت الأبيض، غير أن صهاينة سبق لهم أن كانوا أقرب أصدقائه باتوا يؤكدون بوقاحة أن امتلاك مثل تلك المفاتيح لم ينطوِ على أي خير بالنسبة إلى القضية، وأن وايز كان، عمليًا، أتاح لحكومة فْرَنكلِن روزفلت فرصة استغلاله. وتوضيحًا لتدابير فْرَنكلِن روزفلت، يمكننا الاطلاع على قصة اجتماعه إلى الوفد الصِهْيَوْني الرسمي المؤلف من الحاخام سِلفَر ووايز في التاسع من شهر آذار/ مارس (1944 م). قام سِلفَر ووايز بإصدار بيان بعد الاجتماع، ومما قيل في البيان:

> **خَوَّلنا رئيس الجمهورية بأن نقول: إن الحكومة الأمريكية لم يسبق لها البتّةَ أن وافقت على الكتاب الأبيض لعام (1939 م). ورئيس الجمهورية سعيد لأن أبواب فِلَسْطِيْن اليوم مفتوحة أمام اللاجئين اليهود [كذا!] ولأن العدالة الكاملة سوف تكون، لدى التوصل إلى اتخاذ القرارات المستقبلية، من نصيب أولئك الذين يسعون إلى إقامة وطن قومي يهودي، ما دام حكومتنا وشعبنا الأمريكي شديدي التعاطف معه، وهما اليوم كذلك أكثر من أي وقت مضى، نظرًا للمعاناة المأساوية التي يكابدُها مئاتُ الآلاف من اللاجئين اليهود المشردين»[6].**

وفي أعقاب اجتماع وزاري عقد في اليوم التالي سجل نائب رئيس الجمهورية وَلَّس (Wallace) نقاشًا حول القضيتين اليهودية والفِلَسْطِيْنية:

> **أطنب الرئيس بعض الشيء في الحديث عن.. كيف أن ستيفن وايز والحاخام سِلفَر جاءا لرؤيته، وكيف بدأ بمهاجمتهما بعنف وقوة قائلًا: هل تريدان أن تكونا مسؤولين عن فقدان مئات الآلاف من الأرواح ؟ هل تريدان إطلاق جهاد [كذا] مقدس ؟. واصل الرئيس كلامه على هذا النحو، مقتبسًا حديثه حول أخطار الهجمات الصادرة عن العرب**

الغاضبين. إنه الخط نفسه الذي اعتمده يوم الاثنين حين طرحت المسألة. ومع ذلك فقد علمت لأن سِلفَر حدّثني مطولاً في الليلة السابقة أن الجزء الرئيس من حديث الرئيس كان موجهًا، بالتأكيد، نحو تحقيق هدفٍ إقناع كل من وايز وسِلفَر بأنه [الرئيس] كان متفقًا معهما اتفاقًا كاملاً وبأن المشكلة الوحيدة كانت متمثلة بمشكلة التوقيت.. من المؤكد أن رئيس الجمهورية بحار ماهر. فهو ينظر إلى هذه الجهة ويجذّف بما يفضي إلى الجهة المعاكسة بأعلى درجات المهارة»(7).

كانت سنوات طويلة من التعامل مع الإدارة ومع شخص فْرَنكلِن روزفلت قد ألحقت أضرارًا كبيرة بالتماسك الأخلاقي والمعنوي لدى الصهاينة الأمريكيين.

ثمة إشارة استفهام قاتلة حقًا كانت حائمة فوق جملة سياسات الرئيس روزفلت ونشاطاته خلال السنة الأخيرة من إدارته وحياته. ففي صيف (1944 م) كان مؤتمرا الحزبين أقرّا عمليًا بوضع قرار فاغنر/ تافت، عبر تأييد فكرة دولة اليهود في فِلَسْطِيْن. وقام فْرَنكلِن روزفلت، في أثناء حملته، مع رعب وزارة الخارجية، بإعلان التأييد العلني للبند الفِلَسْطِيْني، ولكن الإدارة ما لبثت، بعد الانتخابات، أن عادت إلى خطها السابق المتمثل بضرورة ترك هذه القضية، مع أنّ الرئيس كان يؤيد من أعماق القلب فكرة العمل من أجل قيام دولة اليهود، تنتظر إلى حين القيام بمراجعة عامة لمجمل إمكانيات ما بعد الحرب، مراجعة لا بد من أن تتبع انتصار الحلفاء المتوقع قريبًا. كان روزفلت يقول للصهاينة عمليًا: «ثقوا بحكمتي! لا تطالبوني بنقل قرار صادر عن الكونغرس، يلزمني بأن أقول لتشرتشل: إن عليه أن يعلن على الفور أن فِلَسْطِيْن مفتوحة أمام هجرة اليهود غير المحدودة، إلى مؤتمر القوى العظمى (الذي تبين أنه كان مؤتمر يالطا). دعوني أولاً أسمع رأي تشرتشل عن فِلَسْطِيْن، وسوف نعمل معًا في سبيل التوصل إلى حل يكون منسجمًا مع التفكير الصِهْيَوْني، سنعلنه بعد ذلك إلى العالم كله بصفته تعهدًا لا يمكن مد الجسور له من جانب القوى العظمى».

ومع إذعان القيادة الصِهْيَوْنيَّة الرسمية بصمت، قدمت لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ مشروع قرار فاغنر/ تافت بتاريخ الحادي عشر من كانون الأول (1944 م) وهو أمر أثار الندم لدى الجميع لاحقًا.

4 . 1 . 2) المسألة اليهودية في الأشهر الأخيرة من رئاسة فْرَنكلِن روزفلت

وجدت الصِهْيَوْنيَّة الأمريكية نفسها في منعطف مصيري. ففي الأول من آذار/ مارس عام (1945 م) حين قدم فْرَنكلِن روزفلت تقريره إلى الكونغرس عن مؤتمر يالطا، اطلع وايز والصهاينة، ومعهم باقي العالم، على نبأ لقاء سري بين الرئيس السري وابن سعود على البحيرات المرة الكبرى، لم يرد له ذكر في أي من اجتماعات فْرَنكلِن روزفلت السابقة مع وايز والصهاينة. أصيب الجميع بالرعب، حين سمعوه يقول أمام العالم كله: «صرت أعرف المزيد عن تلك المشكلة كلها، المشكلة الإسلامية، المشكلة اليهودية، عبر الحديث مع ابن سعود خمسَ دقائق، أكثر مما كنت أستطيع أن أعرفه عبر تبادل العشرات من الرسائل» كما لو كان، في تلك اللحظة، عازمًا أمام الملأ على مسح اللوح وإزالة آثار جميع تلك السنوات من الجهود المضنية التي بذلت لغسل دماغه. كان فْرَنكلِن روزفلت قال للعالم (أو بدا أنه قال) بات متعينًا عليه، بعد أن رحل يهود أورُبَّة جميعهم تقريبًا، أن يفكر بالأمر كله من جديد، نتيجة جلوسه عند قدمي أحد طغاة العالم العرب بضعَ ساعاتٍ. وبعد ذلك كان فْرَنكلِن روزفلت أبدى مهارة نموذجية في الاتصال السريع مع الصهاينة لطمأنتهم داعيًا ستيفن وايز إلى البيت الأبيض (السادس عشر من آذار/ مارس 1945 م). حصل وايز على موافقة الرئيس على أن يدلي بتصريح صحفي. وقد جاء الخبر في (نيويورك تايمز) على النحو التالي:

16/ 3: أعاد الرئيس روزفلت اليوم تأكيده تأييد قيام فِلَسْطِيْن حرة وديمقراطية، بعد اجتماعه إلى الدكتور ستيفن وايز رئيس المجلس الصِهْيَوْني للطوارئ.
تحدَّث الدكتور وايز إلى رئيس الجمهورية ثلاثةَ أرباع الساعة، وصدر بعد ذلك بلاغ رسمي جاء فيه أن الرئيس قال: أوضحت موقفي من الصِهْيَوْنيَّة في تِشْرين الأول/ أكتوبر. وذلك الموقف لم أغيره وسوف أستمر في السعي إلى تحقيقه في أقرب وقت.. يقال: إن الدكتور وايز عاكف على إعداد تقرير عن اجتماعه بالرئيس سيتم تقديمه إلى الهيئة التنفيذية للمجلس الصِهْيَوْني الأمريكي للطوارئ[8].

ولكن ما إن خرج وايز من الباب، حتى سارع روزفلت إلى الإبراق لجميع العواصم العربية، مطمئنًا إياها، بدوره، التزامه بعدم السير قدمًا خطوة واحدة دون إشراكها على نحو كامل. وتشكل إحدى هذه البرقيات، الموجهة إلى رئيس جمهورية سورية، في الثاني عشر من نَيْسَان/ أبريل، (1945 م) المادة الأخيرة من ‹[مجلد العلاقات الخارجية للولايات المتحدة الموقوف لسياسة إدارة روزفلت في الشرق الأوسط] The volume of the Foreign Relations of the United States (devoted to the Middle Eastern policy of the Roosevelt Administration›[9].

لو عاش روزفلت، لكان ذلك دون شك هو النموذج المعتمد إلى أجل غير مسمى، إطلاق التطمينات إلى هذه الجهة ثم إلى تلك، حتى يكون صبرُ الجميع نَفِد، مع فقدان الولايات المتحدة مصداقيتها، ومن ثَمَّ نفوذها، آخر المطاف. في أعقاب خطاب فْرَنكلِن روزفلت أمام الكونغرس عن اجتماعات يالطا والبحيرات المرة الكبرى، انقسم الصهاينة الرسميون الأمريكيون، الذين كانوا قادرين على الوصول إلى روزفلت حتى الآن، على الفور إلى معسكرين. اعتقد أحدهما، مع الدلائل والحجج الدامغة، أن المسعى المبذول لإقناع روزفلت يجب أن يستأنف بالأساليب القديمة، أما الثاني، المتنامي من حيث القوة يومًا

بعد آخر، فقد لعن تبديد الجهد والثقة طوال عقد كامل من التعامل مع الإدارة الديمقراطية، ودعا إلى اعتماد استراتيجية أكثر جرأة، تطالب بإنصاف اليهود في الساحة السياسية الأوسع. وقد كان إمانويل نيومَن، الذي كان حكمه النهائي قاسيًا، أحد قادة هذا المعسكر الثاني:

> **مهما كان موقفه من اليهود مع الغياب الواضح للاسامية عن تكوينه، ليس ثمة أي شك في أن روزفلت لم يفعل شيئًا فعالاً لشل أيدي النازيين إبان إبادتهم يهود أورُبَّة، كما لم يفعل إلا القليل، أو لا شيء، لمساعدة ضحايا هتلر في العثور على ملاذ في الولايات المتحدة، أو لإقناع إنغلترا بقبول اللاجئين اليهود في فِلَسْطِيْن.. [داخل الحركة الصهْيَوْنيَّة] عدّ صديقًا مخلصًا للشعب اليهودي، وعدوًا لدودًا لهتلر، وحَليفًا أمينًا لبريطانيا العظمى في نضالها إزاءَ ألمانيا النازية. عادَ يهودُ أمريكا لا ينظرون إليه على أنه نصيرُ قضيّتهم فحسبُ، بل أيضًا بصفته التجسيد الحي لكل ما كان نبيلاً في الشخصية الأمريكية. ومع تنامي هذا الشعور صار موضع احترام وعبادة لدى الجماهير اليهودية، وأصبح انتقاده تجديفًا.. لقد أدركت أن موقف روزفلت المؤيد لقضيتنا لم يكن أكثر من نوع من "الحب الأفلاطوني" أو قضية "الرأفة غير المتورطة" حسب ما بات أبا هِلل سلفَر يصفه بأسلوبه العصي على التقليد. بل وقد أصبحت شيئًا فَشيئًا أَشك "بالرأفة" ورحت أرى قدرًا كبيرًا من سوء الحظ أن يتولى رئاسة حكومة الولايات المتحدة في مرحلة زمنية حاسمة كهذه رئيس متمتع بصلاحيات هائلة وسحر رابط الجأش، ولكنه بدا مصممًا على عدم فعل أي شيء ينطوي على معنى من أجل شعبنا وقضيته.**

من المفارقات أن ما كان يجمع هذين المعسكرين هو انشغالهما الكلي والدائم بروزفلت الذي ما لبث أن رحل على نحوٍ مفاجئ.

4 . 2) هَرِي ترومان والصهاينة

4 . 2 . 1) هَرِي ترومان والمسألة اليهودية

يوصف هَرِي ترومان في معظم الروايات العامة عن فترة رئاسته، بالضياع والارتباك جراء فوضى الآراء الصِهْيَوْنيَّة والصِهْيَوْنيَّة المضادة المتضاربة التي واجهته على نحوٍ مفاجئ في الأسابيع الأولى من رئاسته، ولكن ترومان كان، في حقيقة الأمر، جيِّد الاطلاع على النقاشات الدائرة حول صِهْيَوْن، وفائقًا كثيرًا في هذا المضمار فْرَنكلِن روزفلت، كما ضمن ولاءه للبَرْنَامَج الصِهْيَوْني، وهو أكثر صدقًا بما لا يقاس من نظيره لدى روزفلت في أي من الأوقات، على نحوٍ فعال وناجح قبل عام (1941 م).

ثمة أدلة قوية تشير إلى أن ترومان تلقى توجيهه الأساسي المؤيد للصهْيَوْنية من أفضل المراجع الممكنة، أي: من القاضي لويس بْرَنْدَيْس. ففي الأيام التي كان فيها عضو مجلس الشيوخ ترومان وبرتون ويلر (Burton K. Wheeler) عاكفين على إجراء تحقيقاتهما بشأن تمويل السكك الحديدية (التي ما لبثت أن

تتوجت بقانون ويلر/ ترومان للنقل لعام 1940 م) تعرف ترومان إلى ماكس لوفنتال (Max Lowenthal) مستشار لجنة ويلر الفرعية، الذي عرفه بدوره إلى القاضي لويس بْرَنْدَيْس، الذي دأب في الاحتفاظ باهتمامه النشيط بالمسائل العامة، خصوصًا تلك التي تكون ذات علاقة بالممارسات المالية وبدور الحكومة في توجيه الاقتصاد، والذي أراد أن يعرف من ترومان عن التشريع الوشيك. من الواضح أن بْرَنْدَيْس وترومان كانا على علاقة جيدة، وما لبث الأخير أن أصبح زائرًا منتظمًا لحفلات الشاي الأسبوعية في أسرة بْرَنْدَيْس، وهو شرف يسيل له لعاب رجال القانون والتشريع كثيرًا، لأنه كان بمنزلة شهادة تثبت أن المرء صاحب حق في أن يعد من السلالة التقدمية/ الليبرالية/ الولسنية، الذي من دونه ما كان ممكنًا البتّةَ أن يصبح هَري ترومان نائبًا للرئيس. بعد زيارته الأولى لبيت بْرَنْدَيْس كتب هَري ترومان رسالة إلى زوجه بس (Bess) يقول فيها: «إنه وزوجه، من ألطف الناس. كانت حفلة محصورة بالنخبة والعقول. لم أكن واحدًا منهم في الحقيقة ولكنهم جعلوني أعتقد أنني كنت واحدًا منهم»[1]. ومع أن ترومان لا يسجل في أي مكان أن الصِهْيَوْنيَّة طُرحت في النقاشات التي أجراها في بيت بْرَنْدَيْس، لكن من الطبيعي أنها ذلك حصل نظرًا لأن بْرَنْدَيْس لم يكن، كما نعلم، يفوّت أيّ فرصة دون أن يستغلها في تثقيف أي شخص واعد بهذه القضية الأكثر قربًا إلى قلبه.

كان ترومان عضوًا في (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) مثله، في الحقيقة، مثل ثلثي أعضاء مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة في ذلك الوقت، ومن ثَمَّ ملتزمًا رسميًا وشعبيًا بالمبدأ القائل: إن على بريطانيا أن تلغي القيود المفروضة على هجرة اليهود إلى فِلَسْطِيْن. يبدو أن هَري ترومان أخذ عضويته بقدر من الجدية أكبر من الأكثرية، وألقى خطبًا أمام الكثير من الجماعات الصِهْيَوْنيَّة. أما مسعى ترومان الاستثنائي لمد يد المساعدة إلى الدوائر اليهودية في مسائل عرائض ذات علاقة باللاجئين، فقد أكسبه إطراء الجماعات اليهودية الكثير.

وفي أيار/ مايو من عام (1939 م) قام ترومان بجَدب (الكتاب الأبيض) قائلاً: «لقد استخدمت الحكومة البريطانية مظلتها الدبلوماسية مرة أخرى، فوق فِلَسْطِيْن هذه المرة. لقد حولت الوعد الذي قطعه بلفور لليهود إلى قطعة من الورق. لقد أضافت حَلْقَة أخرى إلى سلسلة التنازلات الطويلة التي دأبت في تقديمها إلى قوى المحور». وفي الرابع عشر من نَيْسَان/ أبريل من عام (1934 م) خاطب (مسيرة شيكاغو الموحدة/ Chicago United Rally) للمطالبة بإنقاذ اليهود المحكومين بالهلاك[2].

غير أن ترومان لم يحذ، مع ذلك، حذو قيادة (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) في مسألة قرار فاغنر/ تافت، المطروح أوائل (1944 م) والداعي إلى قيام حكومة الولايات المتحدة فورًا بالإعلان عن تأييدها عملية خلق (كومنولث) يهودي. بل كان ميالاً إلى اتباع توجيهات الرئيس الذي كان يريد وضع قضية الوطن اليهودي جانبًا لتناقَش في سياق اجتماعات القوى العظمى المحتوم حصولها مع اقتراب الحرب من نهايتها. أما الحرج الذي أحس به ترومان وهو يحاول عقلنة موقفه فنجده متألقًا عبر نسيج اللغة المجازية المرتبكة في هذه الرسالة الموجهة إلى إحدى الدوائر الصِهْيَوْنيَّة، إلى بنياس سمولر (Phineas Smaller):

> **لا أعتقد أن الكلام في قضايا تؤثّر في علاقاتنا مع حلفائنا في هذا الوقت من شأن أعضاء مجلس شيوخ ليسوا في لجنة الشؤون الخارجية. فمع استمرار الصعوبات بين روسيا وبولندا، وبين دول البلقان وروسيا، ومع بقاء كل من بريطانيا العظمى وروسيا ضروريتين على نحو مطلق بالنسبة إلينا في تمويل الحرب، لا أريد أن ألقي بحجارة قد تؤدي إلَى قلب عربة التفاح، مع أنني مستعد، حين يأتي الوقت المناسب، للمساعدة على خوض المعركة في سبيل الوطن اليهودي في فِلَسْطِيْن[3].**

وقد تلقى شكاوى من عدد من الدوائر الصِهْيَوْنيَّة المفصلية على هذا التراجع عن موقف اجتماع بِلتمور.

كانت الحقيقة متمثلة، بالطبع، بأن ترومان لم يكن مؤهلاً لأن يتم اختياره مرشحًا لمنصب نائب رئيس الجمهورية عام (1944 م) لو لم يكن منضبطًا فيما يخص قضايا السياسة الخارجية الأكثر إثارة لاهتمام الرئيس روزفلت. فانطلاقًا من إدراك أنّ القضية الفِلَسْطِيْنية كانت مرشحة لأن تشكل أكبر العقبات أمام استمرار العلاقات الطيبة مع بريطانيا، لم يكن فْرَنكلِن روزفلت مستعدًا لأن يسمح لحلفائه في الكونغرس بتأييد قرار فاغنر/ تافت في ربيع عام (1944 م) بصرف النظر عن حقيقة أن هذا لم يكن أكثر من قراءة أكثر وضوحًا للتعهدات التي قطعها روزفلت أمام القيادة اليهودية مرّات في السابق. ثم ما لبثت ورطة ترومان أن وجدت لها حلاً مؤقتًا في وقت متأخر من السنة حين أقدم رئيس الجمهورية، خلال الحملة الانتخابية الرئاسية في عام (1944 م) على تأييد بَرْنَامَج الحزب الديمقراطي علنًا. ولكن فيما بعد، وما إن انتهى الانتخاب حتى عادت الإدارة إلى اعتماد خطها القديم المتمثل بترك مسألة دولة اليهود تنتظر مراجعة عامة لإمكانيات ما بعد الحرب، لا بد من أن تتم بعد انتصار الحلفاء المتوقع قريبًا، في حين يبقى الرئيس صادقًا في تأييده فكرة العمل على التمهيد لقيام هذه الدولة.

4 . 2 . 2) الخلافة: الصهاينة يقومون آفاقهم مع الرئيس الجديد

لم ير هَرِي ترومان الرئيس روزفلت خلال الأشهر الثلاثة من مجمل فترته نائبًا للرئيس، إلا مرتين، وجيزتين، عدا اجتماعات المجلس نظرًا لأنه كما لاحظ ترومان نفسه «لم يبادر روزفلت البتّةَ إلى مناقشة أي شيء ذي أهمية في اجتماعات المجلس».[4] فلم يكن يعرف عن تلك «الأشياء المُهِمّة» سوى ما كان يقرؤه في الجرائد. أما (الوكالة اليهودية) فلم تكن غير مهيأة. ففي الثالث عشر من نَيْسَان/ أبريل عام (1945 م) وهو اليوم الأول لترومان في المكتب البيضاوي، تمكنت الوكالة من توزيع مذكرة بعنوان «[ملاحظة

عن الرئيس الجديد للولايات المتحدة] Note on the New President of the United States)[5] في صفوف (مكتبها السياسي). استعرضت المذكرة سجل ترومان عن مسألتي معاناة يهود أورُبَّة ومستقبل فِلَسْطِيْن المتشابكتين اللتين استعرضناهما بإيجاز قبل قليل.

تبدأ قصة تأملات الرئيس ترومان المنصبة على المسألة الصهْيَوْنيَّة بزيارة له قام بها في العشرين من نَيْسَان/ أبريل (1945 م) رئيس (المَجلس الصِهْيَوْني الأمريكي للطوارئ) ستيفن وايز، وتتواصل عبر سلسلة طويلة من زيارات قادة جميع المنظمات اليهودية المختلفة، بما فيها منظمات غير قليلة أوصلت إليه رسائل معادية للصِهْيَوْنية. ومع حلول منتصف عام (1946 م) وهو عام انتخابات مرحلية، بلغ حد التخمة حقًا. وجاءت النقطة الدنيا في هذه القصة يوم الثاني من تموز/ يوليو (1946 م) حين أقدم الحاخام أبا هِلل سِلفر، الزعيم الاسمي للحركة الصِهْيَوْنيَّة الأمريكية، حرفيًا على ضرب مكتب رئيس الجمهورية بعنف، كما لو كان يريد إيقاظه من لامبالاة متخيلة.[6] وبعدها جاء الحل حاسماً: ما من ناطق باسم الصهْيَوْنيَّة، وما من أحد يقدم نفسه كشخص يرغب في الكلام عن مسألة فِلَسْطِيْن ومستقبلها، مسموح له بتجاوز مكتب سكرتير رئيس الجمهورية، ودون أيّ استثناءات. سارع الناس الذين يفكرون انطلاقًا من الكليشيهات إلى نشر الرأي الذي يقول: «إن الرئيس الجديد كان، في تناقض مذهل مع سلفه اللبق ذي العقلية الليبرالية.. واحدًا منهم!».

ثمة كثرة من الأدلة على تدني احترام خلف الرئيس روزفلت في المراسلات الصهْيَوْنيَّة الداخلية العائدة إلى تلك الأيام. فغِرشون أغرونسكي (Gershon Agronsky) من الوكالة اليهودية، مثلاً، ترك تسجيلاً لحديث دار بين فليكس فرنكفُرتر وهنري مورغنتاو الابن، في التاسع عشر من تموز/ يوليو (1945 م) يعبّر فيه الأول عن اليأس الذي يشعر به الجميع مع (الرجل الأول) الجديد شديد الاختلاف عن روزفلت «ذي عقل ومصادر تخصه وحده». ويتفق

الرجلان، مورغنتاو وفرنكفُرتر، على «مطالبة ستيفن وايز بتزويد الرجل الأول بمذكرة عن فصل الهجرة من المسألة.. [يتم التعبير فيها] بلغة يستطيع رجل من ميسوري مثل 'الرجل الأول' أن يفهمها، أن (بناي بريت/ The Bani Brith) تقف خلف الموضوع.. الخ»[7].

ومع ذلك فإن الحقيقة كانت تقول: إنَّ مواقف ترومان من كل من اليهود والصِهْيَوْنيَّة ضبطت إيجابيًا منذ زمن طويل، وذلك حصرًا كان السبب الكامن وراء استيائه من أسلوب جره من يده من أناس ظلوا طويلاً يعتقدون أنه ما زال بحاجة إلى التوجيه. وهؤلاء الأشخاص أنفسهم، لدى تعاملهم مع الرئيس روزفلت، كانوا على الدوام شديدي الحرص على عدم إظهار أي شيء يشير إلى أنهم كانوا يعتقدون أنه بحاجة إلى توجيه، لم يكن الأمر ليتجاوز التذكير اللطيف أوإنعاش الذاكرة.

3 . 2 . 4) مصادر ولاء ترومان للصِهْيَوْنية

يتذكر ترومان في كتابه ‹[مذكرات] Memoris› أنه في اجتماع العشرين من نَيْسَان/ أبريل (1945 م) لفت نظر الحاخام وايز إلى مذكرة صادرة عن نائب الوزير ستتينيوس (Stettinius) الى الرئيس ترومان، تلح عليه ألا يتخذ أي تدبير حتى تكون وزارة الخارجية قد وجدت فرصة مناسبة لشرح الأمر كله له، ويعبر، لكل من وايز وقارئ ‹[المذكرات]› عن سخطه ودَهْشَتِه إزاء التلميح إلى أنه كان يلابس على نحوٍ ما، كل تلك السنوات، غافلاً عن هذه القضية المهمة.

> **لأنني كنت متفقًا مع السياسة المعلنة لإدارة روزفلت بخصوص فلَسْطِيْن، أبلغت الحاخام وايز أنني مستعد لأن أفعل كل ما هو ممكن لأداء تلك السياسة. لقد قرأت (وعد بلفور) بعناية، ذلك التصريح الذي التزمت فيه بريطانيا بتوفير وطن لليهود في فِلَسْطِيْن. اطلعت**

على تاريخ مسألة الوطن اليهودي وعلى موقف البريطانيين والعرب. ولدى قراءتي السجل كله حتى اللحظة، راودني الشك بخصوص بعض الآراء والمواقف المتبناة من جانب 'فتية' وزارة الخارجية. بدا لي أنهم لم يكونوا يتحلون بما يكفي من الحرص والاهتمام بما كان يجري لآلاف المضطهدين ذوي العلاقة. وشعرت أن من الممكن بالنسبة إلينا أن ننتبه على المصالح بعيدة المدى لبلدنا، مع المبادرة، في الوقت نفسه، إلى مساعدة هؤلاء التعساء من ضحايا الاضطهاد في العثور على وطن. وأعتقد أنني تمكنت من إيضاح الأمر للحاخام وايز، قبل أن يغادر[8].

كان اللقاء موضوع البحث شديد الإيجاز، لقد كان بندًا واحدًا في «ما قيل لي: إنه أطول قائمة من الزوار المبرمجين في ذاكرة أي من أعضاء جهاز المكتب التنفيذي». من الصعب أن نصدق أن ترومان أنجز خلال ما يفترض أنه لم يكن أكثر من زيارة مجاملة كل تلك الأمور التي يصفها في ‹المذكرات›. فمع حلول الوقت الذي عقد فيه مع ميرل ميللر مقابلة، بعد عقد ونصف العقد من السنين، كانت قصة اللقاء[9] قد شهدت قدرًا غير قليل من التحسين:

كانت عندي قائمة طويلة من المواعيد في ذلك اليوم، وكان أحدها.. مع الحاخام وايز. رأيته في ساعة متأخرة من ذلك الصباح، وكنت تواقًا إلى اللقاء لأنني كنت أعلم أنه كان يريد أن يتحدث عن فِلَسْطِيْن، وهي جزء من العالم طالما كانت مثار اهتمامي على الدوام، جزئيًا بسبب الخلفية الكتابية، بالطبع.

هذه الملاحظة تحفز فورًا إلى جولة في موضوعة الكتاب، وتأثيره في حياته:

قلت لك، كنت على الدوام مثابرًا على قراءة ‹الكتاب›. لقد قرأته مرتين على الأقل قبل التحاقي بالمدرسة [!].. أحببت القصص الواردة فيه. لم أهتم كثيرًا قط بأيّ قصص أطفال أو: ‹مذرغوس Goose Mother› ليس لأن بيتنا لم تكن فيه أيّ وزة أم، بل لأنني لم أهتم بذلك النوع من الأشياء.

مع ذلك فإن قصص ‹الكتاب› بدت لي قصصًا عن أناس حقيقيين، وقد شعرت بأنني كنت أعرف بعضهم أفضل مما كنت أعرف أناسًا فعليين أعرفهم.

ولا يلبث هذا أن يفضي إلى استطراد في الاستطراد، حيث يعبر عن الشكوى من «تلك الترجمات اللعينة الجديدة [للكتاب] التي باتت متداولة مؤخرًا».

إن طبعة ‹الكتاب› العائدة للملك جيمس هي الأفضل سابقًا أو لاحقًا، ثم تأتي عصبة من أساتذة الجامعات والكليات لتنفق أعوامًا وهي تعالج تلك الطبعة، غير أنها لا تنجح إلا في تجريدها من الشعر..

لكن كما بدأت أقول.. [فراغات في النص الأصلي] كان البعد الكتابي لفِلَسْطِيْن هو وحده الذي أثار اهتمامي. فتاريخ تلك المنطقة كلها من العَالم لَيس إلا الأكثر تعقيدًا والأشد إثارة للاهتمام بالمقابلة مع أيّ منطقة أخرى في أي مكان آخر، وقد دأبت دائمًا في دراسة ذلك التاريخ بعناية. وعلى الدوام كانت ثمة مشكلة، كانت ثمة حروب من عهد داريوس الأكبر ورمسيس فصاعدًا..

ولكن إذا عدنا إلى ما كنت تسأل عنه، فقد قابلت الحاخام وايز في ذلك الصباح. كنت متأخرًا في الصباح، وأذكر أنه قال: لست متأكدًا، يا سيادة الرئيس، من أنك واقف على السبب الكامن وراء رغبة الشعب اليهودي في الحصول على وطن.

كان متحليًا بأقصى قدر ممكن من اللباقة، غير أن أحدًا لم يبد في تلك الأيام معتقدًا، كما قلت لك، أنني كنت مطلعًا على أي شيء. قلت له: إنني أعرف كل ما له علاقة بتاريخ اليهود، كما أبلغت الحاخام أنني قرأت جميع تصريحات روزفلت بخصوص فِلَسْطِيْن، وقرأت (وعد بلفور) بالطبع، وكنت مطلعًا على وجهة النظر العربية.. ولكنني قلت: إن الولايات المتحدة كانت، بمقدار ما يتعلق الأمر بي، مستعدة لتبذل كل ما تستطيعه من جهد لمساعدة اليهود على إقامة وطن. لم أقل له إنني تلقيت تحذيرًا من بعض ' الفتية '.. تنبهني على ضرورة التحلي باليقظة في تحركاتي، وإنني كنت في الحقيقة عاجزًا عن فهم ما كان يجري هناك

ولا بد لي من ثَمَّ من ترك الأمر لأهل الخبرة.. وقلت: إن بعض الخبراء، محترفي وزارة الخارجية الأشاوس، كانوا يعتقدون أنّ السياسة ينبغي أن تكون من صنعِهِم أنفسِهِم، غير أنني كنت عازمًا على أن تبقى السياسة من صنعي نفسي طوال مدة بقائي رئيسًا للجمهورية. أما مهمة أولئك الخبراء فلم تكن سوى أدائها العملي، وإذا كان هناك من لا يروقهم ذلك، فإنهم كانوا قادرين على الاستقالة لحظة يشاؤون.

هل قام ترومان حقًّا، في لقائه مع الحاخام وايز هذا، بربط نيَّاته حول إسرائيل، بهذه الطريقة، بأي إعلان صريح لمدى إخلاصه للكتاب (حتى مع افتراض عدم إثارة جملة الاستطرادات المتعلقة بمؤلفي الأناجيل، بمشكلات المرجعية النصية في الأناجيل، وفضائل الترجمات المختلفة، وغيرها من الأمور التي تطرق إليها ترومان مع ميرل ميللر، في حضور الحاخام وايز في ذلك اليوم؟) ليس ثمة أيّ إشارة إلى أي من هذه الأمور في الرواية الواردة في ([المذكرات]) ولا في حديث ستيفن وايز عن اللقاء، ولكن هذه الشهادة التي جاءت متأخرة، هي، في الحقيقة، وإن كانت دون شك أقل دقة بصفتها استذكارًا لما قيل في ذلك اليوم، شهادة تنطوي على قدر أكبر من القيمة فيما يخص أغراضنا، نظرًا لأنها تعبر على نحوٍ مثير عن مدى رغبة ترومان في تذكر ذلك اللقاء الذي شكل بداية صلته رئيسًا للولايات المتحدة مع الصهاينة. كيف سعى إلى طمأنتهم، وكيف وصف نفسه أمامهم وجملة الحجج وأنماط التفكير التي جعلت، بعد سنوات طويلة، أشكال تعامله مع الصهاينة وأنماط إخلاصه لقضيتهم، ذات معنى.

4 . 2 . 4) هَرِي ترومان كان معمدانيًا

مما استذكره كلارك كلفرد (Clark Clifford) الذي كان وثيق الصلة العملية بالرئيس ترومان في الأشهر المفضية إلى القرار القاضي بالاعتراف بدولة

إسرائيل في الرابع عشر من أيار/ مايو (1948 م) أنه: «من قراءته العهد القديم شعر بأن اليهود استمدوا حقًا تاريخيًا مشروعًا في فِلَسْطِيْن، وقام أحيانًا بتلاوة بعض الآيات الكتابية مثل الآية الثامنة من سفر التثنية (1:8) التي تقول: انظروا، إني قد جعلت الأرض بين أيديكم فادخلوا واملكوا الأرض التي أقسم الرب لآبائكم إبراهيم واسحاق ويعقوب أن يعطيها لهم ولنسلهم من بعدهم»[10].

وفي إحدى المزق الورقية ذات العلاقة بالسيرة الذاتية المحفوظة بين أوراقه الخاصة والتي نشرها بعد وفاته بعدد غير قليل من السنين، جنبًا إلى جنب مع مزق أخرى، روبرت فِرل (Robert Ferrell) تحت عنوان ‹[سيرة هَري إس ترومان الذاتية]The Autobiography of Harry S. Truman›، كتب ترومان يقول: «أنا معمداني (Baptist) لأنني أعتقد أن ذلك المذهب يهدي الإنسان العادي إلى أقصر الطرق الموصلة إلى الرب وأكثرها مباشَرة»[11]. فعند ولادة هَري كان أبواه نشيطين في الكنيسة المعمدانية بغراندفيو الواقعة في ولاية ميسوري. وفيما بعد، في حينَ كانت الأسرة تتابع حياتها في إندبندنس، تم تسجيل هَري في (مدرسة الأحد التابعة للكنيسة المشيخية الأولى في لكسينغتون وبلزنت/ The Sunday School at the first Presbyterian church at Lexington and Pleasant) التي كانت العائلة تتردد عليها، كما يقول: «كل يوم أحد على نحو منتظم، أو طوال بقائنا مقيمين في إندنبدنس» ينبغي أن يكون حتى عام (1903 م) الذي هو عام انتقال الأسرة إلى مدينة كِنساس وهناك، حين كان في الثامنة عشرة، التحق بالكنيسة المعمدانية (Church Baptist) عن طريق التعميد، ناقلاً عضويته لاحقًا إلى كنيسة غراندفيو المعمدانية في (1906 م) حين عاد ليعمل في مزرعة العائلة، حيث أبقاها [العضوية] خلال الجزء الباقي من حياته.

تحدث هَري ترومان بعد سنوات كثيرة من تقاعده من الرئاسة، أمام

(المؤتمر المعمداني القومي/ National Baptist Convention) الذي يعد الهيئة الرئيسة للمعمدانيين الزنوج، والذي عقد مؤتمره في مسقط رأسه إنديندس بولاية ميسوري في (الثامن من أيلول/ سبتمبر عام 1959 م). مما قاله في ذلك الخطاب:

إنني معمداني تعليماً وإيماناً بأن يوحنا المعمدان تعرف إلى مخلص العالم يسوع وعمّده، ولم يقم، يا أصدقائي، برشه بماء الأردن، بل أنزله باحترام إلى أن غطس جسده إلى ما تحت سطح الأردن المقدس ورفعه رمزًا لإمكانية غسل الخطيئة.

حين بات يسوع جاهزًا للعمادة من يوحنا ، كان اليهود انتظروا طويلاً نبيًا مؤهلاً لإعطائهم إنعاشًا لتعاليم كل من موسى وصموئيل وعاموس وإشعيا، وحين جاء، أخفقوا في التعرف إليه. لقد جاء لإنقاذ الفقراء والمعوزين من الطبقات ذات الامتيازات الخاصة. ولد في مِذْوَدْ. نشأ وترعرع ابنًا لنجار، وكان هو نفسه نجارًا، ولكنه، لا تنسوا، حمل رسالته إلى الشعب الذي كان بحاجة إلى رحمة الرب.

كان على الدوام ينبه إلى الناموس والأنبياء. أبلغ الناس الذين آمنوا أنهم كانوا أفضل من الفقراء، عن موقعهم.. ذكّرهم بالسامري الطيب الذي مد يد المساعدة إلى جاره، وقد كان السامريون في ذلك الزمان يعدون في القدس، شعبًا من لوننا، مثلهم مثلنا في بعض أجزاء الولايات المتحدة..

لقد بشر يسوع المسيح بالناموس والأنبياء، بالأصحاح العشرين من سفر الخروج، وبالأصحاح الخامس من سفر التثنية، وبمواعظ عاموس وميخا وإشعيا وإرميا.

ادرسوا الموعظة على الجبل، الأصحاحات الخامس والسادس والسابع من إنجيل القديس متى، والأصحاح العاشر من إنجيل القديس لوقا، وعودوا بعد ذلك إلى متى (22-15) [كذا] واعثروا على طاعة قانون الأرض.

سيقوم العهدان القديم و الجديد بهدايتكم إلى طريق في الحياة ستوفر لكم فرصة العيش بسعادة[12].

من الصعب التفكير بأي رئيس آخر في زماننا باستثناء جِمي كارتر (Jimmy Carter) أو أي شخصيات عامة على أي مستوى، يكون مستعدًا لأن يطلق، في وضح النهار، مثل هذا التصريح المعبر عن مثل هذه الشخصية العَقَدِيّة المسيحيَّة الصريحة. ومع ذلك فإننا نعلم، من مصادر أخرى، أن هَري ترومان أتاح لنفسه، وهو شاب، فرصة قراءة بعض المؤلفات غير (الأرثوذكَسية). فقد كان مولعًا بأن يوصي بقراءة مؤلف تومَس جفرسون (Thomas Jefferson): ‹حياة وأخلاق يسوع المسيح الناصري، مقتطفات نصية من أناجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا / The Life and Morals of Jesus Christ of Nazareth، Extracted Textually from the Gosples of Matthew، Mark، Luke، and John› المعروف شعبيًا باسم ‹[كتاب جفرسون المقدس] The Jefferson Bible› وهو مؤلف بعيد كليًا عن أن يكون أرثوذكسيًا. ويبدو أن ما جرده ترومان من ‹[كتاب جفرسون المقدس]› فهو موقف تومَس جفرسون القائم على الكبرياء والتحدي لكل من رجال الدين والخزعبلات. «لم يكن ترومان كثير الاهتمام» في الحقيقة «بالقضايا اللاهوتية، مع أنه كان يكن احترامًا يكاد أن يكون أصوليًا للكتاب»[13] وهو أمر لن يقوله أحد عن تومَس جفرسون.

وكما رأينا في خطابه أمام المعمدانيين القوميين، كان ترومان كثير الانشغال بمسألة ربط الإيمان الديني بالأخلاق العامة. ففي إحدى المؤتمرات الصحفية أجاب عن أحد الأسئلة «من الفراغ»:

مؤخرًا قلت: يا سيادة الرئيس، في مناسبات كثيرة، إن فلسفتك السياسية الخاصة ونظيرتها لدى الإدارة قائمة على الموعظة على الجبل.

الرئيس: صحيح!

س: هلا توسعت، سيادة الرئيس، في الموضوع وبينت كيفية ذلك؟

الرئيس: أفضل نصائحي لكم أن تعودوا إلى الأصحاحات الخامس والسادس والسابع من إنجيل القديس متى في ترجمة الملك جيمس، اقرؤوا ذلك بعناية كبيرة، فستجدون ما تبحثون عنه دون أي تعليق مني. [ضحك].

س: سيادة الرئيس، إنّ بعضَنَا ليس بهذا المستوى من الاطّلاع على الكتاب. هل أشرت إلى الأصحاحات الخامس والسادس والسابع؟

الرئيس: الإصحاحات الخامس والسادس والسابع من إنجيل القديس متى، طبعة الملك جيمس. اقرؤوا تلك الفصول الثلاثة، لن يستغرقكم ذلك عشرين دقيقة.

س: لا نستطيع أن نسمع سيادة الرئيس.

الرئيس: 'الموعظة على الجبل'. الحديث عن الموعظة على الجبل وفلسفتي السياسية. لقد نصحته أن يقرأ 'الموعظة على الجبل'.

س: هل أنت متفق مع ' الموعظة على الجبل '؟

الرئيس: نعم. إنني متفق معها تمامًا[14].

حين بلغ السادسة والستين من العمر، سجل ترومان في دفتر يومياته قائلاً: إن كتابته لإحدى الصلوات التي ظل حريصًا على حملها معه في محفظة جيبه وقراءتها مرة كل يوم تمت حين كان في الثامنة عشرة من العمر (ربما في عام عمادته، إذا كان تذكره هاتين المسألتين دقيقًا).

أيها الرب الكليّ القدرة الأبديّ الدوام، خالق السماء والأرض والكون.

ساعدني لأكون وأفكّر وأتصرّف على نحو صحيح، لأنه صحيح، اجعلني صادقًا وأمينًا، ومحترمًا في جميع الأشياء، واجعلني صادقًا فكريًا لأجل الحق والشرف، ودون التفكير بأيّ مكافأة لي. امنحني القدرة على فعل الخير، وأن أكون متسامحًا وصبورًا مع إخوتي من البشر، ساعدني على فهم دوافعهم وعيوبهم، كما تفهم، اللهم، دوافعي أنا وعيوبي!

آمين، آمين، آمين.

إن الدعاء الموجود على الوجه الآخر من هذه الصفحة قلته، أنا هَرِي إس ترومان، منذ أيام المدرسة الثانوية: غاسل نوافذ ومنظف قوارير وماسح أرضيّات في أحد مخازن الأدوية في إندبندنس الواقعة في ولاية ميسوري، وموقتًا مع فرقة سكك حديدية، وموظّفًا في جريدة ملأى بالأكاذيب ومدمرة الشخصيات، وكاتب مصرف ومزارعًا يسوق محراثًا خلف أربعة جياد وبغال، وموظف أخوية أتعلم السكوت المطلق في حال استحالة قول أي خير عن هذا الإنسان أو ذاك، وموظّف إدارة عامة آخذًا نقاطَ ضعف الرعية وعيوبها بالحسبان، ورئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية[15].

(بالمناسبة، إنه من الأمور المنعشة أن نلاحظ أن قاعدة «السكوت المطلق في حال استحالة قول أي خير عن هذا الإنسان أو ذاك» كانت ما تزال تترك للمرء حرية ملاحظة الأشياء ذات العلاقة «بجريدة ملأى بالأكاذيب ومدمرة الشخصيات»).

بالقدر نفسه تمامًا من الثقة وبالعناية الإلهية ذاتها قال عن أمته:

أدَّتِ العناية الإلهية دورًا كبيرًا في تاريخنا. يراودني شعور أن الرب خلقنا وأوصلنا إلى وضعنا الحاضر من الجبروت والقوة لغاية عظيمة محددة.

لسنا مؤهلين لمعرفة ماهية تلك الغاية بوضوح كامل، غير أنني أعتقد أن بوسعنا أن نكون موقنين بأمر واحد، ألا وهو أنّ بلدنا مكلف بأنْ يفعلَ كل ما يستطيع فعله، بالتعاون مع أمم أخرى، من أجل المساعدة على خلق السلام والحفاظ عليه في العالم. إنه مكلف بالدفاع عن القيم الروحية والميثاق الأخلاقي، إزاءَ قوى الشر الكبيرة التي تسعى إلى تدمير تلك القيم.

إنها مهمة صعبة. وهي مهمة لم نطالب بها. أحيانًا يحلو لنا أن نضعها جانبًا، إذ نرى أنها ملأى بأشكال عدم اليقين والتضحيات ونحن نواصل تنكبها، ولكن لا حاجة للخوف، ما دُمْنا مؤمنون[16].

بات علماء اللاهوت الليبراليون منذ وقت طويل شديدي الانزعاج والحرج من مثل ذلك النوع من الكلام. «فالكريسْتْيَن سنتشري» بادرت أكثر من مرة إلى توبيخ ترومان وتعنيفه على كلامه الديني التبسيطي، ولا سيَّما على إشاراته بين الوقت والآخر إلى التراث «المسيحي» للأمة، بل حتى إلى «رسالتها المسيحيَّة» في الشؤون العالمية[17].

5 . 2 . 4) فلسفة التاريخ عند ترومان

من الغلط الظن بأن حقيقة هَري ترومان من بدايتها إلى نهايتها كانت تؤكد أنه كان معمدانيًا. فقد كان الرجل كثير الاعتزاز بأنه قام باختلاق فلسفته الخاصة في الحياة، ميزته من أشخاص ذوي مستويات أدنى من الذكاء، بمن فيهم المعمدانيون، وبالنسبة إلى فلسفة الحياة هذه كانت القاعدة متمثلة بفلسفة التاريخ عنده.

يتفق جميع الشهود على السنوات الأولى من حياة هَري ترومان مع ذكرياته الخاصة التي تؤكد أنه كان قارئًا مُهَوَّسًا بالقراءة لا يعرف معنى التعب. (يبدو كأن في الأمر شيئًا من المبالغة، على أيّ حال، أن يقال، كما فعل هو على نحوٍ متكرّر: إنه قرأ جميع الكتب، بما فيها الموسوعات، الموجودة في مكتبة إندبندنس/ ميسوري، قبل انتهائه من المرحلة الثانوية، ثلاثة آلاف كتاب حسب تقدير ترومان، و«بعضها مرتين»)[18]. وإضافة إلى المكتبة العامة كانت ثمة مكتبة جيدة في البيت. وقد اشتملت كتبه المفضلة على مجموعة ديكنز (Dickens) وغِبون (Gibbon) وغرين (Greene) وبلوتارخ (Plutarch) وفوق هذه وتلك مجموعة سير حياة في أربعة مجلدات بعنوان «[رجال عظماء ونساء شهيرات] Great Men and Famous Women» من تحرير تشارلز فرنسِس هورن (Charles Francis Horne).

كان ترومان يقدم نفسه رجلاً ذا اطلاع واسع على التاريخ، وكان يستطيع أن يثبت صحة ادعائه على الفور عبر تقديم قائمة بطول ذراعك تضم أسماء أعلام الرجال الذين كان من شأن حياتهم وإنجازاتهم (إذا تجشمت عناء البحث عنهم وعنها) أن تثبت صحة المسألة المطروحة. يبدو أنه كان دائم المراجعة وإعادة النظر لهذه القوائم، بصوت مسموع في حال وجود من يسمع، وفي عقله في حال عدم وجود أحد، كما لو كان يتدرب على حفظ (جدول الضرب). ففي يومياته الأول، الثاني من كانون الثاني/ يناير عام (1952 م) مثلاً، دون وجود أي جمهور أبدًا، ينتقل من الإشارة إلى مشكلة بس (زوجه) مع حنجرتها الملتهبة وجملة المشكلات التي دأب أعضاء الأسرة في إبلاغه بها عبر الرسائل، إلى الآفاق الكئيبة للسلام في العالم، وهذا ما يدفعه إلى التأمل والتفكير.

بأننا نواجه أعظم العصور في التاريخ. ليتني كنت في السابعة عشرة بدلاً من السابعة والستين، مع الاندفاع نفسه الذي كان عندي وأنا في السابعة عشرة للتعلم ولمعرفة تاريخ العالم. سلخت وقتًا غير قليل وأنا أقرأ عن عظماء العالم: موسى ويشوع وداود وسليمان، وداريوس الأول وعمه قورُش الأكبر والإسكندر وهانيبال وقيصر أنطونيوس بايوس وهادريان وتيتوس وماركوس أورليوس أنطونيوس ورمسيس الثالث وكليوباترا ومارك أنطوني وأغسطس قيصر وتحتمس الثالث وأفلاطون وسقراط وبريكليس وديموستين وكيكرو وكاتُس كليهما، ومن ثم شارلمان وأبيه تشارل مارتِل ورولان وجون هنيادي في بلغراد وصلاح الدين وسليمان القانوني وجنكيزخان وقوبيلاي خان وتيمورلنك وجون سوبيسكي وريشليو وغوستاف أدولفوس السويدي وتشارلز الثاني عشر السويدي وألفرد الأكبر ووليم النورمَندي، أعظم الملوك الفرنسيين، وهنري الرابع الفرنسي وملوك النافار وفرنسس الأول الفرنسي، وشارل الخامس الإسباني وإليزابيث الإنغليزيَّة وماري السكوتلاندية وسير فرنسِس دريك وكابتن كيد ومارتن لوثر

وفريدريش الأكبر وماريا تريزا النمساوية، وولينغتون ولورد رَسِل وديزرائيلي وغلادستون وواشنطن وجفرسون وجاكسن ولنكولن وغروفر كليفلاند، وولسن وفْرَنكلِن روزفلت والأخير ![19].

لدى رده عن الأسئلة بخصوص آرائه في التاريخ أو الحياة العامة، كان يستطيع أن يحذف من القائمة العدد الذي بدا مطلوبًا:

مذكرة

الثامن من تموز/ يوليو (1953 م)

حين تكمل رسالتك لا تفكر إلا بالخدمة التي تستطيع تقديمها لإخوتك البشر.

ادرس حياة العظماء، العظماء الحقيقيين، أولئك الرجال الذين قدموا التضحيات في سبيل تحسين حال العالم وأحوال بلدانهم ومجتمعاتهم المنفردة.

ثمة أصناف مختلفة من الرجال والنساء الذين صنعوا التاريخ. ثمة إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى ويشوع، أنبياء إسرائيل العظماء، والمشرّع السومري العظيم حمورابي، وسولون وليكورغوس وأرستيدس وقورُش الأكبر وداريوس الأكبر والإسكندر وهانيبال وقيصر وجنكيزخان والمغولي العظيم تيمورلنك وصلاح الدين وسليمان القانوني وشارل مارتل وشارلمان ونابليون، على سبيل المثال لا الحصر.

وكان هناك بعد ذلك كل من بوذا ويسوع وسِنسِناتُس وجورج واشنطن وأبرهام لنكُلن، ووُدرو ولسن.

بعض أصحاب الأسماء العظيمة كانوا مدمرين البشرية، وبعضهم مشرعين، بعضهم كانوا وطنيين بسطاء فقط، وبعضهم فلاسفة؟ بعضهم رحل عن العالم وهو أسوأ مما كان عليه حين جاؤوا، وبعضهم رحلوا عنه وهو أفضل حالاً.

لقد ترك مشرعو الأخلاق والفلاسفة للعالم تراثًا أعظم بكثير مما تركه معظم الحكام والغزاة الفاتحين[20].

إذا كانت تلك القوائم وتلك الحكم الدليل الوحيد على ما تعلمه هَري ترومان من التاريخ، فإن المرء قد يميل إلى صرف النظر عنه كونه نموذج تلمِيذ مدع مصاب بشيء من القصور الذهني، ولكن الحقيقة هي أن رئيسًا آخر للجمهورية الأمريكية منذ روزفلت، ودون استبعاد وُدرو ولسن، لم يمض وقتًا أطول في قراءة التاريخ والحدب عليه. لقد قرأ ترومان سلسلة طويلة من الكتب المنشورة حديثًا من تأليف مؤرخين (أكاديميين) من كتب سير الحياة والروايات التاريخية في المقام الأول، عن التاريخ السياسي والعسكري الأمريكي أكثر الأحيان. لقد كان قليل الصبر مع المقاربات النظرية، وكان مقتنعًا بأنّ أكثر المؤرخين (الأكاديميين) خانوا الغاية الحقيقية لسرد التاريخ.

كان فهمه ذاته من صياغة تلك المطالعة وذلك الاحتضان والحدب، ولا بد لنا من وضعهما في مكان مرموق لدى سعينا لفهم دافعه في تلك اللحظات التي كانت فيها أفعاله متناقضة مع النصائح التي كانت تنهال عليه من جيش من المستشارين والأصدقاء والمتبحرين الراسخين في العلم. وفي هذا التصنيف لا بد لنا من إيراد بنود معينة مثل قرار السعي للرئاسة في (1948 م) وقرار طرد الجنرال مكرثر وقرار جَدب إضراب عمال الصلب في (1946 م) ولعل الأكثر ضجيجًا وبريقًا وإثارة من تلك القرارات كلها، قرار الاعتراف بدولة إسرائيل في الرابع عشر من أيار/ مايو (1948 م).

لم تكن نظرية محذلقة للتاريخ. إنها نوع من (كارليل)* الفقير، فقد قال: «إن التاريخ الواقعي يتألف من حياة وأعمال عظماء احتلوا المسرح في زمن بعينه». ومع ذلك تم اكتساب هذه النظرية بأمانة وصدق، عبر ممارسة الكثير من قراءة التاريخ البحثي (الأكاديمي) والشعبي. ومهما يكن فإن الصلاحية البحثية لتنظيره في التاريخ ليست موضوع النقاش هنا. فما يهم هو تصوره لنفسه، وما أضفاه ذلك على تنظيره في التاريخ.

ثمة مبدآن يبرزان، أولهما أن ثمة شيئ اسمه (عظمة تاريخية) وهي متجذرة في الشخصية:

لدى قراءة قصص حياة العظماء، وجدت أن الانتصار الأول الذي كسبوه كان على أنفسهم وعلى دوافعهم الشهوانية الوضيعة. كان الانضباط الذاتي لدى الجميع يحتل المرتبة الأولى. وجدت أن أكثر الذين كانوا حقًّا عظماء لم يعتقدوا قط أنهم كانوا عظماء، بعضهم كان يعتقد ذلك. لقد أعجبت بكل من سينسيناتوس وهانيبال وقورُش الأكبر وغوستافوس أدولفوس السويدي وواشنطن ولي وستونوول جاكسن وجيه إي بي ستيوارت.. لم أكن شديد الولع بالإسكندر وأتيلا وجنكيزخان أو نابليون، لأنهم قاتلوا في سبيل الإخضاع والمجد الشخصي مع أنهم كانوا قادة عظماء بين الرجال. أما الآخرون فقاتلوا في سبيل ما اعتقدوا أنه صواب، وقاتلوا من أجل بلادهم. لقد كانوا وطنيين وبعيدين عن الأنانية[21].

ويتمثل المبدأ الثاني بأن هذه الغربلة لشخصيات التاريخ العظيمة تتم في ظل رعاية الرب السماوية. فمع التتلمذ المعترف به على نحو تومَس جفرسون، ومع الشخصية التوم سويرية التي كان يحلو له أن يتقمصها بين الحين والآخر، فقد كان ترومان راسخ الاقتناع بالتوجيه الإلهي السماوي لحياته كما لحياة أي شخص آخر. ففي إحدى مواد اليوميات عن تاريخ السابع والعشرين من أيار/ مايو (1945 م) (نهاية الأسبوع السادس من رئاسته) تفضي رواية قصة لعبة البوكر في الليلة الماضية إلى ما يلي:

لسبب ما كنت محظوظًا إلى درجة كانت كافية كي لا أخسر أي مال. يبدو أن الحظ يقف في صفي على الدوام في ألعاب المصادفة والسياسة. ما من أحد كان أوفر مني حظا منذ أن أصبحت المسؤول التنفيذي الأول والقائد العام. سارت الأمور على نحو بالغ الجودة حتى أنني لا أستطيع فهم السبب، اللهم إلا إذا عزوتها إلى الرب. أعتقد أنه يرشدني[22].

خلافًا لحال فْرَنكلِن روزفلت، كان هَري ترومان مفكرًا بالغ الصرامة، وإن لم يكن عميقًا. فقراراته الكبرى كانتَ نتاج قناعات عن مسيرة التاريخ وتوجّهه المتكشفَين أمام عينيه جرى اكتسابها بصعوبة. وقد كان لهذه الرؤيا التاريخية مصدران، أحدهما لاهوتي والثاني فلسفي، حيث اضطلع الأول، أي المصدر اللاهوتي، بدور رعاية إيمان غير محذلق 'أصولي' عمليًا، مع ما يطلق عليه اللاهوتيون اسم (نظرة عليا/ high view) لسلطة ‹الكتاب› جنبًا إلى جنب مع قناعة راسخة بأن السماء أو العناية الإلهية هي التي توجه حياته الشخصية. أما المصدر الفلسفي فقد استمده مما يمكن أن يطلق عليه اسم نظرية (رجل عظيم/ great man) أصولية كارلايلية في التاريخ. ففي كل يوم من حياته الرئاسية، تفكر ترومان مليًا وبعزم راسخ بمسلسل الأحداث غير العادية التي أوصلته إلى حيث كان. دأب في التمعن في دراسة نقاط قوته ونقاط ضعفه الخاصة متصالحًا تمامًا مع حقيقة أصوله المتواضعة، ثم ما لبث أن توصل بكل هدوء إلى استنتاج يقول إنه كان قورُش.

لم يكن احتمال أن يُدعى أحدهم، ذات يوم، إلى الاضطلاع بدور قورُش الجديد [الذي بعث حيًا من جديد/ Cyrus redivivus] كلامًا مجرّدًا، بل أكبر الحقائق الممكنة وأعظمها. ذلك ما كان معلموه قد علموه إياه في مدرسة الأحد، وذلك ما كان مكدونلد وبلاكستون قد أكداه في مواعظهما، وذلك ما كان مرتلو مذكرة بلاكستون قد أقرّوه، وذلك ما دفع ولسن إلى الإقرار بوعد بلفور.

6 . 2 . 4) التركة : السياسة الأمريكية تجاه فِلَسْطِيْن في نَيْسَان/ أبريل (1945 م)

كان ترومان من بداية رئاسته ملتزمًا بالسعي لتحقيق مصالح أفضل ليهود العالم، ولم يراوده الشك بتاتًا باحتمال مواجهة سعيه هذا أي تعارض مع مصالح الولايات المتحدة أو الأمم المتحدة. فمثله مثل معظم أمريكيي ذلك الزمان

لم يكن، بعد، شديد الاقتناع اقتناعًا غير قابل للمقاومة بأن الخلق الفوري لـ(كومنولث) يهودي متمتع بالسيادة هو الأسلوب الأمثل لخدمة هذه المصالح المتشابكة: مصالح الأسرة الدولية، ومصالح الولايات المتحدة ومصالح اليهود، غير أنه ما لبث أن توصل إلى ذلك الاستنتاج مع مرور الزمن، حاذيًا، إلى هذا الحد أو ذاك، حذو أكثرية اليهود الأمريكيين. ومثله مثل معظم يهود أمريكا، كان راغبًا في سماع الدفاع عن استمرار الانتداب البريطاني على نحو أو آخر إلى منتصف عام (1946 م) حيث اتضح وضوحًا لا لبس فيه أن حكومةً بريطانيا كانت عازمة على البقاء في الشرق الأوسط وفق شروط تتيح، وربما تتطلب حسب رأيها، التخلي عن يهود فِلَسْطِيْن لعدو قديم يستحيل استرضاؤه.

استذكر ترومان في (مذكرات):

> **كنت على الدوام واعيًا حقيقة عدم نظر جميع مستشاري إلى المشكلة الفِلَسْطِيْنية كما أنظر إليها أنا. لم يكن ذلك أمرًا غير عادي بطبيعة الحال. صحيح أن المخططين العسكريين يَتَحَتَّم عليهم دراسة جميع القضايا أولاً ومن منظور الحسابات العسكرية دائما، غير أن مقاربة الدبلوماسي تتحدد، أو يجب أن تتحدد على أيّ حال، بحسابات تخص علاقاتنا مع الدول الأخرى.. واختصاصيو وزارة الخارجية في شؤون الشرق الأدنى كانوا، دون استثناء تقريبًا، غير محبِّذين لفكرة دولة اليهود**[23].

في الأيام الأخيرة من حياة فْرَنكلِن روزفلت، كان الجهاز الدائم لكبار موظفي وزارة الخارجية بدأ يعتقد أنه، في صراعه مع الصهاينة، استعاد التفوق على قلب رئيس الجمهورية وعقله. وثمة مذكرة مؤرخة في السادس من نَيْسَان/ أبريل (1945 م) (أسبوع واحد قبل وفاة روزفلت) صادرة عن نائب مدير مكتب شؤون الشرق الأدنى وإفريقية، بول ألّنغ (Paul H. Alling) موجهة إلى مساعد وزير الخارجية جيمس دن (James C. Dunn) تحدد الخطوط العريضة لسياسة الوزارة:

من أجل مواجهة.. الانطباع الشرق الأدنى غير المواتِ والناجم عن استمراره [فْرَنكلِن روزفلت] في تشجيع الصهاينة.. فإن المشيرات المتكررة الدالة على تأييد التطلعات الصِهْيَوْنيَّة والصادرة عن أوساط حكومية متنفّذة تلحق أكبر الأضرار بموقفنا في المنطقة كلها.. لو كنا سنؤدِّي حقًّا السياسة التي يريدها الصهاينة، لكانت العواقب كارثية بالطبع.. [يَتَحَتَّم علينا أن نقنع الرئيس أن] يعلن في إحدى المناسبات العامة الملائمة جملة الضمانات التي قدمناها للحكومات العربية والقاضية بأن أي حل للمشكلة الفِلَسْطِيْنية لن يتم دون التشاور مع الطرفين العربي واليهودي[24].

ومتابعة لهذه السياسة تم إعداد بيان عرض على الرئيس للتوقيع، حتى يقرأه فْرَنكلِن روزفلت لدى استقباله العاهل العراقي في الثاني عشر من أيلول/ سبتمبر، غير أنه لم يقرأه أبدًا فْرَنكلِن روزفلت الذي توفي في اليوم نفسه حصرًا[25]. لعل النقطة الأولى الواجب على دارس سياسة الشرق الأدنى لدى الرئيس الجديد أخذها بالحسبان مذكرة صادرة عن وزير الخارجية ستتينيوس إلى الرئيس ترومان، تحمل تاريخ يوم الأربعاء الواقع في الثامن عشر من نَيْسَان/ أبريل (1945 م) (سادس أيام هَرِي ترومان في عمله الجديد):

ثمة احتمال قوي أن يتم بذل جهود معينة من بعض القيادات الصِهْيَوْنيَّة للحصول منك في تاريخ مبكر على بعض الالتزامات المنطوية على فوائد بالنسبة إلى البَرْنَامَج الصِهْيَوْني الضاغط في سبيل الهجرة اليهودية غير المحدودة إلى فِلَسْطِيْن ومن أجل إقامة دولة يهودية.

من المعلوم أن الحكومة والشعب الأمريكيين يكنان كل أشكال التعاطف مع يهود أورُبَّة المضطهدين ويفعلان كل ما بوسعهما في سبيل التخفيف من معاناتهم. غير أن المسالة الفِلَسْطِيْنية تبقى مسألة بالغة التعقيد ومنطوية على قضايا تتجاوز معاناة اليهود في أورُبَّة كثيرًا. إذا كانت هذه المسألة ستُطرح عليك على شكل مطلب من أجل الإدلاء بتصريح علني حول الموضوع، فإنني أعتقد أنك ربما تكون راغبًا في الحصول على المعلومات الكاملة

والتفصيلية عنِ الموضوع قبل الإقدام على اتخاذ أي موقف خاص على نحو آني. ومن ثَمَّ فإنني سأكون بالغ السعادة حين أظل جاهزًا لتزويدك بالمعلومات الأساسية عن الموضوع في أي وقت تشاء[26].

ومما كتبه بيتر غروز عن هذه المذكرة:

لقد ترك تأثيرًا ذا عواقب دائمة وبعيدة المدى لم تكن البتّةَ مواكبة للخط الذي رسمه الدبلوماسيون.. قد تكون شرائح الخبراء المعتادين على إعداد مسودات الرسائل للرؤساء اعتقدت بصدق أنها كانت ملبية لمتطلبات اللحظة ومتجاوبة مع حاجاتها، غير أنها لم تكن تعرف بعد هَري ترومان. إن خبراء الشؤون الفِلَسْطِيْنية، بلهجتهم المتأستذة، المناسبة لمجلس متقدمين في مخاطبة فتى جديد في صف أدنى، أقدموا، في الأسبوع الأول، على اقتراف خطأ في الحساب لن تتعافى منه علاقاتهم مع رئيس الجمهورية قط[27].

7.2.4) صياغة سياسة أمريكية في ضوء احتمالات ما بعد الحرب

فيما كان هَري ترومان يستعد لالتقاط الأمور في بوتسدام من حيث كان روزفلت قد تركها في يالطا، تلقى برقية من المؤتمر القومي لـ(لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) المنعقد في برنستن (من الثاني إلى الثامن من تموز/ يوليو 1945 م) تطالبه بإلحاح بجعل الثلاثة الكبار يتناولون القضية الفِلَسْطِيْنية في الاجتماع المنتظر. وبعد بضعة أسابيع، في مؤتمر دام ثلاثة أيام عقد في منتصف شهر تِشْرين الأول/ أكتوبر استمع زُهَاء ألفين من «المثقّفين 'الدعاة' المسيحيين» إلى كلام عدد من الخطباء المرموقين، بمن فيهم راينهولد نيبور، كارل فريدريش، والتر لودرميلك، وعضو مجلس الشيوخ أوين بروستر (Owen Brewster) وهم يدافعون عن الحل الصِهْيَوْني للمسألة اليهودية. وقد قالت النائبة هيلن غاهاغن دوغلاس (Helen Gahagan Douglas): «إن على أمريكا أن تطالب

بريطانيا بتنفيذ تعهد بلفور، ودانت بريطانيا على أسلوبها اللاإنساني في التعامل مع أوضاع اللاجئين». ومما قالته: إن «اليهود في فِلَسْطِيْن اليوم يقومون بترجمة نبوءات الكتاب إلى واقع حي، يحاولون، بوعي، بناء مجتمع جديد بتراثهم الأخلاقي.. ما قد فعلته فِلَسْطِيْن اليهودية إلى الآن بقوة المثال يؤكد لنا نحن الأمريكيين أنها هي المفتاح المناسب لإشاعة الديمقراطية في البلدان العربية وأن تطورها يشكل، من ثَمَّ، مصلحة أمريكية خاصة»[28].

ومع ذلك فإن ترومان لم يكن في بوتسدام أوفر حظًا من روزفلت في يالطا حول هذه المسألة. ففي هذه المرحلة المبكرة لم تكن حكومة المملكة المتحدة تتوقع أيّ مقاومة قوية لهيمنتها على الساحة الفِلَسْطِيْنية. وبالطبع فإن البريطانيين كانوا يدركون أن الرئيس الجديد، مثله مثل الرئيس السابق، سيكون خاضعًا لحملة من الضغوط الصِهْيَوْنيَّة. قام اللورد هاليفاكس (Lord Halifax) السفير البريطاني في الولايات المتحدة، في تقرير له رفعه إلى وزير الخارجية أنطوني إيدن (Anthony Eden) في الأول من تموز/ يوليو (1945 م) بتقويم الاحتمالات السياسية قائلاً:

في المقام الأول ينبغي أن نتذكر أن هناك خمسة ملايين مواطن من اليهود في الولايات المتحدة 'وهم يشكلون زُهَاء نصف باقي اليهود في العالم'. كثيرون منهم يشغلون مناصب مرموقة، حول البيت الأبيض، في الإدارة، وفي وسائل الإعلام. وفي الولاية المفتاحية انتخابيًا، نيويورك، قد تكون أصوات اليهود كافية لقلب الموازين في سنوات الانتخاب. ومن ثَمَّ فإن اليهود قادرون على ممارسة ضغط لا يستهان به على الإدارة، في الكونغرس وعلى الرأي العام، ولكنهم ليسوا، وحدهم، أقوياء بمقدار ما يثيرون من ضجيج. سيبقى نفوذهم معتمدًا دائمًا على نحو رئيس على مدى قدرتهم أو عدمها على اجتذاب الرأي غير اليهودي معهم في أيّ قضية محددة، وخصوصًا على كسب تأييد قياديين غير يهود في الإدارة والكونغرس.

عدا جماعات وأفراد هنا وهناك، ليس الرأي غير اليهودي، على العموم، شديد الاهتمام بحسنات وسيئات حلول معينة للمشكلة الفَلَسْطِيْنية اللهم إلا على صعيد تأثير هذه الحلول في قضية الهجرة.. فالمواطن العادي لا يريدهم في الولايات المتحدة، وهو يريح وجدانه بالدعوة إلى قبولهم في فِلَسْطِيْن. ومن ثَمَّ فإن اليهود يستطيعون، في هذه القضية، أن يجروا معهم الإنسانيين الليبراليين من جهة والكثير ممن يعادون اليهود من جهة ثانية..

أما وزارة الخارجية حصرًا فهي أميل إلى قضية العرب منها إلى القضية اليهودية.. والولايات المتحدة الأمريكية باتت مهتمة بالشرق الأوسط: بسبب المصالح النفطية الأمريكية في العربية السعودية وإيران أولاً، وبسبب فُرص الطيران المدني والتوسع التجاري ثانيًا، ولأن أمريكا، في مزاجها الحالي، تشعر بأنها لم تعد قادرة على البقاء في منأى عن أيّ منطقة من العالم قد ينشأ فيها خطر يتهدد سلام العالم، ثالثًا.. وفي الوقت نفسه راح الاتحاد السوفييتي يهتم بالمسرح الشرق أوسطي كله، بما ينطوي عليه ذلك من عواقب يتعذر التكهن بها بالنسبة إلى الوحدة الإقليمية والبنى الاجتماعية لبلدان واقعة هناك..

إن السيد بيرنز، وزير الخارجية، يجب أن يكون متأثرًا بوجهات نظر أصدقاء مقربين وحميمين مثل السيد بنجَمن كوهن والسيد القاضي فرنكفُرتر. كما أن لرئيس الجمهورية ترومان نفسه صديقًا واحدًا أو اثنين من اليهود المقربين وإن لم يكونوا ذوي أهمية[29].

كان تحرك ترومان الجوهري الأول بعد بوتسدام، حول هذه المسألة، متمثّلاً بتشكيل هيئة لدراسة وضع النازحين في أورُبَّة، برئاسة إرل هَرسن (Earl G. Harrison) مفوض سابق للهجرة والجنسية، وعميد مدرسة الحَقوق بجامعة بنسلفانيا في (1945 م). أدى تقرير هَرسن الصادر في آب/ أغسطس (1945 م) إلى تبديد الشكوك في الوضع اليائس ليهود أورُبَّة من جميع العقول عدا المفرطة منها في نزعتها الكلبية القائمة على الريبة. وقد جاء في التقرير «إننا

نعامل اليهود، على ما يبدو من حال الأمور، كما عاملهم النازيون مع فارق أننا لا نبيدهم.. أما فيما يخص أماكن إعادة التوطين الممكنة فإن فِلَسْطِيْن هي، بالتحديد وعلى نحوٍ صارخ، الخيار الأول»[30].

في هذه الأثناء كتب ترومان إلى عضو مجلس الشيوخ جورج: «يتركز اهتمامي الوحيد على الاهتداء إلى طريقة ما مناسبة لتوفير العناية والرعاية لهؤلاء النازحين، ليس فقط لأن من الواجب أن تتم العناية بهم وهم في حالة تثير الشفقة من البؤس، بل ولأن مصلحتنا المالية الخاصة تقضي بأن يوضعوا تحت الرعاية لأننا نقوم بإطعام أكثريتهم»[31]. كان ترومان يعرف أن الرأي العام الأمريكي كان بأكثريته الساحقة معاديًا للخيار الأول (إشاعة الليبرالية في قوانين الهجرة بما يوفر إمكانية حدوث هجرات جماعية كبيرة إلى الولايات المتحدة). ولإنجاز الخيار الآخر، كان على ترومان أن يقنع البريطانيين بالتخلي عن سياسة الكتاب الأبيض، بفتح أبواب فِلَسْطِيْن، وبالتصدي للمعارضة العربية لاتباع وعد بلفور.

مدفوعًا بتقرير هَرسن، وضاربًا عرض الحائط بآراء وزارتي الخارجية والحربية دأب ترومانَ، في العلن والسر، في زيادة الضغط على البريطانيين في سبيل إجبارهم على قبول ما لا يقل عن مئة ألف يهودي فورًا. لقد كان ترومان الآن خاضعًا لقدر هائل من الضغط السياسي الداخلي الآتي من المواطنين اليهود ومعهم غير اليهود أيضًا في وقت كانت فيه العقول تتجه نحو الانتخابات المرحلية المقرر إجراؤها في تِشْرين الثاني/ نوفمبر من عام (1946 م). جاء في تقرير السفارة البريطانية بواشنطن الموجه إلى وزارة الخارجية في شُبَاط/ فبراير (1946 م) عن الوضع، ما يلي:

> **خابت الآمال الصِهْيَوْنيَّة.. قبل ستة أشهر كان الصهاينة الأمريكان يأملون في الإمساكَ بالقمر. أما الآن فهم يعلمون أنهم لن يصلوا إليه.. بات الإيمان بأن السبب الأساس للمأساة اليهودية هو عدم وجود وطن**

يكتسب راهنية أوسع فأوسع، يطغى على الإحساس والمنطق العام، ويطرد المنظور التاريخي[32].

موقنين بأن الرأي العام الأمريكي لن يبقى مشغولاً بالقضية على المدى الطويل، ظل البريطانيون يصرون على حاجة المسألة كلها إلى المزيد من الدراسة، وهذا ما أعاد الجميع بالذاكرة إلى التاريخ المشؤوم لتلك السلسلة من اللجان الملكية في عقدي العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، وإلى التمزيق المطرد لالتزام بلفور. تصرف ترومان بدهاء ثعلبي تفوّق به على البريطانيين حين وافق على اقتراحهم القاضي بتشكيل لجنة تقصي حقائق إنغليزيَّة أمريكية مشتركة، ولكن مع وضع شرط يقول بضرورة الربط على نحو واضح وصريح بين قضيتي مستقبل يهود أورُبَّة من جهة، ومستقبل فِلَسْطِيْن من جهة ثانية في بند المراجع.

نجح المستشارون الموالون للصِهْيَوْنية، في بطانة ترومان الداخلية، في تعيين الكثير من الأصدقاء المخلصين للصِهْيَوْنية في المناصب الأمريكية العليا. كان جيمس مكدُنلد (James G. McDonald) المفوض السامي لشؤون اللاجئين السابق في عصبة الأمم، وسفير أمريكا الأول في إسرائيل لاحقًا، واحدًا من هؤلاء، وكان بارتلي كْرَم (Bartley C. Crum) المحامي الناشط في قضايا الحريات المدنية، الجمهوري الليبرالي، المقرب من وندل ويلكي (Wendell Willkie) في (1940 م) رئيس الجمهوريين المؤيدين لروزفلت في (1944 م) وأحد الأصدقاء المخلصين لـ(لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية المسيحيَّة) شخصًا آخر من الجماعة إياها.

بادرت (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية المسيحيَّة) إلى تقديم تقريرها الموجز أمام اللجنة المشتركة في المراحل المبكرة من جلساتها. وقد كانت الأطروحة شاملة لعناصر من كل من الرسالة «البلاكستونية» العتيقة واللغة الليبرالية العلمانية لخطاب «الحريات الأربع» لروزفلت في (1940 م):

انطلاقًا من « الكتاب » تؤمن الكنائس المسيحيَّة بأن الرب دعا اليهود إلى إقامة دولة لتقديم خدمات صريحة للبشرية.

يعتقد المسيحيون، ومثلهم في ذلك مثل اليهود، أن فِلَسْطِيْن اختارتها العناية الإلهية بصفتها الموقع المخصص للأمة اليهودية وأن من شأن استمرار الثقافة، الفلسفة، والمبادئ المثالية اليهودية في ذلك المكان تحت حماية وضع قومي محدد أن يلقى مباركة السماء واستحسانها[33].

وفي العاشر من كانون الثاني/ يناير (1946 م) ظهر راينهولد نيبور أمام اللجنة نيابة عن المجلس المسيحي من أجل فِلَسْطِيْن. وقد كانت رسالته أكثر واقعية، وأقل مثالية ولاهوتية من نظيرتها الصادرة عن مؤسسة (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية) المسيحيَّة:

ليس ثمة حل كامل لأيّ مشكلة سياسية. غير أن حقيقة أن للعرب مساحات واسعة من الأرض في الشرق الأوسط، وحقيقة أن ليس لليهود أي مكان يذهبون إليه، ترسخان العدالة النسبية لمطالبهم ولقضيتهم..

يلتزم المسيحيون بالديمقراطية بصفتها الحماية الوحيدة لقدسية الشخصية الإنسانية.. وتستند المعارضة لفِلَسْطِيْن يهودية، جزئيًا، إلى معارضة العرب للديمقراطية، للثقافة الغربية، للتعليم وللحرية الاقتصادية. وليس دعم المعارضة العربية إلا دعماً للنظام الإقطاعي والفاشية في العالم على حساب الحقوق الديمقراطية والعدالة[34].

صحيح أن لجنة تقصي الحقائق لم تدع في تقريرها الصادر يوم العشرين من نَيْسَان/ أبريل (1946 م) إلى التنفيذ الفوري لوعد بلفور وهذا ما أثار كآبة الصهاينة، غير أنها دعت حقًّا وعلى نحو جماعي إلى الإصدار الفوري لمئة ألف شهادة هجرة إلى فِلَسْطِيْن، وقد انطوى ذلك على إقحام البريطانيين في أزمة علاقات عامة مستحيلة. إذا منحت الشهادات فسوف تخسر العرب.

وإذا لم تفعل، فقد كانت تعلن للعالم أنها لن تسمح قط بحل مسألة يهود أورُبَّة بالطريقة الوحيدة التي تمكّن طرف محايد ومعين رسميًا من مواطنين مرموقين من البلدين كليهما من الاهتداء إليها من أجل حلها.

عند ذلك المنعطف، بدأ ترومان يطالب بريطانيا بالسماح بهجرة اليهود الجماعية إلى فِلَسْطِيْن. منذ ذلك اليوم فصاعدًا، بات واضحًا أكثر فأكثر أن الرئيس ترومان لم يكن متناغمًا مع أسرته الرسمية من المستشارين. ومن بين السلسلة الطويلة من الأمثلة التي يمكن إيرادها أن رئيس قسم الشرق الأدنى بوزارة الخارجية، لوي هندرسن، لم يتردد، في غمرة حماسته لرؤية الصهاينة خائبين والبريطانيين ظافرين، في خيانة الرئيس ترومان، كما نرى من برقية أرَسِلها السفير البريطاني إلى وزارة خارجيته، في السابع من أيار/ مايو (1946 م):

تستوجب هذه البرقية قدرًا استثنائيًا من السرية ويَتَحَتَّم على المفوض باستلامها أن يحفظها وألا تخرج من يده.

التوزيع في مجلس " الوزراء ": من واشنطن إلى وزارة الخارجية: مُهِمّ سري

.. قام هندرسون بإبلاغ أعضاء من جهازي أن وزارة الخارجية، بما فيها هو نفسه، بذلت كل الجهود في سبيل الحيلولة دون صدور البيان الأحادي عن الرئيس حول فِلَسْطِيْن. فالرئيس وآتشيسون كانا، كلاهما، قد أبرقا لبيرنز في باريس حول الموضوع.. غير أن قوى كانت تعمل في البيت الأبيض، قوى لم تكن وزارة الخارجية قادرة تمامًا على ضبطها. كان هندرسون شديد الأسف إزاء ما حدث، لمعرفته بأن ذلك أدى إلى مضاعفة الصعوبات التي تحيط بالمسألة الفِلَسْطِيْنية[35].

وصلت العلاقات الرسمية البريطانية الأمريكية إلى حضيض جديد حين تكلم وزير الخارجية البريطاني إرنست بيفن (Ernest Bevin) أمام الاجتماع السنوي لحزب العمال البريطاني في بورنمث قائلاً: «أرجو ألا يساء فهمي في

أمريكا إذا قلت، انطلاقًا من أنقى الدوافع،: إن السبب كامن في أنهم لم يريدوا أن يروا عددًا كبيرًا جدًا منهم (من اليهود) في نيويورك».

من المؤكد أن الرئيس ترومان كان يغدو خاضعًا أكثر فأكثر لنفوذ الموالين للصِهْيَوْنية، وصحيح أيضًا أن الحسابات السياسية الداخلية أدَّت دورًا جوهريًا ذا شأن. ومن أولئك الأكثر نشاطًا وفعالية في دفع ترومان إلى التحالف مع الطرف الصِهْيَوْني في قضية فِلَسْطِيْن كان بارتلي كْرَم. فبعد أشهر قليلة فقط من عمله مع لجنة التحقيق، نشر كتابًا «[خلف الستار الحريري: رواية شخصية لقصة الدبلوماسية الإنغليزيَّة أمريكية في فِلَسْطِيْن والشرق الأوسط] Behind the Silken Curtain: A Personal Account of Anglo–American Diplomacy in Palestine and the Middle East، 1946». كان جانب كبير منه من عمل فريق صغير من الكتاب الأشباح المعينين من (المجلس الصِهْيَوْني الأمريكي للطوارئ) برئاسة غِرُلد فرانك (Gerald Frank). احتل الكتاب مكانه بين قوائم الكتب الأكثر مبيعًا لأشهر كثيرة في عامي (1946–1947 م) 'أول كتاب صِهْيَوْني يصبح من الكتب الأفضل مبيعًا في البلاد' كما تباهت الهيئة التنفيذية للمجلس في مذكرة دولية. وفي الوقت نفسه، دأب بارتلي كْرَم في الظهور أمام جماهير (لجنة فِلَسْطِيْن الأمريكية المسيحيَّة) مضفيًا وزن شهرته الأدبية الجديدة على فريق المسيحيين الموالين للصِهْيَوْنية[36].

أما وقد وصل الأمر إلى هذا الحد، فقد قرر البريطانيون، في فورة غضب شديدة، أن المخرج الوحيد هو تسليم المشكلة إلى الأمم المتحدة. ففي الخامس والعشرين من شُبَاط/ فبراير (1947 م) أعلنوا اعتزامهم فعل ذلك قبل نهاية شهر أيار/ مايو من عام (1948 م). وبعد ذلك، بات الزخم الرئيس للسياسة البريطانية في هذه المسألة منصبًا على فعل كل ما هو ممكن لتحسين الوضع العسكري للدول العربية، وتعزيز وضعها الدبلوماسي في الأمم المتحدة، انتظارًا للإخفاق المحتوم لمحاولة اليهود الرامية إلى إقامة دولة قادرة

على البقاء. وفي الأشهر التي تلت أخفقت حكومتا هَري ترومان وكلمنت آتلي (Clement Attlee) في الاهتداء إلى أساس للاتفاقَ على أي من جوانب المأزق الفِلَسْطِيْني ذي الوجوه المتعددة. أما الرسائل الدبلوماسية المتبادلة حول الموضوع في هذه الفترة فهي مصقولة على نحوٍ غير عادي، حتى تكاد تكون فظة بعض الأحيان.

في الوقت نفسه، زاد نفاد صبر ترومان مع جهود أولئك المحيطين به ومحاولاتهم الرامية إلى جعل قرارات الحكومة الأمريكية مستندة كليًا إلى بَرْنَامَج القيادات الصِهْيَوْنيَّة. فعلى جيمس مكدونَلد المرَسِل إليه في أيار/ مايو (1946 م) من القيادة الصِهْيَوْنيَّة لتوفير تأييده العلني للتقسيم المباشَر، رد ترومان بنزق وعصبية قائلاً: «يا للجحيم ! إنك لن تستطيع إشباع أولئك الناس!». أجابه مكدونَلد بحماقة قائلاً:«كان روزفلت يتفهّم بعض هؤلاء غير القابلين للوزن. كان يفهم شعور الناس». فجاء جواب ترومان الغاضب على النحو التالي:«أنا لست روزفلت. أنا لست من نيويورك. أنا من الغرب الأوسط». غير أن مكدونَلد رد دونما أثر للخوف:«أعرف ذلك، ولكنك تستطيع كسب دعم الشعب اليهودي، إذا بقيت متمسكًا بهذا فقط». ولكن ترومان لم يكن قد مل على أيّ حال، إذ كرر: «لا يمكنك إشباع هؤلاء الناس. ليسوا مهتمين بالولايات المتحدة. اهتمامهم منصب على فِلَسْطِيْن واليهود». ومرة أخرى «أنا لست من نيويورك. أنا من الغرب الأوسط. يجب أن أفعل ما أعتقد أنه صحيح»[37].

في ربيع (1947 م) أسست الأمم المتحدة لجنتها الخاصة بفِلَسْطِيْن، التي قدمت في أيلول/ سبتمبر تقريرها المؤيد لتقسيم الأراضي الخاضعة للانتداب إلى دولتين: واحدة عربية وأخرى يهودية، مع إخضاع القدس لإدارة الأمم المتحدة. بادرت الوكالة اليهودية إلى قبول التقرير،ي حين رفضه العرب.

خلال هذا الوقت كله، دأب الصهاينة وأصدقاؤهم في حشد التأييد

دون توقف. تفجّر انزعاج ترومان من الأساليب الفظة التي درج الصهاينة وأصدقاؤهم على اعتمادها مرة بعد أخرى من خلال مراسلاته مع الأصدقاء والمستشارين. ففي تناقض صارخ مع أسطورة هيام ترومان المُهَوَّس بالأصوات اليهودية، نجد كثرة من الأدلة التي تشير في هذه الأشهر إلى عزوف الرئيس المدروس عن التعاون مع المستشارين السياسيين الساعين إلى جعله يتخذ موقف مجابهة من القضية. ثمة اجتماع مع إمانويل سيلار وغيره من أعضاء الكونغرس النيويوركيين في تموز/ يوليو (1946 م) لم يكن على ما يرام. من الواضح أن شيئًا عن مضمون الاجتماع جرى تسريبه إلى ‹نيويورك تايمز› وهو عمل بحد ذاته كلف الصهاينة ثمنًا باهظًا على صعيد حسن النية الرئاسية التي حفزت قصتها في الاجتماع السفير البريطاني اللورد إنفرتشبل (Lord Inverchapel) إلى الكتابة إلى وزارة الخارجية رسالة مرحة قال فيها:

> **يبدو أن استقبال السيد ترومان ضيوفه خانة النكد إزاء مسيرة الإزعاج الصِهْيَوْني الطويلة التي يتم إخضاعه لها على نحو شبه متواصل. فقد قالَ: إنه يعرف كل شيء عن فِلَسْطِيْن وليس لديه وًقت للإصغاء، وهو مشغول بقضايا أكبر تخص النازحين عمومًا، وإنه، مع عدم لومه أعضاء الكونغرس على المجيء، نظرًا لأنهم يستعدون للانتخابات في الخريف، قد آن أوان أن يأتي شخص ما إليّ ليبحث معي مشكلة تخص الولايات المتحدة للتغيير.. وهذا كله يؤكد صحة تعليق آتشسون على مسمعي الذي قال فيه: إنّ الرئيس مستاء من المسألة كلها. ويبدو أيضًا أن ما جرى يشي بأنه بات متعبًا من الضغوط الصِهْيَوْنيَّة**[38].

كتب ترومان إلى رئيس لجنة ولاية نيويورك للحزب الديمقراطي يقول بنزق: «يقوم اليهود بكل شيء يستطيعونه من أجل قلب عربة التفاح، كما فعلوا من قبلُ حين توصلنا إلى ما يشبه التسوية. أريد أن أقترح عليك أن تنصحهم بأن يلزموا الهدوء»[39].

في الرابع من تِشْرين الأول/ أكتوبر (1946 م) في الوقت المناسب بالنسبة إلى الانتخابات المرحَلية، قام ترومان بإصدار بيان قوي (يذكره الناس باسم 'بيان يوم الغفران'/ Yum Kippur statement) عبّر فيه عن خيبته من سياسات الحكومة البريطانية إزاء القضية الفِلَسْطِيْنية. فقد أصر «استحالةَ إبقاء الهجرة ذات الشأن إلى فِلَسْطِيْن تنتظر حلَ المسألة الفِلَسْطِيْنية. لا بد لمثل هذه الهجرة من أن تبدَأ فَوْرًا.. يَتَحَتَّم على قوانين الهجرة للبَلدانِ الأخرى، بما فيها الولايات المتحدة أن تصبح ليبرالية» وتحدث أخيرًا، عن التطلع إلى «حل يتناغم مع الخطوط» المقترحة من جانب الوكالة اليهودية. ومن ثَمَّ يكون حلاً لا ينقصه إلا الإقرار بالتقسيم. وحين بات واضحًا مع حلول أواسط عام (1947 م) أن لا شيء غير التقسيم الرسمي قادر على إنقاذ (اليشوف) ويهود أورُبَّة المشردين، أقدم ترومان رسميًا على تبني ذلك الحل، وفرضه سياسة أمريكية على وزارة خارجية متمردة، بل وغادرة حقًا على نحوٍ متكرر[40].

8.2.4) حاييم وايزمن وهَرِي ترومان

ما من أحد من أنصار الصِهْيَوْنيَّة وحملة رايتها الذين قابلهم هَري ترومان في الأسابيع الأولى من رئاسته، فاجأه بصفته شخصية متماسكة جديرة بالاعتماد عليها، ومن المؤكد أن أحدًا منهم لم يكن ملبيًا مفاهيمه عمَّا ينبغي للشخصيات التاريخية العظيمة أن تبدو وتتصرف. وفي الوقت نفسه كان هَري ترومان، في أثناء مناقشاته مع مستشاريه السياسيين الذين ورثهم عن رئاسة فْرَنكلِن روزفلت، قد لاحظ أن كلاً ممّن وجدوا مناسبة للإتيان على ذكر اسم حاييم وايزمن أمامه تحدث عنه على أنه من نوعية مختلفة.

مع أن فترات غير قليلة من الزمن منذ إنجاز وعد بلفور شهدت أن وايزمن كان على خلاف مع باقي القيادة الصِهْيَوْنيَّة في أورُبَّة، وفي فِلَسْطِيْن، وفي أمريكا، فقد كان من المسلم به عمومًا أن أحدًا من منافسيه لم يصبح قط،

في حقيقة الأمر، أكثر من زعيم إحدى الفصائل المنضوية تحت لواء الحركة الصِهْيَوْنيَّة. يقول نورمَن روز: «يتميز وايزمن قائدًا في تاريخ الصِهْيَوْنيَّة بأنه لم يتزعم أي حزب أو فريق، قاد الحركة أو لم يقد قَطُّ»[41].

كان وايزمن، مثله مثل هَري ترومان، «يعد نفسه رجلاً 'عميق التدين وإن لم يكن مراعيًا دقيقًا للطقوس'»[42]. كان يذهب إلى الكنيس أيام الأعياد الدينية، ويقيم الاحتفالات عادة في بيته.

ومثل هَري تورمان، كان حاييم، مرة أخرى «مسكونًا بنوع من الإحساس القَدَري» يمتَد بجذوره إلى وعيه الذاتي الديني من ناحية وإلى نظرية في التاريخ تم اكتسابها على نحو شخصي خاص من ناحية أخرى. ففي أعقاب العمل المجهد لحشد التأييد لًلانتداب في (1922 م) احتفل بإنجازه قائلاً:

> **حين أنظر إلى المجتمع اليهودي.. في جميع البلدان الأورُبّية، حين أتذكر التدمير في الشرق، يتجمد قلبي، وأصل إلى استنتاج يقول: ما من أحد غير المختارين الذين استمدوا قوتهم الأخلاقية والمعنوية كلها من المصدر اليهودي الوحيد، ما من أحد إلا هؤلاء مهيّأ ومؤهل للاضطلاع بمهمة حمل عبء العمل من أجل الآخرين، ولا بد لهم من أن يحققوا النجاح في إحياء العظام الجافة. [انظر سفر حزقيال 37]. ومن ثَمَّ فليس ثمة ما يدعونا إلى الشكوى من قدرنا، قد يكون صعبًا، ولكنه جميل[43].**

وفي مكان آخر من مذكراته نقرأ ما يلي: «إنهم [يعني منافسيه في الحركة الصِهْيَوْنيَّة] سيفنون من دوني، لحظة أدير ظهري.. سوف ينهار كل شيء.. أنا أعلَم استحالة وجود رجل آخر في العالم قادر على إنجاز شيء من هذا القبيل، أعلم ذلك، مع أنني لا أعاني من جنون العظمة»[44].

تمثلت المشكلة، مع حلول نهاية عام (1946 م) بتجريد حاييم وايزمن من قيادته الرسمية الحركة الصِهْيَوْنيَّة، وبأنه راح يبدو أن تقويمه الأناني الخاص لوضع الصِهْيَوْنيَّة العالمية ربما كان صحيحًا، فقد كان كلّ شيء تعرض للانهيار

مع حلول شهر شُبَاط/ فبراير من عام (1948 م). ففي مؤتمر بلِتمور الذي عقد في أيار/ مايو (1942 م) تم التبرؤ من وايزمن ومعه الجيل الذي كان مصرًا على التمسك بأمل التوصل إلى حل متفاوض عليه للمسألة اليهودية. كان المجتمع اليهودي يطالب حينذاك بإعطاء الوكالة اليهودية فرصة التحكم بالهجرة إلى فِلَسْطِيْن، وبالمبادرة إلى «تأسيس فِلَسْطِيْن (كومنولث) يهوديًا نموذجيًا ببنية العالم الديمقراطي الجديد». غير أن وايزمن ووايز، مع اضطرارهما للدّفاع عن هذا البَرْنَامَج الذي تم إقراره بالإجماع، كانا معروفين بأنهما دأبا في إقناع «الأمراء» (تشرتشل وروزفلت وأتلي وبيفن وبيرنز فيما بعد) بإمكانية إرضاء الشعب اليهودي حاليًا بالاهتمام السخي بمشكلة إغاثة اللاجئين.

تبنى المؤتمر الثاني والعشرون للصِهْيَوْنية العالمية، الذي عقد في بازل في كانون الأول (1946 م) بَرْنَامَج بلِتمور. وفي خطاب عاطفي أعاد وايزمن تأكيد ثقته بطريق المفاوضات. وبعيدًا عن الإنصاف، تحدث كما لو كان كل الذين عبروا عن أي قدر من الشك بأولوية طريق التفاوض متورطين في مساعدة الإرهاب وتحريضه. ومما قاله لو زو هادرخ (Lo zu haderech): «ليس هذا هو الطريق». وفي إحدى اللحظات هتف أحدهم قائلاً: «هذا تضليل، هذه غوغائية !». وعلى الفور انقض وايزمن على الملاحظة:

> **ليت لساني كان مكلّلاً باللهب، ليت روحي كانت مدعمة بقوة أنبيائنا العظماء، حين نبهوا وحذروا من طريقي بابل ومصر اللذين كانا على الدوام يقودان اليهود إلى الهلاك والإخفاق.. هيا اذهبوا واقرؤوا أسفار إشعيا وإرميا وحزقيال، واختبروا ما نفعله في ضوء تعاليم أنبيائنا العظماء ورجالنا الحكماء.. سيتم إنقاذ صِهْيَوْن بالحق، وليس بأيّ وسيلة أخرى**[45].

صوّت المؤتمر الصِهْيَوْني (171) مقابل (154) إزاءَ حضور المؤتمر الذي كان البريطانيون يقترحون عقده في لندن. لم تتم تسمية أي رئيس ليحل محل

وايزمن، كما لم يتم انتخابه لعضوية الهيئة التنفيذية للوكالة اليهودية.

وهكذا فإن وايزمن توقف فجأة، مع بداية عام (1947 م) عن أن يكون زعيماً للحركة الصِهْيَوْنِيَّة العالمية. وقد اعتقد القائدان الأمريكيان الجديدان، سِلفَر ونيومَن، أنَ قطار الزمن تجاوز وايزمن، وأنه أخفق في فهم الآلية الحقيقية التي تعمل السياسة بها. ومع ذلك فإن سلوكهما أدى إلى استعداء رئيس جمهورية الولايات المتحدة استعداءً كاملاً. فمنذ حادثة ضرب المكتب في آب (1945 م) لم يكن هَرِي ترومان مستعدًا للاجتماع بالقيادة المنتخبة.

شاطر وايزمن الصهاينة الأمريكان أملهم في أن يبقى فْرَنكلِن روزفلت ثابتًا على فروسيته في مناصرة القضية، أي أنه شكّل تقويماً مبكرًا لتقلب روزفلت. أما الآن فقد شارك الصهاينة الآخرين خيبتهم من ترومان. فبعد الاستماع إلى تقرير ترومان عن اجتماع بوتسدام في مؤتمره الصحفي في السادس عشر من آب (1945 م) قال وايزمن: «تصريح ترومان دجلاً ليس إلا. فهو يأخذ ما يعطيه بيد باليد الأخرى، ومرة أخرى لا أرى هنا شيئًا في انتظارنا غير الخيبة. لن يقدم قط على تعريض امتيازاته النفطية للخطر لأجل اليهود، مع أنه قد يكون بحاجة إليهم حين تدق ساعة الانتخابات. فهو يريد الهجرة ومعها موافقة العرب أيضًا!» (46).

ومع ذلك فإن تقويم وايزمن شخصية هَري ترومان ما لبث أن انقلب رأسًا على عقب جراء لقائه المباشَر الأول مع الأخيرَ بعد أن أصبح رئيسًا للجمهورية. ونظرًا لقصرِ ذلك اللقاء (السابع من كانون الأول/ ديسمبر 1945 م) فإن من السليم القولَ: إنَّ الحدس أدَّى دورًا كبيرًا في تقويم وايزمن شخصية ترومان. فقبل الاجتماع، كان وايزمن قد علم من ديفِد نايلز (David Niles) الذي تأستذ على يده، أن ترومان كان خاضعًا لتأثير جملة من اللقاءات الحديثة مع يهود معادين للصِهْيَوْنية. وعندئذ قرر وايزمن أن يضطلع شخصيًا بمهمة إطلاع ترومان على حقيقة الرؤية الصِهْيَوْنِيَّة للدولة اليهودية، على مدى كونها تحقيقًا

للحلم القديم عبر صيرورتها مكانًا يتيح فرصة تحقيق الإيمان اليهودي عمليًا، مع بقائها في الوقت نفسه «دولة علمانية، قائمة على أسس ديمقراطية سليمة، ذات آليات ومؤسسات سياسية من نمط نظائرها في الولايات المتحدة». وكان تأثر ترومان بالغًا[47].

جرى هذا اللقاء الأولي فيما كان وايزمن يشغل منصب رئيس (المنظمة الصِهْيَوْنيَّة العالمية) الرسمي، ولو بعد أن عانى نفوذُه، بالنسبة إلى القادة الآَخرين، التدهورَ الحاد الذي أعقب مؤتمر بلِتمور بزمن طويل. فحين لاذ به القادة الصهاينة في يأس مرة أخرى، في تِشْرين أول (1947 م) لم يكن شاغلاً أي منصب رسمي في (المنظمة الصِهْيَوْنيَّة العالمية) غير أن الرئيس ترومان لم يكن مستعدًا بعدُ لأن يتحدث إلَى أي مسؤول صِهْيَوْني منتخب. وفي هذه المرة نشأت الأزمة المباشَرة عن نوع من تليين الموقف اعتمده الوفد الأمريكي في الأمم المتحدة بشأن حدود دولة اليهود التي ستخرج من رحم التقسيم الذي سيتم اقتراحه في تِشْرين الثاني/ نوفمبر. ونظرًا لأن الرئيس لم يكن مستعدًا لأن يتحدث إلى أيَ كان عدا وايزمن، فقد ابتلعت القيادة كبرياءها، وأوفدته لشرح القضية من أجل ضم النقب إلى الدولة. كان ممثل الوكالة اليهودية الرئيس في الأمم المتحدة، آبا إيبان برفقة وايزمن في اجتماع (التاسع عشر من تِشْرين الثاني/ نوفمبر 1947 م) وقد ترك رواية مفعمة بالحياة لمناشدة وايزمن الرشيقة لانبهار ترومان بالتاريخ والجغرافية. ومن المقابلة اتصل ترومان مباشَرة بالهاتف مع اجتماع ضم موظفي وزارة الخارجية ومسؤولي الوكالة اليهودية كان جاريًا في مقر الأمم المتحدة، مصدرًا توجيهاته القاضية بقلب موقف الولايات المتحدة رأسًا على عقب، يَتَحَتَّم على الحدود أن تشمل النقب[48].

فيما بعد راسله وايزمن قائلاً: «إنها المرة الأولى في حياتي التي أقابل فيها رئيسًا للجمهورية يستطيع أن يقرأ الخرائط ويفهمها»[49]. لم تكن عبقرية وايزمن

الدبلوماسية، كما سبق لنا أن رأينا، قائمة على استخدام التملق، بل على معرفة الموضوع بقدر من العمق يكفي لمعرفة المكان الذي ينبغي استخدامه فيه بدقة.

بعد مقابلته الناجحة الرئيس حول قضية النقب، حافظ وايزمن على اطِّراد العلاقة الدبلوماسية الراسخة من خلال الرسائل، ساعيًا إلى الحصول على مساعدة ترومان في القضية الرئيس المتمثلة بالتصويت على مشروع قرار التقسيم في تِشْرين الثاني/ نوفمبر. وحين جاء موعد إلقائه خطاب أمام الجمعية العموميَة للأمم المتحدة على نحوٍ مباشَر، بادر وايزمن إلى الإفادة من الجاذبية القوية الكامنة باللغة الكتابية علىً نحوٍ جبهي ومفعم بالحياة، انطلاقًا من تعامله الطويل الذي دام عمرًا مع الكثيرً من رجالات الدولة المسيحيين. وقع اختياره النص على سفر إشعيا (11: 11-12):

> **وفي ذلك اليوم يعود الرب فيمد يده لافتداء بقية شعبه.. ويرفع الرب راية في الأمم ليجمع حولها المنفيين من بني إسرائيل والمشتتين من بيت يهوذا في أطراف الأرض الأربعة**[50].

وقد اقتنع الكثير ممن كانوا قريبين جدًا من المشهد بأن هذه المناشدة أحدثت تغييرًا حاسمًا.

كانت أكثرية ثلثي الأصوات مطلوبة. وفي التاسع والعشرين من تِشْرين الثاني/ نوفمبر (1947 م) صوتت الجمعية العمومية للأمم المتحدة لمصلَحة التقسيم بأكثرية (33) مقابل (13) صوتًا. والدول الإسلامية الإحدى عشرة جميعها كانت بين المعارضين للقرار. أما بريطانيا فقد امتنعت عن التصويت.

9.2.4) انحرافًا عن المسار: عواقب قرار التقسيم

منذ تِشْرين الثاني/ نوفمبر (1947 م) حين أدَّى الوفد الأمريكي في الأمم المتحدة دوره في كسب تأييد الجمعية العمومية للتقسيم، سارت الأمور سيرًا

سيئًا بالنسبة إلى اليهود. لم يكن الجمهور الأمريكي معدًا إعدادًا جيدًا لما كان متوقعًا حدوثه. فمعظم من كانوا يهتمون، اهتمامًا ليسَ غيرُ، بالقضية بدوا مقتنعين بأن العرب سيقومون بطحن أسنانهم، ولكنهم لن يلبثوا أن يلتحقوا بركب الرأي العام العالمي، أي بأن الجزء البطولي من القصة قد انتهى. قليلون فقط أدركوا أن الدول العربية كانت معارضة إلى الأبد فكرة السماح بقيام دولة اليهود لدى انتهاء الانتداب البريطاني في أيار/ مايو (1948 م). قليلون، من ثَمَّ، كانوا مستعدين لمواجهة أعمال العنف المنبثقة من سعي العرب لمنع القيادة اليهودية من ممارسة وظيفتها، أو أعمال العنف الناجمة عن الرد اليهودي. قليلون كانوا، في تِشْرين الثاني/ نوفمبر (1947 م) قد تفهموا أن بريطانيا كانت عازمة على رفض التعاون مع قادة الدولة المنشودة، وعلى تملق واسترضاء قادة الدول العربية الحالية وسكان فِلَسْطِيْن العرب المؤكد انتصارهم في الصراع اللامتكافئ القادم.

في ضوء هذا كله عادت الأكثرية في وزارتي الخارجية والحربية، وهي معارضة لتأييد أمريكا لقيام دولة اليهود، وكان هذا الفريق يضم وزير الخارجية جورج مارشال (George Marshall) ووزير الدفاع جيمس فورستال (James Forrestall) جنبًا إلى جنب مع كل من نائب وزير الخارجية روبرت لِفت (Lovett Robert) ومساعد الوزير لشؤون الأمم المتحدة دين رَسْك (Rusk Dean) مدير مكتب الشرق الأدنى في وزارة الخارجية لوي هندرسون (Henderson Loy) ومعظم أولئك المكلفين بمهمات وظيفية في الأمم المتحدة. عادت هذه الأكثرية الآن إلى استئناف حملتها للحيلولة دون ظهور دولة اليهود الفعلي إلى حيز الوجود. وقد نجح هؤلاء في إقناع الرئيس بتمكين سفير الولايات المتحدة في الأمم المتحدة، وَرن أُستن (Warren Austin) من الاحتفاظ ببيان جاهز سلفًا، ليتم تقديمه «عند الضرورة وحسب الحاجة»، يقول إن الولايات المتحدة تؤيد الآن خلق وصاية الأمم المتحدة على كل

فِلَسْطِيْن، تستمر نافذة لمدة عشر سنوات. أما المسوّغ المنطقي لتكون «الحاجة قد دعت» فقد تمثل بأن الضخامة غير المتوقعة للمعارضة العربية أظهرت الحاجة إلى المزيد من الوقت لدراسة المشكلات وتفصيلها، ومن ثَمَّ إلى تأجيل التقسيم المقرر حدوثه في أيار/ مايو (1948 م) من أجل توفير إمكانية التفاوض بشأن حل أكثر اتصافًا بالعدل، حل تتوافر له آفاق أفضل للنجاح على المدى الطويل.

بالنسبة إلى الصهاينة كان واضحًا أن ليس ثمة أي مجال للمفاوضات مع العرب، وأن من شأن ذلك أن تكتشفه الأمم المتحدة مرة بعد أخرى طوال أيّ فترة وصاية، كان لا بد للأمم المتحدة من أن تعود، آخر المطاف، إلى الجمعية العمومية مع حصيلة مختلفة عن المرة السابقة، لا دولة يهودية.

كانت دوافع مهندسي هذا الاقتراح متباينة. يبدو أن الوزير مارشال كان صادقًا في اقتناعه بأن من شأن السماح لليهود بالسير قدمًا أن يعني تشجيعهم على الانتحار الجماعي. واعتقد آخرون أن الدول العربية، سواء أمات اليهود جماعيًا أم لم يفعلوا، لن تغفر للأمريكيين والأورُبّيين سماحهم بظهور دولة اليهود إلى حيز الوجود، إنها ستمنع نفطها عنهم، وستعيد تحالفاتها على الصعيدين السياسي والدبلوماسي لتقف في صف الاتحاد السوفيتي. يمكن القول بثقة: إن أحدًا من أنصار خطة الوصاية لم يكن يتوقع جديًا أن من شأن دولة يهودية ذات سيادة أن تظهر على الخريطة بعد انقضاء فترة الوصاية.

ثمة قصص بالغة الإثارة ظهرت على صفحات الجرائد في شهري آذار/ مارس ونَيْسَان/ أبريل من عام (1948 م) عن أن صانعي القرار السياسي الأمريكي باتوا متجهين نحو «حل الوصاية». وهناك سبب وجيه يدعو إلى الاعتقاد أن ترومان كان، في بداية آذار/ مارس (1948 م) لا شعوريًا على الأقل، عاكفًا على التفكير بنوع من التراجع عن التقسيم، أو أنه كان جزئيًا على الأقل راغبًا في الاقتناع بجدوى فكرة الوصاية. قام أصدقاء الصهاينة

في الإدارة، ولا سيَّما دِفِد نايلز وكلارك كلفرد، وكلاهما مسؤولان عن إبقاء ترومان قادرًا على الفوز في انتخاب (1948 م) بتنبيه الرسميين الصهاينة.

ولكن ما أهمية تنبيه هؤلاء الرسميين، حين لم يكن أحد منهم قادرًا على دخول البيت الأبيض ؟

كان ترومان قد أصبح بعيدًا كليًا عن القيادة الصِهْيَوْنيَّة جراء حملة متطرفة الوقاحة تمخضت عن أطنان من الرسائل والبرقيات المنهمرة على البيت الأبيض. وفي وقت مبكر جدًا من العملية كان شخص معين قد تمكن حقًّا من إقناع والدة ترومان بأن تكتب له عن القضية الفَلَسْطِيْنية، وهذا ما اضطُرّه لأن يرد عليها بفظاظة غير مألوفة: «لا تدعي أحدًا يحدثك في السياسة الخارجية!»[51] كان بوسع أي شخص سبق له أن تمكن من روز شخصية ترومان على نحو واقعي أن يرى إمكانيات التدمير الذاتي الكامنة في مثل هذا المسعى. ومعَ ذلك فإن الحقيقة المؤلمة هي أن بعض القادة الصهاينة بدوا مرتاحين إلى رفض ترومان لهم. فقد قال الحاخام سِلفَر الذي كان يأمل، بل ويتوقع مثل الآخرين جميعًا، أن ترومان سيُهزَم في تِشْرين الثاني/ نوفمبر، والذي كان أصدقاؤه السياسيون من الجمهوريين: «مَن الواضح أننا بتنا متسللين إلى ما تحت جلودهم! ما يقوله ترومان وما يفعله لا يعني شروى نقير»[52]. أما الوجه النقيض لهذا فهو أن دولة اليهود، قبل مجيء الإدارة الجمهورية إلى الحكم، قد تأتي، بالطبع، إلى هذا العالم، وتخرج منه ثانية، إذا تصرفت إدارة ترومان الراهنة خطأً.

كانت الصورة بالغة الوضوح. في كل مناسبة سابقة كان الصهاينة فيها بحاجة إلى تحرك من جانب الرئيس للتغلب على نشاطات معادية للصِهْيَوْنية تقوم بها وزارة الخارجية، كان نوع من التدخل من جانب وايزمن هو الذي يقلب اللعبة. والآن، بعد نشوة تِشْرين الثاني/ نوفمبر (1947 م) العارمة، جاءت لحظة مأزومة أخرى من النمط نفسه. بادرت الوكالة اليهودية

في نيويورك إلى إرسال دعوة عاجلة إلى حاييم وايزمن في إنغلترا طالبة منه أن يأتي إلى الولايات المتحدة ويؤدِّيَ الدور الذي لا يستطيع أحد غيره أن يؤدِّيَه في مثل هذا الوقت العصيب. لقد كان ذلك اعترافًا مؤلمًا بأن «سياستهم الجماهيرية» أخفقت. فما كان من وايزمن إلا أن قال لزوجه: «لقد غادرنا نيويورك توًّا، والآن يريدنا البلهاء أن نعود إليها من جديد»[53]. وقد عاد حقًّا، بالطبع، ولكنه ما لبث أن أصيب بالحمى التي كلفته عددًا من الأيام الثمينة الإضافية. وبعد ذلك، في العاشر من شُبَاط/ فبراير، أرَسِل وايزمن خطابًا إلى الرئيس، يناشده فيه أن يخصص له «بضع لحظات من وقتك الثمين» في سبيل الحيلولة دون وقوع «كارثة لا بالنسبة إلى شعبي فقط، بل وبالنسبة إلى فِلَسْطِيْن والأمم المتحدة»[54]. ومما أثار الرعب لدى الجميع أن ترومان كان، على ما بدا، متمسكًا بوعده لنفسه. كان حاييم وايزمن مشمولاً هذه المرة بقرار الحظر العام. لم يكمن الأمر في أن ترومان غير رأيه في حاييم وايزمن، بل في أنه «سمع القصة كلها من قبلُ» حسب تعبيره. لا مكان للمزيد من الدعايات الصِهْيَوْنيَّة بصرف النظر عن المصدر.

وعند هذه النقطة يبدو أن عددًا غير قليل من الناس فكروا على الفور بأن القوة الوحيدة التي يمكن تصور قدرتها على فتح باب البيت الأبيض أمام رسالتهم مرة أخرى قد تكون متمثلة بالوزن المشترك والإجمالي لكل من حاييم وايزمن وإدي جاكبسن (Eddie Jacobson).

4 . 3) صداقة ذات شأن

للرئيس ترومان نفسه صديق أو اثنان من اليهود غير المهمين ولكن الحميميين (لورد هاليفاكس، السفير البريطاني في الولايات المتحدة، الأول من تموز/ يوليو 1945 م).

ما من صداقة بين مسيحي ويهودي كانت أكثر أهمية منها بالتأكيد (Editor، American Jewish Archives، April 1968).

4 . 3 . 1) إدي جاكبسن (1891-1955 م)

كان إدوَرد جاكبسن المولود عام (1891 م) في ليفنورث بولاية كنساس، أحد الأولاد الستة لديفِد وسارة جاكبسن اللذين يتحدث ولدهما عنهما بصفتهما «اثنين من ضحايا الظلم الروسي» هربا إلى الولايات المتحدة حيث أصبح ديفِد «إسكافيًا فقيرًا»[1]. وزُهَاء عام (1906 م) انتقلت العائلة إلى مدينة كنساس بولاية ميسوري. وبرغبة منه، على ما يبدو، ترك إيدي المدرسة

(تسرّب من المدرسة حسب لغة العصر) وهو في الخامسة عشرة من عمره وراح يعمل صانعًا عند بائع خردوات. تعرف في تلك الأثناء مصادفة على هَري ترومان الذي كان في الحادية والعشرين من العمر ويعمل في (يونيون ناشِيونال بانك / The Union National Bank).

ما لبثت حياتا الرجلين أن ارتبطتا في عام (1917 م) حين التحق إدي بالجيش، وما لبث أن أصبح رقيب تموين في مدفعية الميدان المئة والتاسعة والعشرين، الملحقة فيما بعد بالفرقة الخامسة والثلاثين، تحت إمرة الملازم الأول من المرتبة الأولى، والنقيب لاحقًا، هَري ترومان. أصبحا شريكين في إدارة ندوة بطاريتهما التعاونية. وحقق المشروع نجاحًا مذهلاً. استنادًا إلى قوة تطابق شخصيتيهما الواضح ومواهبهما المكملة لبعضها بعضًا، قررا أن يخوضا غمار العمل والتجارة معًا بعد الهدنة. يؤكد معظم كتاب السيرة أن ترومان لم يعتزم للحظة واحدة أن يؤول إلى بائع خردوات، ولم يكن قد تخلى عن الطموحات الأكبر المتمثلة بالقانون أو السياسة أو الاثنين معًا. ومهما يكن فإن العمل التجاري ما لبث أن أخفق، بعد ما لا يزيد على العامين إلا بأيام قليلة، بصفته أحد ضحايا كساد عام (1921– 1922 م). ومما ينطوي على معنى، أن تجربة هذا الإخفاق المشترك أدت، على ما يبدو، إلى تعزيز روابط الثقة بين الشريكين اللذين بقيا صديقين حميمين وودودين بعد ذلك. رفض ترومان قبول الحماية بموجب قوانين الإفلاس من نصيبه من القرض، وما لبث أن سدد لجميع الدائنين. أما جاكبسن فقد سَلَخَ الجزء الأكبر من السنوات العشرين ونيف على الطريق بائعًا جوَّالاً، قبل أن يستعيد ما يكفي من الاعتمادات للعودة ثانية إلى تجارة الخردوات.

كان هَري ترومان يعتقد أنه يمتلك المؤهّلات اللازمة لرجل أعمال ناجح. بل تَباهى في الحقيقة مرّة، خطيًا، في رسالة خطها لخطيبته بس، «قدرتي اليهودية». وفي حين كان في معسكر التدريب في عام (1917 م) كتب يقول:

«لدي يهودي مسؤول عن الندوة، اسمه جاكبسن وهو بارع جدًا. كذلك يدير محلّ الخردوات يهودي اسمه مورِس سترنز (Morris Stearns)». وفيما بعد، وهو في الطريق إلى الجبهة، كتب رسالة إلى البيت عن يوم خائب جرى قضاؤه في مدينة نيويورك المبالغ بها كثيرًا: «ليتني استطعت أن أبقى في كنساس بدلاً من مدينة اليهود (Kike) هذه»[2].

عثر كُتّاب السيرة على الكثير من مثل هذه الملاحظات النمطية العنصرية في مراسلات ترومان الشخصية. لعل أسوأها هو ما تم اقتطاعه من رسالة موجهة إلى بس في الثاني والعشرين من حَزِيْرَان/ يونيو (1911 م):

يقول العم ويل: إنَّ الرّب صنع الرجل الأبيض من الغبار، والزنجي من الطين، ثم قذف الباقي إلى الأعلى، فما لبث أن هبط بصفته صينيًا. إنه يكره الصينيين واليابانيين. وأنا أكرههم كذلك. أظن أن ذلك تحامل عرقي، غير أنني راسخ الاقتناع بأن الزنوج يجب أن يكونوا في إفريقيّة، أبناء العرق الصفر في آسيا، والبيض في أورُبَّة وأمريكا[3].

قد يكون أفضل ما يمكن استخلاصه من هذه المادة المحرجة متمثلاً بالقول: إنَّ هذه لم تكن إلا مواقف مراهق في سن الشباب، تم التعبير عنها في أكثر السياقات خصوصية وسرية.

في آب/ أغسطس (1940 م) كتب لبِس عن صداقة سياسية مزعجة. «إنني مشمئزّ حقًا وساخط على ذلك اليهوديِ اللعين.. فور تمكني من التحرر والإفلات من قبضة ذلك العبري الماكر، سأفعل»، غير أنه يتحدث على الصفحة التالية، حول قضية مختلفة، عن عنصرين اثنين قائلاً: «صبيان يهوديان ظريفان. سأحاول أن أجد لهما عملاً»[4].

أما مايكل كوهين (Michael Cohen) الذي يقدم تحليلاً ساحرًا قائمًا على الشك عمومًا لأشكال تعامل ترومان مع اليهود، ومع الصهاينة، ومع إسرائيل،

فيخمن أن «إدي ما كان قادرًا على أن يتصور ما رآه، وقد أصيب بالصدمة بالتأكيد، حين قرأ بعض التعليقات التي كان شريكه في العمل وصديقه يكتبه في السر عن العنصر اليهودي»[5]. ينبغي أن نشك في هذا. لم يكن هَري ترومان رجلاً مهذبًا، وكذلك إدي جاكبسن. والشاهد المعروف الوحيدَ (باستثناء سكرتير ترومان وصديق عمره، مَت دونللي (Matt Donnelly)) على أي جزء من اللقاءات الكثيرة غير المسجلة بين الرئيس ترومان وهَرِي جاكبسن كان محاميًا من مدينة كنساس يدعى أبراهام غرانوف (Abraham A. Granoff) وقد تذكر بعد سنوات شيئًا شبيهًا بالصدمة والانزعاج اللذين أحس بهما إزاء الطريقة التي كانا يتصرفان بها.

> **لم يطلب إدي، معي أو وحده، أي موعد في أي من الأوقات. كنا نأتي إلى واشنطن بعد التأكد أولاً من أن الرئيس في واشنطن، ونتصل بالبيت الأبيض هاتفيًا.. فنحصل على موعد في غضون بضع ساعات. لا حدود للوقت.. يتم إدخالنا من الباب الخلفي، على سبيل المثال.. لا تقارير.. كل شيء دون تسجيل.. مع استثناء واحد أو استثناءين.. كان ترومان يقول: اجلسا يا ابني الزانية (bastards)! اجلسا !. تلك هي اللغة التي كنا نتكلمها»[6].**

أما مضمون نقاشاتهما وطابعها العام فقد كانا شبيهين بنظيريهما في نقاشات زميلين أو رفيقي سلاح في أي فوج عسكري «وقد كانا حقًّا كذلك»: أسئلة عن أسرة كل منهما للآخر، ذكريات ألاعيب ومطبات دبراهما معًا في اللقاءات والسهرات وما إلى ذلك. من المؤكد أن إدي جاكبسن لم يشك أبدًا أن ترومان كان، حين يكون في صحبة غيره، يستغرق في تبجحاته الميسورية الكاذبة من حين لآخر ويطلق سيلاً من النكات والطرائف عن اليهود.

ولكن، ما الذي كان هَري ترومان يعرفه عن اليهود؟ ربما أشياء كثيرة. فصلاته اليهودية الأولى كانت مع جيرانه، عائلة فاينر، التي كان يحتفل معها (شابّوس

غوي‹ [عيد الحصاد]›[7]. وإضافة إلى إدي، كان في دائرة أصدقاء ترومان بمدينة كنساس، عدد غير قليل من اليهود. وإضافةً إلى أيام عملهما معًا، كان هَرِي ترومان يزور عائلة جاكبسن بانتظام في أيامه الكنساسية، عادة للعب الورق.

خلال أيام ترومان في إندبندنس وكنساس المدينة، لم يعوّل هَري جاكبسن كثيرًا على انتمائه اليهودي. فبعد نشأته على أيدي أبوين متطرفي (الأَرثوذكسية) انزلق من ممارسة إيمانه حتى السنوات الأخيرة من عقد العشرينيات، حيث بدأ يتردد على هيكل الإصلاح (Reform Temple) الذي كانت زوجه تنتمي إليه. وبعد ذلك، أصبح ناشطًا في فعاليات الهيكل وفرق الرجال اليهود، أولاً، وبناي بريت، لاحقًا، بعد الحرب الثانية. لم ينتسب إلى أية منظمة صِهْيَوْنية. وأعضاء هيكله الخاص كانوا ميالين إلى الطرف المعادي للصِهْيَوْنية، كما أن حاخامه كان شديد المعارضة. أما ما أثر فيه أكثر من أي شيء آخر فيما يخص الصِهْيَوْنيَّة فقد كان، على ما يبدو، قدرتها على تمزيق الطوائف «الملل والنحل» إِرْبًا إِرْبًا، وخصوصًا في ذلك الجزء من البلاد. وقد بقي مصرًا بعناد، خلال الأشهر الكثيرة كلها من نشاطه تحت رعاية قادة صهاينة، حتى وفاته في الحقيقة، على أنه لم يكن صِهْيَوْنيًا، بل كان، في دعمه لقضية قيام دولة يهودية بعد الحرب، مدفوعًا كليًا بحرصه الشديد على إيجاد ملجأ ليهود أورُبَّة. أما بعد خلق الدولة، فيصبح من الصعب علينا تعقب منطقه، ولا سيَّما حين نعلم أنه عمل، تلبية لطلب كل من الرئيسين ترومان ووايزمن، بصفته الممثل غير الرسمي الأول للدولة خلال الأسابيع الأولى من وجودها، ناقلاً الرسائل بين الرئيسين.

4 . 3 . 2) صديق الرئيس

كما يقول الحاخام فرانك أدلر (Frank Adler):«إن ارتقاء ترومان غير المتوقع إلى الرئاسة انتشل إدي جاكبسن من الظلمة ورفعه إلى الشهرة العامة

بالقدر نفسه من المفاجأة»[8]. قبل أيام قليلة فقط، كان حقق حلم السنوات العشرين ونيف، عبر افتتاحه محل وست بورت للألبسة الرجالية في المبنى رقم (39) في الشارع الرئيس بمدينة كنساس. ربما كانت تجارته بعد ذلك مدينة إلى درجة ما لاعتقاد الكثيرين أنّ إدي جاكبسن سوف يعمل قناة لإيصال مطالبهم إلى رئيس الجمهورية. إذا كان الأمر كذلك فقد أخطؤوا. فهَري ترومان قد أكد ما يلي بقوة: «خلال سنواتي في واشنطن كلها لم يطلب إليَّ شَيئًا له هو»[9]. أما حاجات الشعب اليهودي في ذلك الوقت فقد كانت مسألة مختلفة تمامًا. ما لبث إدي أن سارع إلى إبلاغ هَري ترومان بوضوح بأنه صاحب حق، انطلاقًا من صداقة قديمة، في التكلم بصراحة ومن أعماق القلب عن هذه القضية وهذا ما جعل هَري أحيانًا يشد على أسنانه قليلاً (يسوي من وضعية حنكه قليلاً) لدى حدوثه، غير أنه لم يفض إلى اختزال استعداده لاستقبال إيدي والترحيب به في واشنطن في أي وقت يشاء عمليًا، في لقاء غير مبرمج وغير مسجل.

غير أنّ من الممكن إظهار أن إدي جاكبسن أدَّى دورًا معينًا في تبصير هَري ترومان بالقيمة السياسية الداخلية لاتخاذ موقف صحيح من القضية الفَلَسْطِيْنية، وهو عامل ذو أهمية متنامية خلال الفترة الممتدة من أواخر خريف عام (1947 م) إلى يوم الانتخاب في عام (1948 م). ففي كانون الأول من عام (1947 م) اشترك جاكبسن وغرانوف في كتابة افتتاحية نشرتها (بناي بريت ناشيونال جويش منثلي B'nai B'rith National Jewish Monthly)، قالا فيها: إن «رئيسنا، رئيس الجمهورية الأمريكية هو الذي كان، أكثر من أي فرد آخر، مسؤولاً عن ثلثي أصوات الأمم المتحدة.. لقد ساهم الرئيس ترومان شخصيًا في الأمر. أشرف على نحو مباشَر على قيام الوفد الأمريكي في فلشنغ ميدو (Flushing Meadow) باستخدام نفوذه للحصول على ثلثي الأصوات». وهو أمر ينكره ترومان مباشَرة في ([مذكرات]). «وفي ظل هذه الظروف، يبرز الرئيس ترومان بصفته أحد أعظم أبطال العدالة. يحتل مكانه

مع مسيحيين نبلاء آخرين تولوا، في عصرنا، قيادة المعركة التي تم الآن كسبها مع كل من اللورد بلفور ولويد جورج ووُدرو ولسن وفْرَنكلِن روزفلت وجيمس مكدنلد وبارتلي كْرَم، وأبطال ورجال سياسة آخرين نجلُّهم»[10]. نعلم أن ترومان كان سعيدًا بالمقال. ثمة من يرى أن شيئًا قاله في لقائه غير المسجل مع جاكبسن وغرانوف في التاسع من كانون الأول، (1947 م) ربما حفزهما إلى السير في هذا الاتجاه. غير أن المقال كان، على أيّ حال، بندًا مبكرًا من بنود المسعى الدعائي النشيط جدًا لأصدقاء الإدارة حصرًا من أجل كسب الأصوات اليهودية في (1948 م).

ومع ذلك، فإن لحظة إدي جاكبسن المؤكدة صانعًا للتاريخ لم تأت حتى آذار/ مارس (1948 م). ففي لحظة من لحظات الزمن وجد نفسه داخلاً في شراكة شبه مستحيلة مع أكثر الشخصيات نفوذًا وهيبة في الصِهْيَوْنيَّة العالمية، مع حاييم وايزمن، وبات عمليًا قادرًا على جذب انتباه الرئيس ترومان، وحاصلاً منه على القرار الذي أنقذ الحلم الصِهْيَوْني.

3 . 3 . 4) حاييم وايزمن يجند صديق الرئيس

لم يغفل القادة الصهاينة عن علاقة جاكبسن لدى غوصهم في ماضي هَري ترومان. فأصدقاء جاكبسن الصهاينة في هيكله بمدينة كنساس وفي بن يهودا كانوا عاكفين على إقناعه لسنوات طويلة دون نجاح. وفي أيار/ مايو (1945 م) بادر ماكس برتن (Max Bretton) صاحب مطعم وزعيم مركز الجالية اليهودية بمدينة كنساس، إلى جلب الدكتور إسرائيل غولدشتاين (Israel Goldstein) رئيس (المنظمة الصِهْيَوْنيَّة الأمريكية) وأحد الحاخامين المحافظين، للقاء جاكبسن، أملاً في جَعل الأخير صِهْيَوْنيًا، في نهاية المطاف عمد بروتون إلى استخدام أقوى الحجج التي خطرت بباله، مقتبسًا من سفر أستير (4: 14): «ومن يدري؟ ربما لمثل هذا الوقت وصلت إلى المُلْكِ؟»[11]. ولكن دون

جدوى. لم يكن صديق الرئيس إيدي مستعدًا لأن يعلن ولاءه للصهْيَوْنية. كان القادة الصهاينة متنبهين على هذه المواقف التي اتخذها الصهاينة العاديون إزاء إدي جاكبسن، غير أنهم لم يحاولوا استغلالها. والسبب هو ببساطة أنهم كانوا مخطئين تمامًا في حكمهم على مصادرهم الخاصة. فكل من ستيفن وايز وأبا هِلل سِلفر وإمانويل نيومَن وآخرين، كانوا جميعًا أصحاب ذوات متورمة، وكانوا بحاجة إلى الكثير من الأشهر حتى يقتنعوا بضرورة الاعتراف أمام أنفسهم، إضافةً إلى الاعتراف أمام الآخرين، بعدم وجود أي أمل في العودة إلى داخل البيت الأبيض. وبعد أن انتهى كل شيء سعى شيوخ الصهاينة جميعًا إلى تقليص دور إدي جاكبسن إلى الحد الأدنى. فحتى اسمه لا يظهر في مذكرات حاييم وايزمن ! وقد حرص لوب (Loeb) ابن أبراهام غرانوف على تقديم خلاصة محكمة للقصة بعد سنوات كثيرة قائلاً: «لو لم يكونوا غارقين تمامًا في اليأس لما أقدم الصهاينة على التنازل وصولاً إلى استخدام أمثال إدي جاكبسن»[12].

نعلم أن ديفِد نايلز راح، مع حلول أوائل عام (1948 م) يمارس تأثيره في الرسميين الصهاينة ويقنعهم بأهمية مكانة إدي جاكبسن المتميزة لدى صديقه رئيس الجمهورية وقدرته على الوصول إليه. وأخيرًا، بعد إخفاق جهودهم الرامية إلى إعادة وايزمن

إلى مكتب رئيس الجمهورية في شُبَاط/ فبراير (1948 م) قام كل من فرانك غولدمن وموريس بيسغير (Maurice Bisgyer) رئيس (بناي بريت) وكاتبها على التوالي، بزيارة إدي جاكبسن بعد منتصف ليلة الحادي والعشرين من شُبَاط/ فبراير ومطالبته بإلحاح بمحادثة الرئيس بخصوص لقاء حاييم وايزمن. وعلى الفور بادر جاكبسن إلى إرسال برقية إلى سكرتير الرئيس:

سأقدر لك كثيرًا إذا ما وضعت الرسالة التالية على مكتب الرئيس حتى يراها فورًا.

سيادة الرئيس أعلم أن لديك أسبابًا ممتازة تدعوك إلى العزوف عن

رؤية حاييم وايزمن. ما من أحد يدرك أكثر مني أنا مدى الضغوط التي تتعرض لها في هذه الأيام العصيبة، غير أن هذا الشخص المحترم، كما سبق لك أن قلت لي ذات مرة، هو أعظم رجل سياسة وأروع قائد لدى شعبي. إنه طاعن في السن، ومكسور القلب لأنه لم يستطع أن يقابلك. السيد الرئيس، لم يسبق لي أن طلبت إليك إلا القليل من الخدمة على امتداد سنوات صداقتنا الطويلة، غير أنني الآن أتوسل إليك أن تقابل الدكتور وايزمن في أقرب وقت ممكن. أستطيع أن أؤكد لك أنني لن أناشدك لمصلحة أي شخص آخر من قادتنا. إذا رغبت في أن أكون حاضرًا فسوف أستقل الطائرة إلى واشنطن فورًا لأكون معكما، أيها السيدين المحترمين، في غضون ساعة واحدة حسب تقديري. أصلّي داعيًا أن تكون قادرًا على مقابلتنا. أرجو أن تبرق[13]!.

ولكن الرئيس الذي كان في إجازة في كي وست بولاية فلوريدا ، صد صديقه قائلاً:

كان بَرْنَامَجي شديد الازدحام فلم أستطع أن أرحب به [وايزمن]. لم يكن ثمة أي شيء يمكنه أن يقوله لي وأنا لا أعرفه مسبقًا.. من الطبيعي أن الصهاينة توقعوا منا اعتماد سياسة العصا الغليظة، وقد خاب أملهم بطبيعة الحال حين أخفقنا في اعتماد مثل تلك السياسة. أكاد أصل إلى استنتاج يقول: إن الوضع غير قابل للحل كما هي حاله الآن.

في إيماءة عناد غير نموذجية، بادر جاكبسن الآن إلى الاتصال هاتفيًا بالبيت الأبيض فور عودة الرئيس وطلب موعدًا. وفي الثالث عشر من آذار/ مارس جرى ما بات يعرف باسم مقابلة آندي جاكسن:

بضعَ دقائقَ تحدثنا عن عائلتينا، عن عملي، الذي كان يهتم به دائمًا اهتمامًا أخويًا، وعن أشياء شخصية أخرى.

ثم طرحت الموضوع الفِلَسْطِيْني. على الفور أصبح متوترًا متجهم الوجه، حاد الكلام وشديد الجفاف في العبارات التي كان يطلقها في

وجهي. في سنوات صداقتنا الطويلة كلها لم يسبق له أن كلمني بهذه الطريقة.

حين قال بحدة: إنه لم يكن راغبًا في مناقشة فِلَسْطِيْن أو اليهود أو العرب أو البريطانيين، وإنه كان راضيًا بأن تسير هذه الأمور وفقًا لمساراتها الخاصة من خلال الأمم المتحدة جعل من شبه المستحيل بالنسبة إلي أن أواصل اللقاء.

وعندئذ رحت أجادله حقًّا وأنا الآن أستغرب كيف تجرأت على فعل ذلك. ذكرته بالمشاعر التي يكنها للدكتور وايزمن، التي كثيرًا ما عبر عنها، بأن الدكتور كان رجلاً كبيرًا في السن ومريضًا وقام برحلته الطويلة إلى الولايات المتحدة لا لشيء إلا لمقابلته، غير أن الرئيس بقي صامدًا غير قابل لأن يتزحزح.

لم أستطع أن أتذكر أيّ حجج أخرى أسوقها للتخفيف من غضبه.. كان رفضه طلبي سحقني، وعلى حين غرة، صدق أو لا تصدق، توقف ناظري عند نموذج جميل لأحد تماثيل آندرو جاكسن ممتطيًا جوادًا، رأيته رؤية عابرة في المرات الكثيرة السابقة التي زرت فيها البيت الأبيض. وفي إحدى اللحظات وجدتني أقول للرئيس ما يلي حرفيًا تقريبًا:

هَري، كنت طوال حياتك مولعًا ببطل. ربما كنت أكثر الناس اطّلاعًا في أمريكا على حياة آندرو جاكسن. أتذكر حين كان لنا مخزننا معًا وكنت أنت دائم القراءة للكتب والجرائد والنشرات عن هذا الأمريكي العظيم. وحين قمت ببناء محكمة جاكسن الإقليمية بمدينة كنساس، وضعت هذا التمثال حصرًا، بالحجم الطبيعي، على المرج الأخضر المنبسط أمام المبنى حيث لا يزال منتصبًا. حسن، يا هَري، أنا أيضًا مولع ببطل، برجل أعتقد أنه أعظم يهودي سبق له أن عاشَ. أنا أيضًا درست ماضيه وأتفق معك أنه، كما سبق لك أن قلت لي أكثر من مرة، رجل محترم وسياسي عظيم في الوقت نفسه. إنني أتحدث عن حاييم وايزمن المهدود بالمرض، الموشك على الانهيار صحيًا، ولكنه قطع آلاف الأميال لا لشيء إلا ليراك ويناشدك ملتمسًا منك الاهتمام بقضية شعبي.

لو لم أكن موقنًا أن من شأن لقائك به أن يمكنك من الاطلاع الصحيح والدقيق على الوضع في فِلَسْطِيْن كما هو، لما جئت إلى هنا، ومع ذلك فإنك ترفض مقابلته.

لحظة انتهائي لاحظت أن الرئيس بدأ يقرع المكتب بأصابعه وحين توقفت عن الكلام، دار بعنف وهو ما يزال على كرسيه الدوّار وبدأ ينظر عبر النافذة إلى ما كانت في الصيف حديقة ورود جميلة، محدقًا من فوق صور أمه وزوجه وابنته مباشَرة. كنت أعرف مغزى هذه الإشارة. علمت أنه كان عاكفًا على تغيير رأيه. لا أذكر كم من الدقائق مرت بصمت، غير أنها بدت كما لو كانت قرونًا من الزمن. وعلى نحو مفاجئ مرة أخرى دار ثانية، واجه مكتبه، ونظر إليّ محدّقًا في عيني وتفوّه بأغلى الكلمات التي سمعتها في حياتي:

لقد ربحت، أيها الأصلع ! يا ابن الزانية ! سوف أقابله[14].

وبعد ذلك مباشَرة نُقل جاكبسن إلى نيويورك (الرابع عشر من آذار/ مارس) للاجتماع بوايزمن والبقاء قريبًا منه إلى أن يصل التأكيد بأن الرئيس كان حقًّا عازمًا على لقائه. ومما قاله وايزمن لمن حوله: «شعبنا ينتظر ويحتضر. أنا أنتظر منذ أسابيع لمقابلة الرئيس ترومان. إذا لم يقابلني فإن رحلتي كلها إلى الولايات المتحدة ومهمتي بمجملها ستكون عبثًا في عبث. كنت على الدوام راسخ الثقة به. لقد تخلى العالم عنا. عليه ألا يتخلى عنا»[15]. وفي الخامس عشر من آذار/ مارس اتصل كاتب الرئيس ناقلاً نبأ أن لقاء، خارج البَرْنَامَج، سيتم في الثامن عشر من آذار/ مارس. ولتجنب تنبيه المراسلين كان يَتَحَتَّم على الدكتور وايزمن أن يأتي دون اصطحاب إدي جاكبسن، وأن يدخل عبر بوابة الشرق.

اجتمع حاييم وايزمن إلى هَري ترومان في السر، يوم الثامن عشر من آذار/ مارس (1948 م). ليس ثمة أيَ محاضر لهذا الاجتماع، غير الوارد في البَرْنَامَج. ليس لدينا سوى خلاصة ترومان الضبابية الغامضة في ‹[مذكرات]› ثلاثة أسطر ليست أقل غموضًا في مذكرات وايزمن، ورسالة وايزمن اللاحقة

تعبيرًا عن الشكر للرئيس، أما مضمون الاجتماع وأهميته فقد لخصهما بيتر غروز قائلاً: «مرة أخرى، فعل التيار غير الاعتيادي من الاحترام والتعاطف المتبادلين الذي أضفى الحياة على لقائهما الأول، فِعْلَه وطغى على حديثهما.. غيّر ترومان رأيه وعاد إلى قناعاته الأصلية»[16].

4 . 3 . 4) تصريح أُستن

بدأ الصهاينة، منذ شهر تِشْرين الثاني/ نوفمبر، كما سبق لنا أن رأينا، يتلقون إشارات تشي باعتزام الإدارة لَلتراجع عن التزام التقسيم. ومع نقاط اتصالهم المفتاحية فإن الصهاينة ربما لم يكونوا يعلمون مدى سوء الوضع على أرض الواقع. فجهاز التخطيط السياسي من جهة ووكالة الاستخبارات المركزية من جهة ثانية كانا ينصحان الرئيس قائلين: إن أيّ دولة يهودية لن تكون قادرة على البقاء، وفي سبيل إنقاذ اليهود لا بد من الحيلولة دون التقسيم.

في التاسع عشر من آذار/ مارس (1948 م) اليوم الذي تلا قيام هَري ترومان بطمأنة حاييم وايزمن في السر أن التزامه بالتقسيم بات الآن راسخًا، قام السفير وَرَن أُستن (Warren Austin) باحتلال عناوين الصفحات الأولى في جرائد العالم عبر الإعلان في الأمم المتحدة أن الولايات المتحدة باتت الآن مقتنعة بأن التقسيم لن يكتب له النجاح «طوال استمرار المقاومة العربية الجارية»، ومن ثَمَّ فقد اقتُرحت إقامةُ وصاية مؤقتة.

بطبيعة الحال أصيب الصهاينة بالصدمة. بادر بن غوريون إلى جَدب الأمر على أنه «استسلامًا». كان ترومان شديد الغضب. كتب في يومياته:

> أرى أن وزارة الخارجية قلبت سياستي الفِلَسْطِيْنية رأسًا على عقب هذا الصباح. الشيء الأول الذي أعرفه عن الموضوع هو ما أراه في الصحف! أليس ذلك جحيمًا مرعبًا؟ أنا الآن في وضع كاذب ومنافق بوجهين. لم يسبق لي أن شعرت بمثل هذه المهانة والوضاعة. ثمة أناس على

المستويين الثالث والرابع في وزارة الخارجية ممن أرادوا على الدوام حز عنقي [قطع رأسي]. لقد نجحوا في ذلك[17].

أما مسألة مدى مسؤولية ترومان الخاصة عن هذه الفضيحة الكارثية فقد درسها بعمق كل الباحثين، ويمكن الدّارسَ المهتم أن يختار من قائمة طويلة من الأحكام. يتفق الجميع على أن ترومان كان، في مرحلة من المراحل، أجاز خط عمل متناقض مع سياسة الإدارة المعلنة، ثم هناك لحظة ذعر عام حين يبدو كما لو كانت سياستان يجري اتباعهما في وقت واحد، وبعد ذلك يتضح أن من الضروري أن يبادر أحدهم إلى النزول عن المنصة ليكشف النقاب عن حقيقة أن رئيس الجمهورية كان منذ البداية واضحًا تمامًا تجاه المسألة. من الواضح أن أُستن كان في الثامن عشر من آذار/ مارس حاصلاً على موافقة وزارة الخارجية على السير قدمًا في ظل ما أُدرك الجميع أنه تفويض مؤقت لإصدار تصريح كالذي نطق به. بعد خطاب أُستن مباشَرة دعا وزير الخارجية إلى مؤتمر صحفي، واصفًا الأمر «بالخط الأكثر حكمة»، ومؤكّدًا أنه أوصى به أمام الرئيس، وأن الأخير وافق عليه، غير أن السجلات تقول أيضًا: إنَّ ترومان أصر في البداية رؤية المُسَوَّدَة الأخيرة لخطاب الوصاية قبل إلقائه الفعلي. ثمة ما يدعو للاعتقاد بأن تجاوز وزارة الخارجية ذلك الالتزام في اللحظة الأخيرة ربما كان متعمدًا.

5 . 3 . 4) بحثًا عن طريق يعيد إلى التقسيم

تزخر أحداث القصة التي جرت بين التاسع عشر من آذار/ مارس والرابع عشر من أيار/ مايو، بقدر كبير من الآلام والإحراجات. على المدى القصير بدا واضحًا أن ما يمكن فقدانه أكثر بكثير مما يمكن كسبه إذا ما بادر ترومان إلى جَدب تصريح أُستن. فمن شأن فائدته كلها أن تتبدد إذا ما بدا معترفًا،

أمام الملأ وفي ضوء النهار، بأنه لم يكن ممسكًا بدفة السياسة الخارجية للدولة. ومن ثَمَّ فقد بدا ضروريًا أن يتم السعي لإظهار عملية صنع القرار على صعيد السياسة الخارجية الأمريكية كما لو كان أكثر تعقيدًا وغموضًا مما هي عن طريق جعل الناس يخمنون الطريقة التي سيتم اعتمادها في سبيل التوفيق بين الاقتراح الجديد من جهة والاقتراح القديم المؤيد للتقسيم من جهة أخرى. وهكذا فقد تلا ترومان، في مؤتمره الصحفي في الخامس والعشرين من آذار/ مارس، نصًا مكتوبًا يقول: «إن موقف الولايات المتحدة تم تعبير السفير أُستن عنه بدقة في الخطاب الذي ألقاه أمام مجلس الأمن».(18) وفي الوقت نفسه قام ترومان بتكليف صامويل روزنمن (Samuel Rosenman) «بالذهاب والبحث عن حاييم وايزمن في كل مكان حتى العثور عليه لإبلاغه بأنني كنت أعني كل كلمة قلتها. وَعَدْتُ بأننا سنتمسك بمواقفنا فيما يخص التقسيم وكنت أعني ما أقول». وقد جرى تكرار الرسالة بعد بضعة أيام. من الجدير بالثناء أن وايزمن بقي وفيًا للصداقة حين رفض أن يرد علنًا على تصريح أُستن، مع إبلاغ المقربين من الصهاينة سرًا بأنه كان موقنًا. فما قاله هاتفيًا لإدي جاكبسن (الثاني والعشرين من آذار/ مارس): «لا تكن محبطًا، ولا تشعر بالأسى. أنا لا أعتقد أن الرئيس ترومان كان يعرف ما كان سيجري في الأمم المتحدة يوم الجمعة حين حدثني يوم الخميس.. أنت مكلف بمهمة يَتَحَتَّم عليك أن تقوم بها، ومن ثَمَّ فإن واجبك يقضي بأن تُبقي باب البيت الأبيض مفتوحًا»(19).

في التاسع من نَيْسَان/ أبريل كتب وايزمن لتدعيم تصميم رئيس الجمهورية: «إن الخيار بالنسبة إلى شعبنا، يا سيادة الرئيس، هو بين الدولة والإبادة. لقد تضافر التاريخ والعناية الإلهية في وضع هذه القضية بين يديك، وأنا موقن بأنك ما زلت قادرًا على حلها بما ينسجم مع روح القانون الأخلاقي»(20). وكان كتب قبل بضعة أيام من نيويورك إلى أوسكار وولفسبرغ (Oscar Wolfsberg) في القدس: «محكوم على أعداء اليوم، مع أعدادهم الكبيرة

ومع غطرستهم ومع الدعم الذي يمكن أن يتوافر لهم من مصادر مختلفة، ومع حقيقة أنهم يجدوننا واقفين وحدنا دونما أي صديق تقريبًا، بأن يخفقوا لأن الرب سيحمي شعبه»[21].

وهكذا فقد تحتَّمَ على الإدارة أن تدافع عن تصريح أُستن. كان السفير البريطاني في الولايات المتحدة، اللورد إنفرتشبل (Inverrchapel) أحد الذين عدوا الأمر، استنادًا إلى المعنى الظاهر لما حدث، انقلابًا نهائيًا للخط السياسي، وقفه رئيس الجمهورية على نحو قاطع يكشف عن اعتماد سياسة واقعية جديدة، أي: نوعًا من التحول في الساعة الأخيرة إلى تبني الفهم البريطاني الساحة الشرق أوسطية، في رسالة وجهها إلى وزارة الخارجية يوم العشرين من آذار/ مارس (1948 م):

> **في ظل هذا الوضع لا يمكن الشك بأن رئيس الجمهورية ووزير الخارجية في الولايات المتحدة شعرا بوجود ما يمنع إعطاء وزن أكبر لوجهات نظر وزير الدفاع ورؤساء الأركان.. في ضوء حقيقة أنّ ديمقراطيين مخلصين باتوا يائسين من إعادة انتخابه، يمكن أن يكون الرئيسُ نفسُه نَفِد صبره مع جميع الضغوط والمحاجِجات الداخلية التي دأبت حتى الآن في العمل إزاءَ تقويم المشكلة الفلَسْطِيْنية انطلاقًا من مميزاتها الخاصة.. في كل الظروف، أظن أن من المناسبَ القول: إنَّ الإدارة باتت تعتمدُ نوعًا جديدًا من استقلالية الحكم فيما يخص هذه القضية حصرًا[22].**

أعلنت بريطانيا، في الوقت نفسه، اعتزامها وضع حدّ لمسؤولياتها الواردة في الانتداب السابق منتصف ليلة الرابع عشر من أيار/ مايو (1948 م) (الساعة السادسة مساء من يوم الرابع عشر من أيار/ مايو حسب توقيت واشنطن). وقبل يومين من ذلك الموعد الحاسم، عقد الرئيس ترومان اجتماعًا استثنائيًا استهدف ظاهريًا استعراض خيارات حكومة الولايات المتحدة في حال إعلان

دولة يهودية. وقد حضر الاجتماع كل من وزير الخارجية مارشال، ونائب وزير الخارجية لِفت وكلارك كلفرد ودِفِد نايلز. عمليًا كان الرئيس يحاول الإصغاء إلى قول أفراد أسرته الرسمية ليرى مدى التأييد الذي يستطيع أن يتوقعه للقرار الذي كان ملتزمًا التزام شرف باتخاذه.

دافع مارشال عن فكرة الاستمرار في تأييد مقترح الوصاية في الأمم المتحدة، مع مطالبة الوكالة اليهودية بإلحاح بالتراجع عن اعتزام إعلان الدولة في الرابع عشر من أيار/ مايو. ثم تحول الرئيس ترومان نحو كلارك كلفرد، الذي كان كلفه قبل بضعة أيام بتقديم وجهة نظر الطرف الآخر، ولكن الجنرال مارشال ما لبث، قبل أن يتمكن كلفرد من الانطلاق على نحو صحيح، أن انفجر قائلاً: «كنت أظن أن الدعوة إلى هذا الاجتماع كانت من أجل دراسة قضية مهمة ومعقدة من قضايا السياسة الخارجية. لست أعرف حتى السبب الكامن وراء وجود كلفرد هنا. إنه مستشار شؤون داخلية، ونحن هنا بصدد قضية سياسة خارجية».

جاء رد ترومان حازمًا: «حسنٌ، أيهَا الجنرالُ، إنه هنا لأنني طلبت إليه أنا أن يكون هنا». ولكن ذلك لم يؤد، لدهشة الجميع، إلى إسكات الجنرال: «ليس ثمة أيّ علاقة لهذه الحسابات بالقضية. أخشى أن يكون السبب الوحيد الكامن وراء وجود كلفرد هنا هو أنه يقحم حسابًا سياسيًا ذا علاقة بهذه المسألة. لا أعتقد أن السياسة يجب أن تضطلع بأي دور في هذا».

التحق لِفت بالركب قائلاً: «من الواضح أنها مرتبة ومصممة بما يفضي إلى كسب أصوات اليهود».

لم تكن تلك نقطة الحضيض على أيّ حال. فتلك النقطة ما لبثت أن جاءت بعد قليل حين تدخل مارشال قائلاً: «إذا اتبعت نصيحة كلفرد، وإذا كنت أنا سأدلي بصوتي في الانتخاب، فإنني سأصوت إزاءَك».

لاحقًا قام ترومان، سرًا، بامتداح كلفرد على مداخلته ولكنه أبلغه أيضًا ما كان منطويًا على الشؤم إذ قال: «لا أستطيع أن أخسر الجنرال مارشال».[23]

في الثامن من أيار/ مايو تكلّم مارشال بصراحة مع موشي شاريت (Moshe Sharret) من الوكالة اليهودية عن «الصعوبات التي واجهوها مع الصهاينة الأمريكيين». وبدا مهدِّدًا حين قال: قد يأتي الوقت الذي يبادر فيه الجميع إلى الكلام العلني «عن الضغط السياسي كله وعن التهديد وعن التأكيدات المضللة.. إلخ التي كانت تتم على قدم وساق». لقد حذرهم، انطلاقًا من تجربته الفريدة التي لا تضاهى في مجال الوقائع العسكرية: «صدقوني، أنا أتحدث عن أمور أعرفها.. كيف يمكنكم أن تأملوا في أن تصمدوا؟» وبعد ذلك أوعز بفظاظة إلى شاريت في أن يذهب وينصح الوكالة اليهودية بالامتناع عن إعلان الدولة في الرابع عشر من أيار/ مايو. وفي حينَ كان شاريت يغادر المكان فاجأه وايزمن ومعه رسالة ثانية من روزنمن تقول: إنَّ ترومان مستعد لتأييد التقسيم لحظة إعلانه. ومما قاله وايزمن: «إياكم أن تضعفوا! لا تسمحوا لهم أن يفسدوا الانتصار. ووجه كلامه إلى بن غوريون والآخرين عبر شاريت: أعلنوا دولة اليهود الآن، وإلا فلن تكون إلى الأبد!»[24].

4 . 3 . 6) ترومان يعترف بدولة إسرائيل في 14 أيار/ مايو (1948 م)

في الثاني عشر من أيار/ مايو بدا واضحًا أن ترومان سيضطر إلى الاختيار بين احترام تعهده لليهود (الذي قدمه عبر حاييم وايزمن) وخسارة وزير خارجيته، مع العواقب المخيفة التي ستتبع كلها، غير أن مارشال ما لبث، في الساعات القليلة الأخيرة قبل الاضطرار لاتخاذ قرار الاعتراف وإعلانه، أن أبلغ رئيس الجمهورية تأكيده عزوفه عن الإعلان للملأ معارضته القرار، واستعداده لأداء السياسة، وضمان تنفيذها على المستويات كافة. غير أننا نعلم

أنه كان صادقًا في إيمانه بأن استقالات جماعية قد تحصل في وزارة الخارجية، وقد يبقى، وهو القبطان المخلص، دون طاقم، لدى إعلان قرار الاعتراف. قال كلفرد للرئيس في إحدى المناسبات: إن ولاء مارشال قد تم ضمانه، واستدعى إلياهو إيلات، من الوكالة اليهودية، ليقول: «من الأفضل لك أن توجه رسالة لنا تطلب إلينا فيها تأييد التقسيم»[25].

وهكذا خرجت رسالة من البيت الأبيض إلى وسائل الإعلام في الدقيقة الحادية عشرة بعد الساعة العاشرة صباحًا، بتوقيت واشنطن، في الرابع عشر من أيار/ مايو:

> **تم إبلاغ حكومتنا أن دولة يهودية قد جرى إعلانها في فِلَسْطِيْن، وقد طلبت حكومة تلك الدولة المؤقتة الاعتراف بها.**
>
> **تعترف الولايات المتحدة بالحكومة المؤقتة وبالسلطة الفعلية لدولة إسرائيل الجديدة.**

أما إعلان ترومان الاعتراف فلم يبَلَّغ مسبقًا للوفد في الأمم المتحدة. فحين قام دين رَسْك بكشفِ النقاب أمام السفير عن نبأ الإعلان الصادر عن البيت الأبيض، بادر وارن أُستن ببساطة «غير مصدق و كان غضبه مخيفًا» إلى وضع قبعته على رأسه وذهب إلى البيت[26].

7.3.4) بعد : « أنا قورُش !»

في سنوات تقاعده أصر ترومان مرة بعد أخرى أنَّ اللحظات الأشد إثارة للحنق والغيظ في رئاسته كانت التي اضطُرّ فيها أن يقاوم مثابرة الصهاينة وإصرارهم العنيد. وقال: إنهم كانوا الوحيدين الذي وقفوا أمامه وتحدثوا إليه كما لو أن قضيتهم كانت القضية الوحيدة في العالم، وكما لو أن شعبهم كان الوحيد الذي عانى، وكما لو أن تلك المعاناة قد أعطتهم الحق في أن يتكلموا معه وكأن مكتب رئيس جمهورية الولايات المتحدة لم يكن يعني شيئًا بالنسبة إليهم.

ما من زوار آخرين سبق لهم أن ضربوا مكتبه بقوة.

ومع ذلك فإن ترومان بادر، متقاعدًا، إلى النظر إلى الوراء، إلى دوره في التمهيد لإقامة دولة إسرائيل بصفته أكثر إنجازاته إثارة للفخر. وكان يتذكر من أقرب أصدقائه وأكثرهم ثباتًا أولئك الأفراد الذين أقنعوه بجعل قضية صِهْيَوْن قضية حكومة الولايات المتحدة. ومن بين أكثر ذكرياته إثارة للاعتزاز تلك اللحظات التي وافق فيها على مطلب قيادات الصهاينة بتأييد التقسيم وضم النقب، والاعتراف بدولة إسرائيل، مثيرًا الذعر لدى وزارتي الخارجية والحربية في حكومته، ومما ينطوي على مغزى أنه ظل دائم العزف على أوتار هذه اللحظات ليبين أن على الرئيس أن يفعل ما هو صحيح، حتى ولو كانت نصائح جميع أهل الخبرة في الاتجاه المعاكس، ليبين صحة الشعار الشهير الموضوع على المكتب: (هنا آخر الشوط/ The Buck stops here).

لدى قيام الرئيس السابق بمرافقة الزوار في جولة عبر غرف مكتبة ترومان، كان مولعًا باطلاعهم على لفيفة التوراة وصندوقها اللذين قدمهما إليه رئيس إسرائيل. وبعد ذلك كانت ثمة (قرية ترومان/ Truman Village) التي لم يكن يستطيع التباهي بها حرفيًا، غير أنه كان يستطيع توجيه أصدقائه إليها لدى زيارتهم لإسرائيل. وهذه الهديّة غير العادية حقًا قدّمها السفير الإسرائيلي أبا إيبان إلى الرئيس ترومان في حفل عشاء بواشنطن في شهر أيار/ مايو من عام (1952 م) مع الكلمات التالية:

لا نملك أوسمة ونياشين. قوتنا المادية ضئيلة ومجهدة إلى حد كبير. لسنا أصحاب تقاليد رسميات أو فروسية. غير أن شيئًا واحدًا يبقى ضمن حدود قدرة إسرائيل على العطاء. إنها قادرة على منح هدية الخلود. فأولئك الذين تغدو أسماؤهم مرتبطة بتاريخ إسرائيل لا يتعرضون قط للنسيان. ولذلك فإننا الآن نحفر اسم الرئيس ترومان على خريطة بلدنا. ففي قرية مزارعين قريبة من مطار اللد عند بوابة إسرائيل، نقيم

نُصُبًا تَذْكَاريًا، لا من الصخر الذي لا حياة فيه، بل من الأمل المفعم بالحياة. وهكذا ما إن تستقر عيون الرجال فوق قرية ترومان في إسرائيل حتى يبادروا إلى التوقف عبر أجيالهم المتعاقبة ليتذكروا السلسلة القوية التي نجحت، منتصف القرن العشرين، في تسييج أقوى الديمقراطيات وأصغرها بخيوط غير قابلة للزوال.

يتذكر إيبان ويقول: «لدى نزولي عن المنصة رأيت الرئيس صاحب العزيمة القوية وهو يدفن وجهه في محرمة دون أن يبذل أي جهد للجم عواطفه. وفي اليوم التالي أَرسل لي خطابًا يطلب فيه نص الكلمة: 'لقد بالغت كثيرًا في حديثك القائم على الإطراء عني، حتى أنني تصورت لحظة أنني ميتًا'»[27].

ترك لنا موشيه دِفيس (Moshe Davis) وصفًا لزيارة قام بها هَري ترومان بعد انتهاء رئاسته ببضعة أشهر إلى (معهد اللاهوت اليهودي/ Jewish Theological Seminary) برفقة صديقه إدي جاكبسن. عند الوصول إلى المعهد قام جاكبسن بتقديم هَري ترومان إلى الأستاذ قائلاً:«هذا هو الرجل الذي ساعد على خلق دولة إسرائيل، فقاطعه ترومان مصححًا: 'ما معنى ساعد على خلق؟' أنا قورُش. أنا قورُش»[28].

يبدو أن المناظرة بينه وقورُش أوحى به كبير حاخامات إسرائيل، إسحاق هاليفي هيرزوغ (Isaac Halevi Herzog) لدى قيامه بزيارة البيت الأبيض أوائل عام (1949 م). فقد تابع الحاخام كلامه مؤكدًا:«إن الرب وضعك في رحم أمك حتى تكون الأداة المكلفة بتحقيق بعث إسرائيل من جديد بعد ألفي سنة». ومما قاله أحد شهود العِيَان: «لدى سماع ترومان هذه الكلمات، قام عن كرسيه وتوجه نحو كبير الحاخامات، مشحونًا بقدر كبير من العاطفة، والدموع تترقرق في عينيه، وسأله فيما إذا كانت أفعاله لمصلحة الشعب اليهودي سيتم تفسيرها حقًا على هذا النحو، وعمّا إذا كانت يد كلي القدرة مشاركة في القضية»[29].

وكلمات ترومان هذه «أنا هو قورُش» لم يتم التفوه بها لا على نحو عرضي ولا في سبيل السخرية والهزء. يَتَحَتَّم علينا أن نأخذها بمنتهى الجدية، وحين نفعل فإننا نمتلك مفتاح فهم موالاة ترومان الثابتة والراسخة الصِهْيَوْنيَّة.

كثيرًا ما قام هَرِي ترومان بتقليب اسم «قورُش الأكبر» وهو يكرر أسماء «عظماء التاريخ» والتي كانت عملية تدريب ذهنية يمارسها بانتظام، مثل عازف بيانو يتدرب على السلالم الموسيقية. كان يعلم أن السيرورة الديمقراطية الأمريكية وضعته في المكان المتوقع ظهور قورُش الجديد فيه [المبعوث حيًا]. وإدراكه هذا كله هو الذي يفسر رفضه المستمر التعرض للهزيمة أمام حملات الصهاينة الجدالية العاطفية بل والقاسية في بعض الأحيان، بمقدار ما يفسر هدوءه في مواجهة الحملات الجدالية الصادرة عن اليهود المعادين للصِهْيَوْنية، والتملقات المداهنة للعرب الصادرة عن وزارة الخارجية والاجتهادات العسكرية «الواقعية» الصادرة عن جورج مارشال وجورج كينّن (George Kennan) ووجهات النظر الاقتصادية الجيوسياسية الصادرة عن جيمس فورستال.

كان من شأن التشكيك بأهليته الشخصية لمثل هذا الدور العظيم أن يعني تشكيكًا بأهلية النظام السياسي الأمريكي الذي وضعه في هذا المكان. لم يكن وضع اسمه في أسفل تلك القائمة الطويلة، والطويلة جدًا، لأسماء عظماء الرجال «التي كانت على الدوام تتضمن اسم قورُش» حسب اعتقاده، تصرفًا ينم عن غرور فارغ، بل شرطًا من شروط الإخلاص للدِّيْن المعترف به ولثقته الذاتية بنفسه دارسًا التاريخ.

في ضوء هذا كله، ما كان بوسعه أن يتصرف على نحوٍ مغاير.

ملاحظات المترجم

الإعادة: الإعادة هي الترجمة الصحيحة لكلمة (Restoration) المشتقة من فعل (Restore) الذي لا يأتي لازمًا البتّةَ، فهو متعدّ على الدوام ، ومن ثَمَّ لا يجوز أن يترجم إلى عودة المشتقة من " عاد " اللازم في العربية بل من أعاد المتعدّي . ولذا فإنّ الكلمات الأخرى من الجذر نفسه تأتي في السياق نفسه مثل الإعاديّة ، النزعة الإعاديّة، الإعاديون ، إلخ ..

هداية: فضلت ترجمة (conversion) إلى هداية لأنها تعني في حقيقة الأمر عملية إرشاد متعمدة إلى إحدى العقائد أو المذاهب الدينية أو الفلسفية ، وتكون بنظر الذي يقوم بالعملية هي العقيدة الصحيحة ، ومن ثَمَّ فإنه يقوم بهداية الضالين إلى الطريق الصحيح. (ف . ج)

ميلودراميًا : (Melodramatic)

الصفقة اليهودية (The Jew Deal) : مقابل الصفقة الجديدة مستفيدًا من التطابق الموسيقي بين عبارتي New Deal و Jew Deal.

* المقصود هنا نوع من الصلب ذو النوعية الخاصّة .

الفهارس

ثبت الأعلام

أ

ب

ت

ج

ح

د

ر

ق

ك

ل

م

ن

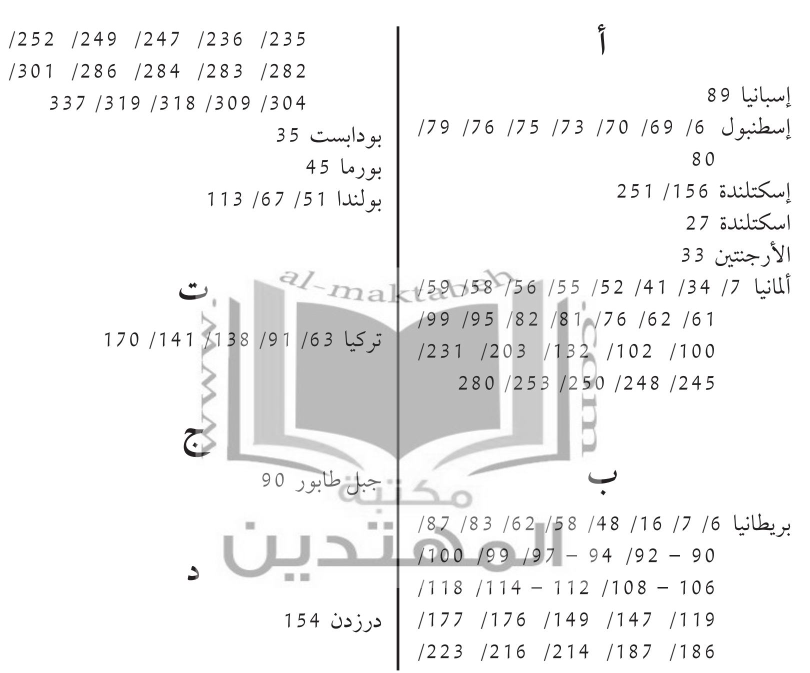
هـ

و

ي

ثبت المؤسسات والجمعيات

ثبت المواقع الجغرافية والدول



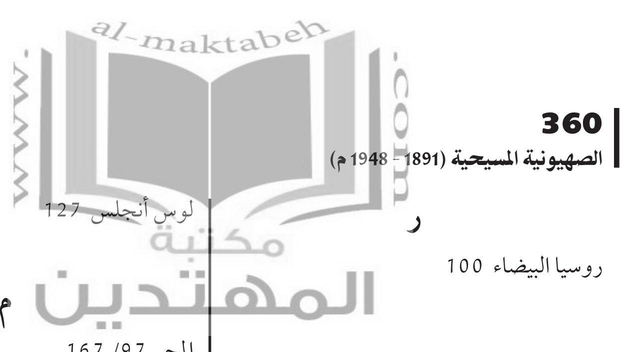
أ

ب

ت

ج

د


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين